جائزة "بوكر" لأفضل رواية مكتوبة بالإنجليزية 2020



مكتبة | سُر مَن قرأ

رواية



دوجلاس ستيوارت

شوجي بين

ترجمة: ميسرة صلاح الدين

سُر من قرأ

شوجي بين

ميسرة صلاح الدين/ شاعر وكاتب مسرحي؛ له إسهامات في النقد وكتابات في الصحافة، كتب العديد من الأغاني لفرق فنية مستقلة، وترجمت بعض قصائده للانجليزية والإيطالية.

شوجي بين
طبعة 2021
رقم الإيـــداع: 5129 /2021
الترقيم الدولي: 978-977-821-192-4

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

The translation of this book was made possible with the help of the Publishing Scotland translation fund

Publishing
Scotland
Foillseachadh Alba



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

دوجلاس ستيوارت

شوجي بين



مكتبة | سُر مَن قرأ

ترجمة

ميسرة صلاح الدين

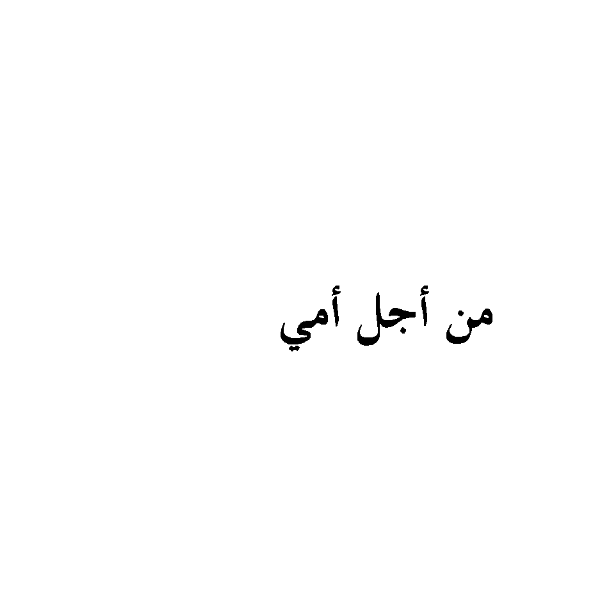


بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

ستيوارت، دوجلاس ، ١٩٧٦- .....
شوجي بين: رواية/ دوجلاس ستيوارت ، ترجمة: ميسرة صلاح الدين
القاهرة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢١
٦٥٤ ص، ٢٢ سم
تدمك ٤-١٩٢-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١ - القصص الانجليزية
أ- صلاح الدين، ميسرة (مترجم)
ب - العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع: ٥١٢٩/ ٢٠٢١



من أجل أمي

1992

الجزء الجنوبي

1981

سايهيل

1982

بيتهيد

1989

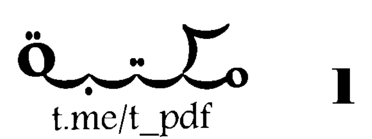
النهاية الشرقية

1992

الجزء الجنوبي

1992

الجزء الجنوبي



1

كان يومًا فاترًا، لدرجة أنه شعر كأن عقله ترك جسده مستلقيًا على الفراشَ وذهب يتجول في الأسفل، تحرك الجسد في الفراغ بشكل روتيني هادئ تحت مصابيح الفلورسنت وهو شاحب وفارغ العينين، طافت روحه في المكان وكأنها لا تفكر في شيء إلا الغد، الغد فقط هو الشيء الوحيد الذي يتطلع إليه.

كان شوجي روتينيًّا جدًّا في ما يتعلق بمناوبة العمل، كان يضع الزيوت والأطعمة عالية الدهن في صوانٍ نظيفة ويمسح أطرافها بعناية حتى لا تتكون عليها بقع بنية تفسد الوهم المتعلق بطزاجة الطعام، وكان يصف شرائح لحم الخنزير بعناية لا تخلو من الزيف، ويزينها بشرائح الزيتون وأغصان البقدونس ويقلبها حتى تنزلق العصارة اللزجة على أطرافها الخضراء.

أصيبت آناماكجني بالتهاب في العنق، لذلك اتصلت في الصباح وطلبت إجازة مرضية مرة أخرى، وتركته وحيدًا ليعد الأطعمة والمشروبات، وهو جهد مضاعف لا يتلقى عليه الثناء.

وقف أمام الشواية وهو يفكر بأن اليوم الذي يبدأ بإعداد ست دجاجات مشوية لن يسير بشكل جيد، وخصوصًا مع أحلام اليقظة التي تشغل تفكيره، بدأ يدفع السيخ المعدني في نهاية كل طائر من الطيور الميتة والمتجمدة، ثم يرصهم بعضهم بجانب بعض، وأجنحتهم

الصغيرة تمتد على شكل تقاطع فوق صدورهم الرطبة، كانوا يبدون كأطفال رضع ولكن مقطوعي الرأس.

ربما في يوم آخر كان سيشعر بالفخر من طريقة الترتيب التي قام بها، في الواقع كان إدخال السيخ في بطن الطيور الوردية المنتفخة الجزء الأسهل من العمل، ولكن الجزء الأصعب هو مقاومة رغبته في فعل نفس الشيء في الزبائن الذين يقفون أمامهم ويدسون أنوفهم لتقترب من الزجاج لفحص جثث الطيور الساخنة حتى يتسنى لهم اختيار أفضلها، متجاهلين أن الطيور واردة بطاريات المزارع تكون متشابهة تمامًا.

يقف شوجي في الداخل بابتسامة مصطنعة مقدرًا حاله التردد التي تصيبهم، بينما أسنانه الداخلية تجز على لحم خده من الداخل، ثم يبدأ في الإيماء بوجهه كالممثلين.

"أعطني ثلاث قطع من الصدور وخمسة أفخاذ وجناحًا واحدًا اليوم يا بني".

يشعر بالغضب، لماذا لم يعد أحد يطلب دجاجة كاملة هذه الأيام؟ كان يصلي من أجل أن يحتفظ بقوته وهو يرفع الجثث بشوكة طويلة الأسنان، ويحذر ألا يلمس جلد الطائر بيده المغطاة بالقفازات، ثم يقوم بتخليص اللحم من الجلد بعناية، باستخدام مقص الطعام، شعر وكأنه يقف كالأحمق أمام لهيب الشواية.

كانت فروة رأسه تتعرق تحت غطاء الرأس، ولم تكن يده قوية بما فيه الكفاية ليقطع ظهر الدجاجة بشفرة غير حادة، أحنى ظهره للخلف قليلًا وحاول أن يخفف الضغط عن معصميه، وحافظ على

ابتسامته طوال الوقت.

لو لازمه سوء الحظ المعتاد فسوف ينزلق الطائر من يده ويقع على الأرض، وعليه وقتها أن يعتذر ويلتقط طائرًا آخر، ويبدأ في العمل مرة أخرى، ثم يلقي ذلك الطائر في المهملات، ولكنه في الحقيقة سوف يستغل الفرصة بمجرد أن تدير السيدة ظهرها، وسوف يلتقط الطائر المتسخ ويعيده مرة أخرى بين إخوته، ولن يهدره في القمامة، إنه يؤمن بالنظافة جيدًا، ولكن سلوكيات ربات المنزل خلال عملية الشراء تجعله يشعر بأنهن يستحققن ما يفعله، فلا يشعر بتأنيب الضمير خصوصًا مع الطريقة التي كن ينظرن بها إليه ويتعاملن بها معه، وقد كانت نظراتهن تزداد ازدراء له عندما كان يطهو السمك، وتفوح من إفرازات جسده روائح غير محببة.

باع شوجي كميات كبيرة من الأطعمة المتسخة لهؤلاء البرجوازيين، إنه يعمل في محلات كيلفيذر منذ عام تقريبًا، لم يكن يخطط أن يظل في هذا المكان طوال تلك الفترة، لكن كان عليه تأمين المال من أجل الطعام والفواتير، وكان هذا المتجر هو المكان الوحيد الذي وفر له وظيفة.

كان السيد كيلفيذر نذلًا بخيلًا، لا مانع لديه من تشغيل أيًا كان في المتجر، طالما لن يحصل على أجر عادل كالبالغين، وشوجي كان مضطرًّا ليقبل بالوظيفة بسبب مواعيد مدرسته التي لا تسمح له بالحصول على مناوبات طويلة في العمل.

كان الشيء الوحيد الذي يحبه هو تصفيف الشعر والعناية به، وقد وعد نفسه منذ أن بلغ السادسة عشرة أن يذهب إلى كلية تصفيف الشعر في جنوب نهر كلايد، وحشد من أجل ذلك جميع مصادر إلهامه من التصميمات التي جمعها من كتالوجات "ليتل وود"[1] والصفحات التي قطعها من المجلات التي تصدر في صباح الأحد، وذهب إلى كارودونالد[2] حتى يلتحق بالدروس المسائية، وأمام محطة الحافلة وقف شوجي بصحبة عدد من الشباب الذين يبلغون من العمر ثمانية عشر عامًا على الأقل، يرتدون ملابس على أحدث صيحات الموضة وأكثرها أناقة، ويتحدثون بثقة مزعجة تخفي وراءها عصبتيهم المفرطة.

توجه الشباب إلى الباب الأمامي، ومشى شوجي وراءهم بنصف سرعتهم، ولكنه عدل عن رأيه في اللحظة الأخيرة وعبر الشارع ليلحق بالحافلة المتجهة إلى الاتجاه المعاكس، وبعد مرور أسبوع واحد التحق بالعمل في كيلفيذر.

أمضى شوجي معظم فترة استراحته الصباحية في فحص علب الفاصولياء المنبعجة، وكذلك ثلاث علب من السلمون الاسكتلندي المتضررة، كانت العلب تحمل ملصقًا يوضح أسعارها بعد الخصم، بسبب تضررها وانبعاجها.

بآخر ما تبقى لديه من نقود حصل عليها كأجر في مقابل عمله، اشترى تلك العلب ووضعها في حقيبته المدرسية القديمة، ثم أعاد الحقيبة مرة أخرى إلى الخزانة ثم أغلقها. عبر الصالة ليصعد إلى غرفة استراحة الموظفين وهو غير مبالٍ بالطاولة التي جلس عليها عدد من

1- سلسلة محلات لبيع الملابس والإكسسوار والمستلزمات الرياضية حظيت بشهرة عالية في إنجلترا وتوسعت لتشمل كل أوروبا في بدايات القرن الماضي. (المترجم)

2- كلية جلاسكوكلايد.(المترجم)

الطلبة الجامعيين الذين يحصلون على وظائف بسيطة في فصل الصيف لشغل وقتهم، ويحيطون أنفسهم بالأوراق ودفاتر الملاحظات لتبدو عليهم الأهمية، وصل إلى المكان الذي كان متجهًا إليه، ثم جلس في زاوية بالركن، بالقرب من الفتيات المسؤولات عن درج النقود وليس معهن.

كن ثلاث فتيات في منتصف العمر من مدينة جلاسكو، إلينا كانت قائدتهن وهي سيدة نحيفة متجهمة الوجه، شعرها ذهبي، ولكنها لا تملك حواجب ومع هذا فهي تملك شاربًا خفيفًا، يشعر شوجي بالانزعاج والظلم عند رؤيتها.

كانت إلينا قاسية وصعبة التعامل حتى بالنسبة إلى سكان جلاسكو، ولكنها كانت تحمل بعض الطيبة والسخاء اللذين يتميز بهما القساة غليظو القلب.

نورا الفتاة الأصغر في ما بينهن، جمعت شعرها ورفعته للخلف وربطته بشريط مطاطي، كانت عيناها تشبه عيون إلينا ضيقة وحادة، هي أم لثلاثة أطفال رغم أنها لا تزال في الثالثة والثلاثين من العمر.

وآخرهن كانت جاكي التي كانت مختلفة عنهن، كانت أكثر شبهًا بالنساء، فهي ثرثارة وعارمة الصدر، لذلك كان شوجي يحبها أكثر من الأخريات. جلس شوجي بالقرب منهن في الوقت المناسب حتى يسمع نهاية قصة جاكي الملحمية.

يعتاد النساء دائمًا الثرثرة بصوت مرتفع، اصطحبت هؤلاء النسوة شوجي معهن مرتين للعب البنغو، كان يجلس في وسطهن، بينما

يحتسين الشراب وينفجرن بالضحك، وكُن يعتبِرنه كصبي لا يؤتمن على الجلوس بمفرده في المنزل، كان يحب تلك اللحظات حيث يُحِطن به وتصطدم لحومهن بجسده وهو محشور بينهن، كان يحب ملمس صدورهن الطرية ويحب الطريقة التي يضايقنه بها رغم أنه كان يحتج في العلن، كن يرفعن شعره بأيديهن ويلعقن أطراف أصابعهن ثم يمسحن بها شفاهه من آثار الطعام. شعر شوجي أنه يقدم لهن شكلًا من أشكال الصحبة الذكورية بالرغم من أنه لم يتجاوز السادسة عشرة إلا ببضعة أشهر. فقد حاولت كل منهن مرة على الأقل من تحت الطاولة أن تمسك قضيبه، كانت كل محاولاتهن في البحث طويلة وعازمة على أن تكون محض مصادفة.

كانت إلينا أكثرهن وقاحة، وكلما انخرطت في الشرب كانت وقاحتها تزيد، في إحدى المرات ظلت تحدق في وجهه وقد أخرجت لسانها وبدأت في التظاهر باللعق، حتى قام شوجي من مكانه شاعرًا بالحرج.

لكنها شعرت بالخجل عندما ألقت نورا قطعتين نقديتين عبرالطاولة إلى جاكي دليلًا على أنها خسرت رهانًا ما، شعرت إلينا كذلك بالأسف، ولكنهن بعد أن تمادين في تناول الكحول قررن أن شوجي لم يرفض عرض إلينا، ولكنه مصاب بشيء ما يمنعه من ذلك فشعرن بالأسف تجاهه.

جلس شوجي في الظلام يستمع للشخير المستمر الذي يخترق جدران مسكنه، كان يحاول -ولكنه يفشل- في تجاهل معاناة الرجال الذين يعيشون من دون عائلة، أدى صقيع الصباح إلى تحول أفخاذه العارية إلى اللون الأزرق، لذلك لف نفسه بمنشفة، وانسحب إلى ركن الفراش، وأسنانه تصطك. قام من مكانه ورتب الأغراض التي أحضرها من المتجر على الطاولة، ثم رتب النقود المتبقية لديه، حسب أولًا درجة

تهالكها ثم حسب قيمتها المادية.

استيقظ الرجل ذو الوجه الوردي في الغرفة المجاورة له، شق طريقه خارج الفراش مصدرًا أصوات صرير مزعج، حك ظهره بصخب، ودعا أن يتمكن من القيام من مكانه، ووطأت قدماه الأرض ككيس ثقيل من اللحم أوقعه الجزار، كان يبدو أن التحرك عبر الغرفة حتى يصل إلى الباب معاناة كبيرة بالنسبة له، عبر في الرواق الفاصل بين حجرات المنزل واستند بيده إلى الباب الخاص بغرفة شوجي، كان يسند بيده على الحائط وكأنه شخص أعمى يتحسس طريقه قبل أن يضع يده الثقيلة. كاد يسقط على الباب الخاص بغرفة شوجي، حبس الصبي أنفاسه ولم يتحرك مرة أخرى حتى سمع الصوت الخافت الصادر من مفتاح الإضاءة في الحمام، بدأ الرجل العجوز في السعال وكأنه يحاول إعادة رئتيه إلى الحياة حاول شوجي ألا يستمع إليه وهو يتبول ويبصق في المرحاض في الوقت نفسه.

تسلل هواء الصباح الذي يشبه لون الشاي الممزوج باللبن عبر الشباك كشبح خبيث، ومشى في أنحاء الحجرة حتى لمس رجله العارية، ظل شوجي صامتًا وثابتًا في مكانه، وأغلق عينيه حتى غمره الضوء بالكامل، كانت هناك حرارة كافية من الضوء المتسلل ولكنه فتح عينيه فوجدهم هناك، كانوا يحدقون فيه مرة أخرى، مئات من العيون المفتوحة الملونة كلهم وحيدون أو منكسرو القلب تمامًا كما كانوا دائمًا، راقصة الباليه الخزفية التي تحيط بها الجراء الصغيرة، فتى المزرعة ذو الوجه الوردي الذي يسحب حصانه الكسول، والفتاة الإسبانية التي ترقص محاطة بالبحارة.

رتب شوجي التماثيل بدقة على حافة النافذة المطلة على الخليج،

وأمضى الساعات الطويلة يستمع إلى قصصهم المتخيلة كقصة الحداد وأطفال الكورال ذوات الوجوه الملائكية. وكانت قصته المفضلة تدور عن صغار القطط العملاقة وهي تبتسم للراعي الكسول وتهدده، لقد كانت تلك التماثيل وحكايتهم تبهج المكان قليلًا.

كان الفراش طويلًا ولكنه ضيق. وضعه شوجي في منتصف الحجرة، وكان يؤلم ظهره بسبب عوارضه الخشبية القاسية، كان المطبخ صغيرًا وبه تمثال صغير لطباخ مبتسم، لم يكن في الحجرة شيء في مكانه الصحيح، الطعام، الملابس، لا شيء.

ولا توجد كذلك علامات على الحياة، حاول شوجي أن يهدئ من أفكاره فقام بتحريك يده على الملاءات غير المطوية.

كانت أمه تكره هذه الملاءات وألوانها الغريبة، ونقوشها غير المتطابقة، كانت تهتم بما سيقوله الناس عندما يرونها، كان غير مهتم بذلك في تلك اللحظة وكأن لا شيء يمكنه أن يؤذي كبرياءه، ولكنه في يوم ما سوف يهتم ويشتري ملاءات جديدة ناعمة وطرية كلها من نفس اللون.

كان محظوظًا في الحصول على تلك الغرفة في منزل السيدة بوخش، كان محظوظًا لأن الرجل العجوز الذي كان يشغلها قبله كان يحب الشراب لدرجة مفرطة أدت إلى سجنه، كانت نافذة الغرفة تطل بفخر على خليج ألبرت درايف[3]، وكان شوجي يظن أن هذه الغرفة كانت في الماضي صالة واسعة بين ثلاث غرف نوم كبيرة في المنزل، قبل أن يتم تقسيمها، وقد بدأ في الظن بذلك بعد أن دخل إلى غرف أخرى في المنزل، فبرغم تحويل السيدة بوخش الغرفة الأصلية لغرفة نوم لكنها تحتفظ

3- مرسى وميناء للسفن ومنطقة مد طبيعي تقع في الجزء الجنوبي من المدينة. (المترجم)

بمربعات الأرضية الأصلية، وما زالت الغرف الثلاث الأخرى تحتفظ بالسجاد المهترئ القديم.

كان الرجل صاحب الوجه الوردي يعيش فيما كان في الماضي غرفة أطفال أو حضانة، لا تزال تحتفظ بطلائها الملون ورسم الأرنب الضاحك الخاص بالأطفال على الحوائط، وعلى جانب الغرفة يوجد فراش وخزانة وأريكة، رآهم شوجي مرة واحدة من خلال نظرة خاطفة عبر الباب المفتوح.

كان سعيد الحظ في الحصول على غرفة في منزل السيدة الباكستانية، فأصحاب البيوت الآخرون لم يريدوا التأجير لأطفال في الخامسة عشرة من عمرهم، إنهم لم يعلنوا ذلك بشكل صريح، ولكنه كان واضحًا من ردود فعلهم ومن نظراتهم لحذائه المدرسي وقميصه المتسخ، كانوا ينظرون إليه ويتفحصونه من الأعلى للأسفل ويظهر في أعينهم أنه من العار أن يعيش فتى في الخامسة عشرة من عمره وحيدًا بلا أم ولا عائلة، كان يخبرهم أنه في الثانية عشرة من العمر ولكن ذلك لم يكن يمثل فارقًا معهم. لم تهتم السيدة بوخش ونظرت إلى حقيبته المدرسية وهو يخرج إيجار الشهر ويدفعه مقدمًا، رغم أن ذلك سيجعله يشعر بالقلق حول قدرته على إطعام نفسه مرة أخرى.

بدأ شوجي في محاولة تزيين الغرفة باستخدام الورق الملون من دفاتره المدرسية حتى تعرف أنه شخص ناضج وموثوق به.

كانت صاحبة المنزل تعيش في الغرفة المقابلة لغرفة شوجي وكانت غرفتها تماثل غرفته تمامًا، ولكنها كانت مفروشة بأثاث فاخر وتحتوي على تدفئة خاصة.

في الغرف الخمس الأخرى للمنزل كانت تحتفظ بخمسة رجال يدفعون ثمانية عشر جنيهًا وخمسين بنسًا بشكل أسبوعي وبصورة نقدية، وكان هناك رجلان غير قادرين على الدفع وتتولى عنهم ذلك هيئة الرعاية الاجتماعية، ولذلك كانت تفرض عليهم الانتظار يوم الجمعة أمام حجرتها حتى تسمح لهم بمواصلة المبيت في الغرف.

كانت تنبعث من غرفتها رائحة الدجاج المشوي وأصوات الأطفال التي تلهو بمرح في القنوات الفضائية، وأصوات نساء بدينات يتجمعن حول طاولة المطبخ في قنوات الطهي.

لم تزعج السيدة شوجي أو تتعرض له مطلقًا إلا عندما تأخرعن دفع الإيجار، وعندها جاءت إلى غرفته وطرقت الباب بعنف بصحبة سيدة باكستينة أخرى مدججة بالسلاح.

وغير ذلك كانت فقط تدخل غرفته من أجل تطهير المدخل الذي لا نوافذ له، أو لمسح الحمام مرة واحدة في كل شهر، حيث كانت ترش مبيضًا حول المرحاض وتضع من وقت لآخر قطعًا من سجادة قديمة حوله لامتصاص بقايا البول..

انحنى شوجي إلى الأمام وألصق أذنه بالباب ليسمع الرجل ذا الوجه الوردي وهو ينتهي من الاغتسال ويصفع باب الحمام من خلفه ويخرج في الردهة في الطريق عائدًا إلى غرفته.

ارتدى الصبي حذاءه المدرسي القديم، ووضع سترته المنفوخة ذات القلنسوة المصنوعة من الفرو والنايلون فوق ملابسه الخاصة بالمنزل، ثم أغلق السترة جيدًا باستخدام السحاب من الاتجاه من أسفل إلى أعلى، ووضع في جيوبه عبوات الطعام التي حصل عليها من كيلفيذر واثنين من أكياس الشاي الرقيقة.

كانت هناك سترة منزلية محشورة أسفل باب حجرة شوجي، وعندما يزيلها يستطيع أن يشم رائحة الرجال الآخرين،

قام شوجي بإخراجها فعرف أن أحد الرجال كان يدخن في المساء، وأن الآخر قد تناول السمك كوجبة عشاء.

فتح شوجي الباب وخرج بسرعة وتسلل في الظلام، السيدة بوخش كانت قد نزعت المصباح الوحيد الذي ينير الردهة متعللة بأن الرجال يتركونه مضاء طوال الليل وهو ما يهدر المال، رائحة الرجال تملأ الردهة كصف من الأشباح الذي يتحرك بلا ضوء يزعجهم ولا هواء يخفف رائحتهم، تفوح رائحة السنوات التي قضوها في التدخين وتناول الأطعمة المقلية مرتفعة السعرات الحرارية، تمضي ليالي الصيف عليهم ونوافذ الحجرات المغلقه تحبس بداخلها روائح العرق المختلطة بالسائل المنوي والحرارة المنبعثة من أجهزة التليفزيونات الأبيض والأسود، وبقايا المعطر المستخدم في ما بعد الحلاقة.

كان شوجي يستطيع أن يفرق بين روائح الرجال في الظلام، يمكنه تمييز رائحة الرجل ذي الوجه الوردي عن طريق المعطر الذي يستخدمه وكريم الشعر، ويستطيع تمييز رائحة المعطف المتعفن للرجل ذي الأسنان الصفراء الذي لا يأكل إلا الأطعمة التي تفوح منها رائحة الزيت المحروق والسمك المقلي، كما يستطيع شوجي في آخر الليل أن يحدد موعد عودة كل رجل إلى المنزل بعد أن تغلق الحانات أبوابها.

كان للحمام المشترك باب زجاجي مزركش، أغلق شوجي الباب ووقف للحظات حتى يطمئن من أن المنزلق أقفل بإحكام ودخل حتى نهايته في ثقب الباب القديم.

اتجه إلى زاوية الحمام وفتح صنبور الماء الساخن فنزلت قطرات

فاترة ثم تنفس الصنبور مرتين ونزلت المياه أشد برودة من نهر كلايد، شعر شوجي بالصدمة من حرارة الماء المنخفضة فوضع أصبعه في فمه ونظر بحزن.

أخرج من معطفه قطعه نقدية تساوي خمسين بنسًا واتجه إلى الموقد ووضعها، فرأى الشعلة تضيء ثم تسربت قطرات من المياه الباردة وتنفس الصنبور مرتين قبل أن ينهمر الماء المغلي ويتصاعد البخار، غمر قطعة من القماش المستخدمة في تنشيف الصحون بالماء واستخدمها في مسح صدره الساخن ورقبته البيضاء وشعر بالسعادة.

فكر في ملء المغطس بالماء والنوم بداخله حتى يغمره الماء تمامًا بعيدًا عن روائح باقي النزلاء، فقد مر وقت طويل منذ أن شعر بالاسترخاء وبالدفء يسري في كل أوصال جسمه في وقت واحد.

رفع ذراعه ومسح بقطعة القماش جسده بادئًا من أطراف أصابعه حتى وصل إلى أعلى كتفه، ثم شد عضلات ساعده ثنائية الرؤوس وأحاطها بأصابعه كالحلقة ولو حاول الضغط عليها بشكل أكبر من ذلك فسوف يمكنه أن يحيطها بيده بالكامل، ولو ضغط بشدة يمكنه أن يشعر بعظام ذراعه. كان شعر إبطه طويلًا وغزيرًا كريش البط. مد أنفه وتشممه، كانت الرائحة جيدة ونظيفة، فرك الجلد وعصره حتى زاد احمرار الجلد الأحمر الناعم، ثم شم أصابعه فلم تكن هناك رائحة ولكنه راح يدعك جسده بقوة أكبر.

بدأ يكرر نتائج وترتيب الفرق في الدوري الاسكتلندي الممتاز:

"جيرس فاز 22، تعادل 14، خسر 8، وإجمالي نقاطه 58. حقق أبردين 17 فوزًا، تعادل 21، خسر 6، وإجمالي نقاطه 55. مذرويل فاز 14، 12 تعادل، خسر 10".

كان شعره المبلل في المرآة أسود كالفحم، وعندما قام بتصفيفه وجد أنه طويل لدرجة أنه يصل إلى ذقنه، لم يجد في مظهره شيئًا ذكوريًا على الإطلاق حتى يشعر بالإعجاب تجاه نفسه، كان شعره أسود ومجعدًا وبشرته بيضاء كاللبن الحليب وعظام وجنتيه بارزة، كان هناك شيء غير صحيح فالرجال لا يملكون ذلك المظهر، قام بدعك جسده مرة أخرى.

"جيرز ربح 22، تعادل 14، خسر 8، 58 نقطة في المجموع. أبردين فاز17، تعادل...".

كان هناك صوت حذاء ثقيل مألوف في الردهة وخطوات ثم توقف الصوت، فتح شوجي الباب الرقيق وانزلق بجسده الرطب داخل المعطف الثقيل الذي يشبه ملابس الجنود.

في البداية عدنما انتقل شوجي إلى منزل السيدة بوخش لم يعره أحد من الموجودين انتباهه. فالرجل ذو الوجه الوردي والرجل ذو الأسنان الصفراء كانا مخمورين لدرجة أنهما لم يلاحظا وجوده أو ربما أصابهما العمى.

ولكن بينما كان الصبي يجلس على طرف الفراش يأكل الزبد على طرف قطعة من الخبز الأبيض، سمع طرقًا رقيقًا على الباب، عندها توقف عن الأكل واستغرق بعض الوقت قبل أن يقرر فتح الباب، وجد أمامه رجلًا طويلًا ذا شعر بني كثيف تفوح منه رائحة الصنوبر، يحمل في يده حقيبة ورقية بها اثنتا عشرة عبوة من البيرة ملفوفة كأجراس كنيسة قديمة، قدم الرجل نفسه إلى الصبي على أنه جوزيف دارلينج، ثم مد يده التي تشبه المخلب إلى الصبي وسلمه عبوات البيرة، حاول الصبي أن يشكر الرجل ويتركه ينصرف بالطريقة التي تعلمها في المدرسة، ولكن شيئًا في ذلك الرجل كان يخيفه فدعاه للدخول.

جلس الاثنان سويًّا في هدوء على طرف الفراش، ونظر شوجي وضيفه عبر النافذة إلى الشارع المقابل، كانت العائلة البروتستانتية التي تسكن في المقابل تتناول طعام العشاء أمام التلفاز، بينما الخادمة تتناول الطعام بمفردها على طاولة قابلة للطي.

كان شوجي ورفيقه يشربان في بطء، بينما يشاهدان العائلة تتحرك بشكل روتيني، ظل السيد دارلينج مرتديًا معطفه الفقير، وجلس شوجي بعيدًا عنه عند طرف الفراش، يتابع بطرف عينه أطراف أصابع الضيف السميكة الصفراء وهي تقرص على نفسها في عصبية..

تناول شوجي رشفة من البيرة بينما كان الرجل يتحدث إليه، كان طعمها حزينًا وغامضًا، أخد يفكر في البيرة المعلبة وكيف تذكره بأشياء يفضل نسيانها.

كان السيد دارلينج يحكي عن نفسه بإسهاب، وشوجي يحاول أن يتحلى بالأدب ويسمعه باهتمام، حكى له كيف كان حارسًا في مدرسة بروتستانتية، وكيف تم ضمها إلى مدرسة كاثوليكية لتوفير أموال المجلس الكنسي.

تعمق السيد دارلينج في الحكاية، فزادت دهشته وهو يصف له كيف أن توافق الكاثوليك والبروتستانت في سلام أدى إلى فقدانه لوظيفته.

"لا أستطيع أن أصدق ما حدث".

ثم أضاف وهو يخاطب نفسه في الغالب:

"في الماضي كانت ديانة الشخص تدل على حقيقته، وكان هذا شيئًا نفخر به، أما الآن فالأطفال يركبون الحافلة المدرسية ويجلسون بالقرب من أطفال الكاثوليك الملاعين، حتى إنه يمكن لأي فتاة أن

تمارس الجنس مع أحدهم بمجرد أن تصل لسن البلوغ، حتى لو كان من الأفضل بالنسبة لها أن تمارس الجنس مع الكلاب".

تظاهر شوجي أنه يتناول رشفة من البيرة بينما كان يترك القطرات التي شربها تنساب بين أسنانه وتعود إلى العبوة مرة أخرى، كانت أعين السيد دارلينج تجوب أنحاء الغرفة في محاولة للبحث عن إشارة ما، ثم أدار نظره ببطء وسأل شوجي:

"لم تخبرني عن المدرسة التي تذهب إليها".

أدرك شوجي المغزى من السؤال، فقال له:

"أنا لا أنتمي إلى أحد، أنا فقط أقصد المدرسة من أجل التعلم".

وكان هذا صحيحًا فشوجي لم يكن من الكاثوليك أو من البروتستانت، وكان يذهب إلى المدرسة فقط عندما تسمح ظروف العمل في المتجر.

"حقًّا، وما هي أهم المواد الدراسية التي تفضلها؟".

هز الصبي كتفه ولم يجب، لم يكن ذلك نابعًا من الحياء فشوجي لم يكن جيدًا في أي من المواد الدراسية، وكان حضوره غير منتظم في أحسن الأحوال، كما أن التعليم صعب ويحتاج إلى متابعة، لذلك كان يذهب إلى المدرسة ويجلس بهدوء في الخلف حتى لا يتخذ المجلس التعليمي إجراءات بشأن غيابه.

انتهى الرجل سريعًا من العبوة الثانية وشرع في تناول العبوة الثالثة. شعر شوجي بحرارة أصابع السيد دارلينج على جانب ساقه، وضع الرجل يده على الفراش، كان أصبعه الذي يحمل خاتمًا ذهبيًّا من الطراز الملكي يلمس جسده، لم يكن يحرك يده أو يمررها على جسده، اكتفى بوضعها في وضع ثابت وتركها في مكانها، فشعر شوجي بحرارة

يده بشكل أكبر.

كان شوجي في الحمام يرتدي معطفه المصنوع من الفرو، بينما كان السيد دارلينج يقف في الخارج رافعًا ياقة معطفه الأصفر بطريقة كلاسيكية وهو يقول:

"ما الذي ترغب في فعله اليوم، ربما يمكننا قضاء بعض الوقت معًا".

"لا أعلم، لدي بعض الأمور لأنجزها".

خيمت سحابة من خيبة الأمل على وجه السيد دارلينج وقال:

"هذا اليوم البائس، لا يصلح لقضاء المهام".

"أعرف ذلك، ولكني وعدت أحد الأصدقاء بمقابلته".

عض السيد دارلينح على أسنانه من الغضب، كان رجلًا طويلًا لدرجة أن شوجي تخيل صفًّا من التلاميذ البروتستانت يتطلعون بخوف إلى ذلك الشبح الطويل الغامض الواقف أمام المدرسة.

أمكنه أن يرى وجه الرجل وقد علته الحمرة وتسرب خيط من العرق على جبهته، كان شوجي متأكدًا من أن الرجل انحنى لينظر إليه عبر ثقب الباب.

"هذا أمر مؤسف، سوف أخرج قليلًا لصرف بعض الأموال ثم أذهب إلى متجر بروز، وبعد أن أنتهي كنت آمل أن نشرب بعض عبوات البيرة ونشاهد إحدى المباريات عبر التلفاز الصغير، ويمكنني أن أعلمك بعض الأشياء عن الدوري الإنجليزي لكرة القدم".

لم بتوقف الرجل عن الانحناء لمشاهدة الفتى، وهو يحرك لسانه داخل حلقه، كان الرجل يملك بضعة جنيهات، ولكنه يستغرق وقتًا

طويلًا لصرف إعانة البطالة متنقلًا بين مكتب البريد ومتجر البقالة حتى يعود إلى المنزل، وشوجي لم يكن يرغب في الانتظار كل ذلك الوقت.

خلع شوجي المعطف، حاول السيد دارلينج التظاهر بعدم النظر إليه، ولكنه لم يستطِع أن يمنع نفسه من التحديق في جسد الصبي الأبيض اليافع، ووقف الرجل يتأمل ملابس الفتى الداخلية الفضفاضة والشعر الخفيف الذي ينمو على ساقيه النحيلة ثم ابتسم.

1981

سايهيل[4]

4- عقار سكني غرب إدنبره. (المترجم)

2

داست أغنيس بين على السجاد الأحمر بأصابعها الصغيرة، ثم خطت للخارج في برد الليل على قدر استطاعتها. قبلت الرياح الباردة رقبتها واندفعت بداخل ثوبها المفتوح، شعرت أنها يد غريبة تهبها الحياة، كادت سيجارتها المشتعلة أن تقع من يديها، وسقطت قطعة من اللهب المشتعل متراقصة إلى الأسفل، ستة عشر دورًا حتى وصلت إلى الفناء الأمامي المظلم.

لقد أرادت أن تظهر في المدينة بذلك الفستان المخملي وأن تشعر بقليل من حسد الغرباء، أرادت أن ترقص مع رجال يضمونها بقوة في فخر وسعادة وأن تعيش الحياة وتطلق العنان لساقيها. استندت بفخذها إلى جدار النافذة، وارتكزت على أصابع قدميها، ومالت بجسدها تجاه أنوار المدينة التي تفوح بالعنبر، امتلأ خداها بالدماء ومدت يدها ناحية الأضواء، للحظة وجيزة كانت تطير ولكن لم يلاحظ أحد المرأة التي تطير.

تحدت نفسها أن تميل إلى الأمام أكثر من ذلك، إنه أمر سهل أن تتظاهر بالطيران، ولن تشعر بعد ذلك إلا بجسدها الذي يتكسر على الأسمنت الصلب، في أرضية الشارع من هذه المسافة الشاهقة في الشقة التي ما زالت تتشارك المعيشة فيها مع والدها ووالدتها اللذين يضغطان عليها في كل شيء.

شعرت أن الغرفة الموجودة خلفها ضيقة وخانقة ومنخفضة السقف. الحياة تمر سريعًا منذ يوم الميلاد وحتى يوم الوداع دون أن يمتلك الشخص أي شيء ملكية حقيقية، بلغت أغنيس من العمر التاسعة والثلاثين، وما زالت تعيش محشورة في شقة والدتها مع زوجها وأطفالها

الثلاثة، الذين يكاد اثنان منهم أن يصلا لسن البلوغ مما يدفعها إلى الشعور بالفشل، وخصوصًا من هذا الزوج الذي ينام في فراشها، ولا يمل من إعطائها الوعود الكاذبة التي لا تتحقق أبدًا، أرادت أغنيس أن تتخلص من كل هذا كقطعة من القمامة أو ورق حائط سيئ تستطيع إزالته عن طريق أظافرها وتقطيعه ببساطه.

ببطء وتراخٍ عادت أغنيس مرة أخرى إلى داخل الحجرة وشعرت بالأمان وهي تخطو فوق السجادة المملوكة لوالدتها، لم تعرها النساء الموجودات اهتمامًا، بينما قامت بتحريك الإبرة الخاصة بالمذياع ورفعت الصوت لأقصى درجة:

"تعالي، إنها فقط رقصة واحدة".

"لا، ليس بعد".

بصقت ناني فلاجان وهي تنظر إلى العملات المعدنية التي ترتبها وقالت

"إني على وشك التخلص من الكثير منكن".

رفعت ريني سويني رأسها وقالت للجميع:

"نفس العقل القذر".

عضت ناني نهاية قطعة من السمك المقلية وقالت:

"حسنًا لا تقولوا إنني لم أحذركن".

امتصت كل اللحم من داخل السمكة، وأكملت قائلة:

"عندما أنتهي من سلب كل أموالكن، سوف تعدن إلى المنزل، وتضطررن لمضاجعة أزواجكن بعد تناولهم حساء العظم لإعطائكن المزيد من المال".

عقدت ريني ذراعيها على شكل صليب، وقالت بكسل:

"محال أن أفعل ذلك، فقد كنت أضاجعه منذ أن انتهى الصوم الكبير، ولا رغبة لي في المزيد".

امتصت ناني قطعة أخرى من لحم السمك الذهبي:

"في إحدى المرات ظللت أضاجعه حتى اشترى لي تلفازًا ملونًا ووضعناه في حجرة النوم".

انفجرت النساء في الضحك دون إزاحة أعينهن عن كروت اللعب، كانت الغرفة مزدحمة وتفوح منها رائحة العرق، راقبت أغنيس أمها السيدة ليزي الصغيرة تخلط أوراق اللعب وترتبها في يدها، وهي محاطة من اليمين بالسيدة ناني فلاجان، ومن اليسار بالسيدة ريني سويني.

كانت النساء متقاربات وأفخاذهن متلاصقة، يتناولن عشاء السمك ويتناقلن العملات المعدنية بأصابع ملوثة بالدهن، وأصغرهن السيدة آن ماري إيستون شديدة التركيز في لف سجائر التبغ على تنورتها، كانت تلك النساء ينفقن مصروفات منازلهن على طاولة القمار حتى يخسرن أو يكسبن عشرة بنسات في دورة اللعب الواحدة.

ملت أغنيس من المشهد وتذكرت عندما كانت فتاة قبل أن يزيد وزنها، وكيف كان الخطاب يتوافدون عليها، والفتيات يغنين ويرقصن ويقدن الرجال في ساحة الرقص الواسعة، تملك أغنيس ابتسامة ساحرة تحتفظ بها من أجل الرجال، تمنح تلك الابتسامة للبواب حتى يسمح للفتيان للدخول بصحبتها، وتتسلل باقي الفتيات ورفاقهن من الرجال من خلفها، لم تكن أسنانها بيضاء على الإطلاق، حتى عندما كانت صغيرة،

فقد أفسدها التدخين والشاي الثقيل الذي تصنعه والدتها، عندما وصلت لسن الخامسة عشرة توسلت إلى ليزي أن تسمح لها بخلعهم وتركيب أسنان صناعية تشبه أسنان إليزابيث تايلور ونجمات السينما.

الآن، وبعد مرور كل تلك الأعوام تجلس جميع النساء في غرفة والدتها، لا يضعن مستحضرات التجميل على الإطلاق ولا وقت لديهن للغناء. يتصارعن على عدة قطع نقدية معدنية وينفخن من الملل.

الفترة التي يلعبن فيها الورق ليلة الجمعة، من المفترض أن تكون استراحة من عناء كي الملابس لناكري الجميل وتسخين معلبات الفاصوليا، تعود ناني دائمًا إلى المنزل منتصرة، باستثناء الفترة التي يصيب الحظ فيها ليزي بسلسلة من الانتصارات ويتم صفعها بعد ذلك.

لم تكن ناني تستطيع أن تتمالك نفسها فهي تشعر بالحماس أمام النقود، ولا تحب أن تخسر، لقد رأت أغنيس أمها تحصل على كدمة سوداء فوق عينها أكثر من عشر مرات.

صاحت ناني في غضب تجاه أغنيس التي كانت تتأمل انعكاسها في النافذة:

"أنت أيتها الفتاة، أيتها الغشاشة".

استجمعت أغنيس شجاعتها الغائبة وملأت صدرها ومعدتها حتى تشعر بقوة زائفة، ولكنها كانت تتمنى أن تملأ معدتها بالفودكا بدلًا من ذلك، قالت ليزي:

"اتركيها وشأنها".

أعادت ناني النظر إلى أوراقها قائلة:

"أعرف ماذا تفعلان، أنتما زوجان من اللصوص القذرين".

قالت ليزي:

"لم أسرق شيئًا في حياتي كلها".

فردت ناني بعصبية:

"ذلك كذب، لقد رأيتك في نهاية الوردية تحشين حقيبتك بلفات ورق تواليت المستشفى، وزجاجات من صابون الحمام، حتى امتلأت كجوال من الشوفان".

سألتها ليزي بغضب:

"هل تعرفين كم سيكلفك هذا الهراء؟".

ردت ناني بغضب مماثل:

"أعلم بالطبع، فأنا أدفع ثمن البقاء بصحبتك طوال الوقت".

كانت أغنيس تدور في أرجاء الحجرة غير قادرة على الاستقرار في موضع، ثم فتحت حقيبة تسوق ورقية وقالت:

"لقد جلبت لكن هدية صغيرة".

توقفت النساء عما يفعلن ونظرن إليها في صمت، حتى ناني التي لم تكن تسمح لأحد بمقاطعتها. وضعت أغنيس صندوقًا صغيرًا أمام كل سيدة وبدأن في فتحه، قالت ليزي في دهشة:

"اشتريت لي حمالة صدر، ماذا سأفعل بحمالة صدر؟".

ردت أغنيس:

"إنها ليست حمالة صدر عادية، إنها تعيد تشكيل الصدر، وتحسنه بشكل رائع".

قالت ريني:"جربيها يا ليزي".

أخذت آن ماري حمالة صدرها من الصندوق وكان من الواضح أنها صغيرة جدًّا "إنها صغيرة جدًّا لا تناسب حجم صدري".

قالت أغنيس:

"لقد بذلت قصارى جهدي لتخمين أحجام صدوركن، وجلبت حمالتين إضافيتين على سبيل الاحتياط".

فتحت أغنيس أزرار فستانها الخلفية فظهرت أكتافها المرمرية، وزاد من جمالها اللون المخملي للفستان المخلوع، ثم فكت حمالة صدرها فتدلى الصدر المصنوع من البورسلين، ثم ارتدت الحمالة الأخرى سريعًا، ورفعت صدرها عدة مرات ليستقر بداخلها.

دارت أغنيس بعينها بين النساء قائلة:

"كان هناك رجل يبيعهن من على ظهر شاحنة في السوق، فاشتريت الخمسة بعشرين جنيهًا. أليست صفقة جيدة؟".

بحثت آن ماري حتى وجدت حمالة صدر مناسبة لها، ولكنها كانت أكثر حياء من أغنيس حيث استدارت وهي تخلع سترتها الصوفية وتبدل حمالة صدرها القديمة، وظهر على صدرها الذي أدارته للجميع علامات حمراء من أثر ثقله على حمالته القديمة، ولم يمضِ الكثير من الوقت حتى ارتدت جميع النساء الحمالات الجديدة، ما عدا ليزي التي جلست عاقدة ذراعيها أمام صدرها تنظر في دهشة، بينما كانت الأخريات يتحسسن صدورهن المتهدلة وحمالاتها الجديدة المصنوعة من الساتان في شغف

وتقدير.

اعترفت ناني قائلة:

"ربما تكون هذه أكثر حمالة صدر مريحة حصلت عليها".

كانت حمالات الصدر ناعمة، ولها رباط فضفاض يرفع الصدر المتدلي عن حافة البطن، ولا يترك علامات على الجسد.

"أصبح صدري يذكرني بأيام الشباب".

قالت أغنيس:

"يا إلهي! أتمنى إن كنا نعرف في الماضي ما نعرفه الآن".

ردت ريني ضاحكة:

"كنت سأترك أي نذل حقير يداعب كل أنحاء جسدي".

أخرجت ناني لسانها باستخفاف:

"هذا قول مخادع، فأنت لم تحافظي على عفتك على الإطلاق".

عاد الجميع لطاولة اللعب وإلقاء العملات المعدنية وصاحت ناني:

"هل يمكنكن التوقف عن التحديق في صدور بعضكن كالمراهقات الحمقى".

وقامت بسحب الأوراق وإعادة توزيعها، بينما باقي النساء لم يقمن بارتداء ملابسهن بالكامل بعد.

حاولت ليزي أن تزيل الغلاف السلوفاني من علبة السجائر الجديدة، بينما كانت باقي النساء قد سئمن من لف التبغ وتبليل الأوراق على طرف ألسنتهن وتدخين السجائر الثقيلة.

قالت ليزي:

"يجب على كل شخص أن يحصل على سجائره بنفسه".

ولكنهن ما كن يتركنها تستمتع بالسجائر المصنعة، ويدعن الأمر يمر في سلام، فاضطرت لتوزيع السجائر عليهن، وجلسن يستمتعن بالتدخين دون أن يضطررن لعناء اللف.

أمالت ناني ظهرها للخلف وصدرها ما زال مكشوفًا تحت الحمالة الجديدة، وأخذت نفسًا عميقًا من السيجارة وحبسته في رئتها ثم أغلقت عينها. أصبح الهواء في الحجرة ساخنًا ورطبًا مرة أخرى بينما يتراقص الدخان المتصاعد مع أوراق الحائط الملونة. كان الهواء المنعش يدخل ويخرج عبر النافذة في الطابق السادس عشر، فيشعر النساء بحدة مروره.

ارتشفت ليزي قليلًا من الشاي الأسود البارد، وبدأت الثرثرة والضحكات تغيب عن جو الغرفة ويحل ملحها شيء آخر لزج وثقيل.

ارتفع صوت جديد:

"ماما إنه لا ينام".

وقفت كاثرين بنظرة سخط تملأ وجهها على مدخل غرفة المعيشة، وهي تحمل شقيقها الأصغر على فخذها، كان أكبر من أن يتم حمله هكذا، ولكن شوجي تشبث بها بقوة، ومن الواضح أنه يشعر براحة عظيمة في هذا الوضع.

تقف كاثرين عابسة حزينة الملامح وعلى صدرها ومعصمها آثار حمراء وهي تقول:

"رجاء، لا يمكنني التحمل بعد الآن".

ركض شوجي في اتجاه أمه، فالتقطته أغنيس وعلا صوت فرقعة ناتج عن بيجامته المصنوعة من النايلون، وهي تدور به في أرجاء الحجرة.

وجدت أغنيس أخيرًا من يرقص معها.

تجاهلت كاثرين حقيقة أن النساء يجلسن نصف عاريات بحمالات الصدر الجديدة، واتجهت نحو صينية العشاء وفتشت في السمك واختارت القطع الصغيرة المبالغ في تحميرها لأنها شديدة القرمشة وقليلة العصارة.

مسحت ليزي بيدها على وركي كاثرين، كل تفاصيل جسم حفيدتها صغيرة وغير أنثوية، فبرغم بلوغ كاثرين من العمر سبعة عشر عامًا إلا أنها طويلة ونحيفة وذات شعر مجعد، وجسد خالٍ من الانحناءات، وتبدو ساقاها مخيبة للآمال عندما ترتدي تنورة.

اعتادت ليزي أن تمرر يدها على فخذ حفيدتها وكأنها تنتظر أن تفجر تلك اللمسات الأنوثة في جسدها على نحو مفاجئ. بحركة روتينية دفعت كاثرين يد ليزي بعيدًا عنها.

فقالت:

"أخبري الجميع عن الوظيفة الرائعة التي حصلتِ عليها في المدينة".

لم تتوقف ليزي عن الكلام حتى تعطي الفرصة لحفيدتها بالإجابة:

"لقد حصلت على وظيفة كمساعدة للمدير، إنها شيء يستحق الفخر، يشبه الأمر تسلمها منصبًا مبكرًا".

كاثرين:

"جدتي".

أشارت ليزي إلى أغنيس وقالت:

"كانت تظن أنها لن تحصل على وظيفة بسهولة بسبب مظهرها، ولكن الناس لديها عقول تستطيع أن تميز بها".

سكتت ليزي فجأة بعد أن أدركت ما تقوله:

"يبدو أني سوف أكتفي بهذا".

كاثرين:"يجب أن تقسمي على الصمت بعد هذا".

لم ترفع ناني فلاجان عينيها عن أوراق اللعب، وقالت:

"والآن بعد أن أصبح لديك عمل يا كاثى، يجب عليك فتح حسابين بنكيين، واحد تستخدمينه عندما ترتبطين ويصبح معك رجل، والآخر من أجل نفسك ولا يعرف عنه أحد على الإطلاق".

هز الجميع رأسه موافقًا على حكمة ناني.

سألتها ريني:

"إذًا، لن تعودي للمدرسة مرة أخرى؟".

نظرت كاثرين بخبث إلى أمها وقالت: "لا مدرسة بعد اليوم، نحن في حاجة إلى المال".

أضافت ريني:

"إن سوق العمل هذه الأيام يدفع المرأة للعمل من أجل الإنفاق على الرجل الذي يعيش معها، فكل الرجال تتعفن على الأرائك في المنزل، ولا تجد عملًا".

بدا الضيق على وجه ناني مرة أخرى، وبدأت في فرك الورق بأصابعها، ونظرت إلى كاثرين:

"اسمعي يا صغيرة.. تعلمين أني أحبك".

كانت علامات عدم الصدق واضحة في صوتها:

"وعندما نخرج معًا في رحلة سوف أجلب لك السندوتشات والمشروب الأيرلندي، ولكن حتى ذلك الحين".

أشارت بيدها إلى الباب ونظرت في أوراق اللعب مرة أخرى:

"يمكنك أن تغربي عن وجهي".

تحركت كاثرين على مضض، وحملت شوجي المختبئ خلف أغنيس والذي كان مفتونًا بالسحاب البلاستيكي في حمالة صدر أمه.

سألت أغنيس كاثرين:

"هل ألكسندر هنا، الليلة؟".

"أعتقد ذلك".

"ما معنى أعتقد؟ هل هو هنا أم لا؟".

كانت غرفة النوم صغيرة جدًّا لدرجة أنه من غير الممكن عدم ملاحظة فتى في الخامسة عشرة من العمر، تحتوي الغرفة بالكاد على سرير مزدوج لكاثرين وليك وسرير فردي لشوجي.

كان ليك هادئ الطباع قادرًا على الاختفاء لدرجة ألا يشعر الآخرون بوجوده، لا يشعرون بوجوده حتى وهم يتحدثون إليه.

"ماما، أنت تعرفين طباع ليك".

أنهت كاثرين حديثها وانصرفت وهي تحمل شوجي إلى خارج الحجرة، بينما تلعق أصابعها من الأعلى إلى الأسفل.

بدأت الأوراق تلقى على طاولة اللعب والعملات تتداول بينهن والخسائر تتوالى على الجميع ما عدا ناني، التي تكومت العملات المعدنية أمامها ككومة من التبن. حملت أغنيس مشروبها في يدها وبدأت في الدوران على السجادة التي تغطي الأرضية:

"أوه أوه، هذه أغنيتي، أيتها السيدات قفوا وابدأن في الحركة".

ومدت أصابعها تجذبهن من أقدامهن، فوقفت السيدات الواحدة تلو الأخرى وهن سعداء بالهرب من كومة النقود الموجودة أمام ناني، رقصت النساء بمرح بحمالات صدورهن الجديدة وبناطليهن القديمة، والأرض ترتج من ثقل أقدامهن.

أخذت ناني تصرخ في آن ماري حتى انزوى كلاهما للجلوس على طاولة الشاي الصغيرة. رقصت السيدات بعنف، وصببن كمية كبيرة من البيرة في أقداح الشاي القديمة، حركات أجسادهن كافة مصدرها الأكتاف والأفخاذ، بشكل ملحمي ومفعم بالحيوية، ومفعم بالحيوية

يشبه الفتيات الصغيرات اللاتي يرقصن في التلفاز. أصبح من الواضح أن أزواجهن المساكين ذوي الجسد النحيل سوف يعانون من الاختناق لاحقًا في المساء عندما يعدن إلى المنزل. النساء السمينات تفوح منهن رائحة الدهن والعرق، ولكنهن عند العودة إلى المنزل فسوف يتسلقن أجساد أزواجهن وهن يشعرن بأنهن في الخامسة عشرة من العمر بسبب حمالات الصدر الجديدة، وسوف يتجردن من ملابسهن ويستعرضن صدورهن العالية، سوف يكن في حالة سكر شديدة وستكون ألسنتهن حمراء ساخنة ولحومهن مدهنة وثقيلة.

إنها السعادة الخالصة في ليلة الجمعة، ليزي لم ترقص ولم تقترب من المشروب فهي تريد أن تكون قدوة جيدة للعائلة.

إنها لا ترغب في أن تكون أمًّا كاثوليكية سيئة، تشرب وترقص مع أغنيس، لذلك أقلعت عن تناول الكحوليات. تنظر أغنيس إليها في دهشة وهي جالسة تتناول الشاي ساندة ظهرها في فخر واستقامة، لا تصدق ما تفعله على الإطلاق. بينما ليزي تنظر إليهن بأعين واعية ووجه وردي متجهم.

تعرف أغنيس أن ليزي وويلي يتقابلان كثيرًا في السر، يتسللان خلسة إلى الحمام، أو يتركان طاولة العشاء ويجلسان معًا على طرف السرير الخاص بهما، ويغلقان باب حجرة النوم ويضعان المخدات القديمة خلفه حتى لا يتسرب الصوت وكانا يسحبان الأكواب البلاستيكية المخبأة، ويسكبان بها المشروبات الكحولية ويشربانها في الظلام كالمراهقين، ثم يعودان سريعًا إلى طاولة الطعام بعد أن تمتلئ حناجرهما وأعينهما بالسعادة والصفاء، يتظاهر الجميع بأنه لا يشم رائحة الويسكي. لم يكن على أغنيس فقط سوى أن تشاهد أباها وهو يحاول تناول الحساء

حتى تستطيع أن تحدد إن كان ثملًا أم أنه لم يتناول شرابه بعد.

انتهي الجانب الأول من الشريط الغنائي، وعلى صوت الهسيس تحركت ليزي في بطء متجهة إلى الحمام واستغلت ناني الفرصة واسترقت النظر إلى أوراق اللعب الخاصة بليزي، ولمعت عيناها وهي تجلس على مقعد ويلي القديم المريح.

تشعر ناني أنها فازت بالجائزة الكبرى بعد أن حسبت كم المال الذي جمعته خلال اليوم، وبدأت تفكر في قطعة لحم الخنزير التي ستشتريها بالمال لتصنع الحساء يوم الأحد، أرجعت ظهر المقعد للخلف وجلست تتخيل اللحم السمين بينما تفوح منها رائحة العرق.

قالت ريني وهي تعصر صدرها البارز من الحمالة الضيقة:

"ليزي كذابة لعينة، إنها لم تتوقف أبدًا عن الشراب، لم تذهب إلى الحمام حتى تتبول كما تدعي، لقد ذهبت لتتناول كأس في السر".

وضعت ناني الكروت بعناية داخل حمالتها، ونظرت ناحية الردهة حيث اختفت ليزي وصاحت بصوت عالٍ:

"لا أعرف لماذا أصاحب هؤلاء الكاثوليك الفسقة، إنهم لصوص على كل حال".

ثم قامت ناني وملأت قدحها مرة أخرى بالشراب وتجرعته في دفعة واحدة، كانت تعلم أنه مع انتهاء المشروب بسرعة فسيمكنها العودة للعب مرة أخرى.

"حسنًا هل نستأنف لعب الورق؟ أم نبدأ في مشاهدة الكتالوج؟ لقد سئمت من مشاهدتكن ترقصن مثل بيتر بان".

أخرجت من حقيبة جلدية سوداء كانت موضوعة أسفل قدميها

كتالوجًا سميكًا ذا أذنين تشبهان أذني الكلب، على الغلاف الخلفي للكتالوج امرأة ترتدي فستانًا مصنوعًا من الدانتيل وقبعة من القش، وخلفها على مسافة قريبة حقل ذهبي اللون، كان شعرها يبدو وكأن له رائحة التفاح الأخضر.

وضعت ناني الكتالوج فوق أوراق اللعب، ونفضت الغبار عن أول بضع صفحات، كان الورق البلاستيكي يصدر ضجيجًا يشبه صفارات الإنذار، توقفت النساء عن هز أجسادهن على نغمات الموسيقى، وتجمعن حول الكتالوج ووضعن عليه أصابعهن الدهنية مشيرات إلى الأحذية الجلدية، وملابس النوم المصنوعة من البوليستر. حتى وصلن إلى صورة فتاة جميلة تركب دراجة في ثوب فاتن، وبجوارها صورة لنفس الثوب ولكنه مطوي.

في ذلك الوقت مدت ناني يدها إلى الحقيبة الجلدية مرة أخرى، وأخرجت مجموعة من دفاتر المديونية التي تشبه في الحجم الكتاب المقدس. تعالت صيحات الاستنكار، إنهن صديقات بالفعل، ولكن هذه هي وظيفة ناني ولديها أفواه لتطعمها.

قالت آن ماري:

"أوه، ناني أنا لم أحضر المال هذا الأسبوع".

ردت ناني وهي تحاول أن تغلق أسنانها وتضم شفتيها حتى تتصرف بأدب قدر المستطاع:

"نعم أعرف ذلك، ولو كان باستطاعتي لعلقتك من كاحلك السمين خارج النافذة حتى تدفعي ما عليك الليلة".

ابتسمت أغنيس في داخلها، فهي تعرف أن آن ماري سوف تحتاج

بعض الوقت حتى تستطيع الرد:

"إنه فقط ثوب سباحة، كما أن قياسه لا يناسبني".

"لقد كان قياسه مناسبًا عندما اشتريته".

فتحت ناني الدفتر الرمادي، وبحثت بداخله حتى وصلت إلى صفحه بعنوان آن ماري أديسون

ووضعتها أمام الجميع على الطاولة، قالت آن ماري:

"إن صديقي لم يعد يرغب في اصطحابي في رحلة بعطلة الأسبوع بعد الآن".

لم يبدُ التأثر على وجه أي من النساء لسماع ذلك، فمعظمهن لم يحصلن على عطلة إلا في مستشفى الولادة بعد ولادة الطفل الأول ولا شيء أكثر من هذا.

ردت ناني بعنف:

"ليس من شأني الاهتمام بما سيفعله ذلك السافل اللعين".

كانت ناني معتادة أن تستخدم القوة حتى تحصل المبالغ المستحقة من هؤلاء السيدات، نظير ملابس النوم ومناشف الحمام والبناطيل المدرسية الخاصة بالأطفال، هي تسجل المبالغ في دفترها، وتبدأ في التحصيل لاحقًا، ربما يستغرق تحصيل خمسة جنيهات عامًا من الدفعات الشهرية، بجانب الفوائد الناتجة عن التأخير كان الأمر كما لو أنهن يدفعن إيجارًا لاستكمال حياتهن.

قلبت النساء صفحات الكتالوج على الصفحات الجديدة، وبدأن في التناحر حول السلع التي يجب عليهن شراؤها.

رفعت أغنيس رأسها عندما شعرت بتغير درجة الحرارة في الغرفة، ورأت شوج واقفًا عند الباب ممسكًا حزامًا ثقيلًا ممتلئًا بالنقود في يده، كانت الرياح الرطبة تدخل وتمتص الحرارة من داخل الغرفة، فأدركت أغنيس أن الباب الأمامي مفتوح.

تحركت أغنيس في اتجاه زوجها وما زال ثوبها ملفوفًا حول خصرها، وتنورتها مرفوعة لأعلى، فحاولت تعديل مظهرها ولكن بعد فوات الأوان، حاولت أن تبتسم ابتسامتها الساحرة، ولكن لم يبادلها شوج الابتسام ونظر إليها باشمئزاز وقال:

"من يحتاج إلى توصيلة؟".

حضور الرجل المفاجئ يشبه جرس المدرسة، بدأت النساء في جمع أغراضهن، وضعت ناني زجاجتين صغيرتين من المشروب الذي تخفيه ليزي في حقيبتها، وصاحت وهي تنظر إلى شوج:

"سيداتي العزيزات، سوف نجتمع ليلة الثلاثاء في منزلي، وسوف يتعرض للضرب أي رجل يظن أنه يستطيع أن يفسد عليّ ليلة التجمع لمشاهدة الكتالوج".

نظر إليها شوج وهو يقول:

"تبدين فاتنة كالعادة أيتها السيدة فلاجان".

وأخذ يفكر في أنه لن يمارس الجنس أبدًا مع تلك السيدة، مهما حدث فلديه معاييره الخاصة.

ردت ناني عليه:

"هذا قول لطيف منك، لمَ لا تخرج يدك من مؤخرتك الضخمة وتعانقني! ".

أعادت أغنيس إغلاق فستانها الأحمر وعدلت من مظهرها، بدأت النساء في ارتداء معاطفهن بينما كان شوج ما زال واقفًا عند المدخل، فمررن بجواره، وشاهدته أغنيس وهو يبادلهن الابتسامات من تحت شاربه الكث وهن يهممن بالانصراف. ولم يبتعد شوج عن الطريق إلا من أجل ان يترك مساحة لعبور ناني لضخامة حجمها.

بدأ شوج يتخلص من مظهره الغاضب وهو ينظر إلى أغنيس، قالت أغنيس لأمها ذات مرة إن شوج لديه بريق في عينيه يجعلها ترغب في خلع ملابسها بمجرد أن يطلب منها ذلك، وقالت إنه طلب منها ذلك كثيرًا.

الثقة هي المفتاح. كانت أغنيس تثق في شوج، وهو يستطيع أن يقنعها بأي شيء يريد إقناعها به حتى يصبح ذلك الشيء هو الشيء الوحيد الذي ترغب فيه على الإطلاق.

يقف شوج في بذلته المزخرفة ورابطة عنقه الرفيعة مبتسمًا، وفي يده الحزام الجلدي المليء بالنقود، يستطيع شوج أن يتعامل مع النساء الجميلات ببراعة، ويحصل منهن على كل ما يريد، لديه القدرة على أن يجعلهن يشعرن بأنه لا يرغب فيهن وأنهن أقل جمالًا، وفي الوقت نفسه ينجذبن إليه ويشعرن بالسعادة لأنه سمح لهن بالبقاء حوله. كان يعطي المرأة العادية الصبر والثقة حتى تتحول لما يشبه الحذاء المسطح الذي يرتديه في قدمه ويسير فوقه كيفما يحلو له.

أدركت أغنيس مع الوقت أنه وغد قذر وأناني، استطاع أن يسيطر عليها باستثارة غرائزها الجنسية النائمة، أدركت ذلك بسبب تصرفاته وطريقته في تناول الطعام، إنه يدس الطعام في فمه ويلعق أصابعه دون أن يهتم برأي الآخرين في ما يفعل. أدركته عندما شاهدته اليوم يتأمل النساء وهن يغادرن بعد لعب الورق، وشعرت بالندم لأنها تركت زوجها الأول من أجل الزواج من شوج.

كان زوجها الأول كاثوليكيًّا بالمولد، وكان ورعًا ومخلصًا لها دون غيرها، كانت أغنيس جميلة مقارنة به بطريقة تمنح الرجال الآخرين الأمل في مغازلتها، وتمنح النساء حيزًا للتساؤل عن الشيء المميز الذي لا يستطعن رؤيته في بريندان ماكجوان. كان رجلًا مستقيمًا وصريحًا ولكنه لم يكن يملك شيئًا مميزًا، لقد ساعده الحظ على الزواج من أغنيس فأحبها لدرجة التقديس، وبينما كان الرجال الآخرون يذهبون إلى الحانة في عطلة نهاية الأسبوع كان يعود إلى المنزل حيث يعطيها المظروف الخاص براتبه الأسبوعي مغلقًا ومختومًا دون أن يفتحه.

لم تحترم أغنيس تلك الصفات قط، ولم تكن محتويات الظرف كافية بالنسبة لها.

كان شوج بين لامعًا لدرجة لا يصل إليها الكاثوليك، كان يشبه في سلوكه المتساهل البروتستانت بتباهيه الدائم وثروته الصغيرة التي تحدث عنها، وخده المتوهج وشراهته الدائمة.

عرفت ليزي كل ذلك على الفور عندما عادت أغنيس إلى المنزل بصحبة طفليها وسائق التاكسي البروتستانتي، أردات أن تغلق الباب وتطردها خارجًا، ولكن ويلي لم يوافق أراد أن يمنح أغنيس الفرصة حتى تخوض التجربة، وعندما تزوجت أغنيس من شوج في النهاية، لم يذهب ويلي وليزي إلى مكتب تسجيل الزواج، وقالوا إنه من الخطأ الزواج بين

الطوائف المختلفة، ومن الخطأ الزواج خارج إطار الكنيسة، كانت ليزي تكره شوج بين منذ البداية.

كانت آن ماري آخر من غادرت، فقد استغرقت وقتًا طويلًا في تجميع ملابسها والبحث عن سجائرها، بالرغم من أنها وجدتهم في المكان الذي تركتهم فيه منذ بداية الليلة، كان يبدو أن لديها الرغبة في أن تقول شيئًا لشوج ولكنه استطاع أن يفهم ذلك من عينيها، واستطاعت هي أن تمسك لسانها ولا تتكلم، واستطاعت أغنيس أن تفهم تلك المحادثة الصامتة الدائرة بينهما.

قال شوج وعينه تلمع كالقطط:

"ريني، كيف حالك يا حلوة؟".

حولت أغنيس نظرها عن آن ماري ونظرت إلى صديقتها القديمة، أجابت ريني مرتبكة وهي تنظر إلى أغنيس

"بخير حال، أشكرك يا شوج".

انخلع قلب أغنيس وهي تسمع شوج يقول مخاطبًا ريني:

"يجب أن ترتدي معطفك بسرعة حتى لا تصابي بالبرد".

"أشكرك".

"سوف أقوم بتوصيلك".

"لا داعي لذلك هذا كثير يا أخي".

"هراء، أصدقاء أغنيس هم أصدقائي".

ردت أغنيس: "لا تغب يا شوج فسوف أجهز الشاي".

وبدا صوتها متقطعًا أكثر مما أرادت:

"أنا لست جائعًا".

قالها شوج وأغلق الباب خلفة فتوقف تيار الهواء وهدأت الستائر، كانت ريني تعيش على بعد عشر دقائق من منزل أغنيس، ولكن أغنيس كانت متأكدة أن شوج لن يعود بسرعة، فجلست مضطربة، وأشعلت سيجارة بينما نظرات ليزي الحارقة تنصب عليها، وبالفعل لم ترَ وجه شوج مرة أخرى إلا بعد مرور ساعة كاملة، لم تقل ليزي شيئًا، اكتفت بالصمت والتحديق في وجه ابنتها، من الصعب على أغنيس العيش في منزل والدتها ومن الصعب عليها أن تكون في حجرة النوم المقابلة لها، ومن الصعب عليها أن تتعرض لتقييمها وأحكامها كل يوم.

جمعت أغنيس سجائرها وتحركت في الردهة حتى وصلت إلى الغرفة ونظرت إلى ابنها، كان يمسك قلمًا في يده ودفترًا أسود ويرسم في الظلام، وأنفاس إخوته النائمين تدفئ الغرفة.

قالت أغنيس: "سوف تؤذي عينك يا ألكساندر".

وأخذت القلم الرصاص من يده وطوت الدفتر وأغلقته، كان قد أصبح كبيرًا على أن يحصل على قبلة قبل النوم، ولكنها قبلته على كل حال، وتجاهلت اشمئزازه من رائحة الكحول التي تفوح من أنفاسها، وجه ليك مصباحه ناحية الفراش.

تأكدت أغنيس من أن شوجي أصغر ابنائها هادئ في منامه، ولفت البطانية تحت ذقنه، وانتظرت حتى ينام، كان بداخلها رغبة لأن تصحبه لينام في فراشها فهي تريد أن تحيط أحدًا بذراعها أثناء الليل، كان فم شوجي ينفتح تلقائيًّا عندما ينام، وعيناه ترتعشان كلما علا صوت مزعج حوله.

اغلقت أغنيس الباب بهدوء، واتجهت إلى غرفتها وانزلقت بين الأغطية، حيث أخرجت زجاجة الفودكا التي كانت تخبئها، وصبت لنفسها كأسًا وهي تهز عنق الزجاجة الفارغة حتى تحصل على القطرة الأخيرة، وشاهدت أضواء المدينة تتلألأ من بعيد.

المرة الأولى التي تغيب فيها شوج بعد أن انتهت مناوبته على سيارة الأجرة، أمضتها أغنيس في الاتصال بالمستشفيات، وسائقي الأجرة الذين تعرفهم لمحاولة معرفة مكانه، ثم استخدمت دفتر الهاتف الخاص للاتصال بكل صديقاتها من السيدات لتسأل عن أحوالهن في محاولة لمعرفة مكانه بشكل غير مباشر، لم تقوَ على أن تخبرهن أن زوجها متغيب وهي تبحث عنه، ولم تقوَ على الاعتراف أنه ربما فعلها أخيرًا، وبينما كانت صديقاتها يحكين لها عن روتين حياتهن كانت هي تركز في الأصوات من حولها لمحاولة سماع صوته، أو استنتاج مكانه في حجرة إحداهن.

هي تريد الآن، أن تخبر هؤلاء النساء أنها تعرف كل شيء، أنها تعرف مغامرتهن معه في التاكسي، وكيف تركن آثار أيديهن المتعرقة على نوافذه، إنها تعرف كيف حرك يده النهمة على أجسادهن، وكيف اصطحبهن بعيدًا عن كل شيء، ثم أدخل قضيبه فيهن، شعرت بالعجز والوهن، ولكنها كانت ترغب في أن تخبرهن أنها تعرف كل شيء عن نزواته ومغامراته معهن، لأنه في يوم من الأيام كانت تلك المغامرات تخصها وحدها.

في أحد الأيام بينما كانت تتنزه في الحديقة والهواء يرفع فستانها الأزرق، شعرت بالسعادة، أمطرت حولها مصابيح الإضاءة بآلاف القطرات المذهبة المضيئة فانعكست على التطريز في فستانها الجديد، كانت تتنفس بصعوبة من فرط إحساسها بالحماس رفعها شوج، وأوقفها فوق مقعد فارغ فاستطاعت أن ترى الأضواء التي تتلألأ على طول الطريق

إلى البحر، وكانت كل المباني في منافسة ضوئية، وكل منها يضيئه ألف مصباح خاص ينير من تلقاء نفسه.

كانت بعض المباني تشبه رعاة البقر، والبعض الآخر يشبه الفتيات الراقصات في لاس فيجاس، وكأن الجميع في حلقة رقص واسعة. نظرت إلى السماء، وتطلعت إلى شوج كان يبدو أنيقًا في بذلته السوداء الضيقة، شعرت بأنه شخص ذو أهمية.

وقالت:

"لا أذكر متى كانت آخر مرة اصطحبتني فيها إلى الرقص".

ساعدها على النزول مرة أخرى إلى الأرض برقة وهو يمسك وسطها الناعم، يستطيع شوج أن يرى انعكاس الضوء من خلال عينيها، ويشعر بالبريق الباهت للأندية والمباني، ويشعر كذلك بكمية الحماسة المنسابة، وتساءل بينه وبين نفسه إن كانت حماستها وضوؤها الخاص سيخفتان بعد ذلك اليوم، ثم تناول المعطف الخاص بها من فوق المقعد ولفه حول كتفها وقال:

"لن تعود أضواء سايهيل على حالها بعد اليوم".

ارتعشت أغنيس وهي تقول:

"لا داعي لأن تجعلني أتذكر المنزل، لنتظاهر أننا هربنا بعيدًا".

سارا بمحاذاة ساحل البحر وعلى ضوء الأنوار الساطعة وهما يفكران في كم الأشياء الصغيرة التي تفرقهما بعضهما عن بعض وتجعلهما يعيشان في تلك الشقة الشاهقة مع والدتها، وأبيها الذي يعلو صوت شخيره طوال الليل من الحجرة المقابلة.

نظرت أغنيس للأضواء البعيدة وهي تنطفئ وتعود للإضاءة مرة

أخرى، ونظر شوجي إليها نفس نظرة الرجال الشرهين الذين يتابعون بنهم صدرها المفعم بالحياة.

عند طلوع النهار الرمادي، شاهدت أغنيس واجهات المباني البحرية في بلاكبول[5] لأول مرة وشعرت بخيبة الأمل، كانت المباني رثة وقديمة، ومتآكلة أمام البحر وموجه العاري، حيث تتجمع العائلات من جلاسكو وليفربول لقضاء وقت على الشاطئ ولكنها خلال الليل تنصرف ولا يبقى أحد. اختار شوج هذه البقعة كفرصة ليكون معها بمفرده، عندما أدركت ذلك عضت خدها من الداخل من الغيظ. في الليل عادة ما يكون المكان ساحرًا، وكل شيء يضوي حتى الأمواج، لكنه الآن أصبح مهترئًا والشاطئ يفيض بالأخشاب المتكسرة، أمسك شوج يدها وقادها بسرعة عبر الشاطئ الذي أصبح مزدحمًا، كان الأطفال يصرخون على طوال الشاطئ وصوت طقطقة السيارات والأبواق مرتفع، استمر شوج في جذبها ممسكًا يدها وهو يقودها نحو أحد مباني بلاكبول، وينحرف بها متفاديًا الأشخاص يمينًا ويسارًا كعادة سائقي الأجرة، صاحت:

"عزيزي، من فضلك تمهل قليلًا".

لم يستمع إليها واستمر في طريقه، كان يمسك معصمها، وخاتمه ذو الفص الأحمر الكبير يؤلمها، فسحبت يديها في قوة.

ظهر على وجه شوج مزيج من علامات الغضب والإحراج بسبب الحشد المزدحم، هز بعض الرجال الغرباء رؤوسهم وهم يتأملون المشهد وكأنهم يقولون إن هناك طريقة أفضل للتعامل مع هذه المرأة الجميلة.

"لا داعي لافتعال مشكلة".

5- مدينة ساحلية تقع في شمال غرب إنجلترا وهي قريبة من اسكتلندا ومنطقة البحيرات. (المترجم)

فركت أغنيس معصمها وحاولت أن تهدئ من ملامح وجهها وقالت:

"أنت تتحرك بسرعة شديدة، وكل ما أريد فعله أن نهدأ قليلًا حتى أستمتع بالمشهد، فأنا لا أخرج من المنزل كثيرًا".

تركته وتحركت نحو ما تبقى من الأضواء ولكن السحر كان قد انتهى، وأصبح كل شيء رخيصًا، تنهدت أغنيس: "دعنا نتناول مشروبًا صغيرًا حتى نهدأ وتستعيد الأشياء روحها".

ضيق شوج من عينيه ومرر يده بتوتر على شاربه الكثيف، وكأنه يحاول أن يلتقط من طرفه كل الكلمات الغاضبة التي أوشك أن يوجهها إليها:

"أغنيس أتوسل إليك، لا داعي للإسراف في الشراب الليلة".

كان الأوان قد فات وتوجهت إلى المبنى الذي يحمل صورة راعي البقر الغامض، قالت النادلة بلهجة واضحة لأهالي لانكشاير:

"هذا فستان رائع".

رفعت أغنيس نفسها على البار المصنوع من البلاستيك وجلست عاقدة كاحليها أسفل المقعد:

"كأس من البراندي من نوع ألكسندر".

تسلق شوج المقعد المجاور بعد أن رفعه لأقصى درجة ليصبح أطول منها:

"كوبًا من الحليب البارد الدافئ".

وأخرج سيجارة من علبه التبغ، فأشارت إليه أغنيس أن يشعل لها واحدة، وضعت النادلة المشروبات أمامهما، كان الحليب في كأس مخصصة للأطفال فرده شوج إليها وطلب منها تغييره، وضع السيجارة المشتعلة بين شفاه أغنيس، وتحسس بيده مؤخرة عنقها الناعمة، مدت أغنيس يدها نحو حقيبتها وأخرجت شريطًا مطاطيًّا، ورفعت شعرها عاليًا وضمته بالشريط الذي يحمل رائحة معطرة لكريم الشعر، أخذت أغنيس رشفة من مشروبها وقالت:

"كانت إليزابث تايلور تعيش في بلاكبول، أتساءل إن أحبت المكان؟".

مد شوج أصبعه ذا الخاتم داخل أنفه وأخرج بعض المخاط ثم فركه بين أصبعيه الإبهام والسبابة

"ومن لا يحبها".

استدارت لتواجهه وهي تقول:

"ربما يجب علينا أن ننتقل إلى هنا، الوقت مناسب لذلك".

ضحك وهز رأسه وهو ينظر إليها وكأنها طفلة:

"كل يوم تخرجين بفكرة جديدة، لقد تعبت من محاولة مجاراتك".

ومرر أصبعه على طول الحافة اللامعة لتنورتها، بينما هي تتابع جموع المصيفين التي تتوافد خارج البار، إنهم أناس عاديون يرتدون معاطف ثقيلة.

"هل تعرفين ماذا أريد؟ أريد أن العب البنغو".

بدأ دفء الشراب يسري في جسدها فنظرت حولها ثم وضعت يدها فوق كتفها وكأنها تمنح نفسها عناقًا خاصًّا، وقالت:

"أنا محظوظة لوجود هذه الأضواء".

رد شوج:

"لقد طلبت منهم خصيصًا إضاءتها من أجلك".

جاءت دفعة جديدة من المشروبات، وبدأت أغنيس تصطاد قطع الثلج، وتخرجها من الكأس ثم شربت البراندي في دفعة واحدة.

أستأجرا غرفة في منزل على الطراز الفيكتوري على بعد ثلاثة شوارع من الكورنيش، كان مكانًا قذرًا حتى بالنسبة إلى بلاكبول، فهي غرفة لا تصلح لقضاء إجازات العائلات، ولكنها مؤقتة تستأجر لغرض سريع.

سجادها ذو ألوان مختلفة، والتلفاز قابع كأن أحدًا لم يفتحه قط، ورائحتها تشبه الخبز المحروق، وكأن الغرفة لم يتم تهويتها على الإطلاق.

كان الوقت مبكرًا في الصباح عندما استلقت أغنيس على السجادة في مدخل المنزل وبدأت في الغناء لنفسها:

"يا له من رجل! إنه رجل رائع".

تحركت بعض الأقدام خارج الغرفة فوضع شوجي يده فوق فمها وكتم صوتها، وهو يقول:

"ششششش، سوف توقظين كل شخص في المبنى".

أزاحت أغنيس يده بقوة عن جسدها وألقت بذراعه بعيدًا، واستمرت في الغناء بصوت مرتفع:

"أرني الطريق الذي تخيلت أن نسير فيه معًا".

أضيئت إحدى الغرف، واستطاع شوج أن يميز ذلك من الضوء المتسلل

من تحت ثقب الباب لإحدى الغرف وهما يصعدان السلالم فضغط عليها أكثر، فتحولت أغنيس في يده لما يشبه كومة من اللحم المنزوع من العظام، ثم انفجرت في الضحك واستمرت في الغناء، جاء صوت رجل إنجليزي من أحد الغرف:

"أبقوا الصوت منخفضًا، كي لا أتصل بالشرطة، الناس تحاول أن تنام".

قال شوج إنه رجل مخنث، وتمنى لو فتح الباب حتى يترك بصمات أصابعه على وجهه، وقالت أغنيس متظاهرة بالغضب:

"نعم، يجب أن تتصل بالشرطة فأنا في عطلة".

وضع شوج يده على فمها مرة أخرى، وأطبق بقوة وهما يصعدان السلم، فقامت بلعق باطن يده بفمها الممتلئ، فشعر برغبة في القيء، ولكن استمر في الضغط على فمها بقوة أكثر حتى شعرت بالخوف، قال بغضب:

"سأقولها مرة واحدة.. تمالكي نفسك، واصعدي ذلك السلم اللعين".

أزاح يده ببطء من على وجهها، فظهرت علامة وردية مكان أصابعه، وبدأ الخوف يختفي من عينيها ويحل محله علامات الشراب الشيطانية، بصقت في وجهه من بين أسنانها اللامعة:

"من تظن نفسك بحـــ...".

قبل أن تستطيع إكمال العبارة، كان شوج يجلس فوقها ويده تمسك شعرها، وهو يسحبها صعودًا وبدأت جذور شعرها في التمزق بينما كان يسحبها خلفه، انفرجت قدما أغنيس بشكل فاضح وهي تحاول أن تتشبث بأظافرها في ذراعه وتجد موطئًا لقدميها، شعر شوج بأظافرها،

فحملها صعودًا طابقًا واحدًا وسحبها طابقًا آخر، خرقت السجادة المتسخة ظهرها، ومزقت عنه اللحم، كما مزقت التطريز من فستانها اللامع، استمر في جذبها بيده الضخمة ثم رفعها في حركة واحدة، وأخرج المفتاح وفتح الغرفة، ثم ألقاها في الداخل وأشعل الضوء وأغلق الباب خلفه.

رقدت أغنيس خلف الباب كأنها كتلة مهملة قبل أن تبدأ في تحسس فروة رأسها الممزقة، وتنظر إلى الدماء وآثار السحب على ذراعيها وفخذها، نظر لها شوج في غضب وقال:

"توقفي عن تحسس جسدك، أنا لن أوذيك".

كانت أذنها بها طنين جراء الارتطام بدرجات السلم وجسدها مليء بالنتوءات:

"لماذا فعلت ذلك؟ لقد جعلت مني أضحوكة".

خلع شوج سترته السوداء ورباط عنقه ووضعهم على قطعة خشبية بعناية، وحاول أن يهندم شعره الذي بدأ يصيبه الصلع.

وعندما هدأت، انحنى شوج عليها، وغرز أصابعه في فخذها وكتفها، ورفعها كسلة من المهملات، وألقى بها فوق الفراش المستأجر وجلس فوقها، كان هناك انعكاس لضوء قرمزي على وجهه، وشعره يتحرك بعصبية على رأسه المنتفخ بالدم الذي يغلي من الغضب، ألقى بكل وزنه على ذراعها ولصقها في مرتبة الفراش حتى أحست أن ذراعها سوف ينكسر، ووضع كتلته بالكامل فوقها، واستفاد من كونه مستقرًا في الأعلى وسيطر عليها تمامًا، ثم مد يده اليمنى تحت فستانها وبدأ يتحسس أجزاءها البيضاء الناعمة، قامت بشبك ساقيها ببعض، وعندما أحس أنها أغلقت كاحلها، غير من ثقل وزنه حتى يتيح الفرصة ليده اليمنى أن

تمسك فخذيها، وتحاول إبعادهما بعضهما عن بعض، ولكنه لم يستطع، فقد أحكمت إغلاقهما جيدًا، ولذلك دفع بأصابعه داخل الفتحة المستديرة بين فخذيها، وبدأ في تحريك أظافره حتى انهارت مقاومتها وفتحت أرجلها، فاندفع إلى الداخل بينما هي تبكي.

لم تستطِع المقاومة، فهي ما زالت تحت تأثير الشراب، عندما انتهى وضع رأسه فوق رقبتها، وأخبرها أنه سيصحبها غدًا مرة أخرى لترقص تحت الأضواء.

3

عندما أتى فصل الصيف أخيرًا كان رطبًا وكئيبًا بالنسبة لرجل يحب الليل، فالنهار طويل والأيام طويلة والضوء يدخل كل مكان كضيف متهور، كان شوج الكبير يجد صعوبة كبيرة في النوم خلال فصل الصيف فالشمس تخترق الستائر القديمة بأشعتها البنفسجية، والأطفال يصبحون أكثر ضجيجًا عندما يشعرون بالسعادة، تعلو ثرثرة المراهقين في الشقق المجاورة وأصوات الصنادل الضيقة التي ترتديها النساء تعلو في الردهة ويكشفن أرجلهن الوردية، وتختلط مع طرقعة اللبان وردي اللون طوال الوقت.

عندما حل الليل أخيرًا، استلقى شوج في المقعد وأعاد ربط حزام الأمان الخاص بسيارته الأجرة السوداء فدار الحزام حول محوره مثل كلب أسود يطارد ذيله، استطاع أخيرًا أن يرخى كتفيه ويميل بأذنه تجاهها حتى يشعر بالراحة، كانت المدينة ملكًا له طوال ساعات الليلة القادمة، ولديه العديد من الخطط لقضاء الليل، ألقى نظرة خاطفة بجانب عينيه على المرآة، كان يبدو محطمًا بقميصه الأبيض وبذلته السوداء ورابطة عنقه السوداء، فابتسم في سره متسائلًا إن كان العمل كسائق أجرة يسري في عروقه. وخصوصًا أن أخاه راسكال يشاركه نفس العمل كإرث عائلي.

وربما عمل في نفس المهنة والده أيضًا، قبل أن تنتهي حياته وهو يعمل في بناء السفن، نظر شوج تجاه أضواء المستشفى الملكي فشاهد عددًا من الممرضات يدخن في الخارج وهن يفركن أيديهن بعضها ببعض للحفاظ على حرارة أجسادهن وصدورهن تتحرك في نشوة مع حركة أجسادهن،

ابتسم ببطء ورأى نفسه سعيدًا في المرآة لأن مناوبة العمل الليلية تناسبه بشكل جيد.

إنه يفضل بلا شك، العمل ليلًا، يحب أن يتجول وحده في الظلام، ويلقي نظرة فاحصة على خبايا المدينة وعلى الشخصيات الرمادية التي صنعتها المدينة عبر سنوات من العمل وإدمان المشروبات الكحولية وهي تجري تحت المطر.. كان يعمل في نقل الناس من مكان لآخر ولكنه كان يحب مشاهدتهم.

أشعل سيجارة وهو يفتح الزجاج الجانبي المجاور لمقعد السائق، فأحدث صريرًا مرتفعًا، اندفعت الرياح مسرعة للداخل فتراقصت خصل شعره الخفيفة كمرج من العشب، كان يكره الصلع ويكره التقدم في السن، لذلك كان يأخذ الأمر بجدية، فعدل من وضع المرآة الأمامية حتى لا يرى انعكاس رأسه العاري من خلالها، وقام بالمسح على شاربه الكثيف وهو شارد الذهن، وكأنه يمر على ذيل حيوانه الأليف، ثم مر بيده على شعر ذقنه فشعر برعشة، أعاد المرآة إلى وضعها الأصلي حتى يشاهد شوارع جلاكسو التي تلمع تحت أضواء الشوارع الخفيفة والمطر، لم تبقَ المرضات في الشارع طويلًا، فقد ألقين بقايا السجائر في بركة من الماء وعدن إلى الداخل سريعًا، تنهد شوج، وأدار محرك السيارة وتحرك في اتجاه تاون هيد وتجاوزها متجهًا إلى مركز المدينة.

كان يحب القيادة في سايهيل ويعتبرها بمثابة اكتشاف لقلب النظام الفيكتوري المظلم، فكلما اقترب من النهر ومن أجزاء المدينة الحقيرة عرف حقيقة جلاسكو بشكل أفضل. حيث توجد النوادي الليلية الصغيرة تحت أنفاق السكك الحديدية وتوجد كذلك حانات قديمة يجلس فيها الرجال والنساء العجائز للحصول على بعض المتعة. كانت النساء النحيلات ذوات

الوجوه العصبية يبعن أنفسهن لرجال يركبن سيارات فاخرة، وأحيانًا يجد رجال الشرطة قطعًا من أجساد هؤلاء النساء مفصولة وملقاة في أكياس سوداء، كانت على تلك الضفة من نهر كلايد مشرحة المدينة وكأنها تنتظر هؤلاء الأشخاص وأرواحهم العالقة التي تهيم في اتجاه هذا الجزء من المدينة عندما تأتي لحظتهم الحاسمة.

تجاوز شوج محطة القطار وكان سعيدًا لوجود العديد من سيارات الأجرة والقليل من الأشخاص الذين يشيرون لها، خصوصًا السائحين فهم مملون وبخلاء في ما يتعلق بدفع الأجرة كما أنهم كثيرو الثرثرة، يضعون حقائبهم الثقيلة في مؤخرة السيارة، ثم يملؤون المقاعد بحقائب ظهرهم، ومقابل عشرة بنسات يملون أوامرهم الحقيرة، ألقى نظرة خاطفة على الواقفين ثم توجه إلى أسفل النهر، كان المطر حدثًا عاديًّا في مدينة جلاسكو. كان يبقي العشب أخضر، ويبقي الناس شاحبة ومبتلة، ولكنه لم يكن يؤثر على عمل سيارات الأجرة لأنه لا مفر من الاحتياج إليها، سوف يستمر هطول المطر سواء كنت تجلس في مؤخرة الحافلة العامة أو في المقعد الخلفي لسيارة أجرة فاخرة، ولكن على الجانب الآخر سيكون الاحتياج لسيارات الأجرة أشد بالنسبة للفتيات الصغيرات، حتى لا يفسدن شعورهن المصفوفة بعناية، وأحذيتهن المدببة بعد مغادرة حفل راقص في طريق العودة إلى المنزل، كان شوج يشعر بالامتنان عندما لا ينقطع المطر.

سار في اتجاه شارع هوب، ثم وقف في صف الانتظار، كان ينتظر أن ينطلق السائقون الذين يسبقونه في الدور وذلك الأمر لن يستغرق طويلًا، فربما يأتي بمجموعة من الأولاد خارجين من حفلة صاخبة، أو عدد من الفتيات اللاتي جمدهن الصقيع في طريقهن للعودة لميدان بليث، وود بعد انتهاء يوم من العمل الشاق، وفي كل الحالات ستكون طريقة ممتعة لقضاء الليل في العمل.

جلس شوج يدخن ويستمع إلى جهاز الاستقبال برغم التشويش الذي كان يغطي على الإرسال، كانت السيدة التي ترسل التعليمات في الطرف الآخر تطلب من إحدى سيارات الأجرة الاتجاه إلى بوسيل متجهة عبر طريق ترونجيت[6].

كان صوت جوان ميكلوايت هو الصوت الوحيد الذي يخرج عبر جهاز الاستقبال، كان يسمعها في كل ليلة تسأل العديد من الأسئلة، بطريقة ساذجة وتتلقى الاتصالات، وتعطي الأوامر، وتتطفل على محادثات السائقين الجانبية.

كانت تتحدث دائمًا مع نفسها أو تتحدث ولا تنتظر الرد من الطرف الآخر ولكنه كان يشعر دائمًا أنها توجه الحديث إليه وحده، كان يحب صوتها ويمنحه الإحساس بالسلام والراحة.

أنهى سيجارته وهو يشاهد أزواجًا من الشباب يتجمعون ويركبون سيارات الأجرة التي تسبقه في الدور وعندما وصل إلى بداية الصف أخذ يتابع مجموعة من الفتيات المتأنقات يتجادلن حول الوسيلة التي سيستقلونها من أجل العودة إلى المنزل كان من الواضح أنهن يرغبن في استخدام سيارة الأجرة، ولكن كانت بينهن فتاة بدينة مصممة على انتظار الحافلة الليلية، تمنى أن يتركوها لتبتل تحت المطر في انتظار الحافلة ويتجهن إلى موقف سيارات الأجرة، تحركت إحدى الفتيات في اتجاهه بتردد، فقابلها بابتسامه عريضة مصطنعة، ونظر إليها وهو يبعد عن رأسه مجموعة كبيرة من الأفكار القذرة، جاءه صوت رجل عجوز من الخلف:

"هل أنت متفرغ للتوصيل يا رجل؟".

6- واحد من أقدم الشوارع في جلاسكو، يعتبر المركز الأصلي للمدينة القديمة التي تأسست في العصور الوسطى. (المترجم)

رد شوج في غضب:

"لا".

وهو يشير في اتجاه الفتاة.

رد العجوز:

"حسنًا".

ولكنه تجاهل شوج وسحب مقبض الباب ودفع بجسده الضئيل ومعطفه الضخم إلى الداخل وصاح:

"خذني إلى حانة الرينجرز في شارع دوك".

شوج:

"بالطبع".

وألقى شوج نظرة على الفتاة الصغيرة وهي تدخل السيارة التي تقف خلفه في الصف ومنحها ابتسامة، ولكنها لم تلق له بالًا، جلس الرجل العجوز مباشره خلف شوج كعلامة على رغبته في الحديث، فقال شوج بينه وبين نفسه:

"أيها السافل اللعين".

كان المكان بداخل سيارة الأجرة جافًّا على عكس البلل المنتشر في الخارج بسبب المطر، جلس الرجل العجوز صاحب البشرة التي تشبه لون اللبن الحليب، مرتديًا قميصًا أصفر اللون غير مكوي، وبذلة رمادية فوقها معطف رقيق من الصوف ثم واقٍ كبير من المطر أعطاه مظهر المشردين، كان يخفي جسده الضئيل بطبقات من الصوف والجبردين، ويرتدي فوق رأسه قبعة صوفية تلقي بظلالها على أنفه الأحمر المستدير، وبدأ

الرجل حليبي البشرة على الفور في الحديث:

" هل شاهدت مباراة اليوم يا بني؟".

عرف شوج ما الذي يرمي إليه الرجل فأجاب باقتضاب:

"لا".

قال الرجل:

"فاتتك مباراة رائعة، رائعة للغاية".

وأضاف الرجل:

"أخبرني من هو الفريق الذي تشجعه؟".

قال شوج:

"سيلتك".

لم يكن شوج معجبًا بفريق سيلتك ولم يكن كاثوليكيًّا، ولكنه عرف أنه سوف ينهي الحديث بهذه الطريقة، تجهم وجه الرجل العجوز كمنشفة مهملة وقال:

"اللعنة، كنت أعرف أنني اخترت سيارة الأجرة الخاطئة".

ابتسم شوج ابتسامة خفية، أخفاها شاربه الكث، وراقب شوج الرجل العجوز وهو يبدو محبطًا ومشتتًا، ويرفع رأسه إلى السماء عبر زجاج

السيارة كأنه يتوسل إلى الرب، ثم وضع يده على حافة المقعد الخلفية، وأدار وجهه وهمس ببضع كلمات كأنه يخشى أن يسمعه شوج فخرجت من فمه قطرات من البصاق الصغيرة وكأنه طفل صغير ما زال يتعلم الكلام، وانتشر الرذاذ على زجاج السيارة، ضغط شوج المكابح فجأة متعمدًا فزاد عبوس الرجل، وفكر شوج أن عليه أن يمسح الزجاج لاحقًا.

كان الرجال العجائز من أمثال هذا الرجل سلالة تكاد تنقرض في جلاسكو، ويحل محلها مجموعة من الأطفال الملاعين الذين يصيحون بصوت مرتفع ويتعاطون المخدرات، استمر شوج في مشاهدة الرجل وقد تمكنت منه حالة السكر والحزن فظل يخاطب نفسه بصوت منخفض وهو يبكي في بعض الأوقات ويبتسم في أوقات أخرى، ولم يستطِع شوج أن يتبين إلا بضع كلمات قليلة مثل:

"الملاعين، الاتحاد، تاتشر، النذل".

كان مبنى لاودنتافرز[7] مظلمًا وبلا نوافذ، ذا بوابة سميكة وجدار سميك يستطيع مقاومة الرصاص والقنابل، وله واجهة مطلية باللون الأحمر والأبيض والأزرق، اللون المميز بفرق جلاسكو رينجرز يقع في منطقة باركهيد[8] القبلة المقدسة لكل مشجعي سيلتك من الكاثوليك.

أخبر شوج الرجل أن الأجرة جنيه وسبعون سنتًا، راقبه يفرغ جيوبه الواحد تلو الآخر بحثًا عن النقود، حتى سقط من أحد جيوبه على الأرض

7- حانة في جلاسكو مخصصة لمشجعي فريق الرينجرز. (المترجم)

8- حي يقع في النهاية الشرقية لجلاسكو حيث يتجمع مشجو فريق سيلتك ويوجد الاستاد الرياضي الخاص بالفريق. (المترجم)

نحو خمسة عشر بنسًا، كانت عادة هؤلاء المشجعين العجائز وضع القطع المعدنية الصغيرة متفرقة في جيوبهم حتى يستطيعوا الاستفادة بها لاحقًا، لدرجة أنهم ينامون بمعاطفهم ولا يخلعونها خشية أن تقوم زوجاتهم وأولادهم بتفتيشها في الصباح الباكر، من أجل الحصول على ثمن الخبز واللبن، من أجل وجبة الإفطار.

كان الرجل يبحث بقلق داخل جيوبه، وشوج يستمع إلى المذياع محاولًا الحفاظ على هدوئه، حتى دفع الرجل الأجرة وانزلق في الظلام في اتجاه الحانة، فانطلق شوج مغادرًا شارع دوك محاولًا ألا يفوت خروج الراقصين من الملاهي، ظهرت سيدة صغيرة فجأة من أمام حانة وأشارت إليه كطائر صغير، اضطر شوج لكبح الفرامل بقوة حتى لا يدهسها، فتحت الباب الخلفي وتسلقت على المقعد الجلدي الأسود وشعرت بالارتياح:

"بارادا، من فضلك".

مسحت أنفها أو استنشقت الهواء بصوت مرتفع، ثم نظرت إلى شوج بازدراء، بدأت سيارة الأجرة تشق طريقها عبر تلال دينستون، وكان شوج ينظر من خلال المرآة إلى المرأة التي تراقبه في صمت.

كانت ربات المنزل في جلاسكو يجلسن في منتصف المقعد الخلفي لسيارات الأجرة، على عكس الرجال المسنين الجائعين للحديث والصحبة الذين يجلسون بجوار النافذة أو خلف السائق، وقد جلست السيدة مثلهن منتصبة الظهر مضمومة الساقين ووضعت يديها مشبوكتين في حجرها، شعرها كان مرفوعًا للأعلى ومعطفها محكم الغلق ووجهها مشدودًا وكأنها ترتدي قناعًا، قالت المرأة أخيرًا:

"الجو مروع الليلة، لقد سمعت في المذياع أن السماء سوف تتبول علينا طوال الأسبوع".

كان شيء في تلك المرأة يذكر شوج بأمه الراحلة، ربما جسدها الصغير، وربما القوة التي تتدفق منها، تذكر شوج الليالي الممطرة التي كان أبوه معتادًا فيها على ضرب أمه، وكلما زادت حدة الضرب زادت قوة المطر، واضطرت لوضع مكياج كثيف على وجهها وعينها لتخفيف الكدمات، فكر شوج أن تلك المرأة ربما تضع هذا المكياج لتخفي الكدمات الخاصة بها.

أضافت المرأة:

"في العادة أنا لا أستقل سيارات الأجرة".

وبحثت عن عين شوج في المرآة الأمامية للسيارة.

قال شوج وهو يشعر بالسعادة لأنه سيتوقف عن التفكير في أمه:

"فعلًا؟".

تنهدت المرأة:

"منذ أن فقد جورج العمل، وأنا لا أستقل سيارات الأجرة، كان يعمل لمدة خمسة وعشرين عامًا في مصنع دالمارنوك للصلب[9]، وكل ما منحوه لهم أجر ثلاثة أسابيع، ذهبت إلى الإدارة، وسألتهم ما الذي يجب علينا فعله بأجر ثلاثة أسابيع، فتح المدير الخزينة، ونظر إلى النقود في الداخل ثم قال:

9- مصنع للأعمال الإنشائية في الطرف الشرقي من جلاسكو افتتح عام 1872 وكان يصنع الهياكل المعدنية للكباري والجسور والمباني الضخمة وتصدر لكل أنحاء العالم ولكنه تعثر بشدة حتى أغلق عام 1987. (المترجم)

"إن زوجك شخص محظوظ لحصوله على أجر ثلاثة أسابيع، بعض الرجال لم يحصلوا على شيء بعد أن ظلوا يعملون هنا طوال حياتهم".

أحسست بغضب شديد بسبب ردود ذلك الأحمق اللقيط وقلت له:

"حسنًا، إن لدي طفلين كبيرين في المنزل، لإطعامهما ما هو المفترض أن أفعله؟".

فرد عليّ:

"يمكنك البحث عن عمل في جنوب إفريقيا".

وأغلق الخزينة.

لم تكن السيدة غادرت جنوب لانكشير فكيف ستذهب إلى جنوب إفريقيا؟

ظلت السيدة تفرك بإبهامها ثم قالت:

"يجب على الحكومة أن تفعل شيئًا بذلك الشأن، يجب أن توقف عمل تلك المصانع القذرة، إنهم يشحنون أبناءنا إلى جنوب إفريقيا من أجل العمل في المناجم، أليس كذلك؟".

رد شوج: "إنهم يستخرجون الألماس".

ردت المرأة وكأنها خبيرة ببواطن الأمور:

"أنا لا أهتم بذلك، حتى لو كانوا يستخرجون الصبغة السوداء من بشرة الرجال هناك، يجب على أبنائنا أن يعملوا هنا في جلاسكو، ويأكلوا من الطعام الذي تطهوه أمهاتهم".

ضغط شوج بقوة على دواسة البنزين، كانت الناس في المدينة تتغير وجلاسكو تفقد هويتها، يمكنه رؤية ذلك من خلف الزجاج الأمامي للسيارة، كان يسمع في المحادثات أن تاتشر لم تعد تريد العمالة اليدوية التي لا تجيد القراءة بعد الآن، المستقبل للطاقة النووية والطاقة النظيفة والإنسان الآلي، انتهى عصر الصناعة، وانهار اتحاد بناء السفن في نهر كلايد وسكة حديد سبرنج بيلد، وأصبحت السكة الحديد ترقد بالقرب من المدينة كالديناصور المنقرض، وكل الرجال الذين وعدوا بالعمل في وظائف آبائهم أصبحوا عاطلين، لقد فقد الرجال كل شيء حتى إحساسهم بالرجولة.

شاهد شوج تضاؤل الطبقات العمالية في الأحياء الفقيرة التي أصبح يحل محلها رجال التخطيط والإنشاءات، كانت فكرة عبقرية ببناء حزام من المدن الجديدة منخفضة القيمة العقارية تحتوي على مساحات خضراء، ويمكن رؤية السماء من خلالها حتى تختفي المدينة القديمة وتختفي معها أمراضها.

كانت المرأة لا تزال جالسة في المقعد الخلفي تعض إبهامها من القلق، أوصلها شوج إلى منزل أقاربها، فنزلت بسرعة ووضعت في يده جنيهًا كإكرامية بجانب أجرة التوصيل المحددة.

صاح شوج:

"ما هذا! أنا لست في حاجة إلى ذلك".

فردت المرأة:

"هشش، إنني أحاول أن أجلب لنفسي الحظ السعيد، عبر توزيع النقود التي أخذتها من المصنع، فأنا بحاجة إلى الكثير من الحظ لأخرج من هذه الورطة".

أخذ شوج النقود وقال في نفسه:

"اللعنة على السائحين الإنجليز هؤلاء البخلاء الملاعين".

كان شوج يعلم أن الأشخاص الذين لديهم القليل هم الأكثر عطاء.

وقف شوج في طابور الانتظار الطويل وقد وسع رابطة عنقه، حتى سمع صوتًا ناعمًا قادمًا عبر الراديو:

"السيارة رقم واحد وثلاثين، السيارة رقم واحد وثلاثين".

يجب أن تكون أغنيس من يناديه، فالتقط جهاز الاستقبال الأسود، وضغط على الزر الموجود في الجانب، وقال:

"السيارة واحد وثلاثون، هنا".

وساد صمت طويل في انتظارأن يتلقى المزيد من الأخبار، جاء صوت جوان ميكلوايت:

"مطلوب منك الاتجاه إلى ستوبهيل".

فسألها:

"مطلوب مني كذلك اصطحاب مجموعة من السياح إلى المطار، ألا توجد سيارة أقرب للقيام بتلك المهمة؟".

فردت بابتسامة أمكنه ملاحظتها:

"للأسف يا عزيزي فأنت مطلوب بالاسم، وقد قال بنتر إنه يمكنك أن

تستغرق الوقت الذي يكفيك في رحلة الذهاب إلى هناك".

لم يعتقد شوج أن هذا هو سبب النداء عليه، كان يعتقد أنها أغنيس، أو ربما تكون زوجته الأولى.

كانت الرحلة إلى المستشفى القديم تسير بسرعة في هذا الوقت المتأخر من الليل، كان المستشفى الملكي هو المكان الذي تذهب إليه حالات الطعن في مباريات كرة القدم، والعمال المصابون في المصانع، يمكن اعتبار ستوبهيل هو المكان الذي ولدت فيه جلاسكو وماتت أيضًا.

وقفت أمامه في الساحة فتاة ذات جسد ضئيل كالفئران، ترتدي الملابس الزرقاء الخاصة بالتنظيف وترتجف في زيها الضيق الذي يكشف خلو جسدها من مظاهر الأنوثة، كانت تنتظره في فترة راحتها في البرد وقد تشققت المساحيق عن وجهها بفعل البرد والدموع، ابتسم شوج لرؤيتها، كانت الفتاة في الرابعة والعشرين من عمرها، ولكنه استطاع أن يحولها إلى ممسحة للأقدام صعدت الفتاة إلى سيارة الأجرة وقالت:

"لم أظن أنك ستحضر إلى هنا".

فرد شوج: "ما السبب الذي دفعك من أجل إحضاري إلى هنا؟".

باعدت المرأة بين ساقيها بشهوة واضحة وقالت:

"أفتقدك كثيرًا، فأنا لم أرَك منذ زمن بعيد".

رد شوج بغضب بعد أن استدار لينظر إليها:

"من تحسبين نفسك أيتها اللعينة، يجب أن أكسب قوت يومي يا آن

ماري، وأنت تجرجريني عبر المدينة وكأني كلب يجب أن يتبول على سجادتك".

وأطبق قبضته في غضب وضرب بها زجاج السيارة، واستمر في الصياح:

"يجب علينا أن نكون حذرين، حتى لا يُكشف أمرنا، ماذا تظنين سيحدث لو علمت أغنيس بشأننا؟ سوف أخبرك، سوف تقوم بإحكام قبضتها على رقبتك ثم جرك من شعرك بطول نهر كلايد، وبعدما تنتهي من ذلك سوف تنال من سمعتك وتتصل بوالديك كل ليلة لتوقظهما من النوم حتى تخبرهما أن ابنتهما الكاثوليكية المتدينة تمارس الجنس مع رجل متزوج".

سكت قليلًا حتى يترك المجال لكلماته كي تحدث تأثيرًا ثم أضاف:

"هل هذا حقًّا ما ترغبين به؟".

انسابت الدموع على خدها وأغرقت ملابسها وهي تقول:

"ولكني أحبك".

دار شوج دورة حادة بالسيارة وتوقف في ركن مظلم بساحة الانتظار، ونظر إليها بحدة ثم قال:

"حسنًا اخلعي عنك تلك الملابس اللعينة، فإن لدي خمس دقائق لمضاجعتك".

شعر شوج بالجوع في طريقه إلى المدينة، كان يعلم أن آن ماري لن تتصل به لفترة طويلة، فبرغم كونها فتاة لطيفة ذات صدر ممتلئ وشهوة عارمة لكنها لا تتفق مع أساليبه، فهي صغيرة السن، والفتيات

الصغيرات يتوقعن الحصول على شيء أفضل طوال الوقت، لذلك عليه بالتأكيد أن يقطع علاقته بها، كان يفكر في كل هذا عندما ناداه الصوت عبر الراديو مرة أخرى:

"السيارة رقم واحد وثلاثين، السيارة رقم واحد وثلاثين، أجب".

رفع السماعة وحبس أنفاسه وهو يشعر أن حظه بدأ في النفاد:

"جوان".

فردت من الطرف الآخر بشكل مقتضب:

"اتصل بالمنزل حالًا".

قام بسحب عدة عملات معدنية من الصندوق أمامه، وتحرك تحت المطر في شارع جوردان حتى وصل إلى هاتف عمومي قديم ذي لون أحمر، كانت كابينة الهاتف مبللة من الداخل وتفوح منها رائحة البول، كان في السابق لا يلبي نداء أغنيس، ولكن ذلك كان يدفع الأمور لمزيد من التعقيد فتصبح عصبية، ويضطر إلى العنف، وكان الحل الوحيد أن يتصل بها في الحال. دق جرس الهاتف مرة واحدة ورفعت السماعة بسرعة، لا بدَّ أن أغنيس كانت تجلس بجوار الهاتف في انتظار مكالمته، وهي تفرط في الشراب، جاء صوتها عبر الهاتف:

"ألو".

" أغنيس، ما الأمر؟".

"حسنًا، ها هو الأمير الداعر بنفسه".

"ما خطبك هذه المرة؟".

قالت أغنيس وآثار الشراب تظهر في صوتها:

"أنا أعلم ما يحدث".

شوج: "ماذا تقصدين؟".

أغنيس:

"أنا أعلم كل شيء".

كان شوج يتحرك بضيق في كابينة الهاتف الضيقة:

"كلامك غير منطقي".

اقتربت أغنيس بشفاها من الهاتف وقالت وهي ترتعش بتهدج:

"أنا أعلم".

"لو كنت ستواصلين تكرار هذه الكلمات سوف أضطر لأن أعود إلى العمل".

جاءت تنهيدة عميقة من الجانب الآخر..

"أغنيس لا يمكنك الاتصال بي في العمل بعد الآن، سوف أعود إلى المنزل خلال عدة ساعات ويمكننا التحدث عندها".

لم يأتِ صوت من الطرف الآخر...

"حسنًا أنا أعرف ماذا تعلمين، أنت تعلمين أني أحبك".

ارتفع صوت نحيب من الطرف الآخر، فوضع شوج السماعة وأنهى الاتصال.

غمرت ملابسه قطرات المطر وبقايا البول قبل أن يستطيع العودة إلى سيارة الأجرة، والجلوس خلف عجلة القيادة، استغرق من الوقت عشر دقائق قبل أن تزول من يده التشنجات الناجمة عن التوتر بسبب ما حدث، فضرب اللوح الزجاجي بجانبه ثلاث مرات ثم توقف، ربما يشعر بتحسن إذا حصل على بعض الطعام، مد يده تحت المقعد وأخرج علبة بيضاء بها بعض اللحم المحفوظ والخبز الأبيض.

لم يعجبه الطعام الذي صنعته له أغنيس، فألقاه في الطين واتجه إلى مطعم ديرلوشيبي، كان المطعم مشهورًا بين سائقي الأجرة والبغايا لأنه يعمل أربعًا وعشرين ساعة، وكان شعار المطعم استاكوزا حمراء كبيرة، ولكنه لا يقدم في الداخل شيئًا غير تقليدي.

كان جو ديرلو يقف خلف واجهة المطعم تمامًا كما يقف طوال اليوم، يبدو تحت إضاءه الفلورسنت الليلية كأنه رجل ميت فهو ضئيل الحجم ذو شعر خفيف تظهر أكتافه ورأسه بالكاد من خلف الواجهة. كان جو يستقبل الجميع بابتسامة فاترة، الرجال متورمو الرؤوس وأصحاب الكحة الممزوجة بالبلغم، سأله شوج دون اهتمام حقيقي:

"كيف حالك يا جو؟".

"حسنًا، لست بأفضل حال، هل كنت مشغولًا بالجميلات هذه الليلة؟".

ضحك جو على مزحته:

"إنهن يأتين ويرحلن كما تعلم طوال الوقت، لا يدفعن كثيرًا، فهن يأكلن نصف كيس من رقائق البطاطس ويشربن الزنجبيل، ثم يستخدمن المرحاض، ويفضلن استخدام المرحاض الخاص بي، ويظللن هناك لمدة ساعة أو أكثر، حيث يغسلن فروجهن في مرحاضي، ولا يأكلن إلا نصف الكيس الآخر من رقائق البطاطس بعد ذلك".

تطلع شوج إلى السمك المقلي وقال:

"لا بدّ أنهن يفعلن ذلك بسبب المخدرات، إنهن يقبلن عليها بشراهة".

"نعم إنهن يتساقطن بفعل المخدرات كالذباب، ومن لم تمت بفعل جرعات المخدر، ربما قابلت أحد الأوغاد الذي يخنقها حتى الموت".

"أرغب في عشاء مكون من السمك وملح وخل إضافي".

بدأ جو في تجهيز وجبة العشاء ثم سأل شوج:

"أنت لم ترد حتى الآن بخصوص المنزل، هل ما زلت ترغب في الحصول عليه؟".

كان جو بالإضافة لامتلاكه المطعم، مشهورًا بالنصب على بلدية مدينة جلاسكو، فقد كان يقوم باستئجار الشقق المدعمة باسم إحدى بناته العديدات، ثم يعيد تأجيرها بسعر أكبر، رد شوج وهو يتحرك نحو الباب:

"سوف أخبرك بذلك بعد أن أتفاوض مع السيدة بين".

"السيدة بين صعبة المراس، أنا أعلم ذلك، ولكن لو ذهبت إلى العيش في هذه الشقة فسوف تعيش كالملك".

"إن الملكة في الوقت الحالي ترغب في قطع رأس الملك، أرجو أن تحتفظ بذلك المنزل فارغًا لفترة أطول حتى أحسم أمري".

وابتسم واضعًا في فمه قطعة بطاطس.

بحلول الوقت الذي انتهى فيه شوج من اللف في الشوارع، كانت مناوبته أوشكت على الانتهاء والشمس الذهبية بدأت في إلقاء أشعتها على شارع

جورج بضوء برتقالي دافئ، كان ذلك أفضل وقت في اليوم قبل أن يبدأ الناس في التوافد على الشارع مع بداية النهار، نظر في الساعة وانطلق إلى الجانب الشمالي قبل أن يبدأ الزحام.

انطلق في اتجاهه عائدًا إلى جوان ملكوايت، ترك زجاج السيارة مفتوحًا وبدأ يعبث في معطر الهواء المعلق أمامه من المرآة، سرعان ما ستنتهي جوان مناوبتها، ويمكنهما عندئذ التحدث بحرية في كل الأمور التي لا يمكنهما التصريح بها عبر الراديو، ركن سيارته بجوار عدد من سيارات الأجرة، وجلس في انتظارها وأخذ يراقب الباب الأمامي بحماس كأنه صبي صغير ينتظر هدية الكريسماس.

4

كان كلاهما يشعر بالحر وهو جالس على حافة الفراش عندما بدأت أضواء المساء تتسرب إلى داخل الغرفة، قامت أغنيس بتغطيس شوجي في حوض الاستحمام، وبعد أن انتهت من ذلك قامت بالاستلقاء بجانب أصغرأطفالها سنًّا حتى تقضي على شعورها بالوحدة.

ستصاب ليزي بنوبة من الغضب لو رأت ذلك، فالعناية بخمسة أفراد أمر في منتهى الصعوبة بالنسبة لها. ابتكر الطفل لعبة بزجاجات الشامبو الفارغة تجعله يخرج منها فقاقيع من الصابون ويضحك.

على حافة الفراش كانت أغنيس تمشط شعر طفلها الأسود اللامع، بينما هو ينزع عن أظافرها الطلاء، وبعد ذلك بدأ يتظاهر أن علبة الثقاب سيارة مسرعة في متاهة من الأغطية، قبل أن يجعلها تصعد على ساقها العارية ودون أن يعرف أخذت السيارة تتبع آثار جرح قديم خلفته أظافر شوج داخل فخذها، ثم عاد الطفل بالسيارة لتجري على الفراش وهو يبتسم في رضا يشبه ابتسامه أبيه.

سحبت أغنيس عبوة مخفية من البيرة ووضعت أصابعها على الحلقة

المعدنية وسحبتها، فانسابت قطرات من السائل الأصفر مسحتها بأصابعها، ثم لعقت تلك الأصابع وبعد أن انتهت من الشراب أعطت الصبي العلبة الفارغة، كان الصبي يحب الرسومات نصف العارية على جانب علب البيرة. أحب شوجي صورة تلك الفتاة فقد كان يراها لأول مرة وأحب الطريقة التي نطق بها اسمها.

كانت هواية شوجي هي جمع عبوات البيرة الفارغة من أنحاء المنزل وترتيبها حسب صور الفتيات بجوار حوض الاستحمام، كان يحب التأمل في وجوههن وأجسادهن، وأن يصنع بينهن أحاديث خيالية، في الأغلب حول شراء أحذية جديدة اخترنها من كتالوج ضخم، أو حول أزواجهن الخائنين.

في أحد الأيام رآه شوج وهو يرتب الفتيات على حافة المغطس وينادي أسماءهن، فأحس بالفخر لأن ابنه ذا السنوات الخمس يجيد التعامل مع المرأة. ولكن أغنيس لم تشعر بالسعادة لذلك وفسرت الأمر على أن شوج يتفاخر بنفسه وبأفعاله المشينة.

لاحقًا في نفس الأسبوع اصطحبت أغنيس الطفل شوجي إلى محل الألعاب واشترت له دمية جميلة، عبارة عن طفل صغير ممتلئ في مرحلة تعلم المشي ومعه ربة منزل في الخمسينيات، أحب شوجي لعبته الجديدة لدرجة أنه جمع كل سيدات البيرة وألقاها في صفيحة القمامة.

كان شوجي يراقب أمه طوال الوقت، لقد ربت أغنيس جميع أبنائها على المراقبة والحذر، بنفس الطريقة مثل مأمور السجن.

كان شوجي يقلد الهراء الذي يشاهده في التلفاز وهو يقول:

"ما رأيك، أن أغني لك أغنية".

"ر. أ. ي. ك، حاول مرة أخرى أن تنطقها بشكل صحيح".

كان شوجي يحب ملمس أصابعها فوق وجهه وهو يقول:

"رأيك، رأيك".

قامت أغنيس بالضغط على شفتيه السفلى وعصر بثرة صغيرة فوقها بلطف حتى صرخ الصبي، عبست أغنيس قليلًا ثم دفعت سبابتها داخل فمه وفتحته وأخذت تتأمل أسنانه السفلية، ثم قالت:

"شو، لا داعي لترديد تلك الأشياء التافهة، حاول أن تنطق بشكل صحيح".

بوجود أصابع أغنيس داخل فمه نطق شوجي الكلمة بشكل صحيح ولكنها لم تكن واضحة، كانت الحروف صحيحة بالشكل الذي تحب أغنيس أن تنطق به، فضحكت أغنيس وتركت شفتيه، فأعاد الكرة مرة أخرى وعاد لطريقة النطق القديمة التي لم تعجبها، طاردته أغنيس في أنحاء الغرفة فصرخ من الفرح والرعب وهو يقفز فوق الفراش، اجتاز شوجي المسافة الصغيرة بين المسجل والمنبه فسقطا على الأرض أثناء

المطاردة.

كان شوج قد اشترى لها هذا المنبه بعد أن ادخر قسائم البنزين ثم قدمه لها، وكأنه يقدم سبيكة من الذهب، لم تهتم أغنيس بالأشياء التي وقعت بينما تسبب سقوط المسجل في تشغيله، وانطلقت أنغام أغنية، فرقصت أغنيس وشوجي على نغمات الموسيقى ثم قبلت أنفه وقبل أنفها.

وبينما الأغاني تتتابع، شاهد شوجي أمه وهي تضع عبوة البيرة بين حنايا صدرها وترقص في مرح، كأنها وجدت مكانًا تشعر فيه بالأمل والفرحة وبأنها مرغوبة مرة أخرى. كان الرجال في الماضي يتتبعونها في محاولة للتقرب منها، والنساء يغمضن أعينهن عند رؤيتها من شدة الغيرة.

تمر أغنيس بيدها على جسدها وتتحسس مفاتنها، بدأت من أعلى الفخذ ثم البطن الذي اكتسبت بروزه من ولادة ثلاثة أطفال. وفجأة فتحت عينيها وشعرت أن ذلك الماضي تعفن وفسد، فقالت:

"أنا أكره تلك الحجرة، وذلك الفراش وتلك الستائر، وذلك المصباح السخيف".

نهض شوجي من على الفراش ورفع قدميه وهو يحاول أن يحتضنها ولكنها في هذه المرة دفعته بعيدًا.

كانت الشقة الصغيرة التي يعيشون فيها دائمة الضوضاء، حوائطها رفيعة يمر الصوت من خلالها، تستطيع أغنيس أن تسمع صوت التلفاز

في حجرة أبيها، وصوت شكاوى كاثرين عبر الهاتف الذي سحبته إلى غرفتها، كان طرف الباب السفلي يجرح سلك الهاتف بينما هي تسير في الغرفة وتشتكي للمتحدث من المصاعب التي تواجهها بسبب كونها في السابعة عشرة من العمر، والجيران من كل جانب يسمعون شكواها في الطابق السادس عشر، بينما الرياح تزأر في الخارج وتخترق الزجاج غير المجهز، وضعت أغنيس يدها على أذنيها وهي تسمع ضحك أبيها على أداء الممثل الإنجليزي المخنث المتخصص في الكوميديا، أكبر أبنائها في الخارج يتحرج عندما تقبله، هي امراة في الأربعين من عمرها متزوجة ولديها ثلاثة أبناء، ولا تشعر بالرضا عن نفسها.

وبينما تجلس أغنيس في غرفة نومها تسمع صوت والدها عبر الحائط.

قالت فجأة:

"ارقص من أجلي دعنا نقيم حفلة صغيرة".

أزاحت المنبه وأدارت المسجل فانبعثت أغنية حزينة، ولكن اللحن كان يتسارع ليصبح أكثر سعادة، رفع شوجي عبوة البيرة ووضعها على شفتيه، وبدأ في التأرجح وكأنه يتناول مشروب الطاقة بطعم الزنجبيل، كانت ردود فعله تجاه مشروب البيرة تشبه ردود فعله عند تناول العصيدة واللبن، بدأ يرقص من أجلها ويطرقع بأصابعه، ويتنقل في كل جوانب الغرفة كان يرقص بقوة لدرجة أنها ضحكت عشر مرات أو أكثر، كان يفعل كل ما في وسعه حتى تستمر في الضحك، بدأ يمد ذراعيه تجاهها ويضع يده على جسدها وهو مستمر في الرقص، وكلما زادت حدة تمايله بدت عليها السعادة بشكل أكبر وفي المقابل كان يزيد من حدة

دورانه حتى سقط على الأرض عدة مرات.

كان يضرب الهواء بذراعه ويهز فخذيه وهي تضحك بعنف، لم تكن تهتم بشأن عدم مجاراته لإيقاع الموسيقى، وانخرط كلاهما في الضحك حتى ذهب الحزن من عينيها، كانا يلهثان من كثرة الضحك عندما سمعا صوتًا قادمًا من الخارج. لم يكن صوت الرياح بل كان صوت الباب الأمامي وتلته أصوات أقدام ثقيلة في الردهة، أسرعت لتخفي عبوة البيرة خلف طرف الفراش، ونظرت إلى باب الحجرة وهي تحاول أن تبتسم ابتسامتها العذبة قدر استطاعتها.

توقفت الخطوات أمام باب الغرفة، وسمع شوجي صوتًا وكأنه عملات معدنية داخل جيب بنطال، ثم سمع صوت تنهيدة منخفضة ثم أكملت الخطوات طريقها حتى غرفة المعيشة.

عاد شوج إلى المنزل من أجل الحصول على استراحة وتناول الشاي، ولكنه لم يدخل الغرفة ليقضيها معها،

سمعت صوت شوج يلقي التحية على أبويها بصوت هادئ ودون مشاعر، عرفت أغنيس أن أبيها ينظر إليه الآن من أسفل النظارة وانعكاس التلفاز يتراقص على عدستها، فابتسمت. سوف يعرض ويلي على شوج أن يجلس مكانه على المقعد المريح، فيقف الرجلان أمام المقعد كأنهما يلعبان لعبة الكراسي الموسيقية، حتى يضع شوج يده على كتف ويلي ويدفعه للجلوس مجددًا، بينما تقف ليزي بوجه خالٍ من المشاعر كالصخرة بجوار غلاية المياه وكأن شوج لم يكن الشخص الذي دخل عليها، ولكن رياح الشتاء المزعجة.

سمعت أغنيس ما يدور بينهم من حوار عبر الحائط وبحركة مفاجئة أمسكت زجاجة العطر ومسحوق التجميل وأطاحت بهما عبر الغرفة، سقط المصباح على الأرض وانكسر، فغيرت الإضاءة المنخفضة من ملامح وجهها بشكل جعل شوجي يشعر بالرعب، تغير شكل كل شيء في الغرفة بسرعة شديدة.

زحفت أغنيس إلى طرف الفراش، شعر شوجي بقطرات من عبوة البيرة تتساقط على المرتبة وتبلل جواربه، دفنت وجهها في شعره وبدأت في البكاء، سقطا معًا على الفراش فاستطاع أن يرى وجهها وقد اختلطت مساحيق التجميل بالدموع، والكحل يسيل من عينيها في اتجاه الأسفل، اختفى جمالها تمامًا وحلت محله طبقات من الطلاء والمشاعر المختلطة.

مدت يدها عبر الغرفة لتجلب سجائرها، وأشعلت واحدة، ثم تناولت نفسًا بصوت عالٍ وتحركت ناحية الشباك وشاهد شوجي دخان السيجارة المتصاعد والشعلة البرتقالية التي تكوم فوقها الرماد، ثم بدأت الستائر في الاشتعال، بدأ شوجي في البكاء، فجذبته بيدها اليمنى وقالت:

"هششهشش، أنت فتى كبير لا بد أن تتماسك من أجل ماما".

وظهر في عينيها هدوء مميت لا يعرف مصدره.

تحولت الغرفة بسرعة إلى اللون الذهبي وتصاعد اللهب من الستائر حتى وصل إلى السقف، وارتفع الدخان الأسود كما لو كان يهرب من النار الجشعة التي أكلت كل شيء، كان من المفترض أن يخاف شوجي،

ولكن هدوء أمه جعله يهدأ.

كانت الغرفة برغم كل ما يحدث تبدو جميلة وظلال اللهب تتراقص على الجدران في نعومة، وكأن ورق الحائط دبت فيه الحياة. أمسكت أغنيس بشوجي ووقفا معًا يراقبان ما يحدث في صمت، كانت الستائر قد اختفت تمامًا وتساقطت على الأرض كالآيس كريم الذائب، وبدأ الفراش في الذوبان وكذلك ورق الحائط، عاد الرعب إلى قلب شوجي مرة أخرى ولم يستطع التوقف عن السعال، كان سعالًا ثقيلًا ومريرًا مثل تلك المرة التي وضع فيها قلم الحبر في فمه فتسرب الحبر للداخل، لم تتحرك أغنيس على الإطلاق، وقفت في مكانها وأغمضت عينيها وبدأت في غناء أغنية حزينة.

فتح شوج الكبير باب الغرفة فتجدد الأكسجين في الداخل، واندفع اللهب خارجًا كأنه يقوم بتحيته، اندفع بسرعة إلى الداخل وفي ثوانٍ معدودة كان يقف على الفراش ويفتح الشباك بيده العارية، ألقى الستائر المشتعلة إلى الخارج، ثم خرج وترك الغرفة بسرعة.

صرخ شوجي ينادي على أبيه، وهو يظن أنه رحل وتركهما بمفردهما، ولكن شوج الكبير عاد مرة أخرى ومعه مناشف كبيرة مبللة وأخذ يلقيها على النيران المشتعلة، ثم قلب الفراش ووضع فوق أجساد شوجي وأغنيس تلك المناشف.

حاول شوج ألا يصرخ وجلده يحترق، كان يقاوم اللهب بينما كانت أغنيس ما زالت تقف متيبسة. سرعان ما نجح شوج في السيطرة على

الحريق، بينما كان يقف وفي يده منشفة مبللة وزوجته وابنه وراء ظهره.

بأعين مرتعشة شاهد شوجي كتف أبيه يرتعش من الغضب، وعندما التفت إليهما استطاع أن يرى وجهه قد اصطبغ بالحمرة، وأطراف أصابعه احترقت من اللهب.

وقفت ليزي وويلي في ظلام الردهة، نزع شوج ابنه من بين يدي أغنيس ودفع به إلى ليزي، ثم سحب أغنيس ووضعها على الفراش، وكان على وجهها تعبير غريب يشبه الأسماك الميتة، كانت شفتاها بيضاوين بلا حياة، صرخ شوج باسم أغنيس مرات عديدة وهو يضربها على وجهها بلا فائدة.

نظر شوج إلى ليزي التي تحمل ابنه، وركض ويلي إلى داخل الغرفة ونظر إلى أغنيس من خلف نظارته السميكة وبقي الجميع صامتًا، لا يعرف ماذا يقول.

لم تحافظ أغنيس على الصمت طويلًا وفتحت إحدى عينيها، كانت متورمة ومحاطة بهالة سوداء ولكنها كانت صافية من الداخل، أعادت السيجارة إلى شفتيها مرة أخرى وقالت:

"أين كنت؟ عليك اللعنة!".

5

كان وسط المدينة ممتلئًا برجال يرتدون ثيابًا برتقالية اللون، طافوا حول النصب التذكاري مع المزامير والنايات والطبول من ساحة جورج حتى ميدان جلاسكو جرين. راقبت كاثرين ما يحدث من نافذة المكتب والرجال يطوفون بالرايات الملونة، بدأ الأمر بالبروتستانت يعلنون دعمهم للملك بيلي[10] وفي نهاية المطاف عندما اتجهوا للحانات بدؤوا في الصياح..

"أفيقوا، يا أوغاد فينيان[11]".

لم تكن كاثرين تصدق ما يحدث بينما رجال الشرطة ظلوا طوال النهار جالسين على ظهر خيولهم التي تشعر بالتوتر من أجل حفظ الأمن مرتدين سترات ذات ألوان عاكسة للإضاءة، تجمع بعض الشبان يرتدون سترات ملونة وغنوا أغاني عنصرية، وكانوا يضايقون المارة من الرجال، ومن السيدات العابرات الذين لا ينتمون لطائفتهم ولا يرتدون نفس ألوانهم.

حاولت كاثرين أن تغادر مكتبها في وقت متأخر قدر المستطاع لتجنب ما يحدث في الخارج ولكنها رحلت في النهاية. وقفت أمام المبنى الضخم ذي الحجارة العريضة ذات اللون الرملي، وشعرت بندم شديد لارتدائها

10- هو الملك ويليم الثالث ملك إنجلترا واسكتلندا وأيرلندا وعرف باسم ويليم البرتقالي لأصوله الهولندية وقد خلع عن العرش صهره جيمس الثاني لأنه كان كاثوليكي المذهب. (المترجم)

11- منظمة قومية ثورية تكونت في القرن التاسع عشر بين الأيرلنديين وكانت مسؤولة عن أعمال ثورية على فترات متقطعة ضد البريطانيين حتى أوائل القرن العشرين، عندما طغى الجيش الجمهوري الأيرلندي عليها تدريجيًا. (المترجم)

معطفًا أخضر، وحذاء ذا كعب عالٍ في يوم السبت البرتقالي[12]، وخصوصًا أنها اضطرت إلى العمل والسماء ملبدة بالغيوم، لم تكن جيدة في حفظ الأرقام والتواريخ، ولكن السيد كاميرون أصر على أن تكون في العمل في ذلك اليوم بصحبته للرد على الهاتف الذي ظل صامتًا طوال الوقت، ولتحضير الشاي الذي لم يشربه أبدًا.

لم تكن الوظيفة سيئة بالنسبة لها، ولكن شوج زوج أمها كان يعترض طوال الوقت، ويصف عقلها بأنه عفن، لا يهتم بغير الشباب.

كان العمل في مجال الائتمان مملًّا، ولكنها أحبت المكتب المنظم والقلم الأحمر الأنيق، وأحبت الإمضاءات المنمقة على يسار كل صفحة من صفحات دفتر الميزانية.

أحبت الدقة والنظام والتوثيق على نحو ما، فقد ورثت من أغنيس الدقة والأناقة، وأحبت أن تعرف ما يملكه الناس، وما هم قادرون على إنفاقه، بجانب أن السيد كاميرون كان لديه صبي وسيم، وكانت كاثرين تفكر فيه كلما غادرت المنزل.

عندما ذهبت كاثرين إلى السينما بصحبة كامبل كاميرون انزلقت يده بسرعة على جسدها كأخطبوط قذر وشعرت بأن له دوافع ونوايا خفيه.

في إحدى الأيام انزوت بها جدتها في ركن، وأخبرتها أنه من السخف ألا تتزوج شيموس كيلي، وشرحت لها ليزي كيف تزوجت في صباها من فتى كاثوليكي صالح، وكيف ظل إلى جانبها ما يزيد على أربعين عامًا عبر كل المحن والمصاعب.

12- سلسلة من المسيرات والتظاهرات التي يقوم بها بعض المتعصبين في أيرلندا واسكتلندا وغيرها من دول الكومنولث في ذكرى انتصار الملك ويليم البرتقالي على الملك جيمس الثاني، وتواجه هذه المسيرات معارضة من الكاثوليك والقوميين لما تتضمنه من نزعة طائفية. (المترجم)

كان من السهل عليها أن تتجاهل نصيحة جدتها، فليزي بعد كل هذا العمر لم تكن تملك شيئًا، ويجب أن يحصل المرء من الزواج على مكسب، بخلاف آلام الركبة وأوجاع أسفل الظهر، طلبت منها ليزي عدم التفكير في كاميرون الشاب، بينما كان زوج أمها يخطط لأن يضع ابن أخته الشاب دونالد الصغير في طريقها.

عندما رأت دونالد للمرة الأولى شعرت بشيء من السعادة الخفية، وأحبت الطريقة التي يفرض بها وجوده في منزلهم، كان يجلس متحدثًا عن نفسه بلا حياء، ويباعد بين ساقيه ليشغل مساحة، أكبر من المساحة التي كان من المفترض أن يشغلها في الغرفة. كان يفرض نفسه، ويتباهى بشكل مفرط حتى إنه أخبرها أنه أفضل منها في نواحٍ عديدة، كانت تحب تلك الطريقة المتسلقة التي يتبعها الكاثوليك من أصول اسكتلندية، فهم مغرورون يهتمون لصحتهم ومظهرهم، ولا يبالون إلا بأنفسهم ولكنهم محبوبون للغاية، هم مصدر فخر لأمهاتهم، ولا يبالون بإخفاء عيوبهم ونواقصهم، وكان دونالد الصغير من ذلك النوع من الرجال الذي يبدو أنه خالٍ من الأعباء معدوم الضمير.

كان دونالد أشقر، ذا خدود حمراء، يأكل بطريقة مخجلة، يضع اللحم على حساء الكرنب، ويضع الكثير من النقانق في طبقه، أحبت كاثرين رؤيته وهو يأكل ثم يعيد الطبق إلى ليزي ليطلب المزيد، شعرت كاثرين أنها محظوظة بوجوده ذلك اليوم، وقد كانت تعرف أنه حظي بعشرات الفتيات في حياته، في الوقت الذي كانت فيه تشارك أخويها غرفة نوم واحدة طوال السنوات السابقة.

لم يكن دونالد يدين لأحد بشيء وكان لا يتحمل عبء المسئولية ولا يساعد أمه بالمال، منذ لقاء كاثرين ودونالد الأول حاول أن يسلبها عذريتها، ولكنها رفضت وأعطته درسًا في الأخلاق، وأخبرته أنها تنتظر

أن تتزوج لتفعل ذلك، ولكنه قهقه بصوت عالٍ.

كان يشبه شوج كثيرًا لذلك اضطرت لأن تخدش كف يده بأظافرها وتدفعه بعيدًا عنها، ولكنها أحبت القوة والجرأة اللتين يتحلى بهما، كانت تشعر في داخلها أنه سيهجرها لرفضها مضاجعته، ولكن دونالد لم يفعل ذلك، وانتظر حتى تبلغ عامها السابع عشر وطلب من عمه شوج يدها للزواج، ثم تقدم لها على متن حافلة في طريق ترونجيت، وكان مشهدًا مبهرًا ولكنه كان يتعلق به، ولم يكن يتعلق بها على كل حال.

بينما زاد المطر من حدته بدأت كاثرين في الهرولة بحذائها العالي، ولمحت قصصًا رهيبة باللونين الأحمر والأسود على الصفحة الأولى من الجريدة المسائية، حملت الجرائد صورًا لفتيات تم قتلهن واغتصابهن في ظلام المدينة وقالت الجريدة إنهن عاهرات لديهن مشاكل مع المخدرات، إحدى الفتيات وضعها القاتل في حقيبة سوداء بلاستيكية محكمة الغلق وألقاها في جرف منزلق على حافة الطريق السريع، وبقيت هناك لعدة أشهر، قبل أن تنهش الحيوانات الحقيبة السوداء، فتخرج يدها الأرجوانية، وتكشف مكان الفتاة التي لم يكن أحد قد أبلغ بفقدانها طوال هذا الوقت.

قال ويلي في شفقة موجهًا الحديث إلى ليزي وهو يثبت طاقم أسنانه:

"أين كانت الكنيسة من كل هذه الأحداث؟".

كانت كاثرين تشاهد صور الفتيات المقتولات والمشوهات في الصحيفة برعب شديد، كانت أعينهن الغائرة، وخدودهن المجوفة موضوعة على خلفيات برتقالية باهتة، ومكتوبًا تحتها الفتاة القتيلة، وفي الجانب الآخر كانت صور أخرى لهن، أعطتها العائلة للجريدة.

لم يكن الظلام قد أحكم خيوطه بعد بشكل كامل عندما وصلت إلى الفناء الأمامي لبرج سكني خرساني، حيث كان يقف العديد من الفتية

الصغار في دائرة ويلتفون حول شيء في نهايته عصا، كان بعضهم صغيرًا جدًّا للخروج في هذا الوقت المتأخر وبعضهم لا يرتدي معطفًا أو حذاء مناسبًا لأمطار شهر يوليو، لفت انتباهها شيء ما في تلك الكومة، وظنت أنه ربما يكون كلبًا ميتًا أو ربما شخص ما وضع السم للفئران الشاردة لأنه كان لا يحتمل مشاهدتها تتلوى من آلام الصقيع.

وعندما دققت النظر وجدت ستائر محترقة تشبه الستائر في غرفة أمها، فرفعت نظرها إلى الطابق السادس عشر حيث وجدت دخانًا متصاعدًا والنوافذ جميعها مفتوحة والأضواء مشتعلة، لم تكن هذه علامات جيدة، فما الذي يبقي الأضواء والنوافذ مفتوحة حتى هذه الساعة المتأخرة؟ كان الاحتمال الأقرب إلى ذهنها أن شقيقها ليك لم يعُد إلى المنزل، وربما سيظهر بعد العشاء محاولًا التسلل خلسة، كان ليك هادئًا ولا يفتقده أحد، ويجيد التسلل والاختباء، كان عليها البحث عنه حتى لا تعود إلى أمها وحيدة.

هناك سياج حديدي على طول الطريق المظلم المؤدي إلى سانت ستيفن، كان ذلك الطريق يسمى الممشى الخطير، حيث إنه بمجرد الدخول إليه لا يستطيع المرء الالتفاف والعودة مرة أخرى حتى يصل إلى نهايته البعيدة. وكانت العصابات تحب ذلك الطريق.

عبرت كاثرين حتى منتصف الطريق عندما شاهدت رجلًا وامرأة مخمورين وسمعت همس المرأة الشابة بوعود قذرة للرجل العجوز، أسرعت كاثرين الخطى حتى تجاوزتهما، وانحنت لتعبر من فتحة أسفل السياج ولكن مؤخرة شعرها علقت في أطرافه، ظنت كاثرين لوهلة أن الثنائي المخمور أمسك بها، جذبت شعرها وحررت نفسها، ولكنها سقطت على الأرض في الوحل، فجلست تنظر إلى نفسها وهي ملطخة ومبعثرة الشعر كحيوان يجلس في الظلام.

داخل مصنع الألواح الخشبية كان هناك الآلاف من الصناديق المصنوعة من خشب الشحن المطلي باللون الأزرق، يبلغ طول كل منها نحو ثلاثين قدمًا، ولها قاعدة عريضة مثل برج سكني ضخم، رتبهم رئيس العمال على هيئة شوارع متقاطعة، تتسع لعشرة صناديق بالطول وعشرة صناديق بالعرض، وبينهم مساحة فاصلة تتسع لمرور شاحنة صغيرة مخصصة لنقل البضائع، عبرت بين الممرات كما علمها ليك في السابق كان من السهل أن تتوه بين تلك الممرات سواء عبرتها نهارًا أو ليلًا، لذلك كانت تسير بحذر، كانت الأضواء البعيدة تلقي خيالات ضعيفة على الجوانب الشمالية والجنوبية للصناديق، ولكن المكان كان مظلمًا كالليل الحالك.

بحلول الوقت الذي لاحظت فيه سترة برتقالية تتحرك بين الصناديق حاولت العودة إلى الخلف والهرب ولكن فات الأوان، فحذاؤها ذو الكعب العالي تسبب في انزلاقها لتجد يدًا خشنة تجذبها، بينما يد أخرى تطبق على فمها وتمنعها من الصراخ، استطاعت أن تشم رائحة النيكوتين والغراء التي تفوح من تلك اليد، وتحركت العديد من الأيدي على جسدها تتجول وتفتش، سمعت من خلفها صوت انزلاق سحابة سروال، بينما اقتربت من خلفها أقدام شخص قام بالضغط على ساقيها، شعرت كاثرين بالدم والإثارة تضخ عبر سروال الرجل الضيق الذي أصبح ملتصقًا بها، واقترب رجل آخر من وجهها وسرواله مشتعل وحار بالرغبة، صاحت:

"ماذا تريد مني بحق الجحيم؟".

قال الرجل الذي أمامها:

"إنها تملك صدرًا جميلًا".

ضحك الجميع واقتربوا أكثر، وامتدت يد قذرة تخلع البلوزة التي ترتديها في العمل، ثم شعرت بنصل معدني يداعب وجهها، وشعرت

بالخوف عندما سألها:

"سيلتك أم رينجرز".

لو أجابت بشكل خاطئ سوف يترك النصل علامة في وجهها لن تنمحي أبدًا، وسوف تتعرض للاغتصاب وربما القتل.

كانت كاثرين في العديد من الليالي تجلس في الفراش تشاهد ليك وهو يسأل شوجي الرضيع العديد من الأسئلة التي لا تحمل في معناها إلا الهراء:

"المستشفي أم المشرحة؟".

سؤال غير ذي جدوى، فالوغد الفاسق الذي يقف خلف رأسها لا يحتاج لذريعة ليفعل بها ما يحلو له، صاح الرجل

"لن أكرر السؤال مرة أخرى".

اهتزت السكين بعد أن دسها في فمها ولامست أسنانها، وسقطت دمعة وحيدة من عينها اليسرى، قبل أن تقول:

"سيلتك".

زفر الرجل وهو يشعر بخيبة الأمل، بينما كان يسحب السكين ببطء من بين شفتيها:

"فتاة محظوظة".

وكان يبدو في عينيه الاستمتاع بحالة الرعب التي تشعر بها، وضعت كاثرين يديها داخل فمها وتحسست خدها من الداخل ولسانها بحثًا عن

آثار للدماء، ولكنها وجدت كل شيء سليمًا.

ظهر بصيص من الضوء على وجه كاثرين، فسمعت صوتًا من الخلف يقول:

"اللعنة، إنها أخت ليك".

نظرت كاثرين حولها فوجدت حفنة من الأولاد في عمر ليك، وربما أصغر قليلًا كانوا يجلسون في الظلمات منتظرين شخصًا سيئ الحظ حتى يتحرشوا به، أو يذيقوه طعم سكينهم المعدني، أغلقت كاثرين قبضتها ولكمت الولد الذي يحمل السكينة المعدنية ولكنها لم تشعر بالراحة، فأعادت الكرة، فضحك الولد وبدأ في الرقص مبتعدًا، ثم دفع الأولاد كاثرين للخلف في اشمئزاز فبدأت في الركض بعيدًا عنهم، كانت تسمع وقع أقدامهم خلفها بينما كانت تحاول أن تتماسك، واستندت إلى أحد الصناديق الزرقاء حتى تقدر على الوقوف.

أمسكت حذاءها ذا الكعب العالي، خلصت قدميها بصعوبة، ولكنها فقدت فردة الحذاء، استمرت في الركض حتى اقتربت من البرج الخشبي المضيء، ظهر جسدها من خلال تنورتها المقطوعة وأصوات الأولاد الخطيرة المحملة بنشوة القوة والخمر، ما زالت تستطيع سماعهم يركضون في الخلف، تريد أن تستلقي لعدة دقائق حتى تستعيد أنفاسها ولكنها أجبرت نفسها على الاستمرار في الهرب، يوجد خلفها الآن خمسة أولاد على وجوههم بثور وعلامات مختلفة يركضون وراءها، بينما أكبرهم سنًّا صنع حلقة بإحدى يديه يدخل أصبع يده الأخرى بداخلها في إشارات نزقة.

بصقت عليه كاثرين والأولاد يضحكون ويركضون كحفنة من الفئران المبللة، تسلقت كاثرين البرج الخشبي الأزرق ووقفت في الأعلى بزيها الرسمي المخصص للعمل بعد أن أتلفه الأولاد، لم تستطع خلال الهرب أن تميز طريقها بين الصناديق الخشبية، وخشيت أن تقفز في الهواء محاولة أن تتبين مكانها حتى لا تقع أرضًا، ويعبث الأولاد بجسدها الميت ذي العنق المكسور.

أحصت كاثرين أربعة أبراج من خلفها، إن لم تخطئ في العدد إذًا هي في الطريق الصحيح.

مدت عارضة خشبية أمامها وانتقلت إلى برج آخر وبدأت في الهمس:

"ليك.. ليك" فلم تصلها إجابة، شعرت بالخوف حتى جاء صوت مباغت:

"بو".

سقطت للخلف، لو كانت كاثرين أقرب لحافة البرج لسقطت على الأرض وماتت في الحال.

بصقت في وجه صاحب الصوت وقالت:

"اللعنة عليك، لماذا قمت بإخافتي على هذا النحو؟".

حاولت كاثرين أن تتماسك وتخفي ما حدث، ولكن دموع العار والخجل والرعب تساقطت فجأة على وجهها،

مسح ليك وجهها بأكمام قميصه، ولم يدرك سبب بكائها فقال:

"هيا إلى الداخل، فالمطر سيتسرب إلى جوف الصندوق".

تسلقت كاثرين إلى داخل عرين أخيها، فقام ليك بسحب قطعة من الخشب وأغلق وراءهم الفتحة، كان المكان مظلمًا مثل قبو مغلق، وعفنًا كجوف تابوت مقفول.

كانت كاثرين تشعر بالخوف، أنفاسها متقطعة، وتصدر صوت نشيج مرتفع.

حذرها ليك:

"خذي حذرك، ولا داعي لإصدار أصوات مرتفعة".

كان لدى ليك في الداخل قطعًا من الأثاث القديمة، وكراسي المطبخ المكسورة، وقد غطى الأرضية والحوائط ببقايا من السجاد القديم المهلل، وعدد من صناديق الورق المقوى، ووضع بعض الأعمدة الخشبية لتدعم الأركان، وأوصل بعضها بعضًا لصنع أريكة خشبية صغيرة، وعلق على الجدران بعضًا من صور الفتيات العاريات وصورة لمارغريت تاتشر ومهرج يضع بندقية محشوة بداخل فمها. أدركت كاثرين أن أخاها جعل ذلك المكان مريحًا حتى يتمكن من استضافتها.

كانت تعلم أن أحد الأولاد الأكبر سنًّا طعن حارسًا ليليًّا في المصنع، ومنذ ذلك الوقت بدأ الحراس في التغاضي عن أفعال الأولاد وتركوهم لشأنهم، فأصبح مكانًا رائعًا بالنسبة لهم لشرب الخمر وشم الغراء، ومتنفسًا للهرب من قسوة آبائهم،

حتى إن بعض الأولاد كانوا يحضرون الفتيات إلى هنا ويصنعون الأسرة من المعاطف القديمة وبقايا القماش، ومع الوقت أصبحت سمعة المكان سيئة، فتوقفت الفتيات عن القدوم إلى المصنع، لذلك أمضى الأولاد الليالي وهرموناتهم مستعرة يطاردون كل من يقع تحت أيديهم، ومع الوقت بدؤوا في البحث عن أماكن أخرى وتركوا المصنع أكثر هدوءًا، ولذلك اتخذ

منه ليك وكرًا ليقضي لياليه الخاصة في عزلة نهاية الأسبوع.

عندما تتناول الكحول في يوم الخميس، يدخل ليك إلى مطبخ جدته ليحصل على بعض الفاصوليا المجففة والكاسترد ويذهب إلى هناك للاختباء، ولا يعود إلى منزل العائلة إلا يوم الأحد وهم يشاهدون التلفاز. حيث تكون أغنيس ساكنة وهادئة بعد ان غادرتها شياطين الخمر. يجلس ليك بجانبها على الأريكة ويستمتع بحضنها الدافئ ورائحتها الذكية بعد الاستحمام فتنظر له ليزي بحنان وتسأله هل قضى عطلة نهاية الأسبوع في فراشه؟

كان ليك هادئًا وصغير الحجم، ولكنه منذ بلغ الخامسة عشرة زاد طوله حتى وصل إلى 180 سم، وكان نحيفًا لكنه قوي الجسم، ورث شعره وبنيته من والده الحقيقي الذي نسيه منذ زمن بعيد. كان شعره بنيًّا لامعًا وطويلًا يغطي أذنيه، وكانت عيناه داكنة لا تظهر المشاعر إلا ببطء، لم يكن يشارك الأسرة كثيرًا في الحديث، ولكنه كان يتقن التحديق في من حوله ومتابعة أحلامه النهارية إلى كل مكان ومن خلال أي فرصة.

يقتصد ليك في عواطفه ويتعامل بهدوء وتوازن مع كل شيء، ورث ذلك من والده أيضًا، الشيء الوحيد الذي ورثه من والدته كان شكل الأنف، كان طويلًا وبارزًا كأنوف الرومان، يقف انفه فوق وجهه الرقيق كنصب تذكاري لكنائس أسلافه من الكاثوليك الأيرلنديين. حصلت أغنيس على هذا الأنف من أبيها ويلي وورثها ويلي من أبيه الذي ترجع أصوله لمقاطعة دونيجال. وظل ذلك الأنف متوارثًا في العائلة بين جميع الرجال والنساء من سلالة كامبل.

يشبه عرين ليك غرف الأولاد التي تفوح منها روائح البيرة والغراء والسائل المنوي، تجولت كاثرين في المكان وشعرت بالانزعاج من علب الطعام نصف المأكولة، وسألته وهي تغالب دموعها:

"منذ متى وأنت هنا؟".

قال وهو يسحب معطفًا قديمًا من كومة متعفنة في الركن "لا أدري، لقد تركتها في المنزل وهي تتجرع آخر كأس من زجاجة الويسكي قبل موعد الغداء".

أعطى المعطف إلى كاثرين فخلعت معطفها الأخضر الأنيق، وارتدت المعطف الرجالي الذي تفوح منه رائحة الصوف والعرق، كان ملمس الصوف الزغبي جيدًا، تناول ليك علبة بسكويت قديمة من فوق رف مجاور ومنحها إياها وجلسا معًا على أريكة منزلية الصنع.

وضع ليك يده فوق كتفها وبرفق أحاطا أنفسهما بغطاء، تناولت كاثرين قطعة من الكعك المحلى الذي تظهر فيه رائحة شراب العنب الذي تحبه جدتها وقالت:

"لم أتناول شيئًا اليوم، وعدني كاميرون بشطيرة عندما أحضر طعام الغذاء لنفسه ولكنه لم يفِ بوعده، ولم أحب أن أذكره بذلك، حتى لا يدرك أنه جرح مشاعري".

رد عليها ليك بصوت بارد:

"المشاعر للضعفاء".

نظرت له كاثرين من خلف الغطاء وقالت:

"حسنًا، والاختباء للجبناء".

سقط رمش خجول من عينيه على خده الوردي، فتذكرت أنه كان شديد الحساسية منذ صباه، أعادت كاثرين يدها إلى تحت الغطاء ووضعتها خلف ظهره، فاستطاعت أن تتحسس أضلاعه النحيفة خلف معطفه المدرسي وقالت:

"أنا آسفة ليك، كان الوصول إلى هنا صعبًا بسبب المطر والبرد، وقد تلف حذائي الجديد وأنا مبتلة وخائفة".

"نعم، لا يوجد هنا شيء جيد".

قامت بسحبه في اتجاه صدرها، كان أصغر منها في العمر بعامين، ولكنه أطول منها بنصف متر، ووضعت رأسها على صدره وبدأت في البكاء، وتركت الغضب والحزن الذي تشعر به بسبب محاولة الاغتصاب والسكين الحاد الذي وضعوه في فمها يخرج مع الدموع، سألته:

"هل كنت هنا طوال اليوم؟".

تنهد ليك:

"نعم، عندما استيقظت أدركت أنها تخطط لشيء ما، وطلبت مني رعاية الرضيع بينما خرجت إلى المتجر".

"هل ذهبت إلى الحانة لتناول مشروب؟".

"لا أعتقد ذلك، هي شربت الويسكي واشترت البعض في طريق عودتها".

لعقت كاثرين آثار البسكويت اللزجة المتبقية على أصابعها ووضعت العبوة الصفيح جانبًا، قال بحزن:

"كان يبدو عليها العطش".

سادت بينهما لحظة طويلة من الصمت قبل أن يخلع ليك طقم أسنانه الصناعية، فسألته كاثرين:

"هل ما زالت أسنانك تؤلمك؟".

تشعر بالامتنان بداخلها لأنها ما زالت تحتفظ بأسنانها، خلع ليك أسنانه الضعيفة والمحشوة عملًا بنصيحة الطبيب في سن الخامسة عشرة، ووضع مكانها طقمًا صناعيًّا بعد أن شعر بالانزعاج بسبب زيارته المستمرة لطبيب الأسنان.

قال:

"نعم".

وأعاد طاقم الأسنان لمكانه مرة أخرى، ردت عليه:

"أنا آسفة يا ليك، آسفة إني تركتك اليوم".

وقبلته في خده بلطف. فشعر بحنان مفرط:

"ابتعدي عني يا فتاة، لا أريد أن يشعر أحد بالأسف تجاهي، فقد توقفت عن الرثاء لنفسي منذ أمد طويل".

قام ليك من مكانه وفك أزرار معطفه وألقاه بعيدًا ومسح القبلة التي منحته إياها من فوق خده، نظرت إليه وشعرت أنه يملك ملامح صبي صغير لولا أنفه الطويل البارز، صرخ فيها:

"توقفي عن التحديق في وجهي".

وتحرك إلى الركن المظلم من الصندوق.

التقطت كاثرين كراسة رسم سوداء وتصفحت رسومات ليك، فوجدت

مجموعة من الفتيات رائعات الجمال، يرتدين البكيني ويجلسن على ظهر سيارة فيراري، أو ظهر سيارة أخرى ذات باب مفتوح يشبه الجناح.

كانت رسومات ليك جيدة للغاية، لا تقل جودة عن الرسومات التي تغطي الغلاف الخارجي لألبومات موسيقى الروك، حيث خطوط العضلات وتفاصيل الجسد واضحة ودقيقة، كان يرسم كذلك مباني صغيرة ورسومات هندسية متقنة الصنع، لم تكن كاثرين تتذكر دقيقة واحدة لم تر ليك خلالها يمسك القلم الرصاص.

خرج ليك من الظلام واتجه إليها مسرعًا ليتنزع كراسة الرسم من يدها قائلًا:

"إنها لا تخصك، ولا أرى اسمك اللعين عليها".

ابتسمت في خبث وقالت:

"ليك أنت موهوب للغاية".

رفع ملابسه ودس الكراسة أسفل حزام خصره وسرواله الجينز وعاد إلى الظلام مرة أخرى.

قالت له:

"سوف تصبح فنانًا رائعًا في يوم ما، وسوف أتزوج أنا ويهرب كلانا من ذلك المكان اللعين".

"اللعنة عليك أيتها العاهرة، أنا أعرف أنك ستتركينني أتعامل معها بمفردي وسترحلين، لقد رأيتك تتبادلين النظرات مع ذلك الأحمق ذي البشرة الحمراء".

"ألا يمكنك أن تخرج للنور حتى أراك؟".

"لا. أحب البقاء في الظلام".

جففت كاثرين شعرها بأكمام المعطف، وتركت كل الأحزان والمخاوف خلف ظهرها وقالت:

"عار عليك! أنا على استعداد لأن أتجرد من كل ملابسي من أجل مصارعة ثعبان مجنح ضخم، فقط من أجل سعادتك".

هز ليك رأسه وخرج من الظلام وقال:

"أنا أحب رسم الأثداء الكبيرة".

شعرت كاثرين بالصدمة، ولكنها قالت استخدم خيالك وارسم أشياء جميلة، قال لها:

"ليس لدي القلم المناسب لرسم تفاصيل معقدة".

نظر كلاهما لبعض في جدية، وتحركت كاثرين إلى ركن الغرفة وخلعت المعطف، بدأ في رسمها مرتديه ثوب السباحة

وفي هدوء بدأت الابتسامة الخجولة تعود إلى وجهه مرة أخرى، شعر ليك بأن كاثرين تحدق في وجهه فقال لها:

"لم لا تلتقطين لي صورة ضوئية!".

حاولت كاثرين ألا تطيل نظراتها إليه حتى لا يعود إلى الظلام مرة أخرى.

سألها:

"هل كانت ماما في مزاج للمشاحنات أم كانت هادئة عندما تركتها في المنزل؟".

هزت كتفها قائلة:

"كانت تتحدث في الهاتف بحثًا عن شوج، يمكنني أن أخبرك أنها سوف تنهي اليوم نهاية مأساوية".

"هل كانت مستثارة؟".

"لا بل كانت حزينة".

"وماذا بعد؟".

"أعتقد أنه يجب علينا أن نعود إلى المنزل قبل أن يحدث مكروه".

"استحالة أن أعود، لقد سرقت من الطعام ما يكفي لأمضي الليلة هنا".

"سوف تموت من البرد".

بدأ ليك يعود في خطوات قصيرة للظلام مرة أخرى:

"هذا أمر جيد".

"اللعنة يا ليك، لقد كبرت لتمضي الوقت في عربة الأطفال هذه".

كان قولها لئيمًا وكانت تعلم أنها لن تحقق غرضها لو استمرت على هذا المنوال، فشقيقها كان موهوبًا في العناد بشكل أسطوري، ولكن كاثرين لم تكن ترغب في العودة إلى أمها بمفردها، ولم تكن ترغب في السير في الظلام مرة أخرى من دونه.

"أرجوك يا ليك، لقد رآني أصدقاؤك الذين يستنشقون الغراء في الخارج وأنا في الطريق إليك، وحاولوا رفع تنورتي، ولكني هربت منهم".

وعضت شفتيها بشكل مثير للشفقة:

"لقد هددوني بسكينة الصيد وأمسكوا صدري".

شعر ليك بالغضب، كانت تعرف أنه قادر على التحول بسرعة من حالة الهدوء إلى الغضب الشديد ليصبح قوة مدمرة قالت:

"أرجوك".

وذراعاها تتدليان بجانبها كإشارة واضحة على العجز الذي لم يكن من طباعها.

عاد ليك إلى الطرف المظلم من العرين، ورجع وفي يده الجزء المكسور من مجرفة يدوية تستخدم في العناية بالحدائق وقناع لإخفاء الرأس، وأمسك المصباح، تسلقا معًا إلى الخارج حتى وصلا لسطح الصندوق الخشبي، ومشيا في الظلام حتى رفعت كاثرين ذراعها اليمنى وأشارت إلى أضواء المدينة البرتقالية وقالت:

"ليك أنظر إلى هذا، كأن خيطًا من الدخان الأسود يمتد في الأفق".

قال:



"لا".

وهو يحاول أن يتبع مسار أصابعها التي تشير بها تجاه المدينة، قالت وهي تعيد الاشارة بقوة:

"هناك".

وكأن ذلك سوف يساعده على الرؤية بشكل أوضح.

"لن أستطيع الرؤية لمجرد أنك تمدين ذراعك في خط مستقيم بصلابة، الظلام حالك ولا أرى شيئًا على الإطلاق".

فكرت في كلامه قبل أن تخفض يدها وتستمر في السير نحو الأفق، نحو المكان الذي قال شوج:

"هذا هو المكان الأنسب بالنسبة لكم".

7.

قامت أغنيس بتعبئة حقائب شوج الجلدية الحمراء ونقلتها عبر الشقة، ظهرت هذه الحقائب من العدم في وقت سابق خلال نفس الأسبوع ولم يكن عليها علامة تدل على السعر كما يبدو عليها آثار استخدام بسيط.

طوى شوج ملابسه في عناية ووضع الجوارب داخل الأحذية، وشكل الملابس الداخلية على هيئة لفائف مطوية في إحكام ورص كل شيء بنعومة، ثم اعتاد بعد ذلك طوال الأسبوع على فتح واحدة من الحقائب الحمراء وتفحص محتوياتها بدقة كأنه يقوم بجرد وحفظ محتويات كل حقيبة، ثم يعيد إغلاقها بإحكام مرة أخرى، لاحظت أغنيس أن الحقائب بها مساحة كبيرة خالية، فقامت بتجهيز ملابسها وملابس الأطفال ووضعتها في كومة مصفوفة بجوار الحقائب، وانتظرت لترى ماذا سيفعل شوج، ثم راقبت الحقائب بغيظ وهي تنتقل في الجهة المقابلة من الغرفة دون أن يضع بها أي شيء يخصها أو يخص الأولاد.

في يوم الرحيل وضع شوج الحقائب الحمراء بالقرب من باب غرفة النوم، نظرت إليها أغنيس وهي تقضم أظافرها وتساءلت لماذا لم ترَ المنزل الجديد بنفسها حتى الآن؟ أخبرها شوج بالفكرة بعد عودته من إحدى المناوبات الليلية التي قضاها بصحبة صديق ماسوني يمتلك مطعمًا لتقديم البطاطس المقلية في وسط البلد، الذي أخبره بوجود منزل خاص مكون من طابقين له مدخل مستقل أعجبته الفكرة فوقع عقد المنزل الجديد ثم ذهب بصحبة الجميع لشراء تذاكر اليانصيب.

جمعت أغنيس ملابسها وبراويزها الزجاجية ولفتها في ورق الجرائد ثم وضعتها في حقائب خضراء مزركشة بالقرب من حقائب شوج وخلطتها معًا، ولكن بغض النظر عن الجهد الذي تقوم به لترتيب الحقائب يبدو أن حقائبها وحقائب شوج لم تعد تنتمي بعضها لبعض بعد الآن، كانت هناك بطاقة ممسوحة على إحدى حقائبها، تمكنت أغنيس من قراءة ما كتب عليها كانت بخط زوجها السابق، كانت أصغر سنًّا وأكثر ثقة حين كتب لها هذه البطاقة، يتمنى لها حياة سعيدة، تتبعت أغنيس بأصابعها الاسم الممسوح فوق البطاقة "أغنيس ماكجوان، شارع بيلفيلد، جلاسكو".

وتذكرت أنها في النهاية هربت منه وليك ما زال في سن تغيير الحفاضات.

في الليلة التي هربت فيها، حزمت حقائبها الخضراء التي ملأتها بملابس مبهرجة وأشياء جديدة وثمينة اشترتها بآخر ما امتصت من دم بريندان ماكجوان وظلت تخفيها طوال العام، نظفت شقتها في تلك الليلة للمرة الأخيرة، لأنها تعلم أن الأخبار المخزية سوف تجتذب الجيران لمواساة الزوج المخدوع، ولم تكن تريد أن تلتقط أعينهم المتلصصة ما يسوء في المنزل وهم يمضغون العلكة في برود، فيقولون عليها زوجة قذرة.

كانت حزينة لأنها ستضطر أن تترك سجادة الصالة الفاخرة التي تحبها، فهي لا تعرف طريقة تجعلها قادرة على حملها معها في وجهتها بعد الهرب، حاولت رفعها في الصباح وفشلت، كسرت ملعقتين من ملاعق الزفاف وهي تحاول نزع المسامير التي تثبتها في الأرض، قبل أن تجلس محبطة تذرف الدموع وأصابعها تنزف، والماسكارا تسيل على وجهها، وتساءلت هل يجب عليها أن تمكث لفترة أطول للاستمتاع بالمنزل والسجادة الجديدة؟ لم تكن ترغب في الحصول على كل شيء، ولكن تلك السجادة كانت مميزة لدرجة أنها كانت تشعر بالحسد في أعين جارتهم العجوز كلما رأتها، كانت السجادة جميلة وسميكة لدرجة أنها

كانت تترك باب المدخل مفتوحًا حتى تستعرضها أمام الجيران، كانت مصنوعة من نوع فاخر من النسيج تمتد من الحائط إلى الحائط الآخر برسومات مميزة، ولكن شعورها بالندم على السجادة لم يدم طويلًا كما كانت تتوقع.

العيش مع رجل كاثوليكي في شقة بالطابق الأسفل بالنسبة إلى أغنيس غير مرضٍ، كل ما كانت تراه هو رخام المنازل الممتد عبر الشارع وأعمدة الإضاءة التي تنطفئ الواحد تلو الآخر، كان الجميع ينام مبكرًا ويستيقظ مبكرًا مثل الناس الطيبين، ينهمر المطر في الخارج هذه اللحظة، شعرت أغنيس ببعض الإثارة وتحت ظلال الشك بداخلها بدأت تتكون أحاسيس بالمتعة.

على ظهر الأريكة كان يوجد تمثالان صغيران من الرخام، وملف يحتوي على بعض الأوراق، وسروال مصنوع من قماش الميلتون، وأسفل الأريكة أحذية مبهرجة مصنوعة من جلد غير مريح، ولها إبزيمة فضية اللون.

أيقظت أغنيس أطفالها النائمين، كاثرين تبدو كرجل عجوز مخمور ذي جفون متثاقلة يفتحها ويغلقها بصعوبة، بينما تقبلهم أغنيس من أجل إيقاظهم، سمعت صوت خربشات منخفضة على باب المنزل، تسللت إلى الخارج وفتحت الباب الأمامي، فوجدت رجلًا أسمر ذا وجه قلق تحت الضوء اللامع، كان شوج يتحرك بقلق ناقلًا وزنه بين قدميه، وكأنه يستعد للجري.

قالت أغنيس هامسة: " قد تأخرت".

بلع ابتسامته غير المكتملة عندما شم رائحة حمضية عفنة في أنفاسها.

وقال: "لا أصدق ذلك".

قالت هامسة:

"ماذا كنت تتوقع؟ لقد كنت قلقة للغاية بسبب تأخيرك".

فتحت أغنيس الباب ودفعت بالحقائب الثقيلة إلى شوج وهي تبتسم وكأنها ممتلئة بهدايا ليلة العيد.

نظر شوج إلى السجادة وقال لها:

"هل هذه هي؟".

ردت بحزن:

"نعم ".

حمل الرجل الحقائب إلى الشارع، نظرت أغنيس بسرعة في المرآة إلى شعرها المصفف وأحمر شفاها الخفيف، وظنت أن ما تراه ليس سيئًا للغاية بالنسبة إلى فتاة في السادسة والعشرين، أمضت عمرها في غرف نوم الأطفال تغير الملاءات والحفاضات.

أيقظت الأطفال ورتبت أسرتهم ووضعت بيجاماتهم القذرة في ثنايا معطفها، وألبستهم ملابس جديدة ودون مناقشة اصطحبتهم إلى الخارج، نظرت إلى المنزل والسجادة، ثم نظرت إليهم وقالت:

"مهما حدث لا داعي للبكاء".

كانت وجوههم الصغيرة اللامعة تظهر عليها الدهشة والقلق.

قالت:

"لماذا تنظرون لي بهذه الطريقة؟ أريد أن أرى ابتسامتكم الرائعة".

وفجأة، بحكم العادة قادتها أقدامها إلى غرفة النوم، وضغطت على زر بلاستيكي على جانب الحائط فأضاءت الحجرة، كانت حجرة صغيرة يتوسطها فراش كبير على الطراز الملكي، كان الفراش كبيرًا جدًّا ليناسب حجم الغرفة. نادى الصبي بسعادة:

"أبي".

تحرك الجسد المسجى على الفراش في دهشة، وفتح عينيه، جلس بريندان ماكجوان في حالة صدمة يحدق في المعطف الفيكتوري الذي يقف أمام الفراش. رفعت أغنيس ياقة معطفها الوثير الذي اشتراه لها من أجل أن يحصل على رضاها في لفتة كريمة، كان يأمل أن تشعر بالسعادة والسلام ولو حتى لفترة قصيرة يومًا ما.

قالت:

"إني راحلة".

وكأنها خادمة أنهت أعمال التنظيف المنزلية وتستعد للمغادرة، سمع الراجل الناعس صوت إغلاق الباب الأمامي، بعد أن رحلت زوجته وأطفاله ثم سمع طنينًا معدنيًّا لمحرك ديزل، وبعدها كانوا قد رحلوا.

وبينما هم راحلون في تلك الليلة كانت سيارة الأجرة السوداء صامتة وثقيلة كالدبابة، جلست أغنيس في المقعد الجلدي الخلفي بجوار أطفالها الدافئين، انطلق الأربعة في صمت وقلق خلال شوارع جلاسكو اللامعة.

ألقي شوج عليهم النظرات في المرآة الأمامية، وتفحص وجوه الأطفال النائمين.

ثم سألها:

"حسنًا. إلى أين نحن متجهون؟".

ردت بعد فترة:

"لماذا تأخرت؟".

توقف شوج عن النظر في المرآة الأمامية، فسألت أغنيس مرة أخرى من خلف ياقة معطفها العالية:

"هل كنت مترددًا في القدوم؟".

رد شوج: "نعم، ترددت، ألم تكوني مترددة كذلك؟".

قالت أغنيس وهي تضع يدها التي تحمل قفازات جلدية على وجهها:

"بحق المسيح، هل يبدو عليّ التردد؟".

كان صوتها أعلى من الدرجة التي تحبها.

كان الطريق الشرقي خاليًا بعد أن أغلقت معظم الحانات أبوابها، وتجمعت العائلات الكريمة في منازلها احتماء من البرد

قاد شوج عبر جالوجيت[13] ثم اجتاز السوق، لم ترَ أغنيس السوق خاليًا

13- أحد أحياء جلاسكو ويعتبر مدخل الطريق الرئيس ومركز المدينة. (المترجم)

من الناس من قبل، كان دائمًا مليئًا بالبشر الذين يشترون احتياجاتهم من الستائر أو الملابس اللطيفة، أو قطع اللحم أو السمك.

كان السوق في هذا التوقيت مثل مقبرة مليئة بالطاولات الفارغة وصناديق الفاكهة.

"إلى أين نحن ذاهبون؟".

"تركت كل شيء في المنزل كما تعلم".

"اتفقنا أن تكون بداية جديدة".

شعرت أغنيس بسخونة رؤوس أطفالها بجانبها، قال شوج:

"لن يكون الأمر بهذه السهولة".

"نعم، لكنك قلت".

نظرت أغنيس إلى انعكاسها في زجاج سيارة الأجرة ومسحت عينيها، كانت تستطيع أن تراه يتابعها عبر مرآة السيارة وتتمنى أن يركز ببصره على الطريق.

"لن أستطيع أن أفعل ذلك".

نظر الرجل إلى الأطفال النائمين في ثياب فاخرة يرتدونها للمرة الأولى.

فردت عليه:

"ولكنك لم تحاول في الأصل".

ثبتت رأسها في مؤخرة رأسه، وأكملت قائلة:

"لا يمكن أن يكون الجميع بلا قلب مثلك يا شوج".

ضغط شوج على الفرامل في غضب فاندفعت الأجساد الأربعة إلى الأمام، وبدأ الأطفال في النحيب.

"لماذا سألتني عن أسباب التأخير؟ عليك اللعنة!".

اندفعت قطرات من البصاق من بين شفتيه على المرآة التي أمامه.

"أتريدين أن تعرفي لماذا تأخرت لأنه كان عليّ أن أترك فطائري اللعينة حتى آتي إليك".

ومسح بظهر يده على شفتيه ليتخلص من آثار البصاق.

"كان عليّ أن أترك كل شيء وأحضر إلى الزوجة التي هددتني أن تفتح الغاز، التي أخبرتني أنني لو تركتها ورحلت سوف تشعل الموقد وتحرق الجميع".

صرخت عجلات سيارة الأجرة مرة أخرى، وتحرك الجميع في صمت بين المنازل المغلقة على أصحابها حتى تمنع البرد في الخارج، تحدث شوج مرة أخرى:

"هل سبق لك الرحيل مع عائلة معلقة بك كما يتعلق الخطاف بالأسماك؟ هل تعرفين كم أستغرق من الوقت للتخلص من أربعة أطفال باكين من أجل الخروج للعمل في الصباح؟".

ونظر لها في المرآة بعينين باردتين:

"أنت لا تعرفين شيئًا، كل ما تعرفينه، أن تطلبي مني أن آتي لاصطحابك مع تلك الحقائب الثقيلة، وكأنك في الطريق إلى المطار".

تيقظت من غفلتها ونظرت من النافذة محاولة تجنب التفكير في آثار حرمان أطفالها من والدهم، وحرمان الوالد من أطفاله

تجمعت الأفكار في عقلها كسائل لزج أسود يحاول أن يجد طريقه ليسيل إلى الخارج، واختفت كل علامات الإثارة في ذلك الوقت.

بينما عبروا تحت جسر السكة الحديدية للمرة الثالثة في ترونجيت[14] كانت الشمس بدأت في الشروق، والشاحنات بدأت في تفريغ الأسماك في السوق، راقبت أغنيس السيدات يتزاحمن على محطة الحافلة وكأنهن خادمات الصباح يتجهن لتنظيف مكاتب المدينة الكبيرة الفاخرة، قالت:

"لنتجه إلى شقة أمي الجديدة".

واضافت متمتمة:

"مؤقتًا حتى نحصل على مكان خاص بنا".

بعد مرور كل تلك السنوات أصبحت أغنيس ترغب في نسيان تلك الليلة، لأنها جعلتها تشعر بأنها مغفلة، لكنها الآن على وشك حمل نفس الحقائب التي اشتراها لها زوجها الكاثوليكي.

نفس الحقائب التي أحضرتها هنا إلى بيت والدتها، على وشك أخذها والذهاب بعيدًا إلى منزل آخر، مزقت أغنيس الملصق الصغير الذي يحمل خط بريندان ماكجوان.

حاول بريندان ماكجوان أن يعيد أغنيس مرة أخرى، أن يقوم بالتصرف الصحيح حتى بعد أن سرقته ورحلت في الليل. وعد والدتها أنه سيتغير

14- واحد من أقدم شوارع جلاسكو ويعتبر المركز الأصلي للمدينة منذ العصور الوسطى. (المترجم)

من أجلها، ولكن أغنيس وقفت هناك عاقدة ذراعيها أمام صدرها كبرج عالٍ ورفضت كل محاولاته واستجداءاته.

وعدها بفعل كل ما تطلبه حتى تعود مرة أخرى، قال إنه سيتغير لدرجة أن أمه لن تعرفه إذا رغبت في ذلك.

ولكنه عندما تيقن من عدم رغبتها في العودة طلب التحدث مع ويلي وليزي، واستمر من بعدها في إرسال مصروفات أبنائه كل يوم خميس، وعلى اصطحابهم لقضاء الوقت معه في السبت الثاني من الشهر.

واستمر بريندان ماكجوان على هذا المنوال طوال ثلاث سنوات. آخر ما تذكره كاثرين عن والدها الحقيقي اصطحابه لهم إلى كاستيلاني كافيه، حيث جلست بجوار ليك الذي يلعق آثار آيس كريم الفانيلا من فوق أصابعه.

كانت أغنيس تتعمد إرسالهم إلى أبيهم في أفضل ملابس يملكونها، حتى إن سيدة عجوزًا ترتدي عقدًا من اللآلئ حول رقبتها أثنت عليهم وعلى أخلاقهم.

انحنت المرأة العجوز حتى تصل إلى طول الفتاة الصغيرة وسألتها:

"ما اسمك؟".

أجابت الفتاة بصوت واضح كجرس كاتدرائية:

"كاثرين بين".

في تلك اللحظة قام بريندان ماكجوان من على الطاولة وتحرك ناحية الحمام ثم اتجه لخارج المقهى، وغاب في الشارع

لا تعرف كاثرين لكم من الوقت كانت تجلس مع أخيها بمفردهما، كان

ليك يأكل الآيس كريم الخاص به، أكل الآيس كريم الخاص بها، ثم بدأ في غمس أصابعه في البقايا الذائبة في قاع الكأس الزجاجية التي تأخذ شكل الصدفة.

بذل الكاثوليكي الصالح كل ما في وسعه للحفاظ على زوجته المضطربة وبلع كبرياءه وهو يستعطفها من أجل العودة بعد أن هربت منه في منتصف الليل، ثم حاول مرة أخرى الحفاظ على أبنائه، عبر قضاء القليل من الوقت معهم لكنه كان يعتبره وقتًا مقدسًا.

ولكن الكاثوليكي الصالح لم يستطِع أن يتقبل أن تمنحهم اسم بروتستانتي. وضعت أغنيس علامة رجل آخر عليهم مثل الخراف التي ضلت الطريق. ولم يستطِع الرجل تحمل ما يحدث.

والآن، بعد مرور ثلاثة عشر عامًا، إذا مر في الطريق بجوار كاثرين وليك لن يمكنهم التعرف عليه.

حملت أغنيس أطفالها مرة أخرى إلى سيارة الأجرة، ساعدها ويلي على النزول بالحقائب إلى الطابق الأسفل، كان عليها أن تعيد التفكير مرة أخرى في قضايا الكاثوليك والبروتستانت، لم يتحدث ويلي معها خلال رحلة النزول، بينما تجاهلتها ليزي ووقفت في المطبخ تقلب الحساء.

في المساء جلس ليك وكاثرين في فراشهما يتحدثان عن هذه الحياة الجديدة المشؤومة، كانت أغنيس تستطيع سماع همساتهم عبر الجدار، قبل انقضاء الأسبوع جاءت ليزي لزيارتها وطلبت من أغنيس أن تترك الأطفال يعيشون معهم بناء على طلبهم حتى يستطيع ليك إنهاء دراسته

وتبقى كاثرين قريبة من مقر عملها.

لاحظت أغنيس يوم الرحيل أن ليك لم يفتح فمه وظل طوال الوقت ممسكًا بالقلم الرصاص يرسم في دفتره السري، بينما حاولت كاثرين التحكم في ارتعاش شفتيها الواضح وهي تساعد أمها بجد في فك الأمتعة.

حضنت ليزي شوجي في حنان وهمست في أذنيه بصلوات حتى يعود إليها سالمًا.

شاهدت أغنيس ليك -عندما ظن أن لا أحد ينظر إليه- يتوسل إلى جدته حتى يظل معها ويعدها أنه سيكون مطيعًا وسيحسن التصرف، وشعرت أغنيس بالسعادة عندما رفضت جدته برفق قائلة:

"لا يا ألكسندر، مكانك في المنزل، مع أمك".

بدأ المطر في الهطول وكان آخر الأشياء التي تم تحميلها حقائب شوج الجلدية الحمراء، فكرت أغنيس في أن الوقت أصبح مناسبًا للذهاب، وقف ويلي وليزي في صمت قاسٍ كأبراج المراقبة، كان وداعًا فاترًا، لا ترغب ليزي في القيام بمشهد لافت في مكان عام، حيث لا يمكن التنبؤ برد فعل أغنيس على الإطلاق.

جلست أغنيس في المقعد الخلفي للسيارة وحقائب شوج بين ساقيها، وجلس ليك وكاثرين على جانبها وقد ضموا أرجلهم من أجل استيعاب الصناديق الخاصة بالأمتعة، استغرقت أغنيس وقتًا طويلًا في كي ملابس شوجي وكاثرين وطيها، وصبغت شعرها بلون غير الأسود، فقد اختارت الأزرق الحزين بدلًا منه.

في الصباح سألت كاثرين عن رأيها في المسكارا الخاصة بها، كانت

المسكارا ثقيلة جدًّا لدرجة أنها جعلت شكل عيونها كأنها تستعد لأن تخلد إلى النوم.

اندفعت السيارة على الطريق، نظرت أغنيس إلى الخلف عبر الزجاج الخلفي وألقت نظرة حزينة على المكان، ثم لوحت بيدها، تخيلت المشهد كفيلم سينمائي تقوم ببطولته.

شقت السيارة طريق سبرنج بورن[15] وعبرت بجوار السكة الحديدية الفارغة، قبل أن تبدأ أغنيس في التساؤل عن السبب الذي دفعها للموافقة على خطة شوج الغبية، بدا الأمر كخيال غبي لفتاة مراهقة في نصف عمرها تتبع قصة حب سخيفة فركت أغنيس أصابعها وهي تشعر بالحماقة وتفكر في الأسباب التي دفعتها لارتكاب هذا الخطأ.

أخبرها هو، أنها فرصة لتملك منزل خاص بها وحديقة من أجل الأطفال، لتحصل أخيرًا على بعض الهدوء والسلام، وظنت أنها فرصة جيدة لتبعده عن نسائه العديدات.

كانت هناك العديد من الفرص التي يمكن من خلالها تحسين الوضع ولكنها كانت ترى أن إبعاده عن النساء سوف يكون حلًّا مناسبًا.

كان شوجي يرسم بإبهامه وجهًا حزينًا على زجاج النافذة الذي يعلوه الضباب، فمد ليك أصبعه وعدله ليصبح ديكًا منفخًا، التفتت أغنيس ومسحت الرسم حتى تستطيع أن تشاهد الطريق، كانت السيارة تسير بجوار حاويات الوقود الكبيرة الزرقاء خلف بروفانميل[16]، ثم عبرت بجوار حراس بوابة جلاسكو الشمالية، سارت السيارة بعد عبور البوابة

15- طريق داخل المدينة شمال جلاسكو، أغلب سكانه من الطبقة العاملة بسبب قربه من خطوط السكة الحديدية. (المترجم)

16- منطقة تقع شمال شرق جلاكسو تشتهر بالفقر وبارتفاع معدلات الجريمة كما أن أغلبيتها من الكاثوليك. (المترجم)

لفترة طويلة دون أن يصدر صوت من أحد.

وبعد فترة وصلت السيارة لمنطقة بها منازل مضيئة، أنزل شوج الزجاج الفاصل بين المنطقة الأمامية للسيارة وبين مؤخرتها وأخبرها أنهم على وشك الوصول ثم أغلق الزجاج مرة أخرى.

تذكرت أغنيس كيف كان يترك الزجاج الفاصل مفتوحًا عندما كان يغازلها في الماضي، وتساءلت إن كانت عاداته تغيرت. كان يسحرها في الماضي بصوته الأخاذ، ويلف خاتمه الماسوني أمامها متكئًا على الحاجز الفاصل بينهما ويخبرها أنه يجب عليه استبداله بخاتم زواج في يده اليسرى.

عندها كان الهواء داخل السيارة محملًا بروائح معطر الصنوبر الكثيف وكريم الشعر، ثم تحول في فترة ما بعد الظهيرة لهواء كريه الرائحة من آثار العرق وتحول الزجاج للضبابية بسبب تسارع أنفاسهم عند ممارسة الجنس، ولكنها كانت سعيدة واستمرت أوقاتها سعيدة، حتى عرفا بعضهم بعضًا بشكل حقيقي.

نظرت أغنيس إلى الحدائق العشبية أمام المنازل الصغيرة وحاوت أن تحيي الإثارة في نفسها مرة أخرى، لكن الأمر كان بمثابة إشعال النار في خشب مبلل، كان هناك صف من المنازل المعروضة للبيع من قبل مجلس البلدية.

فتح شوج الزجاج الفاصل مرة أخرى وقال:

"ها، انظروا إلى الحدائق".

كانت المنازل جميلة ومحاطة بحدائق تحتوي على الورود وروائح القرنفل وذات نوافذ ملونة سميكة، توغلت السيارة لمسافة أطول والمنازل ممتدة أمامهم، كان لكل منزل بوابة خاصة وحديقة، وأمام كل منزل سيارة أو اثنتان في بعض الأحيان.

نظرت أغنيس إلى شوج عبر مرآة سيارة الأجرة، فبادلها النظر. كانت نظراته أقرب ما يكون إلى نظرات الحب التي تتذكرها في السابق، قال لها:

"إذا أعجبك المكان يمكنك البقاء لفترة أطول، أخبرني جو أن المكان هنا كقرية صغيرة لطيفة، أو كعائلة سعيدة، حيث يعرف الجميع بعضهم بعضًا، إنه ألطف مكان يمكن للمرء أن يحلم بالعيش فيه".

تبادل ليك وكاثرين نظرات جانبية معترضة، فأمسكت أغنيس بيدها ركبة كل منهما وضغطت عليها كعلامة تحذير جاد.

رفع شوج صوته ليعلو فوق صوت محرك الديزل الذي أجهده الطريق ونظر إليهم من خلف كتفه:

"المنزل بجوار منجم ضخم، يعمل جميع الرجال في منجم يون[17] لاستخراج الفحم، الأجور جيدة لدرجة أن النساء غير مضطرة للعمل ومغادرة المنزل، أخبرني جو أن كل أطفاله يقصدون نفس المدرسة، سيكون الأمر جيدًا بالنسبة لشوجي الصغير للعب في الهواء الطلق بمشاركة بعض الصبية في مثل عمره".

17- انتشرت صناعة استخراج الفحم في اسكتلندا في نهاية القرن التاسع عشر وتوسعت حتى العديد من المناجم ولكنها كانت صناعة سيئة السمعة لانخفاض اعتبارات السلامة وسوء الظروف المتعلقة ببيئة العمل. (المترجم)

كان يتحسس شاربه وفي عينه تلمع السعادة بسبب خطته.

"اتضح أنه لا يوجد هنا حانات، المكان جاف وظمئ باستثناء النادي الخاص بعمال المناجم".

مالت أغنيس للأمام:

"لا توجد حانة واحدة؟".

"لا يوجد شيء، ولدخول نادي عمال المناجم، يجب عليك أن تكون عاملًا في المنجم أو زوجة عامل في المنجم".

شعرت أغنيس بانسياب العرق على ظهرها:

"وماذا سنفعل من أجل المتعة".

كان شوج قد توقف بالفعل عن الاستماع إليها حتى صرخ في حماس مشيرًا لمنزل في الزاوية:

"هذا هو".

مالت سيارة الأجرة وانحنت أغنيس والأطفال لرؤية المنعطف الذي سيحملهم إلى حياتهم الجديدة، كان على الطريق محطة وقود خالية لها فناء واسع، ومضختان واحدة للبنزين والأخرى للديزل. أبطأ شوج من سرعة سيارة الأجرة وانعطف بجوار محطة الوقود.

مدت أغنيس يدها إلى حقيبتها الجلدية محدثة جلبة وهي تبحث بين الكروت الخاصة بلعبة البنغو وقطع اللبان بطعم النعناع والأقلام الملونة حتى وجدت أحمر الشفاه في حقيبتها، حاولت وضع القليل على شفتيها، ولكن يدها المرتعشة تسببت في رسم خط أحمر على طول وجهها وبين أسنانها، لاحظت كاثرين الذي يحدث ورأتها وهي تمسح شفتيها

ووجهها، ثم أخرجت حذاء ذا كعب عالٍ وارتدته وتنورة قصيرة لامعة، نظرت لها كاثرين وضيقت عينيها.

ثم سألتها: "لماذا لم ترتدي تلك الملابس منذ البداية؟".

"حسنًا، لم أكن أعرف كم من الوقت نحتاج لنصل لذلك المنزل الغامض".

ثم بصقت أغنيس على المشط الخشبي ومررته فوق شعر شوجي الملتوي واستمرت في تمشيطه حتى أصبح على هيئة خطوط متساوية وبات بإمكانها رؤية فروة رأسه الوردية، ثم سألت ليك:

"بسبس، كيف أبدو؟".

وهي ترفع شعرها عن عينيها.

كان أصبع قدمه الكبير يؤلمه من ضغط الحذاء الرياضي الضيق وجوربه المتسخ يوخز الجرح.

تنهدت أغنيس:

"لو سألك أحدهم عن شيء، فأنت عديم الفائدة".

فتحوا نوافذ السيارة فامتلأت برائحة العشب المقصوص والتوت البري، وتمكنت أغنيس من رؤية تلال خضراء تعلوها فضلات الأبقار، وبعض برك الطين وظلال مظلمة تحت الأشجار الرطبة.

رقصت الأكمام المزينة بالخرز لسترة أغنيس الوردية بفعل الرياح كأرنب مصنوع من الحجارة اللامعة

مد شوجي يده بمرح ليلمس الخرز الملون على معصم والدته التي كانت تبتسم مباعدة بين أسنانها كأن شخصًا ما يلتقط صورتها.

كان من الممكن أن تصبح سعيدة بشكل حقيقى لو تبادل شوج نظرات قلقة عبر مرآة السيارة الأمامية، ظل شوجي يلعب بمرح في أكمامها وهو يشاهد ضروسها الخلفية تتحرك في بطء لأعلى وأسفل كأنها تطحن شيئًا ما.

ضاق الطريق مرة أخرى واختفت الحدائق المنسقة بشكل نهائي، وظهرت مستنقعات بنية وسلسلة من الأشجار الصفراء التي تمتد كأن لا نهاية لها، ونمت أعشاب الهالوك[18] الكثيفة على جانبى أسوار المنازل المغلقة وعلى جانبي الطريق، الذي تغطيه ألوان الفحم والنحاس في محاولة لاستعادة مسار ممزق من أجل الوصول للحي السكني الخاص بعمال المناجم. انسابت سيارة الأجرة خلال الطريق كنيجاتيف لصورة قديمة مغطاة بالثلج.

التفت السيارة حول تل قديم وظهرت أكوام من الرماد الأسود، تبدو كأنها خالية من كل مظاهر الحياة، وامتدت الأكوام السوداء أمامهم إلى ما لانهاية وكأنهم وصلوا إلى حافة الأرض ولم يعد هناك شيء آخر أمامهم.

لمعت التلال المحترقة بينما نفحتها أشعة الشمس ونفخت دخانًا أسود ناعمًا كعمالقة تنفث النار، سرعان ما أصبحت رائحة الهواء حارقة وحادة كطعم البطارية الجافة المستعملة عند عضها بالأسنان، وصلت السيارة إلى موقف سيارات كبير، أمام مبنى له باب حديدي كبير مغلق بسلسلة سميكة، وبجواره كشك حراسة مائل بطريقة مضحكة وتنمو على سطحه طبقة سميكة من العشب، يبدو هذا المنجم مغلقًا منذ زمن

18- نبات زهري طفيلي يعتمد في غذائه على مختلف الفصائل النباتية الأخرى والمحاصيل الزراعية. (المترجم)

بعيد وقد كتب أحدهم على اللوح الخشبي الرقيق المثبت فوق الباب:

"اللعنة على المحافظين[19]".

وأمام البوابة كان هناك مبنى خرساني منخفض يخرج منه العديد من الرجال كأنهم خارجون من الكنيسة، ومع ارتفاع صوت محرك الديزل تحركوا في اتجاه المبنى مرة أخرى مثل كتلة واحدة، ثم توقف الرجال في أماكنهم وأمعنوا النظر في السيارة التي تمر بالجوار. كان الجميع يرتدي سترات حمراء ويحملون في أيديهم معاول، كانت وجوههم نظيفة وأيديهم كذلك كأنهم خالون من العمل.

لقد كان عمال المناجم هم الشيء الوحيد النظيف الذي شاهدوه لعدة أميال وهو ما يبدو خاطئًا، مرت بجوارهم سيارة الأجرة فتحركوا على مضض وشاهدهم ليك وهم يحدقون فشعر بألم في معدته، كانت أعين جميع الرجال تشبه أعين والدته.

أكملت سيارة الأجرة السير في الطريق الترابي الممتد حتى نهايته، فظهر أمامهم على نحو مفاجئ حي سكني أمام تل منخفض، يتكون الحي من مجموعة من المنازل الصفراء المربعة منخفضة السقف، منظمة في صفوف متوازية وأمام كل منزل عدد متماثل من النباتات التي لا يمكن اعتبارها حديقة مكتملة، وبكل حديقة عدد من الحبال البيضاء المخصصة لتعليق الملابس وأحواض رمادية للغسيل.

كان المخطط السكني محاطًا بمستنقع كبير من الخبث بينما كانت الأرض على الجانب الشرقي مقلوبة رأسًا على عقب، كأنهم كانوا يستخرجون الفحم من باطنها.

19- نشأت حركة المحافظين في إنجلترا واسكتلندا وأيرلندا كفصيل سياسي ثم تطور ليصبح حزبًا يتنازع السلطة مع الأحزاب اليمينة في البرلمان. (المترجم)

قالت أغنيس:

"هذا هو المكان؟".

لم يجب شوج ولكنها شعرت بخفقان قلبه بمجرد النظر إلى أكتافه من الخلف، طحنت أغنيس أسنانها الخلفية كرماد أبيض. بينما كانوا يعبرون بجوار التل الصغير، مرت السيارة بالقرب من كنيسة كاثوليكية صغيرة يجلس بها عدد من النساء اللاتي يرتدين ملابس المنزل.

قام شوج بالبحث بين لافتات الشوارع ثم انحرف بشكل حاد بالسيارة ناحية اليمين، حتى وصل إلى طريق يحتوي على أربعة منازل متواضعة مخصصة للمعيشة، بها أربع عائلات مختلفة، كانت تلك المنازل هي الأكثر تعاسة وقبحًا بين كل المنازل التي شاهدتها أغنيس.

كانت المنازل ذات نوافذ كبيرة ولكنها رقيقة، تسمح للحرارة بالتسرب إلى الخارج والبرد للتسرب إلى الداخل.

في نهاية الطريق يتصاعد الدخان وروائح الفحم بكثافة من المداخن السوداء، كانت المنازل باردة للغاية حتى في أيام الصيف المعتدلة.

توقف شوج بالسيارة بعد عدة منازل وانحنى على عجلة القيادة ينظر في حيرة فلم يجد علامة واضحة، ولم تكن هناك سيارات متوقفة في الشارع والسيارة الوحيدة الموجودة كان يبدو من حالتها أنها غير صالحة للعمل، بينما كان شوج ينظر حوله مشتتًا، مدت أغنيس يدها داخل حقيبتها الجلدية السوداء تبحث عن شيء ما، وقالت لأطفالها:

"يجب عليكم أنتم الثلاثة أن تبقوا أفواهكم مغلقة".

مدت رأسها داخل الحقيبة الجلدية السوداء التي تبدو مثل الكهف، رفعت الحقيبة ببطء أمام وجهها، شاهد الأطفال عضلات حلقها تنبض.

وهي ترتشف رشفة كبيرة من عبوة البيرة الدافئة التي كانت تخفيها في الحقيبة، أزالت البيرة آثار أحمر الشفاه من فوق شفتها العليا.

أخرجت أغنيس رأسها ببطء ثم أغلقت عينيها وفتحتها لمرة واحدة في بطء شديد وآثار الماسكارا تسيل على جانبي وجهها:

"يا له من مكان قذر".

ثم استدركت قائلة:

"كيف ارتديت ملابس فاخرة، من أجل هذا المكان الملعون".

1982

بيتهيد[20]

20- هي المنطقة العليا في منجم الفحم التي تتكون من مدخل المنجم وجميع المباني والمعدات الخاصة به فوق سطح الأرض. (المترجم)

8

بمجرد أن فتحت الأبواب الخلفية للشاحنة القديمة، كان يقف على جانبي الطريق عدد كبير من الأشخاص الذين يحدقون بشكل واضح ومبالغ فيه، لم يهتموا بكي ملابسهم بشكل جيد، ولا تركوا مناشف المطبخ وراءهم وأسرعوا بالخروج حتى يتمكنوا من رؤية الوافدين الجدد، خرجت العائلة من منازلها ذات السقف المنخفض ووقفوا على درجات السلم الأمامية يحدقون كأن التلفاز يعرض برنامجًا جيدًا، عبرت مجموعة من الأطفال القذرين الطريق الترابي يقودهم صبي لا يرتدي بنطالًا وأحاطوا بأغنيس كحلقة صغيرة فأشارت إليهم بأدب:

"مرحبًا".

حدقوا بها في المقابل وآثار الصلصة الحمراء الناتجة عن تناول وجبة العشاء لا تزال على أفواههم.

كانت منازل عمال المناجم ذات تشكيل محكم، بحيث يفصل بين كل منزلين متقابلين سياج منخفض ومساحة صغيرة من العشب.

فتحت جميع الأبواب الأمامية أمام أغنيس، وأمام كل باب تقف امرأة للمشاهدة وحولها عدد من الأطفال المتشابهين يمضغون الطعام، كانوا يشبهون الصورة التي أراها إياها ويلي لجدتها كامبل وأطفالها

الأيرلنديين البالغ عددهم نصف دستة أطفال.

وقفت أغنيس أمام السياج المنخفض على أطراف أصابعها ورفعت أكمامها اللامعة ذات الخرز الملون

ولوحت للجميع في أدب:

"مرحبًا".

سألتها امرأة في المنزل المقابل ذات شعر أصفر مجعد، جذوره بنية مرفوعة للأعلى كمن ترتدي شعرًا مستعارًا، ذات مظهر أحمق.

"هل انتقلتم إلى هنا؟".

"نعم".

"انتقلتم جميعًا؟".

أشارت أغنيس إلى العائلة مصححة المعلومة، وكأنها تقدمهم للجميع:

"نعم، انتقلت بصحبة عائلتي".

حكت المرأة فروة رأسها في صمت لبعض الوقت، حتى تساءلت أغنيس إن كانت ستكتفي فقط بهذه الأسئلة

ثم قالت المرأة:

"حسنًا، أنا بريدي دونيلي أعيش هنا منذ تسعة وعشرين عامًا، ورأيت لي خمسة عشر جارًا يسكن ذلك المنزل، منذ ذلك الوقت".

شعرت أغنيس أن كل أعين عائلة بريدي تركز عليها، حتى تقدمت إليها فتاة صغيرة ونحيلة تحمل صينية بها أقداح غير متشابهة تحتوي على الشاي، فتناول كل الموجودين واحدًا، ولكن لم يرفعوا أعينهم عن أغنيس.

قالت المرأة عبر السياج: "إنها نورين دونيلي، هي ابنة عمي ولكنها ليست من عائلتي في الحقيقة، هل تفهمين مقصدي".

ثم ظهرت امرأة شاحبة الوجه يبدو أنها سليطة اللسان.

"وهذه الأخرى هي ابنة عمي أيضًا، جينتي مكلينشي إنها من عائلتي حقًّا".

تحركت المراة التي تسكن في المنزل المجاور لنورين خطوات مترددة وضاقت عيناها من آثار الدخان، كانت تشبه بريدي ولكنها ترتدي غطاء فوق رأسها، كان الجميع يشبه بريدي حتى الأولاد الصغار، كانت ملامحهم تشبهها ولكن أقل ذكورية.

لمحت أغنيس بطرف عينها امرأة أخرى تعبر الطريق الترابي وتقف وسط دائرة من الأطفال القذرين، ثم أومأت برأسها في تجهم وكأنهم أخبروها بوفاة أحدهم، ثم مضت في اتجاه بوابة الزائرة الجديدة ووقفت أمام أغنيس التي لم تجد مهربًا تلجأ إليه، سألتها المرأة بشكل مباشر وبلا مقدمات وهي تشير إلى ليك:

"هل هذا هو رجلك؟".

كان وجهها شاحبًا وبارز العظام، وعيناها غائرة كأنها جيوب عميقة في جمجمة عظمية مكسوة بالجلد، ولكنها تملك شعرًا ناعمًا وغنيًّا كمعطف قطة لم تذق حياة التشرد. كانت ترتدي سروالًا واسعًا ذا جيوب عريضة وتحشر أطرافه السفلية داخل حذاء منزلي خاص بالرجال.

اندهشت أغنيس من عبثية السؤال فهي أكبر من ليك بعشرين عامًا، وردت قائلة:

"لا، هذا هو ابني الأوسط، سوف يبلغ من العمر ستة عشر عامًا بحلول الربيع".

"بحلول الربيع، حسنًا، حسنًا".

أخذت المرأة تفكر في الإجابة، ثم أشارت لرجل يصارع لحمل تلفاز ثقيل من شاحنة النقل وقالت:

"هل هذا رجلك إذًا؟".

"لا، هذا صديق لأحد أصدقائي جاء لمساعدتي في عملية النقل".

امتصت المراة خديها الهزيلين لداخل جمجمتها، أكثر، وأكثر.

فدارت أغنيس بجسدها نصف دورة استعدادًا للرحيل.

فسألتها المراة النحيلة:

"ما هذا الذي على أكمامك؟".

نظرت أغنيس إلى قطع الحلي التي تزين أكمامها بطريقة دفاعية وكأنها تنظر إلى قطط صغيرة فاهتزت الأحجار اللامعة في عصبية وهي تقول:

"إنها قطع صغيرة من الحلي".

قالت شونا دونيلي الفتاة التي قدمت الشاي:

"أوه يا سيدتي، إنها جميلة للغاية".

قاطعتها المرأة النحيلة بسؤالها:

"هل تملكين رجلًا؟".

في هذه اللحظة فتح باب المنزل الأمامي وخرج منه شوجي، وتقدم إلى

أمه ووضع يده على مؤخرة فخذها ومد أقدامه للأمام، ودون أن ينظر إلى المرأة النحيلة تحدث إلى أغنيس بوضوح وطلاقة لم تعهدهما أغنيس فيه من قبل:

"يجب علينا أن نتحدث، أنا لا أرغب في العيش هنا، المكان رائحته لا تطاق فهي تشبه البطاريات القديمة والكرنب الفاسد، إنه غير محتمل".

أصابت الدهشة كل الواقفين وتبادلوا النظرات، كان الأمر مثل أن يفضح أحدهم عيوبك أمام المرآة بغتة،

ثم صرخت إحدى النساء:

"هل يمكن أن تفسحوا المجال، فقد انتقلت عائلة ليبراتشي[21] للعيش معنا".

انفجر الجميع في الضحك والسخرية المختلطة بالسعال كأنهم شخص واحد:

"أوه، آمل أن يتناسب تصميم البيانو مع الصالون".

ردت أغنيس بتجهم رقيق:

"حسنًا، لقد سعدت بالتعرف عليكم جميعًا".

وسحبت شوجي وبدأت في الانصراف، صاحت بريدي:

"لا تتصرفي بهذا الشكل، لقد كان من اللطيف مقابلتك أيتها الدجاجة البيضاء".

تحول وجه بريدي إلى الرقة وهدأت حدة النظرات في عينيها:

21- عازف بيانو ومغنٍ أمريكي من أصول بولندية، من أكثر الفنانين دخلًا وشهرة في الفترة من الخمسينيات حتى نهاية السبعينيات. (المترجم)

"نحن عائلة واحدة كبيرة، لذلك لا نحظى بهذا العدد من الوجوه الجديدة في يوم واحد".

اقتربت المرأة النحيلة من أغنيس مرة أخرى، وقالت:

"حسنًا، سوف تكونين بخير".

ثم زاد اعتصارها لخديها الغائرين:

"فقط احرصي على أن تبقي حليك البراقة بعيدًا عن رجالنا الفاسقين".

لبقية اليوم ظل شوجي يسير على الخطوط البيضاء في الساحة الأمامية، بينما أنزل الرجال في الصناديق الخاصة بالعائلة من شاحنة النقل.

في حين سحبت النساء كراسي المطبخ وقربوها من نوافذهن ثم جلسن مرتديات سروايلهن القطنية الضيقة يشاهدن بوجوه خاليه من المشاعر الصناديق تفرغ الواحد تلو الآخر، بينما كان بعضهن يلوحن إلى الصبي بطريقة مبالغ فيها فيرفع لهن قبعة وهمية ويرد التحية.

سار الفتى بملابسه الجديدة حتى نهاية الشارع ولكنه لم يجد شيئًا، انتهى الطريق بمستنقع قذر من الخبث كأنه استسلم لمصيره المعتم، يتكون المستنقع من برك عميقة ومظلمة من المياه السوداء الثابتة مخيفة المظهر، خلفها أحراش كبيرة من الأعشاب البنية، تبدو كأنها تقترب ببطء من الحي السكني وترغب في استعاده السيطرة عليه من قبضة عمال المناجم.

شاهد شوجي أطفالًا لا يرتدون الأحذية يلعبون في المستنقع القذر، فجلس في مكانه على الحافة يلعب بمجموعة من الأزهار الحمراء ويرتبها حسب مظهرها وأحجامها في انتظار أن يدعوه أحد الأطفال لمشاركتهم في اللعب، كانوا يتجاهلونه تمامًا بينما يقودون دراجاتهم في دوائر بعضهم

حول بعض، حاول أن يبدو في مظهر غير المبالي، وقام بتلميع حذائه الجديد بعصارة ثمرة توت وجدها على الأرض.

أثار احتكاك الأحذية الصلبة لعمال المنجم شرارة على طريق العودة، بدأ الرجال يظهرون عائدين إلى منازلهم الواحد تلو الآخر على طول الطريق الفارغ يتحركون على نحو روتيني معتاد دون صافرة تجمع، لا يحملون معهم إلا بطونًا مملوءة بالبيرة وظهورًا محنية من القلق، وما زالت معاطفهم نظيفة وأحذيتهم لامعة، نظر إليهم شوجي وهم يمرون بجانبه برؤوس محنية كالبغال المتعبة فتراجع إلى الخلف، ودون كلمة واحدة اتبع كل واحد منهم حفنة من الأطفال وساروا خلفه حتى وصلوا إلى المنزل.

وقفت أغنيس خلف باب المدخل الأمامي، وأغلقت الباب الزجاجي الإضافي، تفكر في المسافة الصغيرة بين البابين وهي تنتهي من شرب العبوة الصغيرة التي كانت تخفيها في قاع حقيبتها، وضعت وجهها الصغير على الحائط، كان باردًا وناعمًا ولكن حجارته كانت سميكة وصماء، تعلم أغنيس أنها لن تستطيع تدفئة المكان بسهولة، وقفت طويلًا بجوار المدخل قبل أن تعود إلى الداخل في الممر الفاصل بين غرفتي نوم صغيرتين.

كانت كاثرين واقفة في منتصف إحداهما لا تتحرك يمينًا ولا يسارًا، بينما أبناء عمال المناجم يستندون بمرفقهم إلى حافة النافذة الخارجية وينظرون إليها في الداخل كمن ينظر إلى قفص في حديقة حيوانات، شعرت بالصدمة وحدقت فيهم بالمقابل، كانت النوافذ الخشبية سيئة الصنع وعليها آثار الرطوبة التي أتلفت دهاناتها.

تستطيع أغنيس أن تسمع الأطفال يتحدثون إلى ليك بوضوح في الغرفة الأخرى، وكأنهم معها بداخل المنزل.

فتح ليك الحقيبة التي يحفظ بها أدوات الرسم واستلقى على الأرض، وبدأ يرسم صورة بألوان الباستيل للتلال السوداء وأمامها الرجال أصحاب السترات الداكنة الذين شاهدهم عند وصوله يصطفون فوق التلال كأشجار بلا أوراق، شاهدت أغنيس ابنها وشعرت بالغيرة بسبب موهبته في الاختفاء والتلاشي.

لم يكن هناك غرفة نوم ثالثة، كما وعدتهم من قبل، لم يبق في المنزل غير غرفة المعيشة، بدأت في التحرك داخل المنزل ذهابًا وإيابًا عدة مرات حتى أدركت أن جميع الأطفال يجب عليهم المشاركة في غرفة واحدة مرة أخرى. كان شوج يقف في نهاية الردهة ينظر إليها نظرة خالية من التعبير، كانت خصل شعره الذي فرده باستخدام المشط تطير بفعل الهواء، وهو يحاول أن يثبتها في مكانها مستخدمًا أصابعه الصغيرة وقطرات من البصاق. ثم اتجه مرة أخرى عائدًا إلى المطبخ الصغير المفتوح وهو يشير إليها أن تتبعه.

كان المطبخ يشبه غرفة التعذيب حيث علقت بعض ملابس عمال المناجم بعناية لتجف، بدءًا من الجوارب حتى الملابس الداخلية، ثم صف من القمصان البوليستر الزرقاء، كانت كلها قديمة، فهل سيعود أصحابها من المنجم للبحث عنها؟ أم أنها أحضرت أبناءها إلى المنزل الخاطئ؟

كانت واجهة الخزانة الخشبية متشققة بفعل الرطوبة، وشوج واقفًا في الداخل يدفع أصبعه الوردي خلف أحد الشقوق محاولًا إخراج كتلة من العفن الأسود.

ثم نظر إليها وقال في بساطة:

"لن أستطيع البقاء".

بالكاد رفعت أغنيس رأسًا لتنظر إليه، ظنت في البداية أنه ذاهب في مناوبة ليلية من أجل جمع المال، كان شوج معتادًا في كثير من الأحيان أن يعود إلى المنزل ثم ينصرف مسرعًا بعد فترة وجيزة متجهًا للعمل مرة أخرى، لم يكن أبدًا من الرجال الذين يفضلون المكوث في المنزل.

"متى ترغب في أن أجهز لك طعام العشاء؟".

كانت تشعر بالقلق من عدم توفر الأواني والسكاكين الخاصة بالطهو.

"أنا لا أرغب في تناول العشاء الخاص بك بعد الآن، ألا تفهمين؟".

وبدأ يهز رأسه:

"لقد انتهى الأمر، لا أستطيع البقاء معك بعد الآن، لا أستطيع تحمل كل رغباتك، وإفراطك في الشراب".

لاحظت أغنيس في ذلك التوقيت أن حقائبها المزركشة قد تم فتحها وتفريغ محتوياتها بينما الحقائب الحمراء الخاصة بشوج ما زالت مغلقة لم يتم فتحها، وشعرت بأن شوج يتعامل معها كطفل يناوله دواء مرًّا ويمرره عبر فمه وقناته الهضمية القطرة تلو الأخرى.

حولت أغنيس وجهها بعيدًا، لم تكن تريد أن تفهم شيئًا، لم تكن تريد أن تتناول الدواء.

حاولت أن تهرب من نظراته، أن تعيد ترتيب الحلي الملونة على أكمام سترتها بحيث تصبح الجوانب اللامعة في مواجهة الخارج، لم تكن واثقة

من الشيء الذي يجب عليها أن تفعله.

قال مرة أخرى: "هذه هي النهاية؟".

كان في الغرفة مقعد واحد مقعد مكسور الظهر خاص بالمطبخ، مبقع بالطلاء يستخدم في الوصول للرفوف العالية، وضعت أغنيس المقعد خلف باب المطبخ وأغلقته بإحكام، حتى لا يدخل الأطفال الذين بدؤوا في الشكوى بخصوص قلة عدد غرف النوم في المنزل.

"لماذا؟ ألست كافية بالنسبة لك؟".
رمش شوج بعينه كأنه لا يصدق ما يسمع ثم قال:

"لا يا سيدتي، أنا الذي لم أكن كافيًا بالنسبة لك".

"لم يسبق لي أن نظرت إلى رجل غيرك".

"لا يا سيدتي، ليس هذا ما قصدته".

وفرك عينيه كما لو كان متعبًا:

"لماذا لم تحبيني بما يكفي لتقلعي عن الشراب؟ لقد عملت بكد من أجلك واشتريت لك أفضل الأشياء".
وحدق في الحائط وكأنه ينظر من خلاله إلى شيء آخر:

"حتى إنني منحتك طفلًا، من صلبي لتحافظي على وعيك، ولكن هذا لم يكن كافيًا بالنسبة لك".

جلست أغنيس على المقعد في سكوت، فأمسك مرفقها بخشونة محاولًا رفعها عن المقعد ولكنها دفعت يده بعيدًا وتخلصت من قبضته وعادت للجلوس في مكانها مرة أخرى وكأنها في اعتصام سلمي.

أصبحت أغنيس في حالة ذهنية خطيرة فهي تناولت قدرًا كافيًا من الشراب لتشجيعها على ارتكاب أفعال عنيفة، ولكنه لم يكن كافيًا للدرجة التي لا تشعر فيها بمسؤولية ما تفعل.

ربما لو تناولت عدة رشفات أخرى لأصبحت قوة مدمرة وضيعة وسليطة اللسان، نظر شوج إليها وكأنه يتنبأ بما يمكن أن يظهر من خلف الغيوم.

أمسك بها مرة أخرى محاولًا أن يزيحها عن مكانها قبل أن تنفجر في وجهه، انتزعت نفسها من قبضته وعادت للجلوس مرة أخرى، ونظرت إليه في برود لفترة طويلة وكأنها لا تصدق ما يحدث:

"نعم، أنت غير كافٍ بالنسبة لامرأة مثلي، انظر إلى نفسك، انظر إلى نفسك".

"أنت تحرجين نفسك".

جذبها شوج من ملابسها ودفعها حتى تتحرك من مكانها، لم تصرخ حين جذبها من مقدمة شعرها وسحبها على الأرض.

دفعت أغنيس بجسدها تجاه الباب محاولة إبقاءه في الداخل إلى الأبد.

دفع الباب بشدة فارتطم بمؤخرة رأسها كأنها قطعة مهملة من السجاد، وبينما كان يخطو فوقها شق كعب حذائه جلد ذقنها الأبيض اللؤلؤي الجميل فصاحت:

"أرجوك، أنا أحبك".

"أعرف هذا!".

عندما وصلت سيارة الأجرة التي يقودها شوج إلى بداية طريق المنجم كان أطفالها يجتمعون في ردهة المنزل يشاهدون أغنيس الجميلة الرائعة ملقاة على الأرض كفستان سهرة لامع يبكي وينتحب.

لم تدخل الحقائب الحمراء الجلدية إلى المنزل الذي كان يخص عمال المناجم. ولم يعد شوج للمنزل مرة أخرى إلا بعد مرور عدة أيام ولكنه عندما عاد لم يحضر الحقائب معه، بل ذهب بهم إلى جوان ميكلوايت التي وضعتهم في مساحة خصصتها لهم تحت فراشها.

لم تعرف أغنيس ذلك في البداية، عندما ظهر شوج ببساطة في إحدى الليالي فقبل الجرح الغائر في ذقنها ببساطة ثم استلقى بجوارها في غرفة المعيشة، ثم اعتاد شوج أن يظهر خلال مناوباته الليلة ليمارس معها الجنس بشكل متقطع، كان ينتظر أن ينام الأطفال خلال الليل ثم يظهر في الردهة مصفرًا بلا مبالاة، وفي إحدى الليالي بينما كان يخلع قميصه استطاعت أغنيس أن تعرف أن ملابسه الداخلية نظيفة ومغسولة من قبل امرأة أخرى، كان ينتظر بعد أن ينتهي من ممارسة الجنس معها أن ترفع ذراعها من فوق جسده فيقوم من مكانه مسرعًا، لم يكن يبقى لمدة أطول من ذلك إلا لو طهت شيئًا خاصًّا من أجله ولكنها لو واصلت الشكوى والأسئلة فهو يغيب عنها لعدد من الليالي كنوع من العقاب.

بعد أن ينصرف كانت أغنيس تبقى لساعات طويلة مستلقية على الأريكة في الردهة لأنها لا تستطيع أن تدخل الفراش من دونه، تحدق في السقف باقي الليل والأطفال نائمون في حجرتهم المجاورة.

عندما أتى فصل الخريف للمرة الأولى كانت كاثرين تخرج للنوم بجوارها طامعة في بعض الدفء، همست كاثرين في إحدى الليالي وهن راقدات فوق الأريكة المشبعة بالرطوبة والعفن المتنامي:

"لماذا لا نعود إلى منزلنا القديم في سايهيل؟".

لم تستطِع أغنيس أن تشرح لها أسباب بقائهم في ذلك المكان، لم تستطِع أن تشرح لها أنها ستقبل منه بأي شيء، وأنها ستفرح بكل عطاياه الصغيرة، لأنها تعلم أنه لن يعود مطلقًا إليها لو ذهبت إلى منزل والدتها.

وعندما جاءت ليلة الاحتفال بذكرى جاي فوكس[22] وامتلأ الهواء برائحة الإطارات والخشب المشتعل، وقفت كاثرين وأغنيس خلف النافذة تراقبان الأطفال يشعلون الألعاب النارية ويلقيها بعضهم على بعض، ويشعلون النار في الإطارات والألواح الخشبية في حالة من المتعة النادرة.

ما زال التلفاز موضوعًا في الزاوية وملفوفًا بملاءة قديمة، جلست كاثرين على الأريكة وقد لفت شعرها بمنشفة مبللة وهي تتساءل إن كانت ستقضي الليلة تستمع لبكاء أمها كالعادة في الظلام.

22- كان واحدًا من مجموعة من المقاتلين الإنجليز الذين تورطوا في مؤامرة البارود الفاشلة 1605 التي كانت تهدف لاغتيال الملك جيمس الأول وإعادة الحكم الكاثوليكي. (المترجم)

اتجهت أغنيس إلى المطبخ ولم تضئ الأنوار، كان شباك المطبخ يحظى بأفضل زاوية رؤية لمراقبة طريق المنجم، كانت تقف هناك كل ليلة لعدة ساعات في انتظار سيارة الأجرة السوداء، ويزداد شعورها بالأمل مع ارتفاع صوت كل محرك ديزل يقترب.

كانت تشرب الخمر طوال اليوم ولكن ذلك لم يساعدها في شيء، كانت تخبئ عبوة الشراب في مخبأ سري تحت حوض المطبخ ولكن أطفالها كانوا يستطيعون تمييز الأوقات التي تشرب فيها من الصوت الناتج عن رفع غطاء المخبأ.

صاح ليك وهو جالس فوق الأريكة: "مامي، ماذا لدينا للعشاء؟".

توقفت أغنيس عن حك القشرة التي تكونت فوق ذقنها ثم نظرت للموقد وقالت:

"يمكنني أن أسخن لك بعض الحساء".

"حساء البازلاء؟".

"نعم، إنه هو".

رد ليك: "أنا لا أحب البازلاء".

كان قد أتم خمسة عشر عامًا، ولكنه لا يطيق تناول الخضروات.

سخرت كاثرين قائلة: "تناول الحساء أيها الأحمق".

مد ليك قدمه في اتجاهها وسحب المنشفة المبللة من فوق شعرها، فتمزقت بعض أطرافه، ثم ألقى المنشفة في الزاوية البعيدة، ثم ساد الصمت، اتفق الأطفال في ما سبق على التصرف بهدوء قدر المستطاع في وجود والدتهم حتى لا يشكلوا ضغطًا على أعصابها، لذلك تحركت

كاثرين في صمت وتوجهت إلى ركن الغرفة وجلبت المنشفة ثم لفتها حول رأسها مرة أخرى.

اتبعت كاثرين نصيحة ليزي وحافظت على عذريتها، وهي تستعد لأن يطلب دونالد الصغير يدها للزواج في أي وقت، حتى لا تضطر للمشاركة في غرفة النوم مع والدتها ولا مع شقيقيها في ذلك المكان الرطب. منعها ذلك الأمل عن مغادرة المنزل وتدبر أمورها بنفسها في مكان آخر، فهي سترحل عنهم قريبًا على كل حال.

أعادت كاثرين لف شعرها وأشارت بأصابعها لأخيها حتى يهدأ، ثم ذهبت خلف والدتها للاطمئنان عليها، كانت أغنيس تدور في المطبخ بعصبية كلعبة القطار الكهربائي، وكانت تتوقف بين الحين والآخر لتفتح الخزانة وتصب بعض الشراب في قدح بلاستيكي وتتجرعه دفعة واحدة.

فتحت كاثرين الخزانة بأصابع قدميها وشعرت بالارتياح عندما تأكدت من أن والدتها لا تشرب من المحلول المبيض.

شمت كاثرين الوعاء ثم قالت:

"مامي، ما رأيك أن نطلب طعامًا صينيًّا".

جاء صوت ليك من الغرفة الأخرى:

"هذه فكرة رائعة".

لم تقل كاثرين إلا "طعامًا صينيًّا" ولكن أغنيس سمعتها تقول شوج، كان لديها قدرة غريبة على ربط كل شيء به طوال الوقت، قالت بتركيز واضح في عينيها:

"ما رأيك أن أتصل بشركة النقل التي يعمل بها شوج لأعرف إن كان

سيحضر الليلة".

ثم أضافت:

"يمكن أن أطلب منه أن يجلب بعض الطعام الصيني بصحبته".

تذمرت كاثرين، كان شوج قد حذر أغنيس من الاتصال بشركة النقل التي يعمل بها مجددًا، وأضاف ذلك التحذير إلى قائمة طويلة من الأشياء التي يجب عليها أن تتوقف عن فعلها حتى لا يتوقف عن الحضور إليها بشكل نهائي، كان يبتزها عاطفيًّا.

ربما لو أخبرته أن الأطفال جائعون في انتظاره فسوف يأتي ليقضي بصحبتها بضع ساعات على الأريكة، يمكنها الاتصال به ثم سيكون لديها الوقت الكافي لتستعد من أجل استقباله.

تناولت أغنيس رشفة من الكوب، وبدأت ترتب أفكارها قبل أن تكلمه:

"أبقي صوتك هادئًا وناعمًا ورصينًا وغير مبالٍ، أظهري ابتسامتك عبر الهاتف".

لم تنجح محاولاتها في كل الليالي السابقة دون أن تعرف السبب، ولكنها كانت ترغب في أن تنجح تلك الليلة.

جلست أغنيس أمام طاولة الهاتف الصغيرة المصنوعة من الجلد المصقول وأشعلت سيجارة حتى تهدئ أعصابها، ثم أعادت خاتم زفافها في مكانه مرة أخرى، وكأن المتلقي عبر الطرف الآخر يمكنه رؤيته عبر الهاتف، تحول الخاتم مع الوقت من اللون الذهبي اللامع إلى لون أصفر قذر.

ارتفع صوت امراة مزعج من الناحية الأخرى:

"مرحبًا، تاكسي نورثسايد".

ردت أغنيس دون اهتمام: "مرحبًا جوان، هل هذه أنت؟ أنا السيدة بين".

"مرحبًا أيتها الدجاجة، كيف أستطيع خدمتك".

كان رد جوانا خاليًا من الانفعال، كمن وصل إلى ناصية الشارع فوجد شخصًا لا يرغب في رؤيته فتظاهر بالتجاهل.

"هل يمكنك توصيل رسالة إلى شوج بالنيابة عني؟".

"سأرى ما يمكنني فعله، أيتها الدجاجة البيضاء".

تساءلت أغنيس إن كانت جوان تعلم بأن شوج تركها، وأنه لم يعد ينام في فراشه بعد الآن؟

غابت جوانا لفترة طويلة من الوقت قضتها في محاولة الاتصال بشوجي عبر جهاز الإرسال الموجود في مكتبها،

ثم قالت: "هل ما زلت في الانتظار؟".

ردت أغنيس بصبر نافد وهي تنفخ دخان السيجارة فوق رأسها:

"هل استطعت الوصول إليه".

ردت جوانا ببرود بعد فترة وجيزة، جعلت أغنيس تجهز نفسها للإجابة بالنفي:

"نعم، يقول لك إنه سيعيد الاتصال بك بعد فترة قصيرة".

أشرق وجه أغنيس وشعرت بالأمل يسري في صدرها، فرحت لرؤية زوجها أخيرًا بعد فترة طويلة، وفكرت في ارتداء الفستان الأحمر وربما

تحلق شعر ساقيها إن كان لديها الوقت الكافي.

أضافت جوان:

"أيتها الدجاجة، أعلم أنه لم يخبرك بكل شيء".

ردت أغنيس: "ماذا....".

"أنا لم أرغب في حدوث كل هذا، ولكن الأمور تطورت ولم يكن الأمر بيدي، إن لدي سبعة أطفال، لذلك أشعر بالأسف من أجلك".

كانت الاحتفالات النارية في الخارج قد أوشكت على الانتهاء بحلول الوقت الذي وصل فيه شوج إلى المنزل والأطفال اتجهوا لفراشهم متجهمين وجائعين، منعتهم أغنيس من لمس الطعام الصيني في غياب شوج.

جلس شوج يتناول الطعام بشراهة وبعض من بقايا الشعر يتساقط من رأسه الأصلع، شعرت أغنيس بغضب قاتل لأنه لم يفقد شهيته برغم كل ما يحدث، فركت أصابعها وجلست بين الأغراض التي لم يتم فتحها بعد النقل وقالت:

"أين حقائبك الحمراء؟ هل تحتفظ بهم من أجلك؟".

قال :

"لا"، دون أن ينظر إليها.

شربت أغنيس جرعة كبيرة من البيرة دفعة واحدة بقدر ما تستطيع، ثم أنزلت العبوة من فوق شفتيها وأخذت نفسها عميقًا قبل أن تسأله:

"هل هي جميلة؟".

رد بعصبية: "أخبرتك عبر الهاتف اللعين أنني لا أرغب في الحديث عنها

مرة أخرى".

وأمسك قطعة من الخبز الأبيض وقسمها لنصفين وهو يقول:

"دعيني أتناول عشائي في هدوء، أنا لم آتِ بالسيارة كل هذه المسافة الطويلة حتى نتجادل".

ظلت أغنيس هادئة لفترة طويلة لأنها تفكر في الخطوة التالية بعمق، تمسك سكينًا في يدها اليسرى وترغب في طعنه ولكنها تريد أن يظل معها لفترة أطول.

تحدثت مرة أخرى بصوت هادئ ومنخفض:

"أخبرتني أننا سوف نبدأ بداية جديدة".

"هذه هي البداية الجديدة أغنيس، أنا لا أستطيع أن أحتمل أكثر من هذا".

غطت أغنيس وجهها بيدها، كانت أظافرها لامعة وكأنها انتهت من طلائها للتو وقالت:

"بحق الجحيم، لماذا جئت بي إلى هنا؟".

أزال بقايا الطعام عن شاربه الكثيف وقال:

"أردت أن أعرف".

قالت بغضب:

"ماذا أردت أن تعرف؟".

"كنت أظن أن هذه رغبتك، كنت في حاجة إلى أن أعرف إن كنت ستأتين حقًا إلى هنا".

جذبته أغنيس من ياقة سترته فخلع شوج حزام النقود وجذبها إليه وقبلها، دافعًا لسانه داخل فمها.

كان يجب عليه أن يسحق كل العظام الصغيرة في راحة يدها حتى تترك ملابسه، كانت تحبه وكان عليه أن يحطمها بالكامل حتى يستطيع أن يهجرها إلى الأبد.

كانت أغنيس بين امرأة مميزة للغاية ولا يمكنه السماح لرجل آخر أن يحصل على حبها، لذلك قرر أن لا يترك فيها شيئًا سليمًا حتى لا يمكن لرجل آخر أن يجمعه ويصلحها مرة أخرى.

9

تجرعت أغنيس ثلاث عبوات كبيرة من البيرة قبل أن تستطيع الخروج من الباب الأمامي للمنزل، تقف أمامها مجموعة من النساء يستندن بأيديهن إلى السياج الأمامي كأنهن متكئات على المصد الأمامى لسيارة قديمة، ينتظرن خروجها منذ أن انتقلت إلى هذا المكان وقد مضى أربعة أشهر ولا يبدو عليهن أن الشعور بالبرد يضايقهن، كانت الأرض مغطاة بأعقاب السجائر وعلى حافة السياج القذر مجموعة من أقداح الشاي، توقفن عن الحديث بمجرد ظهورها أمام الباب وتركزت كل الأنظار عليها.

رفعت أغنيس رأسها عاليًا وتأكدت من أن كعب حذائها يصدر صوتًا عاليًا وواضحًا أثناء سيرها على الطريق، ابتسمت بزهو وهي تمر بجوار النساء وهن يرتدين سراويلهن القطنية الضيقة ونعالهن المنزلية واستمرت في طريقها إلى حانة عمال المناجم بحثًا عن النسيان.

نظرت إليها النساء في صمت وقبل أن تختفي عن الأنظار صاحت بريدي:

"نحن لسنا على خلاف، أليس كذلك؟".

كانت لم تصفف شعرها بعد وكانت أردافها الممتلئة محشورة داخل سروال رجالي رياضي ومعطف منزلي، فردت أغنيس دون أن تلتفت وراءها:

"من أين جاءتك هذه الفكرة؟".

"أنت لم تدعينا إلى الحفلة، ألسنا أصدقاءك؟".

استدارت أغنيس نصف دورة تجاههن: "أي حفلة تقصدين؟".

"لا بد أنك في الطريق إلى حفلة، متأنقة بذلك الشكل".

"إلى حانة عمال المناجم، سوف أبحث عن بعض المتعة".

نظرت النساء إلى بعضهن في عصبية وقلق.

قالت بريدي: "لا داعي للذهاب إلى هناك، الرجال لا يحبون أن يروا وجوهنا في ذلك المكان، ابقي معنا وسنقدم لك مشروبًا كوسيلة للترحيب".

سحبت بريدي زجاجة كبيرة تحتوي على سائل شفاف من خلف السياج، ثم ألقت محتويات قدح الشاي الخاص بها في الشارع وصبت قليلًا من الفودكا مكانها وقالت:

"تعالي، انضمي إلينا، وأخبرينا القليل عن نفسك".

تأملت أغنيس الفودكا وهي تنساب فوق بقايا الشاي من فوق حافة القدح، أقبلت نحوهن ومدت يدها في تهذيب واعتدال وتناولت القدح وهي تراقب الفودكا اللامعة تنساب على هيئة فقاعات براقة، فتحت بريدي باب السياج الأمامي وحرصت على أن تملأ القدح حتى نهايته.

"تقدمي من فضلك، لا يجب أن تظني أننا بخلاء".

أمسكت أغنيس بالقدح بطريقة تعبر عن الامتنان، نظرت النساء بشكل متفحص في جارتهن صاحبة الجسد المثير والكعب الرفيع والمعطف الفرو الوثير، نظرت أغنيس نحو الطريق الخالي ثم تجرعت الشراب دفعة واحدة.

كان الليل في بدايته والأنوار تلقي ظلالها على الوجوه، وعصابة من الكلاب الشاردة تجوب بين أكوام التراب والقاذورات تشمهم وتتقاتل في ما بينها، تبول أحد الكلاب فوق بقعة من الأرض فتناوب الكلاب على التبول في نفس المكان كطريقة لفرض سيطرتهم.

أعادت أغنيس نظرها نحو مجموعة النساء اللاتي ينظرن إليها في جوع للمعلومات، فرفعت القدح عاليًا وقالت:

"نخبكن".

فصبوا لها كوبًا آخر، أمسكت إحدى النساء لفافة من ورق التبغ وأخرجت بريدي من جيبها قليلًا من التبغ ذهبي اللون، وبدأت في لف سيجارة.

قالت أغنيس:

"ضعي ذلك بعيدًا".

رأت في ذلك فرصة سانحة لترد إليهن ما شربته من الفودكا.

وضعت أغنيس يدها في جيب معطفها المصنوع من فرو المنك وأخرجت علبة كينستاس[23]، نظرت بريدي إلى العلبة الذهبية اللامعة والقداحة المطلية بالذهب وقالت لصديقاتها:

23- سجائر اسكتلندية الصنع.

"بحق المسيح، انتقلت ملكة إنجلترا للسكن بجوارنا".

هزت جينتي رأسها علامة على الموافقة:

"من الجيد ألا تضطر لأن تخرج بقايا التبغ من بين أسنانك".

أخذت كل واحدة سيجارة وأشعلتها، تذوقن طعم السجائر في صمت وتناولن الأنفاس في نهم، وأمسكنها بين أصابعهن كما لو كن يمسكن بسلاح ناري، أخذن يتأملن أغنيس وأظافرها الحمراء التي ترقص أمام وجهها، كأنها خنافس صغيرة تمشي فوق أصابعها الرقيقة، سحبت أغنيس نفسًا عميقًا من السيجارة، سحب معه خدها الرقيق إلى الداخل ثم رفعت يدها الأخرى وأخذت رشفة عميقة من القدح، سألتها جينتي وهي تعبث في طرف حلقها القديم:

"من أين أنتم؟".

ردت:

"في الأصل من جيرميستون ولكني تنقلت قليلًا في أنحاء الساحل الشرقي".

ردت بريدي:

"كلنا من الساحل الشرقي".

ثم أضافت وهي تهز رأسها بحكمة:

"يبدو أنك امرأة كاثوليكية صالحة، ما الذي أتى بك إلى حينا الصغير؟".

تلعثمت أغنيس وهي تقول: "لقد سمع رجلي أنه مكان جيد للعيش، مناسب للأطفال".

توقفت عن الكلام قليلًا ثم أضافت:

"والجيران طيبون".

ضحكت بريدي:

"نعم، لقد كان كذلك في الماضي، ولكن المنجم الآن يحتضر منذ فترة طويلة، ولا مكان اليوم للمزيد من العمال، حتى إن العديد من رجالنا يجلسون في المنزل بلا عمل في وضح النهار".

قالت نورين:

"ما زالت هناك فرصة للعمل فالعديد من الرجال يعمل في سد الثقوب حتى لا يسقط فيها الأطفال ويدعمون حوائط المنجم، نحن لا نريد أن تقع المزيد من الحوادث".

تساءلت أغنيس:

"حوادث؟".

"نعم، الرجال يعملون في ظروف خطرة، وهم يدركون ذلك ويحترمون المنجم وطبيعته، ولذلك يتخذون حذرهم طوال الوقت ولكن في بعض الأحيان يتسرب غاز من باطن الأرض عن طريق الثقوب، ويسبب انفجارات وانهيارًا في المنجم، عندما حدث هذا في آخر مرة حبس الرجال جميعًا تحت الأرض وحرم العديد من الأطفال من آبائهم".

نظرت جينتي إلى حلق أغنيس وهي تقول:

"وقد تركوا العديد من النساء للوحدة".

نظر الجميع إلى منزل المرأة ذات الوجه العظمي، قالت بريدي:

"لا داعي للقلق بشأن كولين ماكافيني، فإن نباحها أسوأ من عضتها".

قالت أغنيس:

"هل تربطك بها صلة قرابة، هي الأخرى".

"نعم ولكنها ليست قرابة حقيقية، اسمعي إنها تحاول أن تحمي رجلها جيمسي، لقد كان لها رجل طيب جيد المظهر يعمل على الرافعة لسحب العمال إلى الأعلى وإنزالهم إلى بطن المنجم، ولكنه حرق في الانفجار، تسبب الانفجار في تشويه رقبته وترك علامات كبيرة فوق كتفيه".

أومأت النساء برأسها كعلامة على الاحترام.

"رجل جيد، أصابه التشوه وفقد مظهره".

"على كل حال إلى أين ذهب زوجك، ولأين أخذ حقائبه الحمراء الفاخرة؟".

فاجأتها جينتي بالسؤال:

"إنه سائق أجرة وفي بعض الأحيان يضطر لأخذ أغراضه بصحبته".

كان الكذب واضحًا على ملامحها.

"إنه يعمل دائمًا في المناوبة الليلية".

ضغطت جينتي على أسنانها ووضعت يدها على كتف أغنيس في إشارة

للتعاطف:

"نحن لم نولد بالأمس أيتها الدجاجة البيضاء، كان من الواضح بالنسبة لي بأنه سيرحل لفترة طويلة".

ردت بريدي وهي تشير بسيجارتها تجاه جينتي:

"لا تهتمي بها يا عزيزتي، وتتورطي في هذا الأمر، لكل منا رجل وللجميع مشاكل مع الرجال هذا أمر طبيعي".

ظهر التعاطف على وجه العديد من السيدات وسألتها نورين في قلق:

"كيف ستطعمين أطفالك في حالة أنه لم يعود؟".

كانت النقود تشغل بالها دائمًا وتعكر صفو حياتها، فقالت في حزن:

"لا أعرف".

نظرت النساء بعضهن إلى بعض، ثم قالت بريدي:

"هل حصلت على إعانة اجتماعية؟ يمكن التوجه إلى المكتب صباح يوم الإثنين وتقديم طلب بذلك، أخبريهم أنك بحاجة للتقدم من أجل الحصول على مساعدة البطالة بخلاف هذا سوف تتضورين جوعًا قبل يوم الخميس".

ردت أغنيس:

"ولماذا سيعطونني إعانة بطالة؟".

أجابت بريدي:

"لا تقلقي أيتها الدجاجة، يكفي أن تخبريهم بعنوانك وسوف يمنحونك الإعانة على الفور، انظري حولك إلى هذا المكان البائس الذي نعيش فيه،

إعانة البطالة هي الشيء الوحيد الذي نحصل عليه هنا ويوم الإثنين هو يوم العيد بالنسبة لنا".

رفعت أغنيس القدح إلى شفتيها وهي تحدق بعيدًا في السحاب، فتركت آثار الحليب شاربًا فوق شفتيها.

قالت جينتي:

"لا بد أن الشاي كان ممزوجًا بالحليب الثقيل".

ضحكت النساء، قالت بريدي:

"منذ رأيتك للمرة الأولى علمت أنك معتادة على الشراب بهذه الطريقة، كنت أعلم أن الحزن في أعين الطائر الجميل الذي حط علينا قادمًا من المدينة يخفي وراءه امرأة سكيرة".

قالت النساء:

"نعم، هي كذلك".

وكأنهن يستعددن لذبح بقرة، تجمد القدح بين شفتي أغنيس، بينما سألتها بريدي:

"هل أنت معتادة على شرب أي شيء وفي أي وقت؟".

ردت أغنيس:

"ماذا؟".

أضافت بريدي:

"تلك مشكلة كبيرة".

ردت أغنيس:

"ليس لدي مشكلة".

"اسمعي أيتها الدجاجة البيضاء، أنت تقفين في منتصف الطريق وفي وضح النهار تشربين الفودكا، وتلك مشكلة في حد ذاتها، كيف يمكنك الذهاب لطلب الإعانة وأنت بهذا الشكل".

شعرت أغنيس بالإهانة وقالت:

"أنتن تشربن الفودكا أيضًا".

نظرت لها النساء في استنكار، وأملن أكوابهن تجاهها فلمعت تحت ضوء الشمس البرتقالي.

"لا يا عزيزتي، نحن نشرب الشاي المثلج، بينما أنت تشربين الفودكا، وكأنك تشربين الماء من الصنبور".

احمر وجه أغنيس وتبادلت النساء النظرات إلى بعضهن وإليها وهن يزمُمْن على شفافهن بينما لمع بريق خاص في أعينهن. ألقت أغنيس كل ما تبقى من قدح الفودكا في حلقها في جرعة واحدة.

أمسكت بريدي بيدها:

"اسمعي لقد واجهتني مشكلة كبيرة في يوم ما، مثل مشكلتك القذرة، فقد كان لدي ستة أطفال جائعين وزوج عاطل عن العمل".

سحقت ما تبقى من السيجارة على الأرض بأطراف أقدامها وقالت:

"كنت غائبة عن الوعي طوال الوقت، كنت لا أستطيع أن أتجول في الجوار وأعرف من الذي يتحدث معي، ومن يجب عليّ أن أتشاجر معه في الصباح، كنت أدخل إلى المطبخ لأصنع قدحًا من الشاي فيفر أطفالي من حولي، ومن يبقى منهم يصاب بكدمة كبيرة سوداء حول عينيه، وعندما أنظر في المرآة أجد في عيني كدمة مماثلة".

أومأن جميع النساء برؤوسهن على سبيل التعاطف ولم يضحك أحد، أضافت جينتي:

"يجب أن تصدقيني، لقد كنت أذهب إلى متجر دونيلي وأتجاذب أطراف الحديث مع المرأة التي كنت أجرها في الشارع من رأسها في الليلة السابقة دون أن أدري".

رفعت يدها أمام جسدها النحيل المرتعش وضمتها على هيئة قبضة مشدودة، وأشارت إلى منزل المرأة ذات الوجه النحيل قائلة:

"لقد تشاجرت مع كولين لأنها كانت تظن أنني أحاول أن أغوي زوجها جيمسي الكبير".

قالت بريدي: "هذا هراء، أنت وهي أقرباء والجميع يعلم ذلك".

فأجابت جينتي: "حسنًا، لم يخبر أحد كولين بذلك".

ثم نظرت إلى أغنيس:

"لقد توقفت كولين عن الشراب هي الأخرى، وأصبحت متدينة، وتحفظ المسيح في قلبها طوال الوقت، ولكنها في أحد أيام الإثنين ذهبت إلى المكتب،

وسحبت كل نقود الإعانة من هناك وفي طريق العودة أنفقت كل النقود وتجرعت كل الخمر دفعة واحدة.

كان أطفالها ينتظرون وهم يتضورون جوعًا، شربت كل الخمر لآخر قطرة وأحضرت حقيبة بلاستيكة وأخذت تجمع فيها كل فضلات الكلاب من على الطريق، الفضلات البيضاء والسوداء السائلة والصلبة، لم تكن تميز حتى امتلأت الحقيبة بالكامل، ثم حملت الحقيبة ووقفت هناك".

أشارت جينتي إلى نقطة في أعلى التل:

"ثم ارتدت قفازًا أصفر وبدأت في إلقاء الفضلات، غطت الفضلات جميع أنحاء المنزل، وهي تصرخ في جيمسي الكبير أن يخرج ويواجهها مثل الرجال".

قالت أغنيس:

"وماذا حدث بعد ذلك؟".

"سوف أصل إلى هذا لاحقًا".

نظرت جينتي من فوق كتفها على بوابة منزل كولين:

"امتلأ المكان بفضلات الكلاب حتى إن المرء كان يستطيع أن يشم الرائحة من على بعد أميال، التصقت الفضلات بالنوافذ والجدران، ولا يعلم إلا الرب إلى أين تسربت بعد ذلك، استأذن رجلها للانصراف مبكرًا من عمله في المنجم وهو يظن أنها تلعب البنغو كما اعتادت من قبل، ولكنه وجد الخراء يغطي الشارع والمنزل بشكل وحشي".

أكملت بريدي الحكاية:

"لقد تبين أن رجلها لديه عمل إضافي لم يخبرها به، كان يغيب عن

المنزل من أجل العمل، من كان يظن ذلك؟ فقد كان يخشى أن يعرف الجميع بشأن عمله الجديد، فتنقطع عنه إعانة البطالة".

قبلت جينتي قلادتها المرسومة على هيئة سانت كريستوفر:[24]

"كانت كولين تظن أنه يخونها، بينما كان الرجل يطمح في توفير بعض الدخل الإضافي، نشكر الرب أنهم سيغلقون المنجم الملعون".

نظرت بريدي إلى أغنيس:

"أعرف لماذا تشربين أيتها الدجاجة، إنه من الصعب التأقلم مع الحياة في كثير من الأحيان، ما زلت أحتاج لتناول الشراب أنا الأخرى، ولكني أكتفي بتناول القليل من هذا حتى أستطيع مواصلة حياتي".

وأخرجت من جيبها زجاجة دواء بلاستيكة صغيرة، وقالت:

"حبوب بريدي الصغيرة".

سألتها أغنيس:

"الأسبرين؟".

لعقت بريدي أطراف أصابعها وقالت:

"لا، إنه الفاليوم[25]، إذا كانت لديك رغبة يمكنك أن تتناولي حبتين، وإذا رغبت في المزيد يمكنني أن أوفره لك بأسعار خاصة".

غطت بريدي الزجاجة الصغيرة وأزاحت الغطاء بابتسامة، ووضعت

24- أحد الشهداء المسيحين الذين قتلوا في عهد أباطرة الرومان ويعتبر شفيع المسافرين ولذلك توضع أيقونته في المركبات ويرتديها الأشخاص حول أعناقهم. (المترجم)

25- دواء يبطئ من عمل وظائف الجسم و المخ و الجهاز العصبي، لذلك يستخدم لعلاج القلق و آلام العضلات و علاج أعراض انسحاب الكحول وله تأثير إدماني قوي في حالة الإفراط وتخطي الجرعة المحددة. (المترجم)

حبتين في راحة يد أغنيس كأنها تضع قطعًا من الحلوى:

"تفضلي، يمكنك تجربتها، ومرحبًا بك في بيتهيد".

10

لم تظهر أمه حتى الآن، أمسك أسنانه في يده وهي تفيض بالدم واللعاب وشعر أنه سيموت، أخرج القاطع الصغير في يده، هل يمكن أن يموت طفل في السابعة من العمر بسبب أسنانه؟

كان يخشى أن يتحسس باقي الأسنان بطرف لسانه حتى لا تسقط جميعًا، ولذلك كان عليه انتظار أمه حتى يسألها ولكنها لم تظهر.

وقف شوجي واضعًا وجهه أمام السياج الصدئ للحديقة وشاهد مجموعة من الكلاب تتجول وتنبح، كانوا خمسة من الذكور يتحرشون بكلبة صغيرة سوداء، شاركهم شوجي النباح بعد أن مد شفتيه بين فتحات السياج.

"هوهو هو، هوهوهو".

ظهر الأمر كأنه يغني معهم أو أنهم ينادونه للخروج.

لم تكن أمه تسمح له بالخروج دون إذن منها ولكنها لم تكن موجودة لمنعه.

أبقى شوجي حذائه المطاطي الخفيف مثبتًا في الداخل بقوة، ثم فتح البوابة وأطل برأسه، نظر ذات اليمين وذات اليسار فلم يرَها، بدأ في حبس أنفاسه لبعض الوقت ثم إطلاقها مرة أخرى وطوال ذلك الوقت كان يسترق النظرات على طول الطريق باحثًا عنها ولكنها لم تكن موجودة.

كان قطيع الكلاب يناديه مرة أخرى، ألقى شوجي عروسه الصغيرة

القذرة الملوثة بالدماء، في اتجاه قطيع الكلاب، وقعت دافني على الأرض، فأثارت زوبعة من الغبار على شكل ملاك صغير، التقطها شوجي بسرعة وعاد للداخل كأنه سمكة صغيرة وأغلق البوابة من خلفه، فأطلقت صوتًا معدنيًّا ثقيلًا، نظر حوله لم يظهر أحد من نافذة المنزل، ولم يظهر أحد من نافذة منزل بريدي دونلي أيضًا، لم يكن أحد يراقبه وهي لم تكن موجودة.

فتح شوجي البوابة مرة أخرى ولحق بقطيع الكلاب، كان هناك عند ناصية الشارع عدد من النساء يقفن مرتدين أحذية منزلية رجالية، كن يتحدثن بحماس حول شيء ما، لاحظ بأنهن يخفضن من أصواتهن وقت عبوره بالجوار نظرت إليه إحداهن وألقت تحية مقتضبة، حاول أن يبدو طبيعيًّا ولا يظهر اهتمامًا بوجودهن، فبدأ في الرقص بطول الطريق الترابي وملاحقة الكلاب، مر بجوار الكنيسة الصغيرة محاولًا ركل كل أعمدة الغبار التي يثيرها الهواء في طريقه على سبيل اللعب، وظل يرقص ويرقص مبتعدًا عن المنزل، مر شوجي بجانب المدرسة الكاثوليكية، فوجد الأولاد يلعبون في الفناء أثناء فترة الراحة الصباحية.

وقف ينظر إليهم مختفيًا في ظل شجرة كستناء، وتساءل لماذا لم يذهب مثلهم إلى المدرسة؟ لم يكن يعرف الإجابة، لم يكن هناك كارتون في التلفاز هذا الصباح، لا بد أن اليوم ليس السبت، لا بد أن هذا ليس السبب في عدم ذهابه، كما أنها لم تجهز ملابسه كما تفعل في بعض الأحيان، ربما لذلك لم يذهب، إنها لم تخبره شيئًا بهذا الشأن.

شاهد الأطفال يركلون بعنف كرة مطاطية بالقرب من سور المدرسة، لاحظوا وجوده قبل أن يظهر نفسه.

صرخ أحد الأطفال في وجهه:

"ماذا تحمل في يدك؟".

كان الأصغر بين الأشقاء ذا اللون البني، أبناء كولين ماكافيني المرأة صاحبة الوجه العظمي النحيل، خبأ شوجي دميته دافني بسرعة خلف ظهره بحركة لاإرادية، ثم أشار إليهم بطريقة مهذبة:

"مرحبًا".

وهو يقلد نبرة الصوت المميزة لزوجات عاملات المناجم، وقدمه اليسرى للخلف خطوة واحدة.

نظر إليه الأطفال بأفواه مفتوحة، وحركوا أعينهم للأعلى والأسفل متفحصة إياه، ثم سأله أصغر أبناء كولين ويدعى جابريل، وهو يقشر طبقات من الطلاء الأخضر من على السور الحديدي:

"لماذا أنت لست داخل المدرسة؟".

أجاب شوجي وهو يهز أكتافه:
"لا أعرف".

كان الأطفال أكبر منه بعدد قليل من السنوات، ولكنهم يمتلكون بنية قوية وسمرة اكتسبوها من اللعب في الخارج، ورمي القطط في الثقوب على جانب المنجم.

كان شوجي يراهم يحملون أشياء ثقيلة إلى داخل منازلهم من مؤخرة الشاحنة التي يملكها والدهم.

ضيق فرانسيس ماكافيني عينيه الداكنتين وقال:

"لقد تغيبت لأن أمك مدمنة على الخمر".

وركز ببصره على وجه شوجي ليعرف تأثير كلماته.

أضاف جابريل ماكافيني بعد أن وضع شظية من بقايا الطلاء الأخضر بين شفتيه:

"لماذا لا تملك أبًا؟".

تمتم شوجي:

"أنا أملك أبًا".

ابتسم جابريل ماكافيني:

"أين هو إذًا؟".

لم يكن شوجي يعرف إجابة هذا السؤال، كل ما كان يعرفه أن أباه عاهر قذر يربي أبناء امرأة أخرى، ويمارس الجنس في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة في كل فرصة متاحة، ولكنه لم يكن يشعر أنه من الصحيح الاعتراف بذلك.

أجاب شوجي:

"إنه يعمل في المناوبة المسائية حتى يوفر لنا المال لقضاء عطلة سعيدة".

دق جرس نهاية فترة الاستراحة، وخرج الأب باري ليجمع الأطفال من أجل العودة إلى فصولهم الدراسية.

مد جابريل أصابعه الطويلة عبر السور محاولًا أن يأخذ عروسة شوجي، وأعجب فرانسيس باللعبة فمد يده هو الآخر، حتى أصبح الاثنان يشدان الدمية من يد شوجي.

تراجع شوجي خطوة للخلف واختبأ مرة أخرى في ظل شجرة الكستناء وهو يصرخ سأخبر الأب باري.

صرخ الأطفال عليه في المقابل:

"يجب عليك أن تكون في المدرسة".

ضم شوجي دافني إلى صدره بقوة، ودار على عقبيه ثم ركض مسرعًا بأقصى طاقته، انقطعت أنفاس شوجي وهو يقترب من حانة عمال المناجم، ولكنه ما زال يسمع صياح أطفال عائلة ماكفيني ينادون الأب باري.

كانت الحانة مغلقة الأبواب فرفع شوجي نفسه وتعلق في قضبان النافذة، شاهد شوجي بركًا من البيرة المتساقطة من البراميل غير المغلقة بإحكام، تختلط بالتراب والغبار لتصنع أشكالًا من قوس قزح، دفع شوجي بدميته الصغيرة إلى إحدى البرك فتحول لون شعر دافني الأصفر الذهبي إلى اللون الأسود الفاحم.

نظر شوجي إلى اللون الأسود في دهشة وتساءل لماذا لم يتحول شعرها إلى لون قوس قزح؟ ثم دفعها مرة أخرى إلى البركة ودفنها تحت السائل الملون فأغلقت عينيها بشكل تلقائي كأنها نائمة، ولكنها كانت تبتسم فعرف أنها بخير، وبدأ السائل يتسرب تحت وجهها الأبيض وملابسها الصوفية، وتغير لونها، توقف شوجي للحظة قبل أن يدرك أنه نسي كل شيء عن أمه وأن دميته أصبحت تملك رائحة غريبة.

استمر شوجي يلعب في برك البيرة لفترة من الوقت، وعندما اطمأن أن

لا أحد يلحقه وأن الأب باري مشغول في المدرسة، أكمل المشي إلى طريق شجري ضيق لم يسِر فيه من قبل، كان على جانبي الطريق عدد من الأكواخ الخشبية القديمة التي تخص عمال المناجم تطل على حديقة عامة.

على حافة الحديقة صندوق كبير مبني من الطوب على شكل مستطيل مسطح، ليس له نوافذ وله باب أخضر كبير محطم ومفتوح، وبجانب الصندوق توجد غسالة قديمة ضخمة من النوع الذي يستخدم في المستشفيات والمباني الحكومية، كانت مهملة يطير حولها الذباب في كسل، وكبيرة لدرجة أن الصندوق لا يتسع لها.

يجلس بداخل الغسالة صبي صغير ذو سيقان طويلة ملتفة خلف رأسه مثل قطة مكسورة الظهر، وعندما رأى الصبي شوجي صاح:

"هل تريد أن تلف معي في مدينة الملاهي؟".

تفاجأ شوجي برؤية الصبي في الداخل، أدار الصبي قلب الغسالة في نصف دائرة فتبدل موضع رأسه مكان قدميه ثم تبدل موضع قدميه مكان رأسه مرة أخرى، صاح الصبي بحماس:

"انظر.. إنه ممتع للغاية".

رفع شوجي دافني لأعلى وعرض على الصبي أن يدعها تحظى بالجولة الأولى، دفع الصبي قدمه للخارج كأنه عنكبوت ضخم يخرج من فتحة الباب، دفع جسده إلى الخارج وفرد ظهره، كان طويلًا يكاد طوله يقارب طول الغسالة المعدنية، من المؤكد أنه أكبر في العمر من شوجي، فهو في الثامنة أو التاسعة من عمره، وبدأت تظهر عليه علامات البلوغ.

قال الصبي:

"مرحبًا، اسمي جوني، ماما تدعوني بوني جوني".

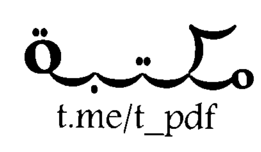
وابتسم ابتسامة ضيقة وهو يكمل:

"تيمنًا باسم المصارع، ولكن كل هذا هراء".

وبدأ يضرب كتفه مثلما يفعل المصارعون على التلفاز قبل خوض القتال وقفز في الهواء.

"وما اسمك إيها الفتى؟".

رد شوجي:



"شو، بين".

ثم أضاف بصوت خجول:

"شوجي".

نظر إليه الفتى وضيق عينيه بطريقة تحمل استهجانًا وشكًّا، بالضبط كما كان ينظر إليه أطفال عمال المناجم عندما يرفع يده في الفصل المدرسي، تذكر شوجي أن جدته كانت تنظر إلى والده بنفس النظرة في العديد من المناسبات.

أزاح شوجي ركبته في خطوة إضافية في اتجاه الصبي.

ابتسم جوني وتغيرت ملامح وجهه بسرعه فأخذ شوجي خطوة للخلف، كان الأمر يشبه ضوءًا سريعًا سرى في أنحاء الغرفة الفارغة ثم اختفى.

"شوجي هل تحمل دمية؟".

استخدم الفتى اسم شوجي وكأنه يعرفه منذ فترة طويلة، وقبل أن يجيب شوجي أضاف الفتى:

"هل أنت فتاة صغيرة؟".

خطا الفتى على العشب الطويل في اتجاه شوجي وجسده يهتز، هز شوجي رأسه.

"إن لم تكن فتاة صغيرة فأنت شاذ صغير".

ضيق الفتى ابتسامته، ورقق صوته كما لو كان يتحدث إلى جرو وقال:

"أنت لست شاذًّا صغيرًا، أليس كذلك؟".

لم يكن يعرف شوجي ما معنى كلمة شاذ، ولكنه يعرف أنها وصف سيئ، كانت كاثرين تدعو ليك بهذه الكلمة عندما كانت ترغب في إيذاء مشاعره.

قال جوني: "ربما لا تعرف ما هو الشاذ أيها الفتى الصغير، الشاذ هو الصبي الذي يقوم بأفعال قذرة مع صبية آخرين".

وقف جوني في مواجهة شوجي وكان يبلغ تقريبًا ضعف طوله وهو يقول:

"الشاذ هو صبي يتصرف كالفتيات الصغار".

يمتلك بوني جوني بياضًا غير ناصع وكأنه سقط في كوب من الشاي، لديه شعر عسلي وأعين بلون برميل البيرة وعندما ابتسم ظهر أنه بدل

كل أسنانه بالفعل، أخفى شوجي الفجوة بين أسنانه اللبنية مستخدمًا لسانه.

انتزع جوني الدمية وألقاها بداخل الغسالة وقال:

"هل ترى، إنها ترغب في اللعب".

ثم دفع شوجي للأمام، ورفعه من جذعه بعد أن وقف خلفه ليصبح أمام مدخل فم الغسالة.

تسلق شوجي إلى الداخل وشعر بيد جوني تمنحه دفعة أخيرة حتى صار بالداخل، أمسك بدافني، ثم ألقى نظرة للخارج وهو يشعر بالبرودة تسري من المعدن البارد لساقه العارية.

بدأ جوني في لف الأسطوانه الداخلية مثل سرير الأطفال، تأرجح شوجي يمينًا ويسارًا وشد كل عضلات جسمه، وجز على أسنانه كقط خائف وانزلقت دافني من يديه إلى داخل الأسطوانة، استمر جوني في تحريك الأسطوانة بلطف وقال:

"انظر إن الأمر ليس سيئًا، أليس كذلك؟".

انفعالات جوني جعلت شوجي يتذكر سفينة القراصنة الصغيرة التي كان يجلس بداخلها أمام المخبز عندما كان يذهب في صحبة جده، قهقه شوجي بالضحك فصاح الفتى جوني: "انتظر سوف أزيد السرعة".

واقترب من فوهة الغسالة وأمسكها بإحكام وبدأ في الدوران فتسارعت حركة شوجي، ودار رأسه وركبته في هيئة حلقات نصف دائرية بينما سقطت دافني من يده وبدأت تصطدم بالسقف بقوة مع كل دورة، وبدأ رأس شوجي يصطدم في الحواف المعدنية كذلك المرة تلو الأخرى،

واصطدمت قدمه بمؤخرة رأسه بينما كانت عضلات رقبة جوني تتقلص في قوة.

توقفت الأسطوانة عن الدوران بفعل يد غليظة فانقلب شوجي رأسًا على عقب.

امتد الألم في جسد شوجي بفعل اصطدام أسنانه بحافة الأسطوانة كما جرحت ركبته وظهر بروز أزرق في ذقنه من خلف شلالات دموعه المنهمرة، استطاع شوجي أن يرى يدًا غليظة أخرى تنهال بالضرب على رأس جوني مرارًا وتكرارًا، ضم الفتى جسده ورفع ذراعيه محاولًا حماية نفسه بلا فائدة، كان الشخص الذي يضرب جوني طويلًا لدرجة أن شوجي لا يستطيع أن يتبين وجهه من داخل الغسالة، كل ما رآه هو ضربات غاضبة لذراع ضخمة مليئة بالوشوم تنهال فوق رأس الصبي وكتفه.

"ألم أنهك عن اللعب في هذه الغسالة اللعينة من قبل؟".

ثم أشار بأصابعه الغليظة ناحية الغسالة قائلًا:

"أخرج هذا القذر الصغير من هنا، قبل أن أفعل شيئًا يجعلك تندم طوال حياتك".

ثم اختفى الشخص كالشبح مثلما ظهر كالشبح.

وقف جوني مثل الكلب الحزين في العراء بعد أن اختفت ابتسامته وتهدلت أذناه إلى الأسفل.

سحب الفتى شوجي من داخل الغسالة قائلًا:

"توقف عن البكاء في الحال، قبل أن أجعلك تبكي طوال حياتك".

أوشك ضوء النهار على الزوال وكان الألم في رأس شوجي يمنعه من الرؤية بشكل واضح، نظر إليه جوني متفحصًا من الأعلى إلى الأسفل، كانت الدماء تلطخ ساق شوجي من جراء الاحتكاك بالسطح المعدني، وكانت هناك جروح في ذقنه وذراعيه، سحبه جوني إلى ركن مظلم خلف الصندوق الحجري، مليء بالذباب وتفوح منه رائحة العفن واللبن الفاسد.

في الظلام بصق جوني بداخل كف يده وبدأ يفرك وجه شوجي وقدمه الدامية، ولكن ذلك جعل الأمر أسوأ مما كان عليه، تمددت بقع الدم في كل مكان بدلًا من أن تختفي، شعر الفتى بالذعر واتسعت عيناه وهو ينتزع حفنة من العشب الأخضر ويفرك بها وجه شوجي وقدميه، حتى زالت آثار الدماء وحل محلها سائل أخضر كثيف من بقايا عصارة النباتات، شعر شوجي بالكلورفيل يحرق الجرح فبدأ في البكاء.

"توقف عن البكاء أيها الشاذ الصغير المنحرف".

اختفت كلمات الصداقة وحلت محلها الإهانات، كان في استطاعة شوجي في هذه اللحظة أن يرى آثار أصابع وكف والد جوني واضحة فوق عنقه ووجهه الأبيض الملطخ بالسمار.

كان المكان هادئًا خلف الصندوق الحجري إلا من صوت طنين الحشرات الزرقاء السمينة، استمر جوني يفرك ساق الطفل الصغير مرارًا وتكرارًا حتى هدأت أنفاسه، تحول جلد شوجي بسبب الفرك من اللون الأبيض إلى الأحمر ثم إلى الأخضر الداكن، بينما اختفى الذعر من عيني جوني، وحلت محله الابتسامة المزيفة التي ملأت وجهه الأسمر.

كان المكان مظلمًا خلف الصندوق الحجري، وقف بوني جوني وأعطى شوجي الأوراق الخضراء في يده، وقال له:

"كف عن البكاء".

ضغط على أسنانه الفطامية الكبيرة وخلع الشورت الرياضي الذي يرتديه ووقف في مواجهة شوجي.

"حان الدور عليك لتفرك جسدي".

بحلول الوقت الذي عاد فيه شوجي إلى نادي عمال المناجم كانت الشمس أوشكت على المغيب وغابت ألوان قوس قزح من الداخل، ترك دافني في الغسالة، ولكن لا نية لديه مطلقًا لأن يعود إلى هناك مرة أخرى.

وهو يصعد السلم كان يسمع أمه تسب شخصًا عبر الهاتف بأقذر الألفاظ:

"اللعنة عليك يا جوان ماكلوايت، أخبري ذلك العاهر، النذل، القذر، أن أفعاله لن تمر بسلام".

كانت حروف الكلمات القذرة التي خرجت من فمها واضحة، وكأن ملكة إنجلترا تلقي خطابًا.

"أيتها العاهرة القذرة، التي تجني معيشتها من لعق قضبان الرجال، إن مذاقك قذر كمؤخرة حمار محشوة في رغيف أبيض".

وأغلقت السماعة بصوت ارتطام عالٍ، فاهتز القرص المعدني للهاتف.

وصل شوجي إلى داخل المنزل ووقف في الصالة، كانت أمه تجلس أمام طاولة الهاتف الصغيرة في وضع القرفصاء، واضعة قدحًا من الشراب فوق ساقها. لم تستطِع أن تلاحظ وجهه المتسخ وملابسه الملطخة بالدماء ولا سنته المفقودة، التقطت حلقها وألقت به عبر الغرفة، كان على وجهها آثار شحم من العمل في المطبخ، أمسكت الهاتف مرة أخرى وهي تقول:

"أنا في حال مزاجية الآن، صالحة لإخبار جدتك أن تذهب إلى الجحيم".

كان المنزل على بعد خطوات من محطة الحافلات، ولكن ليك كان يسير ببطء بعد قضاء يوم طويل في التدريب وكان يخشى مما ينتظره في المنزل، كانت كل أحلامه أن يجد الهدوء في المنزل حتى يتمكن من الرسم ولكن مر عام دون راحة ولا خصوصية منذ الانتقال إلى هذا المنجم اللعين.

كان يعلم أن كاثرين لن تعود إلى المنزل في هذه الليلة، فهي بارعة في التسلل من وراء أغنيس، وكانت تخفي علاقتها السرية بدونالد الابن عن أمها المضطربة.

كانت كاثرين تلقي باللوم على مديرها في العمل الذي يطلب منها البقاء لساعات إضافية وتخبرها أنها سوف تقضي الليل في منزل جدتها، وكانت أغنيس لا تهتم إلا بأجر كاثرين الأسبوعي الزهيد لذلك لم تعترض.

كان ليك يعلم أنها الآن تتمدد فوق وسادة ناعمة في الغرفة الإضافية بمنزل عائلة دونالد، وتحاول أن تحافظ على عفتها إلى ما بعد الزواج حتى تسمح له بممارسة الجنس معها بشكل كامل.

بعد عام من العناء كان ليك يشعر بالحزن لأن كاثرين سوف تجد فرصة للرحيل عن المنزل، قبل أن يجد فرصته.

لم يكن ضوء النهار قد اختفى بالكامل ولكن الإضاءة في كل غرف المنزل كانت ضعيفة، وكانت الستائر مفتوحة بطريقة مخجلة، عرف ليك أنها علامة غير جيدة.

حين دخل ليك إلى المنزل، كان شوجي يقف أمام النافذة يضغط أنفه وخده قبالتها على نحو مضحك ويهز رأسه ذهابًا وإيابًا بشكل هادئ، ولم يطلب منه أحد التوقف عن ذلك، وعندما رأى شوجي أخاه أخرج له لسانه ثم ركض مبتعدًا تاركًا علامات على الزجاج.

تحركت الستائر كأنما دبت بها الحياة وظهر شبح مظلم لأغنيس من خلف طفلها الأصغر، فأشار إليها ليك بيده كأنه يخبرها أنه عاد إلى المنزل، ابتسمت ابتسامة خفيفة في اتجاهه ولكنها لم تكن تعيره تركيزها فعرف أنها لا تراه، اختفت مرة أخرى، عادت إلى طاولة الهاتف، وواصلت الشراب.

حمل ليك أدوات الرسم الخاصة به وهم بالانصراف من المنزل، كانت آثار شفاه شوجي تملأ الزجاج في كل مكان.

سأله شوجي:

"إلى أين أنت ذاهب؟".

"إلى منزل جدتي".

حاول شوجي أن يهدئ التوتر على حافة شفتيه:

"هل يمكن أن آتي معك؟".

"لا أنه بعيد جدًّا، ولا أستطيع حملك".

ولكن ليك لم يخبر شوجي أنه عثر على عنوان والده الحقيقي بريندان ماكجوان، عثر عليه في دفتر هاتف أغنيس، كان العنوان محاطًا بدوائر عديدة ملونة، وكأنها كانت تعود لقراءته ووضع علامات عليه طوال هذه السنوات.

ذهب ليك سيرًا على الأقدام إلى العنوان في الشتاء السابق، رأى المنزل الكبير المبني على الطراز الفيكتوري الذي يقيم فيه، ورآه في طريق عودته من العمل بملامح مرهقة، تلك التي تشبه ملامحه وأعينًا من نفس درجة لون عينيه.

أوقف الرجل سيارته بالقرب من ليك ومر بجواره دون أن يعرفه وبادله انحناءة مهذبة، هذا كل شيء، وعندما فتح الباب هرعت إليه ثلاثة وجوه صغيرة وسعيدة لتحيته، تابع ليك العائلة السعيدة مجتمعة حول طعام الغداء على طاولة المطبخ والرجل يضحك معهم في حماس. استمر ليك في المشاهدة لفترة طويلة قبل أن يطوي العنوان ويلقيه في مصرف مياه الأمطار.

حمل ليك حقيبة أدوات الرسم على ظهره وانطلق مغادرًا بيتهيد، لم يجرؤ على النظر مجددًا إلى وجه شوجي الذي يتابعه بحزن من خلف النافذة.

كانت المسافة سيرًا على الأقدام إلى سايهيل طويلة والسماء سوف تمطر، وهو لا يرغب في شيء سوى الراحة فقد كان متعبًا منذ فترة طويلة.

11

تسلل ضوء النهار عبر الستائر الشبكية الكثيفة فبدأت أغنيس تستعيد وعيها بعد أن بدأ الضوء ينغز وجهها، فتحت عينيها في بطء لتجد نفسها تحدق في السقف ونقوشه الجليدية المميزة، لم تكن تستطيع أن تغلق شفتيها بسبب التصاق طبقات من القيء اللزج فوق أسنانها العليا.

مدت يدها اليمنى فشعرت بالنسيج الزلق للقماش الدمشقي للمقعد، ثم تتبعت أصابعها ثقوب حروق السجائر في النسيج، كانت تجلس مستقيمة بشكل مريب وهي تحتضن جهاز الهاتف الصامت، جلست في وضع ثابت للحظات، قبل أن تميل برأسها على ظهر المقعد مثل غطاء صندوق مفتوح، أغمضت عينيها مرة أخرى وأخذت تستمع إلى الأصوات التي تعلو داخل رأسها، وترتطم مثل المد والجزر، تدفق الدم من وإلى داخل جمجمتها مثل شلال منحدر.

استطاعت من خلال الصمت الذي يسري حولها أن تعرف أن المنزل فارغ، كان الوقت ما زال مبكرًا، ولكن الفتى اصطحب نفسه إلى المدرسة مرة أخرى، فاتته العديد من الأيام الدراسية، بينما كان يجلس تحت أقدامها ليراقب ما تفعل وينتظر، ولكن إدارة المدرسة لم تحب ذلك. أخبره الأب باري أن الإخصائي الاجتماعي يجب أن يتدخل إن لم ينتظم في الحضور مثل باقي التلاميذ.

كانت أغنيس تستيقظ في بعض الأيام من الفزع، فتجد شوجي يقف أمامها محدقًا، أو تجده يرتدي ملابس المدرسة، ويتضاءل أمام الحقيبة

المدرسية الثقيلة المعلقة فوق أكتافه، كان وجهه مغسولًا وشعره المبلل مفروقًا من المنتصف وممدودًا إلى الأمام.

تحاول أن تفتح عينها بصعوبة بعد أن أمضت الليلة نائمة بملابسها الكاملة، تخرج الكلمات من فمها الجاف "صباح الخير" تجده واقفًا في مكانه منتظرًا أن تستيقظ حتى لا يغادر دون أن يعدها أنه سيعود بسرعة، ويشبك خنصره في أصبع يدها الصغير ويقسم على ذلك.

هذه المرة كان المنزل هادئًا ولم يكن شوجي واقفًا في مكانه المعتاد، رأت أمامها على المنضدة قدحًا عليه آثار الشاي البارد، وقد تجمدت القشدة على قمته، وشريحة من الخبز الأبيض المحمص مقطوعة بشكل أخرق، ومتناثرة مع كتل من الزبدة سميكة الحجم.

رفعت يدها فوق عينيها ونظرت إلى طاولة القهوة بحثًا عن شيء يخفف توترها، وبأنين منخفض رفعت القدح في اتجاه عينها ونظرت مدققة باحثة عن رشفة من البيرة، ولكن القدح كان خاليًا، مدت يدها ووصلت إلى علبة السجائر وأخرجت السيجارة الأخيرة أشعلتها بأصابع مرتعشة وسحبت نفسًا عميقًا.

ولكنها لم تشعر بتحسن، نهضت من مكانها وأخذت تفتش حول الأريكة عن عبوات البيرة نصف الفارغة وزجاجات الخمر المخبأة لعلها تجد بها بعض قطرات متبقية هنا أو هناك، وتجولت في المنزل وبحثت في كل الأماكن السرية عن زجاجة خمر متبقية لم تشربها.

بحثت داخل سلة الغسيل وبين أكياس البقالة، وخلف علب أشرطة الفيديو المصنوعة من الفنيل، وأسفل حوض المطبخ بحثت بين عبوات المنظفات البيضاء والزرقاء البلاستيكية وهي تجثو على ركبتها.

بدأت في الشعور بالهلع وهي تجوب المنزل مرة أخرى، وتجز على أسنانها الأمامية محاولة أن تكتم صرخات الإحباط، كان عليها أن تتوقف عن بصق القيء داخل أقداح الشاي الفارغة وحوض المطبخ.

بحثت في حقيبتها الجلدية السوداء الكبيرة وبحثت بداخلها عن المحفظة ثم فتحت مشبكها المعدني وأفرغت محتوياتها على الفراش فسقطت أيقونة سانت جود[26] وبعض من الأتربة والحصى.

كان اليوم هو الخميس وقد صرفت كل أموال الإعانة الاجتماعية يومي الإثنين والثلاثاء. اعتادت أغنيس في يوم الإثنين أن تجلس في كامل أناقتها منتظرة أن يعلن الراديو الساعة الثامنة، فتخرج مرتدية الحذاء ذا الكعب العالي، واضعة ظلالًا غير متساوية تحت عينيها لصرف أموال الإعانة التي تسميها زوجات عمال المناجم "سجل الإثنين" تقف في نهاية الصف رافعة رأسها إلى أعلى ويدها ترتعش في جيوب معطفها.

تحاول أغنيس أن تتجاهل الضوضاء الناتجة عن حركة المعاطف المصنوعة من المشمع التي ترتديها النساء، تقف وسطهن، ولكنها وحيدة ومعزولة وهن يضججن بالسعال وتهتز صدورهن في محاولة لطرد البلغم اللزج.

لا تزيد أموال الإعانة الاجتماعية على ثمانية وثلاثين جنيهًا في الأسبوع، ويجب أن تكفي جميع أفراد الأسرة، ولذلك كان الحصول على بعض

26- القديس يهوذا تداوس، هو أحد حواري المسيح، وهو شفيع القضايا الخاسرة والميؤوس منها. (المترجم)

الحليب بقدر أكبر من الحاجة نوعًا من الرفاهية.

ولكن أغنيس لم تكن مثل الجميع، لذلك عندما تصرف أموال الإعانة الاجتماعية تمر مباشرة من جانب رف الحليب في تجاهل تام، وتتجه مباشرة إلى الركن الخاص بالخمور، وتطلب اثنتي عشرة عبوة من مشروبها المفضل، كانت تتحدث في بهجة عن اعتدال الطقس في هذه الأنحاء بينما الموظف الهندي لا يتجاوب معها، تتحدث مبتهجة عن حالة الطقس، لم تكن متأكدة إن كان الفيل الأزرق المعلق خلفه ينظر لها في دهشة، تعيد غلق محفظتها في ثبات وهو يعبئ العلب الباردة في كيس تسوق بلاستيكي من أجلها.

تتحرك شفاه النساء خلفها في همهمة كأنهن يقمن بعملية حسابية، وهن يضعن الخبز ورقائق البطاطس والسجائر في سلة التسوق، ثم يخرجن الخبز من السلة ويُعِدنه إلى الرف في صمت واستسلام.

تخرج أغنيس من المتجر وتتجه خلف المبنى الحجري ذي اللون الترابي، وتفتح أول عبوة باردة، ثم تبدأ في الشرب، وفي صباح يوم الثلاثاء تعود إلى المتجر مرة أخرى بعد أن تتناول بعض الشراب في الصباح، تسير بغير اتزان، ولكنها ترتدي ملابس أنيقة.

تصرف أغنيس الدولارات الثمانية والخمسين بنسًا من "سجل الثلاثاء" المخصصة لرعاية الطفل وتشتري المزيد من عبوات البيرة، يقول لها صاحب المتجر إن الفيل الأزرق يشعر بالقلق بسبب تصرفاتها.

كان اليوم هو الخميس وحقيبتها فارغة لا شيء بها غير صورة القديس جود وبعض الأتربة تتجمع في ثنايا الجلد، نظرت بحزن إلى صورة الرجل وبدأت في بكاء أناني حزين، ثم أمسكت منفضة السجائر القذرة وهي تفكر في ما ستفعل بعد ذلك.

كان نقص الكحول في دمها يجعل من الصعب عليها مشاهدة التلفاز، فقررت أخذ حمام دافئ حتى تهدأ قليلًا وتتخلص من الألم والبرودة، فركت عن جسمها العرق وبقايا الشعر المتساقط، فشعرت بالخفة وبدأت في غسل أسنانها بمعجون يشبه طعم الفانيلا، ثم أمسكت قطعة من القماش وبدأت في إزالة آثار المعجون عن أسنانها.

استرخت أغنيس داخل الحوض المملوء بالماء الدافئ وبدأت تفكر في طريقة للحصول على المال، كان هناك العديد من البقع والتجمعات الدموية في النصف السفلي من جسدها بسبب سقوطها على الأرض بعد أن فقدت الوعي في الليلة السابقة، وكانت هناك آثار أخرى بسبب ملابسها التحتية السوداء الضيقة، وضعت أصبعها في التجويف السفلي بين أرجلها وكأنه قطار في طريقه للمحطة، وتذكرت محطة جلاسكو والسوق الواقع أمامها ومحل الرهانات الموجود هناك، ودون أن تجفف جسدها ركضت في أنحاء المنزل مرتدية معطفًا مبللًا تبحث عن شيء يصلح لأن ترهنه، كان كل شيء حولها في ضوء النهار رخيصًا وعديم القيمة.

قلبت كل التماثيل الخزفية الصغيرة في راحة يدها، وفكرت في رهن التلفاز الأبيض والأسود الذي تملكه، ولكنها لم تكن تقدر أن تحمله سيرًا على الأقدام في هذا الطريق الطويل إلى المدينة.

اتجهت إلى حجرة النوم وفتحت الصندوق الوردي الذي تلقي بداخله كل قطع المجوهرات الغريبة التي تمتلكها، خاتم كلاداغ[27] الذي أهدته لها والدتها، سلسلة جدتها وسوار التعميد الخاص بكاثرين، وبعد وقت من التفكير أعادتهم إلى مكانهم على مضض.

فتحت صندوق أدوات ليك الخاص بالرسم مستخدمة أصابع قدميها، ولكنها لم تجد شيئًا لقد أخذ كل شيء معه عندما رحل للالتحاق ببرنامج تدريب الشباب[28]، لقد تعلم الدرس جيدًا ولم يترك شيئًا، حتى الأشياء التي لا يحتاجها، خشية أن ترهنها أغنيس كما فعلت في السابق.

بدأت أغنيس في حك يدها بغضب، وركلت صندوق الأدوات بقدمها، ثم اتجهت إلى دولاب كاثرين وفوجئت أنها لم تجد الكثير من الأشياء، كما لو كانت كاثرين مستأجرة لم تنقل أغراضها إلى المكان الجديد بعد، وجدت حذاء جلديًّا ذا عنق طويل، ولكنه فسد بسبب المطر والوحل.

ومع إحساسها بفقدان الأمل فتحت الدرج الذي يحتوي على المناشف النظيفة وبحثت بداخله، فوجدت معطفها المصنوع من فراء المنك الذي كان بريندان ماكجوان قد اشتراه لها موضوعًا في كيس أسود من أكياس القمامة، مرت بيدها على الفراء الناعم وشعرت بأنها نقود خالصة.

خلال أقل من ساعة كانت تسير في الطريق، وقد ارتدت المعطف الفرو

27- خاتم أيرلندي تقليدي يتكون من يد تحتضن قلبًا فوقه تاج، تمثل اليد الصداقة، والقلب يمثل الحب، والتاج يمثل الولاء. (المترجم)

28- برنامج تدريب حكومي تديره القوة العاملة في المملكة المتحدة للشباب من خريجي المدارس الذين تتراوح أعمارهم من -16 18 عامًا. (المترجم)28

الطويل ورفعت شعرها لأعلى، متجهة إلى محل بادي للرهانات على بعد أميال عديدة.

كانت تسير عكس اتجاه حركة المرور رافعة رأسها إلى الأعلى وعلى وجهها ابتسامة واثقة، بدأت رمال المنجم الناعمة تتسرب إلى داخل حذائها المفتوح وكأنها تسير على شاطئ البحر، وأثارت السيارات في وجهها الغبار وتكومت الأتربة بين أصابع قدميها، ولكنها فردت جسدها وحاولت أن تتظاهر بأنها مستمتعة بالسير ولا تبالي بما يحدث لشعرها.

بدأت السيارات تهدئ من سرعتها محاولة فهم ذلك المشهد العجيب، تلطخ وجهها بالأوساخ والشعور بالعار، ولكنها استمرت في طريقها شعرت من داخلها وكأن الجميع ينظر إليها على أنها تعاني من خلل عقلي.

كلما اقتربت من محطة حافلات، كانت تقف قليلًا متظاهرة أنها تنتظر الحافلة، ثم ترفع أكمامها متظاهرة أنها تنظر في الساعة التي لا تملكها من الأساس، وعندما تهدأ حركة المرور قليلًا، تستمر في السير حتى المحطة التالية.

كان رأسها ينبض بقوة وقلبها يحترق بقوة، بعد أن سارت لأربعة أميال، تباطأت حافلة مارة بجوارها ووقفت من أجلها نظرت في الاتجاه الآخر قبل أن تخرج إحدى يديها من جيب المعطف وتشير إلى السائق

بأن كل شيء على ما يرام بنفس الطريقة التي تشير بها إلى زوجات عمال المناجم من خلف نوافذهن.

بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى ضواحي المدينة كانت السماء قد بدأت تمطر، كان المطر خفيفًا في البداية مثل البصاق ثم صار أثقل كأنه قطرات من مثبت الشعر فوق المعطف الفاخر، كانت أغنيس متعبة بسبب السير مسافة طويلة بالكعب العالي ولكنها أسرعت الخطى عندما مرت بالقرب من الشارع الضيق الذي يسكنه زوجها الأول، ليس خوفًا من المطر ولكن خوفًا من أن ترى شخصًا تعرفه.

سرعان ما تحولت قطرات البصاق إلى مطر كثيف وتدلى معطفها المبلل خلف أقدامها العارية كذيل كلب مبلول

اختبأت أغنيس في مدخل أحد المنازل لتحتمي من المطر وشاهدت الحافلة في سيرها تثير موجات من الوحل والمياه القذرة إلى الرصيف فشعرت بالافتقاد لأيامها كسيدة كاثوليكية صالحة.

سالت الماسكارا السوداء فوق خديها، فأخرجت بكرة من ورق التواليت المجعدة كانت تضعها في جيبها، وبدأت في مسح الخطوط السوداء تحت عينها، كان معطفها مجعدًا ومنتفخًا بسبب تجمع مياه الأمطار بين ثناياه.

أخرجت من داخل كل جيب من جيوب المعطف تمثالًا خزفيًّا على هيئة راقصة باليه وبدأت في تجفيف التمثالين.

عبر الطريق كان يقبع منزل رمادي طويل، على يساره مرأب سيارات من نوع ما، تركن بداخله سيارات الأجرة وترقد هياكل سوداء وقطع غيار تشبه عظام الديناصورات.

من مكان في الداخل يسري صوت الراديو من خلف مكتب صغير، من خلال النافذة القذرة استطاعت أغنيس أن ترى فوق الرفوف مراوح تبريد خاصة بالسيارات وأغطية مواتير وزجاجات من الشحوم وصفائح الزيت، كان مركز صيانة وبيع قطع الغيار، وليس ملتقى للسائقين لشراء السندوتشات وخرائط الأماكن السياحية.

ضغطت أغنيس على جرس ذي صوت حاد بعد أن خطت لداخل المبنى والماء يتساقط من ملابسها على هيئة بركة صغيرة، عند سماع الجرس ظهر رجل يرتدي ملابس عمال الصيانة، كان ممتلئ الجسم مسطح الوجه ذا شعر أحمر يلتصق رأسه مباشرة بجسده كما لو كان وجود الرقبة رفاهية لا حاجة إليها.

نظر إليها بدهشة مخفيًا يده القذرة كما لو كان وجود سيدة جميلة ترتدي معطفًا من الفرو أمامه أمرًا مفاجئًا.

حاولت أغنيس أن تنعم صوتها لأكبر قدر ممكن مستحضرة لهجة ميلجاي[29] وهي تقول:

"أنا آسفة لإزعاجك، لكني علقت تحت المطر، وكنت أتساءل إن كان لديك حمام يمكن استخدامه حتى أعدل من مظهري قليلًا".

وأشارت إلى معطفها المبلل.

29- بلدة على أطراف جلاسكو يتجه معظم سكانها بشكل منتظم إلى مركز المدينة للعمل أو الدراسة. (المترجم)

فرك الرجل لحيته وقال:

"إنه ليس للعملاء".

أمسكت أغنيس بالمعطف وعصرته فنزلت كمية كبيرة من الماء على الأرض، وقالت:

"حقًّا!".

أجاب الرجل وهو ينظر إلى الأرض المتسخة ويخدش ذراعه السميكة:

"حسنًا، أنت لا تبدين مثل عملاء المكان، لذلك أعتقد أنه لا بأس في ذلك".

قادها عبر المبنى إلى ساحة تمتلئ بسيارات أجرة في حالة سيئة، كانت الشحوم والزيوت على الأرضية تجعل السير صعبًا لسيدة ترتدي حذاء ذا كعب عالٍ، وكان المعطف يقطر ماء كطفل ينهمر في البكاء فوق الأسمنت الدهني.

قال الرجل: "ممم، انتظري هنا لمدة دقيقة".

واندفع إلى داخل الحمام الصغير، وسمعت صوت الماء ينهمر في المرحاض وصوتًا آخر لبخاخ معطر الجو، ثم خرج الرجل بعد دقيقة وتحت ذراعه عدد من المجلات والصحف.

"إنه بسيط بعض الشيء، ولكنه يحتوي على كل شيء تحتاجينه".

وبينما هي تغلق باب الحمام القذر، اختلست شقراء ذات صدر عارم

النظر إليها من تحت ذراعي الرجل.

دخلت أغنيس الحمام القذر وأغلقت الباب بأحكام، ووقفت لبرهة تتأمل العاهرة العجوز التي تقطر ماء في مرآة الحمام، لم يكن الحمام يحتوي على مجفف آلي، لذلك أخذت حفنة من ورق الحمام وبدأت تضغط بها على المعطف، حتى تتخلص من ماء الأمطار، وكلما زادت الضغط والعصر انهمر قدر أكبر من الماء وكأنها تغسل سجادة قديمة.

وظلت أغنيس على هذا النحو حتى شعرت أنها مستعدة مرة أخرى للخروج.

كان الرجل ينتظر بالخارج في نفس البقعة التي تركته بها، يحمل في يده قدحين غير متطابقين وقال لها:

"يبدو أنك في حاجة إلى القليل من الشاي الساخن".

ردت أغنيس:

"هل أبدو بذلك السوء؟".

"لا أبدًا".

أخذت القدح من يده، كان سطحه مزيتًا بعض الشيء:

"أعتقد أنني أشبه الفأر المبلول".

كانت تتمنى أن يخالفها الرأي.

"ربما تشبهين المنك المبلول".

بينما كان الرجل يبحث عن مقعد نظيف، تفحصته أغنيس بعناية. كان قد غسل وجهه بعد وصولها، ويوجد على رقبته وسوالفه بعض من آثار الشحوم أخطأتها قطعة القماش التي استخدمها في التنظيف، كان شعره الأشقر مبتلًّا، ومنسدلًا فوق وجهه الوردي، ظننت أنه وسيم بطريقة جافة، كالحصان السيسي.

سحب كرسيًّا مرتفعًا فلاحظت أن يده اليسرى تحتوي على أصبعين فقط إلى جانب الإبهام. أما أصبعاه الآخران فمفقودان كما لو أنه مضغها عندما كان يشعر بالتوتر.

استطاع أن يلمح عينيها وهي تحدق في يده فأخفاها خلف ظهره:
"إنها قصة طويلة".
شعرت أغنيس بالحرج لأنه ضبطها وهي تحدق، فقالت:

"لكل منا بعضها".

"أصابع مفقودة".

ضحكت قالت:

"لا، قصة طويلة".

قال:

"مثل القصة التي دفعتك للخروج من أجل رهن ذلك المعطف".

ضحكت ضحكة طويلة وحادة هذه المرة، ثم توقفت، فلم يكن الرجل يشاركها الضحك.

استحضرت لهجة ميلجاي مرة أخرى لتوحي بأنها امرأة ثرية تملك منزلًا فخمًا، وزوجًا ثريًّا في الضواحي

"أنا لن أذهب لرهن المعطف، من أين جاءتك هذه الفكرة؟".

قال الرجل دون تردد:

"حسنًا، حسنًا، سأخبرك قصة أخرى، لقد سرت طوال الطريق من باليستون أو روثرجلين لرهن المعطف".

ثم توقف عن الكلام ونظر بعيدًا وهو ينقر على المنضدة بأصابع يده السليمة، ثم قال:

"لا، لا هناك متجر للرهانات في روثرجلين لقد سرت قادمة من...".
وأخذ يفكر قليلًا ثم قال:

"بيتهيد، هل أنا محق؟".

قالت: "لا".

توقف الرجل عن الكلام ونظر إليها من فوق الشقوق على قمة القدح

الذي يمسكه، ثم قال:

"آسف يا سيدتي، لقد كنت سافلًا. يا لوقاحتي، لقد ظننت أنك سترهنين ذلك المعطف من أجل الحصول على المال وشراء الشراب".

أخفضت أغنيس كوب الشاي عن شفتيها الباردة، وقالت وهي تنظر في عينيه:

"أنت مخطئ بالتأكيد".

"حسنًا، هذا أفضل بالنسبة لك".

سألته في فضول: "لماذا؟".

"لأن متجر الرهانات مغلق بسبب أعمال التجديد".

نظرت إليه نظره متفحصة تحاول أن تكتشف إذا كان يحاول خداعها.

فقال لها:

"أنا لا أحاول أن أكون وقحًا، ولكن يتطلب الأمر شخصًا مخادعًا حتى يكتشف خداع الآخرين".

ولوح بيده التي تفقد الأصابع في وجهها.

وضعت الكوب أمامها فوق قطعة من القماش وهي تقول:
"شكرًا للسماح لي باستخدام مرحاضك، ولكن يجب أن أنصرف الآن،

لأن زوجي سوف يشعر بالقلق".

"نعم، يجب عليك فعل ذلك فالمسافة إلى المنزل طويلة تحت المطر، وربما تجدين خاتم زواجك المفقود في الطريق".

نظرت إليه أغنيس بغضب:

"ما الذي تهدف إليه من كل ذلك؟".

مط شفتيه في خيبة أمل وقال:

"حسنًا لا شيء، اسمعي يا سيدتي لقد جئت إلى هنا في حالة مزرية ومن النظر إليك أستطيع بسهولة أن أعرف الكثير عنك"، ثم أضاف بنبرة هادئة:

"أستطيع أن أعرف لأنني مررت بما تمرين به، هذا كل ما في الأمر، لا داعي لتعقيد الأمور، لقد وضعت نوعًا جديدًا من الشاي في القدح، ربما كان من الأفضل أن تكملي شرابك".

أمسكت أغنيس القدح مرة أخرى مستخدمة إياه في ملء الصمت الذي ساد بينهما ولإخفاء صدمتها مما يحدث.

"حسنًا، هل ذهبت إلى مجموعة المساعدة في الإقلاع عن إدمان الكحول[30] بعد؟".

حدقت إليه أغنيس في صمت.

بدأ الرجل في الغناء:

"سيدي المسيح، كل يوم خطوة واحدة".

هزت اغنيس رأسها.

"إنها جمعية تحافظ على السرية، ولكن يجب عليك في البداية الاعتراف أنك تعانين من مشكلة".

وهز رأسه كمدرس خبير في ما يقول.

"ما الذي جعلك تأتين إلى هنا؟".

"لقد كنت مبتلة وأشعر بالبرد".

ضحك الرجل وبدأ في الحديث:

"عندما تكون مبتلًّا وتشعر بالبرد تصطك أسنانك هكذا وترتجف ركبتك، وترتجف كشخصية كرتونية تسير في الثلج، لكن عندما تتجول بحثًا عن زجاجة شراب أو بعض من الخمر تهتز هكذا".

30- مجموعة مساعدة وزمالة لها فروع في كل أنحاء العالم للمساعدة في الإقلاع عن إدمان الكحول تعرف باسم Alcoholics Anonymous AA. (المترجم)

وهز الرجل جسده كجثة تقوم من الموت.

شعرت أغنيس بالعار وسألته:

"وماذا تعرف عن ذلك؟".

"أنا أعرف أن فراءك لن يجلب لك إلا ست زجاجات من الفودكا وربما عشاء من السمك الساخن".

عض على أسنانه وقال:

"لقد كان هذا ثمن معطف أمي عندما سرقته من فوقها، ست زجاجات من الفودكا وعشاء السمك، وثلاث ليالٍ نمتها في الطريق أصابني خلالها تسمم في الدم".

ورفع أصابعه في وجهها مرة أخرى.

ساد الصمت بينهما لبعض الوقت، ففتح علبة سجائره وأخرج واحدة مستخدمًا أسنانه وعرض العلبة على أغنيس، التقطت سيجارة وأشعلتها بشراهة وكأنها جائعة وأخذت نفسًا عميقًا وكأنها تغرق في مقبرة السيارات السوداء، ثم سألته:

"هل تصادف أن عرفت سائق أجرة يدعى شوج بين؟".

نظر الرجل إلى وجهها:

"لا يمكنني أن أحدد".

"إنه خنزير بدين وأصلع يظن أنه كازانوفا".

ضحك الرجل وقال:

"هذا الوصف ينطبق على الجميع، أين يعمل؟".

"الجانب الشمالي".

"إنهم يصلحون سياراتهم بمتجر آخر على الطريق الأحمر ولا يأتون إلى هنا مطلقًا".

"حسنًا، لو رأيته هل يمكنك أن تعبث بفرامله؟".

ابتسم وقال:

"سأفعل ذلك من أجلك، أيتها الجميلة".

انتهى الرجل من تدخين سيجارته وهو ما زال يفحص أغنيس:

"لا بد من أنه السبب في كل ما يحدث لك".

صمتت أغنيس ولم تجب.

بدأ الرجل يتحدث بصوت أشبه بالعواء:

"لقد عرفت. أنت تبذلين الجهد من أجل استرجاع ذلك الرجل مرة أخرى".

رفعت كتفها في لامبالاة:

"وماذا لو كنت كذلك؟".

قال: "سوف أخبرك بما عليك فعله في هذه الحالة".

ثم توقف عن الكلام.

قالت:

"كل الرجال يظنون أن لديهم الإجابة عن كل الأسئلة".

"الأمر بسيط يجب عليك خيانته، وممارسة الجنس مع شخص آخر".

بسط يده أمامها وقال:

"اسمعي نصيحتي، فهذا هو الشيء الوحيد الذي سيغضب ذلك الخنزير الأصلع البدين أنا أضمن لك ذلك".

12

في النهاية، قامت كاثرين بلي ذراع شوجي، وأجبرته على السير في شارع رينفيلد، كان الفتى يقف عند كل ناصية معبرًا عن رغبته في عدم مواصلة السير، وكان يتعمد الوقوف على رباط حذائه وحل عقدته برفق وبعيون مخادعة.

قالت كاثرين:

"اللعنة، أنت تتعمد فك حذائك".

وانحنت كاثرين لربط الحذاء المدرسي للمرة الرابعة خلال عشر دقائق.

"لا أفعل".

رد شوجي وابتسامة راضية تعلو وجهه، ثم أخرج من جيب معطفه المنفوخ ذي القلنسوة واحدة من روايات أمه الرومانسية ووضعها فوق رأس كاثرين كأنه طاولة مخصصة للقراءة، انتزعت كاثرين الكتاب والغضب يغلي في داخلها كشيطان صغير، وضربت جانب ساق شقيقها بالكتاب السميك، وأعادت سحبه من ذراعه مرة أخرى.

"لو فاتتنا الحافلة، فلن نجد غيرها لفترة طويلة وسوف تبدأ في البكاء قائلًا إني جائع، إني عطش إني متعب، هييهييه".

قلدت كاثرين أنين شوجي.

"ولا تظن وقتها أني سأشعر بالشفقة تجاهك".

صاح شوجي:

"أنا لا أتحدث بهذه الطريقة".

حاول أن يوسع خطوته حتى يواكب خطوات أخته السريعة، وحاول سحب معصمه من قبضة يدها.

توقفت ودارت في اتجاهه قائلة:

"شوجي، كنت أظن أننا سوف نكون أصدقاء".

لم يكن على وجهها أي من علامات الصداقة.

"لا أرغب في أن أكون صديقك".

جذبت كاثرين ذقنه، وأعادت رأسه للوراء ليصبح في مواجهتها فرفع عينيه على مضض، نظرت إليه بلطف ثم مررت يديها خلال الفرق بين شعره الأسود الكثيف وهندمت شعره بالطريقة التي تحبها أغنيس، نما الصبي كثيرًا خلال العامين الماضين في بيتهيد واكتسب المزيد من الطول، ولكنه ما زال متقوقعًا داخل نفسه. كاد أن يبلغ الثامنة من العمر ولكنه يبدو أكبر من سنه الحقيقية.

"حسنًا، أريدك أن تهذب من سلوكك عندما نصل إلى هناك".

نظرت كاثرين وألقت ابتسامة تحية مهذبة على زوجين مسنين يمران في الجوار مرتديين معاطف ملونة للمطر، ثم أعادت النظر إليه، وقالت:

"أرجوك، افعل ذلك من أجلي، أنا عالقة في موقف فوضوي وأحتاج إلى مساعدتك".

نظرت إلى الابتسامة الصغيرة على وجهه المنتفخ، فشعرت كأنها تنظر إلى عجوز عنيد.

"حسنًا لقد فزت كالعادة، ولكن لو أخبرت ماما أين اصطحبتك اليوم فسوف تموت، هل تسمع سوف تموت؟".

نظر إليها شوجي في دهشة وقال:

"وكيف ذلك؟".

"لو أخبرتها سوف تتناول المزيد من الشراب، ولن تقدر على التوقف على الإطلاق".

وقفت كاثرين ثم فتحت حافظة نقودها الصغيرة بنية اللون، على جانبها رسم لجمل صغير، منحها ويلي إلى والدتها في يوم ما، وأخرجت ما يكفي من العملات المعدنية لتذكرتي الحافلة، ثم أضافت:

"سوف تشرب للدرجة التي تجرف كل الخير من قلبها، وأظن أن ليك لن يتحدث إليك مرة أخرى لو قلت لها".

أغلقت حافظتها الجلدية بصوت انتصار مميز وظهرت ابتسامة سعادة على وجهها:

"انظر، ها هي الحافلة قادمة".

صعدا إلى الطابق العلوي من الحافلة وألصقا أنفيهما بزجاج النافذة.

تأرجحت الحافلة على الطريق بجوار النهر وأشارت كاثرين إلى الرافعات العملاقة التي توقفت عن العمل إلى الأبد وأخبرته عن دونالد الابن الذي فقد وظيفته في بناء السفن وعن رغبته في الذهاب إلى إفريقيا والبحث عن عمل ثم ناشدته قائلة:

"اتلُ صلاتك من أجلي يا شوجي".

رد عليها وخده ينتفخ بالزهو:

"لدى قائمة طويلة سأضيفك إليها".

كانت كاثرين تعلم أن شقيقها يصلي بأقصى طاقته من أجل العديد من الأشياء، قامت بقضم أصابعها في توتر، تمارس كاثرين هذه العادة الخاطئة منذ رحل شوج وترك أمها.

تعرف في قرارة نفسها أنها غير مخطئة بالحفاظ على رجلها حتى لو اتهمت بالأنانية، فلا مبرر أن تتركه لمجرد قرابته لشوج فتخسر كما خسرت والدتها.

عندما نزلا من الحافلة مرّا بجوار صف من المنازل بنية اللون التي يوجد أمامها حدائق متطابقة يحيطها سياج ولا تحتوي على الأزهار، مرت كاثرين من ممر ضيق ودفعت بابًا بنيًّا ثقيلًا وفتحته دون أن تقوم بالطرق عليه. ودخلت وأشارت إلى أخيها أن يتبعها. شعر شوجي بالخوف من كمية الأشياء التي تعرفها أخته بينما لا يعرف هو عنها شيئًا.

كان المنزل دافئًا وكان عداد الغاز مليئًا بالعملات وذا رائحة حلوة كرائحة البطاطس المطبوخة مع اللحم والصلصة.

جلست كاثرين على سجادة حمراء فوق السلالم المؤدية إلى الطابق الثاني، خلعت لشوجي المعطف المنتفخ ذا القلنسوة وعلقته على الدرابزين، استطاع شوجي سماع عدة قنوات تليفزيونية مختلفة تخرج من الحجرات المتفرقة، أصوات مباراة كرة القدم تخرج من الصالة الأمامية، وصوت الكارتون يأتي من مكان ما في الأعلى.

أصلحت كاثرين من رابطة عنقة وقبلته على خده وهي تقول:

"سوف تهذب سلوكك، أليس كذلك؟".

قادته إلى الجزء الخلفي من المنزل حتى وصلا لغرفة طعام تشرف على مطبخ مفتوح، وبينما هما واقفان دخل ستة أو سبعة أشخاص بالغين، فتركت كاثرين يد شوجي واتجهت إلى رجل يشبه دوني أوزموند[31] وقبلته في فمه برفق:

"كنا نتساءل عن أسباب تأخرك؟".

مد يده برفق يداعب خدها البارد:

"استغرقت وقتًا طويلًا في جره عبر شوارع المدينة المزدحمة".

التفتت إلى أخيها الواقف عند المدخل وقالت:

"لا تقف عندك يا شوجي، وتعالَ لتحيي عمك راسكال".

دخل شوجي لغرفة الطعام فشعر بالدوار بسبب الحرارة، ورائحة الخنزير المشوي، فقام بلف ذراعه حول ساقها بينما قدمته لمجموعة البالغين الذين لم يستطيع تذكر أسماءهم، كانوا مجتمعين بجوار الباب المنزلق يدخنون السجائر ينفثون دخانها بطريقة استعراضية في اتجاه

31- مطرب ومغنٍّ وراقص ومقدم برامج أمريكي. (المترجم)

الحديقة الخلفية.

أدارته كاثرين تجاه رجل يجلس على كرسي ذي ذراعين كبيرين وقالت: "هذا هو عمك راسكال".

ودفعت الصبي دفعه خفيفة، مد شوجي يده بطريقة مهذبة وصافح أطراف أصابع الرجل، ولأنه يحمل ذكرى مشوشة عن والده، ظن للحظة أنه هو.

كان للرجل نفس الخد المنتفخ والشارب الكثيف الذي يشبه الهلال، وملامحه قريبة من الصورة التي كانت أمه تخبئها في درجها الخاص تحت ملابسها الداخلية، ولكن هذا الرجل كان لا يزال محتفظًا بشعره كثيفًا، ضغط الرجل على ذراع الفتى حتى شعر بالألم، وهو يقول:

"لقد مضى وقت طويل يا صديقي، لقد كان وقتًا عصيبًا".

ابتسم الرجل وعيناه تلمع بالسعادة كالنجوم وهو يضغط بشده على ذراع شوجي.

ثم قدمته كاثرين إلى دوني أوزموند وهو الرجل الذي كانت تقبله منذ قليل وقالت: "هذا هو دونالد، سوف نتزوج، لا بد أنك ما زلت تتذكره".

فرد شوجي: "هل سأحصل على كعكة؟".

تقدم الرجل إلى الأمام ومد يده لمصافحة شوجي، كان شعره البني مصففًا من الأسفل للأعلى بشكل يشبه قمة فطر عيش الغراب اللامع وذا خدود سميكة وردية ومظهر ودود، صافح شوجي بشدة هو الآخر وهو يقول:

"أستطيع الآن، أن أرى التشابه بينكما".

قال شوجي بجدية:

"أشعر بالأسف، لأنه لم يعد هناك المزيد من القوارب لتعمل في تصنيعها " .

"لا تهتم يا رجل، هل ستأتي لزيارتنا عندما نذهب للعيش في إفريقيا؟".

عبست كاثرين في وجه دونالد، ودفعت شقيقها عبر فتحة التقديم إلى المطبخ وهي تكاد تحمله، كانت فوضى من الأطباق والأواني والأصوات الناتجة عن قلي البطاطس بمقلاة عميقة بالركن وقدمته إلى والدة دونالد، العمة بيجي.

كان كل شيء بها صغيرًا ومدببًا بدءًا من عيونها الضيقة السعيدة وصولًا لأطراف أذنيها الوردية.

همست كاثرين في أذن شوجي، فردد خلفها:

"أشكرك على دعوتي للعشاء أيتها العمه بيجي".

قالت كاثرين بعد أن وضعت أخاها على الأرض:

"أين هو؟ كذبت وسحبت الصبي عبر المدينة من أجله، لماذا لم يظهر؟".

شعر شوجي بوخزة على مؤخرة عنقه تشبه الوخزة التي شعر بها عندما نشب جابريل ماكافيني أظافره في عنقه بالمدرسة، بينما كان الأب باري لا ينظر إليهم وسمع صوتًا يقول:

"أووه، هل ستقف هكذا أيها الفتى وتوليني ظهرك؟".

نظر شوجي خلفه، فوجد رجلًا ذا بذلة سوداء تملأ المدخل عرضًا وليس طولًا، نظر إليها شوجي بحذر، كان الرجل الواقف يشبه الصورة التي يتذكرها لوالده بخدوده المنتفخة، ورأسه الأصلع، وشاربه الكثيف وأنفه الصغير والدقيق الذي لا يشبه أنوف عائلة كامبل وحواجب مستقيمة وقاتمة تخفي عيونه الصافية.

نظر إليه شوجي وأراد أن يلمس وجهه حتى يتأكد من أنه يملك نفس الخد المستدير ونفس الشعر الغليظ فوق شفتيه.

خلف الرجل تنتظر امرأة وكأنها ترغب في أن يقدمها أحد إلى الطفل، قال شوج وهو يلف الخاتم حول خنصره الوردي:

"ألن تعانق والدك العجوز؟".

لم ير شوجي والده منذ فترة طويلة، فقد كان شوج حريصًا ألا يذهب إلى حي المنجم إلا بعد أن يخلد الأطفال إلى النوم.

تعلق شوجي بساق أخته التي قالت:

"شوج، إنه خجول بعض الشيء ولا عجب في ذلك بعد أن نفضت يدك منه بهذا الشكل".

"هذه طريقة عائلة بين، يجب أن تتخلص منهم، قبل أن يتخلصوا منك".

كان في استطاعة شوجي أن يسمع صوت تأرجح وارتطام العملات المعدنية في جيبه الثقيل.

"أحب رابطة عنقك، إنها ساحرة للغاية، هل بدأت في تحطيم قلوب الفتيات كوالدك العجوز؟".

حدثت حركة من خلفه بسبب تقدم المرأة التي كانت تقف منتظرة.

"أقسم إن السفر في يوم الشراكة القديمة[32]، فكرة سيئة".

تحدثت المرأة بابتسامه مترددة بينما كان الإرهاق باديًا عليها، كانت أقصر من والده لذلك تبدو قصيرة جدًّا وكذلك كان شعرها قصيرًا، استطاع شوجي أن يرى جذور الشعر الرمادية متناثرة في رأسها بشكل غير طبيعي، كانت ترتدي قبعة رمادية بسيطة وكنزة تحمل أسد برينجل[33] مرسومًا على صدرها وتحتها بنطال نسائي، تشبه السيدات اللاتي يقدمن الطعام في المدرسة ثم يخرجن للتدخين بجوار صناديق القمامة.

تقدمت كاثرين وقالت دون أن تبتسم:

"سعدت برؤيتك يا جوان".

كان من الواضح أنها لا تعني ما تقوله، تصافحا ثم تصادما في عناق عصبي أخرق بعصبية خرقاء.

شعر شوجي بالصدمة مما يحدث فرفع عنقه لأعلى حتى كاد ينكسر وهو ينظر إلى والده وزم شفتيه ثم مد يده الصغيرة وأمسك بقميص أخته وقال في غضب طفولي:

32- Old Firm day مصطلح يطلق على يوم مباراة كرة القدم التنافسية في الدوري الاسكتلندي بين فريقي سيلتك ورينجرز وقد ظهر للمرة الأولى في نهائي كأس اسكتلنداعام 1904 مقتبسًا من لافتة هزلية رفعها أحد المشجعين. (المترجم)

33- الشعار التراثي لاسكتلندا وأجزاء أخرى من المملكة المتحدة وأوروبا على هيئة أسد في وضع جانبي رافع ارجله الأمامية. (المترجم)

"كاثي، لا يجب أن تفعلي ذلك، هذا خطأ كبير لا يجب أن تصافحي العاهرة التي خطفت أبي".

قال شوج: "هيا يا فتى، عانق والدتك الجديدة".

قال شوجي:

"لا، يجب على الشخص أن يميز الشخص الخائن ولا يأمن له".

لم يكن يعرف من أين جاء بهذه العبارة، ربما سمعها من والدته وهي تصرخ بجوار طاولة الهاتف.

"أوف، يجب عليك الحصول على والدة جديدة يا شوجي، إن والدتك القديمة لم تعد صالحة إلا لتقدم للمذبح".

تحرك شوج فأصدرت ركبته وظهره صوت طرقعة عالية:

"أو ربما تصلح للخدمة في الفنادق".

لوحت جوان بإشارة ترحيب فاترة تجاه الصبي، ثم تقدمت إليه وهي تقول:

"لا تقلق بشأنه يا فتى إن قلبه فارغ كخزانة الحانة بعد انقضاء العطلة".

واقتربت منه وهي تحمل حقيبة تسوق ثقيلة في يدها:

"لا داعي لأن تناديني بشيء سوى جوان".

ومدت يدها في حقيبة التسوق قائلة: "اسمع ستيفان أصبح كبيرًا على هذه الشيء، ولكن قلبي لم يطاوعني للتخلص منه وأظن أنه سوف يناسبك، ما رأيك؟".

هز رأسه بالرفض، ولكن شفتيه قالت:

"ما هذا؟".

اقتربت منه ووضعت الحقيبة الورقية في حذر وكأنها تطعم وحشًا جائعًا، ثم ابتعدت العاهرة جوان للخلف خطوتين

وهي تقول:

"يجب عليك أن تنظر بنفسك".

أمسك أبوه كوبًا كبيرًا من اللبن، وخرج من المطبخ وقطرات اللبن تسيل من شاربه، ومال بيده ليستند إلى الحائط وهو يتابع شوجي.

أراد شوجي أن يبتعد عن الحقيبة ويتظاهر بعدم الاهتمام ولكنه لم يقدر على ذلك، فاقترب منها ونقر قاعها بأصابع قدمه فوجدها ثقيلة،

فاستخدم أصبعه لقطع قاع الحقيبة فوجد ثماني عجلات صفراء زاهية، فاتسعت عيناه كطبق عريض وهو يخرج فردة الحذاء الأولى، قال شوج لجوان:

"لا أعرف لماذا لم تعطه حذاء التزلج القديم الخاص بأندرو؟".

كان الحذاء طويلًا من جلد الغزال ذا خطوط بيضاء ورباط أبيض، شعر شوجي بالسعادة وأحب الحذاء ولكنه حاول التظاهر بأنه لا يرغب فيه، حاول أن يضعه في الحقيبة ويخبر كاثرين أن عليه الانصراف في الحال ولكنه لم يقدر على ذلك، فشعر أنه خائن مثل أخته تمامًا.

خرج الصوت العالي للعمة بيجي من فتحة المطبخ:

"لن تصدق أبدًا ما فعله هذا الولد العاق".

ابتسم شوج في وجه ابن أخيه ثم نظر إلى كاثرين بطريقة جعلتها ترغب في أن تضع يدها فوق صدرها وبطنها حتى تخفي أجزاءها الحميمة.

رد دونالد الابن:

"إنه ليس ذلك الأمر أيها العم شوج، إن لدي عرضًا جيدًا للعمل وسوف أكون مديرًا لأربعين رجلًا في وقت واحد".

أنهى شوج كوب الحليب وهو يقول:

"كنت أطمح أن تعمل كسائق أجرة".

ساعدت كاثرين شوجي في ارتداء حذائه الجديد وهي تقول:

"هل تريد أن تراه سائق أجرة في شارع رينفرو؟".

ثم أدارت رأسها فوق كتفها ووجهت الحديث لدونالد الابن:

"لدي وظيفة خاصة بي كما تعلم، ولا يمكنني أن أتركها وأتبعك في كل مكان كخيال الظل".

شاهدها شوج وهي تحاول أن تسيطر على ابن أخيه وضحك وهو يقول:

"دوني يا صغيري، تظن أنك تمتلك زمام الأمور ولكن الكاثوليك سريعو الغضب".

قال دونالد:

"إنه عمل جيد يا عمي، في مناجم البلاديوم(34) بالقرب من ساحل مدينة جنوب إفريقيا، كل العاملين في جوفان(35) سيذهبون إلى هناك وسوف يعطونني شهرًا من الراتب مقدمًا، نعم، جنوب إفريقيا، بووووي".

قال شوج وهو يمط شفته السفلى في حالة من التكبر:

"سوف تذهب إلى بلاد الكفار".

صاحت كاثرين:

"لا تستخدم تلك الكلمة الفظيعة أمام الصبي".

ساعدت شوجي في الوقوف على قدميه، ووجهته في اتجاه الباب:

"اذهب للعب في الخارج وأغلق الباب خلفك".

راقبوه وهو في الطريق للخارج وقد بسط ذراعيه محاولًا أن يحقق

34- معدن أبيض لامع يشبه البلاتين ويستخدم في صناعة المجوهرات والأغراض الطبية الخاصة بالأسنان. (المترجم)

35- شركة لتصنيع السفن على نهر كلايد. (المترجم)

التوازن وأصابعه مفرودة كأجنحة الطيور الجميلة.

تحرك شوجي في رشاقة عبر الصالة حتى وصل إلى المدخل وعلى وجهه ابتسامة واسعة تمتد من حافة أذنه وحتى حافة الأذن الأخرى.

مص شوج أسنانه في خيبه أمل وقال:

"لا أظن أن هذا الفتى، ابني".

توقف شوجي عن الانزلاق على السجادة وشعر بثقل الأحذية، والتفت إلى كاثرين وقال:

"ماذا تظنين سيكون رد فعلها إن عرفت أنني قابلته؟".

نظرت كاثرين إلى شوجي وميزت الاحمرار الذي يشوب خده:

"أوه لا يمكننا أن نخبرها بذلك على الإطلاق".

انكسرت ابتسامة نصر لئيمة من على وجه شوج وهو يقول بالطريقة التي يستخدمها المتنمرون من طلبة المدارس "دعيه يخبرها دعيها تصبح معركة".

أغلقت كاثرين الباب بين شوجي وأبيه بشكل قاسٍ، وسمع الفتى الصغير والده يزمجر من كثرة الضحك وهي تقول:

"لماذا طلبت مني إحضاره إن كنت ستتصرف بهذا الشكل القاسي؟".

أمضى شوجي فترة ما بعد الظهيرة يلعب بحذاء التزلج على سجادة المدخل الجميلة محاولًا إفسادها بقدر استطاعته.

بينما كان يسمع الجميع في الداخل يتشاجرون حول شيء ما لا يفهمه،

كان يظن أنهم يتحدثون عن طائر يسمى جوان يعيش في جنوب إفريقيا. سمع شوجي كاثرين تقول إنها ستستقر هناك بحلول أعياد الميلاد وتساءل ما هو شكل هؤلاء السود ولماذا يحتاجون لدونالد الابن للمساعدة في إنجاز أعمالهم بشكل أفضل، وتساءل لماذا سوف تضطر أخته الكبرى لتركه والرحيل بعيدًا.

13

امتدت تلال الخبث السوداء لمسافة أميال كأمواج البحر المتحجرة، وارتفع دخان من سحب غبار الفحم ترك آثارًا سوداء على وجه ليك النحيل فازدادت ملامحه هزالًا، وبرز الأنف النحيل ورسم خطًّا أسود فوق شعر شاربه. وتوقف شعره الأسود الناعم عن الاهتزاز على جبينه صعودًا وهبوطًا كالريش وظل ثابتًا في مكانه وكأنه مصنوع من الجرافيت أو كأنه مثل الرجال في رسومات الأبيض والأسود التي يرسمها.

كان يتسلق التل الأسود ببطء، ومع كل خطوة تتساقط التربة من أسفل قدميه ويضغط الألم على ركبته، ملأ الغبار الناعم كل فتحات جسمه وانساب لداخل حذائه الخفيف، وتأرجحت أمامه أعمدة رمادية وسوداء اللون كأذناب البقر القذر، وبرزت المرتفعات الغاضبة وراءه كموج جائع، فأحس بوجع في صدره.

لم يكن هناك شيء هام بالنسبة له في أعلى التل ولكنه استمر في طريقه، التربة السوداء تتقلب من تحته لتكشف عن مواضع جديدة لم تلمسها قدماه، كسواد آخر لم يرَه من قبل، النظر إلى التلال يشبه مراقبة شبح أسود غير مرئي.

لا يكون عبور ذلك البحر الأسود بهذه الصعوبة إلا في حالة وجود الرياح والأمطار، فالرياح تضرب تلك التلال الجافة فتنفجر كغبار قنبلة، كالبقايا الرمادية التي يتركها التلوين بمليون قلم رصاص ويبقى الشعور بطعم الخبث والغبار في فمه لعدة أيام بعد ذلك. وعندما يهطل المطر بغزارة على المنجم تشعر التلال بالتعب وتستسلم للمطر وضرباته المتتالية وكأنها تستعد للموت.

صعد ليك لأعلى نقطة في التلال وجلس، نظر نظرة طويلة متشككة إلى المنجم الميت والمخطط السكني القابع خلفه كنماذج ثلاثية الأبعاد، تشبه عرضًا متحفيًّا أو مجموعة ألعاب خاصة بالأطفال، رتبه بعناية فوق بنية رخيصة حمراء، وبرغم وجود ليك على قمة هذا التل القذر لكنه شعر بالشفقة والرثاء على هذه المنازل الصغيرة.

أخرج ليك من داخل معطفه ذي القلنسوة المصنوع من المشمع كراسة الرسم الخاصة به، تركت أصابعه الرقيقة آثارًا سوداء على القلم الرصاص والورق الأبيض.

كان يحاول أن يرسم الأفق المتسع بخطوط ناعمة مستخدمًا القلم الرصاص.

لا بد أن الشخص الذي صنع هذا المكان كان بخيلًا للغاية، لماذا لم يضع شجيرات صغيرة تشبه الشعاب المرجانية، لماذا لم يضع حيوانات مزرعة أو سيارات صغيرة مصنوعة من الصفيح؟

نظر ليك إلى الرجال الذين يرتدون السترات السوداء ويتسكعون

حول حانة عمال المناجم، وتساءل إن كان صانع هذا المكان يكره الألوان والرسومات الجميلة الزاهية.

نظر إلى المشهد وتجاهل مجموعة الأشجار التي تشبه الأنابيب وتجاهل كذلك مجموعة الأشجار الميتة التي تشبه سجادة ممتدة، رأى على البعد القطار الذي يتجه من جلاسكو إلى إدنبرة[36] وكأنه لعبة أطفال تسير في الأرض القاحلة التي تفصل سكان المناجم عن باقي أجزاء العالم.

كانت تلك الأرض القاحلة تشكل حدودًا غير مرئية لا تتوقف عن النمو، أزال مجلس المدينة منذ سنوات مضت، محطة القطار الوحيدة التي تقف بالقرب من بيتهيد حتى يوفر أجور عمال المحطة، وكان الجميع يضطر للتنقل باستخدام حافلة عامة لا تأتي لذلك المكان إلا لثلاث مرات في اليوم، ويفصلها ساعة كاملة عن أقرب نقطة عامرة بالناس. في المساء يتجمع الأبناء الكبار لعمال المناجم على أطلال المحطة وفي أيديهم زجاجات البيرة وعلب الغراء.

كان يراقبهم بحزن والأضواء البعيدة تنير وجوههم كل ثلاثين دقيقة، فتظهر بوضوح أيديهم وهي تتلاعب بصدور الفتيات من تحت ملابسهن الفضفاضة، أو يركضون على قضبان السكة الحديدية فتهتز شعورهم الناعمة المصففة في وجه الموت، ويلقون زجاجات مليئة بالبول على القطارات التي تمر مسرعة، يشعرون بالسعادة والحياة عندما يشد السائق بوق القطار تعبيرًا عن الغضب.

كانت هذه هي طريقتهم في الشعور بالحياة وأن العالم ما زال يراهم.

36- عاصمة اسكتلندا وثاني أكبر المدن الاسكتلندية من حيث عدد السكان والسابعة في المملكة المتحدة وبها العديد من الأجزاء المصنفة ضمن مواقع التراث العالمي حسب اليونسكو. (المترجم)

منذ أن تم إغلاق المنجم والأولاد يلعبون حول محطة القطار ويضعون الأشجار الميتة وكتل الحجارة والطوب الأحمر المستخدم في البناء في طريق القطارات، خسر صبي أكبر من شوجي بعدة شهور إحدى عينيه بسبب إلقائه حجارة مشتعلة في اتجاه القطارات المسرعة، لذلك توقف الأطفال عن إلقاء الحجارة والعبوات المشتعلة تجاه القطارات وبدؤوا يشعلون النيران في المستنقعات الجافة على جانبي شريط القطار، ولكن برغم ذلك لم تتوقف حركة قطارات جلاسكو.

جلس ليك يسجل المنظر المقفر في كراسة الرسم الخاصة به بواسطة قلمه الذي يحمل آثار المضغ على حافته. بينما كان يرسم سقط رأسه فوق كتفه بسبب قلة النوم، كان من الصعب الاستيقاظ مبكرًا والتوجه لأعلى التل حيث يجلس منفردًا محاولًا الرسم.

كان الاستيقاظ في الصباح أمرًا شاقًّا بالنسبة له، كما يشعر بجهد شديد حتى يستطيع جسده أن يبدأ يومًا جديدًا ويمارس نشاطه، خاصة في الأيام التي لم يكن فيها مرتبطًا بعمل.

كان ليك يتأخر عن الذهاب إلى برنامج تدريب الشباب كثيرًا، في البداية كان مدير الورشة العجوز يهتم بغيابه ولكنه مع الوقت فقد الاهتمام وكذلك فقد ليك الاهتمام به بنفس القدر.

في البداية ألقى المدير العجوز النحيف البراجماتي خطابًا على المتدربين

يشجعهم ويطالبهم بالإجادة والاستمرار، ولكن مع الوقت ظهرت في خطاباته كلمات تقطر بالمرارة، راقبه ليك وهو يتحدث عن جيل الشباب الذي سوف يدمر البلاد وكرات من البصاق تخرج من فمه والزبد يسيل على جانب شفتيه، أشاح ليك ببصره وهو يمسح بأصابعه الخشنة آثار البصاق التي أصابت وجهه ثم نظر إليه بأعين خاوية كتمثال من الرخام البارد.

خلال ثلاثين عامًا قضاها في مهنة المقاولات، رأى الرجل كل شيء في بلاده، رأى أجيالًا من الأطفال تكبر وتلتحق بسوق العمل، وتتبع مخططات الحكومة بلامبالاة وكسل شديد، حتى ينكسوا ويسقطوا في مكانهم ثم يصبحوا رجالًا يرتبطون بنساء تعاني بسبب عدم حصول أزواجهن على دخل ثابت، ولكنه لم يقابل خلال كل تلك السنوات فتى يمتلك مثل روح هذا الفتى.

سحب العجوز غاضبًا قلمًا من خلف أذنه ووجه به ضربات على فك ليك، لم يحفل ليك بما يحدث وغادر ببساطة لأنه حظي بتمارين كثيرة على مواقف مشابهة مع أغنيس، ورحل بعد أن أغلق الباب من خلفه تاركًا بقايا الغبار والعجوز الغاضب وراء ظهره.

ربما سمح العجوز للفتى بالرحيل في هذه المرة ولكنه لن يتركه يتخلى عن التدريب طالما تاتشر تدفع مصاريف التحاقه ببرنامج تدريب الشباب.

كان المتدربون الأكبر سنًّا يحتاجون دومًا لمن يجهز لهم الشاي، وكانوا يرسلون ليك للمتجر لشراء طلاء الترتان، كان يفرز المسامير في صناديق تحتوي على علامة تحدد أطوالهم بشكل تصاعدي، يشعر ليك بسعادة

عندما ينتهي من عمله معهم في تلك المهام غير المجدية، وينطلق في طريقه لتجوب روحه العالم حرة وطليقة.

وها هو يجلس الآن يقلب في كراسة الرسم، ثم يسحب مظروفين من داخل الكراسة، كان المظروف الأول أنيقًا أزرق سماوي مطويًّا على نفسه، اللون يخص البريد الجوي مع صف طوابع عليها صورة ظباء وصلته من كاثرين في ترانسفال[37]، أدار المظروف في يده وتمنى ألا تجعله قراءته يشعر بالحزن الشديد، تمنى ألا تجعلها إقامتها في مكان فاخر حيث تأكل النقانق وتجلس على أثاث وثير تعامله كشيء زائد يسهل نسيانه والتخلص منه.

ولكنه أدرك بعد ذلك أن الحزن قد يكون أفضل من شعوره بالغضب المتصل، وأن الحزن ضيف لطيف وهادئ إذا تعامل معه بلطف وعقلانية.

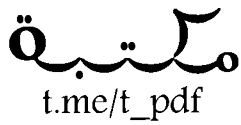
عندما تزوجت كاثرين من دونالد الابن شعر الجميع بالغضب، سحبت أغنيس ملابس كاثرين ومرتبتها وهي غارقة في الفودكا، وألقت كل شيء في الخارج في أكياس سوداء بينما يشاهدها الصبيان بلا حراك، فعلت كل شيء بمفردها دون أن تتلقى مساعدة من أحد.

أمسك ليك بالمظروف الثاني، كان قذرًا ومجعدًا للغاية، بسبب إعادة قراءته مرات ومرات.

كان الظرف سميكًا وعليه خطوط مزركشة مثل مخزون من ألوان

37- مقاطعة في جنوب إفريقيا، تم تقسيمها عام 1944 بعد نهاية الفصل العنصري وتقع شمال نهر فال. (المترجم)

مائية باهظة الثمن، كتب أحدهم على المظروف من الخارج اسمه بخط أنيق السيد "ألكسندر بين"، فتح ليك المظروف وأخرج الورقة المطوية بأصابع معتادة على فتح الرسائل، حتى إنه يمكنه قراءتها بعيون مغمضة.



"عزيزي السيد بين

يسعدنا، بعد مراجعة طلبك وأوراق التحاقك، أن نمنحك مكانًا في البرنامج الدراسي المؤهل للحصول على بكالوريوس الفنون الجميلة بلا شروط....".

طوى ليك الرسالة وأعادها إلى مكانها مرة أخرى داخل المظروف، كانوا قد أخبروه أنهم سيرسلون المزيد من المعلومات، حتى يتسنى له الالتحاق في سبتمبر، وأنه من الواجب عليه أن يتصل بإدارة التسجيل حتى يحجز مكانه في دراسة الفنون الجميلة، وهو الآن بالفعل في سبتمبر، ولكن تلك الرسالة وردته منذ عامين، فكر في كل الوقت الذي مر منذ أن استلم الخطاب، غادر شوج، وكاثرين تجلس في انتظار فرصة للمغادرة، وأخوه الصغير غريب الأطوار يتلوى من الخوف والجوع، ووالدته تضع رأسها في فرن الغاز.

كانت الأجواء حوله باردة ومرعبة في هذا البحر المتحجر، لذلك كان يحب هذا المكان حيث يشعر بالعزلة، سمع صوتًا بجواره قطع عليه أحلام اليقظة، تجاهل الصوت في البداية حتى ازداد اقترابًا منه وأصبح أكثر

وضوحًا، كان صوت شوجي الصغير يختلط بالصوت الغازي المندفع من الحفر والثقوب المفتوحة.

ظهر شوجي وجلده متوهج من آثار انبعاث الغازات من الثقوب والسير فوق تلال الخبث، غطى لون جلده الكريمي المعتاد طبقات من الغبار وتجمعت حول شفتي شوجي فقاعات من الأوساخ الرمادية.

دس ليك الرسالة داخل كراسة الرسم مرة أخرى وخبأها بعناية في كم سترته ثم قال ليك معاتبًا:

"طلبت منك أن تنتظرني بعيدًا".

تمتم شوجي، وعلى شفته السفلى فقاعات وردية مغطاة بغبار رمادي قذر.

"إن كنت لن تستطيع متابعتي، فلا تطلب مني اصطحابك مرة أخرى".

شعر ليك أنه أجرى هذه المحادثة من قبل، شعر كأنها محادثة دائمًا ما تجري بينهما.

وقف ليك وتحرك مثل أب ذي سيقان طويلة يتحرك فوق بركة من المياه السوداء، كان معطفه الأزرق المصنوع من المشمع يلمع في الظلام كظهر خنفساء، كان يأمل ألا يستطيع شوجي أن يتبعه، وأن يعود الصبي الصغير إلى المنزل، ولكن شوجي لم يفعل، فقد كان عنيدًا ومصممًا على أن

يتبعه، سمع ليك صوته يلهث في الظلام كمصاب بالربو، يمتلك شوجي العديد من المهارات التي يسيئ استخدامها، كان يبوح بأدق المعلومات نظير مكافآت هزيلة، وكانت أغنيس تطارد ليك في أنحاء المنزل بصندل دكتور شول[38] الوردي ذي النعل الثقيل.

النعل المطاطي المسطح يترك علامات أرجوانية تطفو فوق جلده الأحمر الساخن.

قهقه شوجي ضاحكًا مثل شرائح الزبدة وهي تسيح.

كان ليك لا يعرف لماذا تهتم والدته بمعرفة ماذا يفعل وما الفرق الذي سيحدث بالنسبة لها لو اتجه مباشرة إلى لغم مميت أو تسلق تلال الخبث ومشى بين الثقوب التي تبعث الغاز.

كانت أغنيس تتصنع الغضب عندما ترى ابنها يعود مغطى بالسخام الأسود والأوساخ، كانت تعمد إلى معاقبته حتى يراها الجيران فيشعرون أنها أفضل منهم وتهتم بمظهر أولادها، لم يكن الغضب ما يدفعها لفعل ذلك، بل الكبرياء، كانت تعرف أنها ليست مثلهم ولم تولد في ذلك الركن البائس المنسي، ولكنها جاءت إليه لأسباب مؤقتة.

نقر ليك بقدمه في الأرض فانطلق سيل من الغبار والأوساخ في اتجاه شوجي الذي كان يلهث وراءه، فأصدر صوتًا هادرًا مثل غرير[39] غاضب. ضحك ليك وأعاد الكرة مرة أخرى حتى يدفع شوجي للعودة إلى المنزل مجددًا.

38- علامة تجارية أمريكية للأحذية ومنتجات تقويم العظام، لها موزعون في كل أنحاء العالم. (المترجم)

39- الغُرَيْر حيوان لاحم ينتمي إلى فصيلة ابن عرس، وللغرير غُدد شَرجية يطلق منها رائحة كريهة كلّما استشعر أذىً أو انزعاجًا. (المترجم)

ركض ليك لأسفل التل مسببًا انهيارًا في تل الخبث الذي كان يجلس فوقه وانتظر شقيقه في الأسفل، تحرك شوجي بخطوة واسعة، وأدار يده في الهواء كطاحونة، وبعد خطوات قليلة انزلق على وجهه وتدحرج لباقي المسافة حتى وصل إلى الأسفل وابتلعته حفرة من الأوساخ كقبر يبتلع ميتًا، مد ليك يده وسحب أخاه من الحزام الموجود في حقيبة ظهره، كان وجهه الأبيض الصغير تعلوه علامات الرعب وتحول لونه للون الأسود، قال ليك:

"ألم أخبرك أن تنزل للأسفل في هدوء حتى لا تسقط".

قال شوجي:

"أعرف، ولكن عندما بدأ الانهيار لم أعرف كيف أتصرف، وخفت أن أدفن في الغبار".

بدأ شوجي يزيل آثار الغبار عن شعره الأسود وقال:

"سوف تغضب ماما لو مت".

قال ليك: "لماذا يجب عليك أن تكون مزعجًا لذلك الحد؟ لماذا لا تكون فتى طبيعيًّا ولو لمرة واحدة؟".

قال الصبي لأخيه وهو يدير ظهره: "أنا فتى طبيعي".

رأى ليك درجات من اللون الوردي تظهر فوق مؤخرة عنق شوجي ثم ارتجفت أكتافه وبدأ في البكاء، أداره ليك في اتجاهه وهو يقول:

"لا تدير ظهرك إليّ، ونحن نتحدث".

دقق ليك في وجه أخيه جيدًا، عرف أنه يقاوم الدموع وعرف إحساس الخوف والإحباط بداخله فسأله:

"هل لا يزال الأطفال يضربونك في المدرسة؟".

"لا".

وانتزع نفسه من قبضة أخيه، ثم قال:

"في بعض الأحيان".

"لا تدعهم يزعجونك، إنهم يرون أنك مختلف ومميز عنهم لذلك يتجمعون ضدك".

رفع شوجي بصره للأعلى:

"لقد أخبرت الأب باري عنهم، وطلبت منه أن يجعلهم يتوقفون عن إزعاجي".

قام شوجي بتقويم ثنية سرواله وهو يضيف:

"ولكنه لم يفعل شيئًا، لقد طلب مني أن أجلس خلف جرس المدرسة، وأن أقرأ في سيرة القديسين المضطهدين".

حاول ليك أن يخفي ابتسامته وهو يقول:

"يا له من لقيط عجوز عديم الفائدة، هذه هي الطريقة التي تتبعها الكنيسة، توقف عن الشكوى إليه، سيجعل الأمر أسوأ مما هو عليه".

بدأ في تنظيف أكمامه وأطراف سرواله من الغبار وهو يقول:

"هل تعلم عندما كنت في المدرسة، أخبروني أن هناك أبًا مثل الأب باري يتحرش بفتى هادئ الطباع، هل تتخيل ذلك".

ثم رفع عينه ونظر إلى وجه شوجي وسأله:

"هل لمسك يا شوجي؟ هل مد الأب باري يده عليك؟".

مرت سحابة سوداء فوق وجه شوجي للدرجة التي دفعت ليك للتوقف عن تنظيف ملابسه والنظر إليه.

قال شوجي: "لا".

ثم بدأ ينهار في البكاء وتتدافع الكلمات من فمه بسرعة كبيرة:

"لم يفعل شيئًا، ولكنهم قالوا إنني فعلت معه أشياء قذرة، وأنا أقسم لك إنني لم أفعل شيئًا، أنا حتى لا أعرف ما الأشياء القذرة التي يتهمونني بفعلها".

قال ليك لأخيه:

"أنا أصدقك، إنهم فقط يحاولون إغاظتك".

ثم أمسك بأخيه وضمه إلى صدره بقوة حتى حطم ضلوعه وقال:

"كم أصبح عمرك الآن؟".

لم يرد شوجي على الفور فقد كان يشعر بالسعادة من الاختناق الناجم عن حضن أخيه، ثم قال بصوت مدروس وكأنه يقف أمام السبورة ويلقي كلامه على زملاء الفصل:

"في السادس والعشرين من يوليو، الساعة الثانية عشرة ظهرًا كانت ولادتي صعبة يا ليك، صعبة للغاية".

"اللعنة، لا يجب أن يعرف عنك أحد مثل هذه المعلومات إلا أفراد العائلة".

دفن شوجى وجهه في جسد أخيه وقال:

"أبلغ من العمر ثمانية أعوام ونصف العام".

"كان يمكنك أن تقول ذلك منذ البداية، على كل حال لقد حان الوقت لأن تندمج مع الأطفال الآخرين وتتصرف مثلهم".

أخرج شوجي رأسه بحثًا عن القليل من الهواء وقال:

"إني أحاول يا ليك أحاول، ولكن هؤلاء الأطفال يتركون قمصانهم متدلية خارج سراويلهم دون الشعور بالخجل، إنهم لا يفعلون شيئًا طوال النهار سوى ضرب بعضهم بعضًا، أتعلم لقد رأيتهم يضعون أصابعهم في مؤخراتهم ثم يقومون بشمها إنه فعل... إنه فعل...".

كان يبحث عن كلمة:

"سوقي".

ترك ليك أخيه وقال:

"إذا أردت أن تتأقلم عليك أن تبذل جهدًا أكبر".

"كيف أفعل ذلك؟".

"حسنًا، يجب عليك أولًا أن تتوقف عن قول كلمة سوقي، فالأطفال لا يتحدثون مثل النساء العجائز، ويجب أن تمشي بطريقة توحي بالقوة، وإلا سيحاول الآخرون أن يضايقوك".

وبدأ ليك في تقليد الطريقة التي يمشي بها شوجي بشكل مضحك، وضم ساقيه للداخل وأرجح ذراعيه ثم قال:

"يجب أن تباعد ساقيك وتفسح المجال لقضيبك أن يبرز، وخذ خطوات

أطول وأكثر استقامة وافرد ركبتيك".

يتحرك ليك في دوائر، يتبعه شوجي مقلدًا ببراعة، محاولًا أن يشد ذراعه حتى تبدو طبيعية مثل أخيه كانا يسيران كزوج من الأبقار على أرض محروثة مؤخرًا.

على سطح الأرض بجوار المنجم، يوجد المبنى الرئيس للمنشأة، مبنى ضخم وكبير مثل كاتدرائية جلاسكو، يقف المبنى المهجور تحت ضوء القمر كعملاق وحيد.

النوافذ المكسورة المقوسة عالية لدرجة تمنع من رؤية ما يحدث بالداخل ولكنها ليست عالية بالدرجة الكافية لمنع الضوء من التسرب للداخل المظلم.

النوافذ التي لم تحطم كانت مغطاة بغبار الفحم الأسود وفي نهاية المبنى البعيدة ترتفع مدخنة إلى قلب السماء.

في الأيام الممطرة لم يكن من الممكن رؤية قمة المنجم بوضوح بسبب الغيوم. كان اللصوص ينتزعون من المبنى كل ما يمكنهم حمله من الأنابيب والقضبان المبعثرة التي يقومون بنشرها وخلعها من فوق سطح الأرض وذلك قبل أن يتم الإعلان عن توقف المنجم عن العمل بشكل رسمي وبيع محتوياته كخردة.

مد ليك يده وأمسك بأخيه وجذبه من حقيبة الظهر ثم أخذها وفتح سحابها ليلقي نظرة في الداخل، ثم رسم بأصابعه صليبًا على الأرض وقال له:

"أريدك أن تنتظرني هنا".

وقال له:

"عليك أن تراقب وإذا رأيت شخصًا يقترب، نبهني على الفور".

أفرغ ليك محتويات حقيبة ظهر شوجي على الأرض، غمغم الصبي الصغير وقد خف الحمل عن ظهره.

"لماذا يجب علينا أن نفعل ذلك؟".

"أخبرتك من قبل، إنني في حاجة لادخار النقود، إن لدي خططًا مستقبلية ولن أمضي حياتي ملتحقًا في برنامج تدريب الشباب".

قال شوجي متسائلًا

"وهل أنا ضمن هذه الخطط؟".

"لا وقت للمزاح".

وأشار إلى منجم الفحم:

"الأمر يزداد صعوبة في كل مرة، وعدد الأشياء التي يمكن أخذها يقل، سوف أستغرق وقتًا أطول من المعتاد".

أغلق ليك حقيبة الظهر الفارغة وأدار شقيقه لينظر في الاتجاه المعاكس ثم قال له:

"ابق منتبهًا وافتح عينيك جيدًا".

راقب شوجي أخاه ليك يتحرك في اتجاه المنجم من خلال البقية الباقية من ضوء النهار، ثم يتجاوز بركة ضحلة ويختفي في ركن مظلم بالقرب مما يشبه كاتدرائية الفحم، بدأ شوجي في الرسم على التراب المبلل مستخدمًا قدميه، كان التراب ناعمًا وعميقًا. رسم في البداية حصانًا ثم رسم أغنيس، ثم رسم شعرًا مجعدًا، كان يحب الشعر المجعد فرسمه فوق كل شيء وشعر بالابتهاج.

عبر ليك إلى الجزء الخلفي من المبنى متجهًا إلى كابلات الكهرباء حيث يعتزم خلع الكتل النحاسية من الحائط حيث تلتقي الكابلات مع مولد الكهرباء، كان المنجم يجري إغلاقه ببطء منذ ثلاث سنوات، ويتم تفكيك أجزائه وبيعها كخردة من قبل الملاك بينما كان عمال المنجم وأبناؤهم يسرقونها في السر.

سعر أسلاك النحاس يقدر حسب وزنها، لذلك يتم تعرية الكابلات ونزع كل الأجزاء النحاسية، كانوا يقضمون الأسلاك مثل الفئران ويتركونها عارية جرداء.

تتبع ليك الكابل في طريقه إلى الخارج، وجده عاريًا مثل النخاع بين العظام، سحب العمال كل ما في وسعهم، وتركوا الأسلاك عارية لمسافة مئة قدم في الخارج كشريان ممزق عالق في الهواء.

انحنى ليك وبدأ في الحفر بمعوله بحثًا عن قطع من النحاس المدفونة في كتل التراب المتجمدة، واستمر في ذلك دون أن يرفع رأسه لمدة ساعة

كاملة، ولم يتوقف حتى شم روائح الفحم المنبعثة من منازل العمال فأدرك أن وقت الظهيرة قد فات ومن الأفضل الرجوع قبل حلول الظلام عن طريق بحر الخبث الأسود.

بينما كان ليك يقطع السلك وينشر أجزاءه، تمنى أن يكون شوجي أكبر سنًّا وليس هذا الطفل الباكي المتذمر، ربما استطاع أن يساعده في حمل قدر أكبر من النحاس في هذه الحالة. النحاس ثقيل في حد ذاته ولكن الغلاف المطاطي عبء حقيقي ولم يكن من الحكمة تجريد النحاس من غلافه في المنجم، فهذا يستغرق وقتًا طويلًا، قبض على صبيين أصغر سنًّا من بيتهيد بينما كانا يجردان النحاس من غلافه المطاطي، وكلفتهما غرامة السرقة أكثر من ثمن كل كابلات النحاس التي يمكن سرقتها من المنجم.

لف ليك السلك حول ظهره عدة مرات مثل حبل التسلق وهو يشعر بخيبة الأمل، وسار متأرجحًا عبر البرك الرمادية في الضوء الخافت عصر ذلك اليوم الرمادي، وأخذ يواسي نفسه بالأفكار حول الغرفة التي سيستأجرها في يوم ما أعلى جارنتهيل(40) بالقرب من مدرسة ماكنتوش للفنون(41)، من المال الذي يوفره من سرقة النحاس، كما كان لديه ما يكفي من المال لرشوة أخيه بهدية صغيرة، استمر في طريقه مبتسمًا عائدًا للمنطقة المضيئة، وكل شيء حوله هادئ للغاية.

40- منطقة سكنية بها عدد كبير من المباني العامة والفيلات والقصور وسميت بهذا الاسم تكريمًا للبروفيسور توماس جارنيت، أحد الأساتذة الأوائل في معهد أندرسون، المعروف اليوم باسم جامعة ستراثكلايد. (المترجم)

41- مدرسة جلاسكو للفنون التي تقدم شهادات عملية ودراسات عليا في الهندسة المعمارية والفنون الجميلة والتصميم، أشهر مبانيها صممها تشارلز ريني ماكينتوش فحملت نفس الاسم. (المترجم)

كان شوجي مستمتعًا بإلقاء الحجارة في المنطقة المحيطة، في المرة السابقة كان يصوب الحجارة تجاه النوافذ العالية وبالفعل أصاب إحداها فزادت سعادته ولكن الأحجار أحدثت صوتًا عاليًا، فجاء ليك يجري إليه مسرعًا وضربه من أجل ذلك.

لذلك قرر شوجي هذه المرة أن يسير في دوائر واسعة ويقوم بشد الجزء الأمامي لسرواله ويرفع قدمه عاليًا متظاهرًا بأنه راعيًا للبقر أو أنه فتى طبيعي مثل ليك يسير بقوة وفخر حتى لو لم يتمتع باللياقة الكافية أو القدرة على استخدام مفاصله بشكل مناسب.

وفجأة ظهر من العدم، رجل غريب يركض في اتجاه شوجي ويثير الغبار والأتربة خلفه، عندما أدرك شوجي الخطر، كان الوقت قد فات وأصبح الرجل على مقربة منه، كان من المفترض أن يراقب شوجي الطريق، كان من المفترض أن يحذر ليك لو اقترب منه شبح غريب، ولكن الرجل أصبح قريبًا منه لذلك ألقى شوجي نظرة في اتجاه المبنى المظلم ثم ركض في الاتجاه الآخر.

ركض شوجي مبتعدًا واختبأ خلف أقرب التلال وثنى ركبته منحنيًا إلى الأسفل، فأخرج ضراطًا سيئ الرائحة، رأى شوجي الرجل يصعد جانب التلال بخطوات واسعة ويركض فوق الغبار والأتربة المتساقطة كما فعل ليك.

استدار شوجي ونظر إلى الرجل وخاف أن يلمحه ويلحق به، فواصل الركض حتى ينقذ نفسه وصار يجري وهو يشعر بأن الغريب يركض مصممًا في أعقابه وأن يدي الغريب تكاد تمسك قدميه.

ثم نظر إلى الخلف مرة أخرى فرأى الرجل يقف بعيدًا فوق تل أسود وكتفاه متهدلان، ويداه ممدودة، واصل شوجي الركض في الوادي الأسود والرجل يتبعه كما يتبع الصقر فأر مذعور.

كادت تلال الخبث أن تنتهي وسوف يصل شوجي إلى أرض مفتوحة مليئة بالأعشاب حيث يمكن أن يلحقه الرجل ويمسكه بسهوله، فزاد شوجي من سرعته في الجري عبر الصخر الملوث بالزيت والخبث متجاوزًا العشب حتى وصل لبداية الحقل بني اللون، تعثر بين الأعشاب وأخذ يستمع للصوت القادم من خلفه فلم يسمع شيئًا، ألقى شوجي نفسه فوق كومة كبيرة من العشب الأصفر ونظر من خلالها إلى الخلف فوجد الرجل يقف فوق آخر التلال العالية ويمد يده في اتجاهه وهو يصرخ:

"سوف أنال منك أيها اللص اللقيط الصغير".

ثم رحل.

ظل شوجي مستلقيًا لفترة طوية حتى يتأكد أن الرجل رحل بالفعل، تجمعت على جبهاته قطرات من المياه المنبعثة من العشب الذي يرقد عليه وبقايا المطر، كان الحقل يفصل بينه وبين تلال الخبث، والرجل يفصل بينه وبين منزله، يتخيل شوجي الرجل في عقله كشبح شرير من أفلام الكارتون، لا يدري ما الذي يجب عليه فعله حتى ينجو منه ولا يقضي بقية العمر مدفونًا في حقل الخبث.

تبول شوجي في ملابسه فشعر بالأرض أسفل منه قد أصبحت دافئة،

بدأت الشمس تغيب بسبب قصر فترة النهار في الشتاء، بدأ شوجي يدور حول التلال والمستنقعات وقد تحول لون ساقه إلى اللون الأحمر بسبب الصبغة التي سالت عليها من اللون الذي أفرزه سرواله.

استمر في المشي حتى وصل إلى حفرة تشبه مقلاة كبيرة فارغة يمتد داخلها طين رمادي داكن يشبه مركز كعكة غير مخبوزة، الدوران حول الحفرة سوف يستغرق وقتًا طويلًا، ولو استطاع أن يعبر بداخلها فسوف يصل إلى المنزل في أقل وقت ممكن.

كانت غيوم بعيدة تظهر فوق الحي السكني ومن خلالها مصابيح المنازل تبدو كالأضواء اللامعة فوق فراش مرتفع.

بدأ شوجي في الهبوط إلى أسفل الحفرة بصعوبة، كانت الحفرة تصل إلى عمق عشرة أقدام أو أكثر تحت سطح الأرض ولها جوانب شديدة الانحدار، أخذ ينزلق إلى الأسفل بين أكوام الخبث وهو يتساءل إن كان في وسعه الصعود مرة أخرى عندما يصل إلى الجانب الآخر.

وصل في النهاية إلى قاع الحفرة بجروح متعددة في ساقه، وشعر بألم رهيب بينما يحاول الوقوف على الأرض اللزجة، كانت الأرض ذات ملمس يشبه الصابون الرطب، خطا عليها بحذر خطوة واحدة محاولًا أن يختبر طبيعتها وانتظر. خطا عدة خطوات بجرأة فوق الأرض اللزجة ثم عاد مسرعًا للحافة الصخرية الصلبة مرة أخرى، اختفت آثار أقدامه بسرعة وكأن شبحًا يتبعه، ابتسم وشعر بالسعادة ونسي الألم الذي يشعر به في فخذيه، رفع ذراعيه كطائر ومضى في طريقه يغني ويرقص مع الشبح الخفي الذي يتخيل أنه يطارده.

كان الوصول إلى الجانب الآخر لن يستغرق غير بضع دقائق إذا تحرك بسرعة على الوحل الزجاجي اللامع، لاحظ شوجي تردد صدى الصوت مع وقع خطواته يدوي في جنبات الحفرة كصوت يد سيدة سمينة تضرب فخذي طفل عارٍ، وبدأ الصوت يزداد بينما أخذ الوحل يزداد لزوجة ويبتلع خطواته إلى الأسفل، أصبح شوجي يجاهد حتى يحرك نفسه للأمام في كل خطوة بينما وصل الوحل إلى ركبتيه وصارت خطواته شديدة البطء، أمسك شوجي الأرض بأظافره كقط يائس محاولًا الحركة.

في خطوة يائسة يحكمها الفزع، حاول أن يغير مساره ولكنه لم يستطيع أن يرفع قدمه من الوحل الجائع الذي يسحبه إلى الأسفل، خلع حذاءه الأحمر ذا الرقبة العالية ليحرر قدمه وأصبح يسير عاري القدمين.

وبعد أن خطا خطوتين أو ثلاثًا فوق الوحل السائل، شعر بالغباء الشديد لتورطه في السير داخل هذا الحقل من الوحل الذي يمتص قدميه كطفل يمتص مصاصة شهية، شعر أنه لن يستطيع النجاة من ذلك الفخ.

أراد أن يعود لارتداء حذائه مرة أخرى حتى لا يموت دون حذائه، وبدأ يتخيل الوجوه عندما تكتشف، وردود الأفعال عندما يعرف الجميع ماذا حدث له.

جاهد بضع خطوات للخلف للعودة إلى حذائه، ولكن الوحل كان قد ابتلع الحذاء، حاول دفع إحدى قدميه إلى أعلى فانخفضت الثانية في عمق الوحل، وانساب ليملأ كل التجاويف بين أصابع قدميه، لم يعرف ما يجب عليه أن يفعل. فحاول أن يعدل من وضع جسمه مرة أخرى، وبدأ يغني لنفسه مرة أخرى.

" أومن أن الأطفال هم المستقبل،

يجب أن نعلمهم بشكل جيد

ثم نعطيهم الفرصة لقيادة الطريق ".[42]

شاهد شوجي الوحل يبتلع فردة الحذاء الأخرى، وبذلك ضاعت عليه كل الفرص في إنقاذ حذائه الأحمر ذي الرقبة العالية

"يجب أن نظهر لهم كل الجمال، الذي يمتلكونه في داخلهم".

بدأ يغني بصوت أعلى ثم أعلى مقلدًا كل النغمات التي كان يسمعها في الراديو.

"قررت منذ فترة بعيدة،

ألا أسير في ظل أحد

إذا فشلت أو نجحت

على الأقل سأكون خضت الحياة كما أحب

يمكنهم أن ينتزعوا مني كل شيء

ولكن ستبقى دائمًا كرامتي".

ثم سمع صوتًا من أعلى الحفرة يصيح:

"ماذا تفعل في الأسفل أيها الفاسق، ولماذا تغني لويتني هيوستن؟".

42- مقطع من أغنية « " The Greatest Love Of All للمطربة الأمريكية ويتني هيوستن. (المترجم)

لم يستطِع شوجي أن يرى ليك واقفًا في الأعلى بسبب بعد المسافة والظلام المحيط به ولكنه أغلق عينيه وصرخ بأعلى صوته:

"آه أهاهاه، أيها المجنون الوغد القذر أخرجني من هنا بسرعة، أخرجني ولا تخف أن تلوث أصابعك الرقيقة".

سمع أصواتًا في الظلام وحركة فوق الوحل الثقيل بأعلى الحفرة فصاح:

"تحرك بسرعة".

سمع صوت الأقدام تغوص في الوحل.

"أخرجني من هنا أيها المخنث".

سمع الأصوات تقترب أكثر، وأحس بأنفاس ليك تقترب منه، قام ليك بسحبه من حقيبة ظهره وألقاه فوق الأرض الصلبة في الخارج، ثم بدأ يجره من ملابسه فصرخ شوجي:

"لا، توقف، انتظر، توقف".

اقترب ليك بوجهه من وجه شقيقه ودقق فيه ليعرف ما السبب في كل ذلك الصراخ.

صاح شوجي:

"اتركني، اتركني".

أجاب ليك:

"هل أنت غبي، أم شيء من هذا القبيل؟".

جره ليك إلى الحافة وجذبه بقوة من أذنه، كان يبدو أن ليك يشعر بالغضب بسبب شقيقه ويريد أن يعود إلى المنزل في أسرع وقت ممكن.

صاح شوجي:

"لا يمكنني أن أعود إلى المنزل، لا يمكنني أن أترك حذائي، سوف تقتلني، فهي ما زالت تسدد ثمنه".

"بحق المسيح".

أرخى ليك قبضته التي تجذب أخاه وعاد مرة أخرى إلى الحفرة، سمع شوجي صوت صراع وحركة داخل الطمي، ثم هدأت الحركة لبعض الوقت، قبل أن يسمع شوجي الصوت الناتج من ارتطام فردتي حذاء بعضهم ببعض، فشعر بالراحة وأدرك أن أخاه قد أنقذ حذاءه.

مد ليك يده وجذب شوجي من ياقة قميصه مرة أخرى وبدأ في جره بعيدًا عن فوهة الحفرة، فتذمر شوجي مرة أخرى من السير فوق الصخور الخشنة، توقف ليك وسمح لأخيه بأن يرتدي حذاءه مرة أخرى، تباطأ شوجي في ارتداء حذائه وهو يشاهد ليك يقف وأعصابه تحترق، ناظرًا في الأفق باتجاه المنجم القديم والأدرينالين يجري في عروقه بقوة، ثم صاح:

"أسرع".

أمسك ليك شوجي من ظهره ودفعه أمامه، ولاحظ شوجي كيف تجمع حاجبا ليك في منتصف جبهته في غضب، كان شوجي يشعر بالخوف من أخيه فلم يجرؤ على التكلم، بينما أخوه يحدثه بصوت مشروخ، كان هناك بعض الرذاذ من آثار دم داكن ولزج على وجه ليك مثل محلول معلق. وعلى جانب عينه اليسرى كدمة كبيرة وعميقة تتوهج في الضوء القاتم، وعلى شفته السفلى جرح غائر كما لو كانت منقسمة إلى نصفين.

فرك ليك شفتيه ومد يده بداخل فمه وأخرج طقم الأسنان فشعر بالألم، كان هناك ضرس مكسور وآخر متصدع والصفيحة الوردية التي ترتكز عليها الأسنان مقسومة إلى نصفين متساويين وكأن أحدهم لكمه في فكه.

سأله شوجي:

"هل أنت بخير؟".

تمتم ليك:

"اللعنة، كانت مهمتك المراقبة، كان يجب عليك أن تحذرني من اقتراب ذلك الحارس".

لاحظ شوجي أن مفاصل أصابع أخيه خالية من اللحم، بينما كان ليك يضيف:

"لقد أذيته بشدة يا شوجي، لقد أذيته بشدة، وهذا خطأك أنت".

لاحظ شوجي أن ليك لا يحمل الكابلات النحاسية ولا العتلة التي كان يستخدمها في نزع الكابلات، بدأ ليك في الركض وسحب أخاه خلفه كما لو كان أحد يطاردهم. لم يكن شوجي يرتدي حذاءه بشكل صحيح

وكانت قدماه متورمتين وجلده مصابًا بجروح، ولكنه لم يجرؤ أن يطلب من أخيه أن يتمهل.

عندما وصلا إلى حافة الحي السكني شعر كلاهما بالامتنان لظهور أنوار المنازل البرتقالية الخافتة، تحدث ليك بفم نصف خالٍ من الأسنان ووجه منتفخ، لم يستطع شوجي أن يفهم كلمة واحدة مما يقول، ولكنه استطاع قراءة الخوف وخيبة الأمل في عينيه بشكل واضح بما فيه الكفاية.

14

لم يذهب ليك لسرقة النحاس مرة أخرى، بعد أن علم أن حارس المنجم يرقد في المستشفى بعد أن شق جمجمته بواسطة الحقيبة الثقيلة التي كان يحملها، كان ليك يشعر بالحيرة وأفكاره مشتتة مثل كومة من أوراق اللعب المتساقطة، وخصوصًا بعد أن بدأت الشرطة الطواف على المنازل لتكشف هوية الشاب الذي قام بهذه الجريمة.

تركتهما أغنيس ينتظران عند المدخل، ثم استقبلتهما عند الباب بغضب شديد وهي ترتدي أفخر ملابسها وتضع الحلق الأنيق. عنفتهما للقدوم إلى منزلها ولم تسمح لهما بالدخول، للمرة الأولى شعر ليك بالامتنان بسبب فعل تقوم به والدته، فقد أنقذته من السجن.

لم تسأل أغنيس ابنها إن كان فعل ذلك الأمر، ولم تتهمه بشيء، بينما وقفت بريدي دونيلي بجانب السياج وهي تدخن سيجارة. كان يبدو عليها الدهشة أنهم لم يقبضوا على أحد أبنائها، ثم قالت لأغنيس إن أفضل شيء من الممكن أن يحدث لعائلة الحارس هو إصابته، فقد أوشك عقده على الانتهاء وقد ضمن بهذا الحادث أن يحصل على معاش الإعاقة مدى الحياة ولن يضطر للعمل مرة أخرى في المستقبل، كما أن راتبه لم يكن كبيرًا على كل حال.

شعر ليك طوال الشتاء بألم في أسنانه، لم يتكفل التأمين العلاجي باستبدالهم إلا ببطء شديد، لذلك كان يضطر لارتداء الطاقم المكسور

خارج المنزل، ويحاول ألا يفتح فمه على وسعه حتى لا تسقط أسنانه وعندما يكون في المنزل يمضي الوقت بفم خالٍ من الأسنان كالسلحفاة، كان كلما رأى شوجي، يجلس فوقه ويلكمه ويضغط على جلده حتى يتحول للون الأحمر، يبذل شوجي قصارى جهده في ألا يبكي أو يصرخ لأنه يعلم أنه يستحق ما يحدث له.

وعندما انتهت الهيئة الوطنية للتأمين الصحي[43] من تجهيز اللثة الجديدة، وضعها ليك في فمه فتسببت في تورم فكه ونزفت أسنانه، توجه إليه شوجي بقطعة من الخبز الأبيض الطري ليضعها كبطانة بين اللثة الجديدة والفك لتقلل الاحتكاك، يحمل شوجي قطع الخبز في جيبه طوال فترة الصيف حتى يعطيها إلى ليك عند الحاجة، مرات عديدة عندما كانت أغنيس تغسل بنطاله المدرسي كانت تجد في الجيب شرائح من الخبز القديمة المنسية قاسية ومتعفنة باللون الأزرق.

في عطلة نصف العام تصير الطرق مزدحمة، حيث يتجه أبناء ماكافيني وأبناء عمومتهم وأقاربهم للتنزه والاستفادة من أسبوعي العطلة، يذهبون إلى الساحل الغربي حيث الطقس المعتدل، يلعبون بالكرة، ويركبون العجل ويتصايحون ويثيرون غيومًا رمادية من الخبث في الهواء.

يبتعد شوجي عنهم، وهو يشعر بخطب ما، يشعر أن شيئًا في داخله قد تم تجميعه بشكل غير صحيح، كان الأمر كما لو أن الجميع يعلم مشكلته، ولكنه الوحيد الذي لا يستطيع تحديدها. كل الأمر أنه كان مختلفًا وهذا ما جعله دائمًا على خطأ.

تسلق شوجي السياج وعبر بين المنازل حتى خرج من المجمع السكني بمسافة مناسبة، كان سطوع الشمس النادر يكسب جسمه الحرارة،

43- NHS Scotland، نظام التأمين الصحي الممول من الدولة في اسكتلندا وأحد الأنظمة الأربعة التي تشكل الخدمة الصحية الوطنية في المملكة المتحدة. (المترجم)

فبدأ جلده يتحول للاحمرار تحت ملابسه، والأجزاء العارية في مؤخرة عنقه تشعر بالوخز من أثر الحرارة، سار في الطريق المسطح حتى وصل لطريق جديد مفروش بعشب ميت بني اللون يشبه السجادة على جانبيه أعشاب طويلة، وبدأ يتمرن على السير بالطريقة التي أراه إياها ليك، خطوات قصيرة وحادة مع أرجحة ذراعيه بشكل متوازن، ولكنه شعر بالإحباط، مما دفعه لأن ينشب أظافره النظيفة في حركة عصبية براحة يده، ثم استدار مرة أخرى وبدأ من جديد وسار بخطوات أبطأ وأكثر تأنيًا.

زاد المسافة بين فخذيه ليبرز قضيبه، وضغط بكعبه بقوة على الأرض الطرية وأرجح ذراعيه مرة أخرى، خلع سترته الصوفية ومسح العرق الساخن عن جبهته، وبدأ في توبيخ نفسه قبل أن يستدير ويحاول مرة أخرى.

أعاد الكرة طوال فترة ما بعد الظهيرة، وفي كل مرة كان يتوقف أو يغير من سرعة حركته أو من درجة أرجحته لذراعيه، كان يريد أن يبدو مثل ليك، مثل الأولاد الحقيقيين الذين يتحركون بشكل طبيعي دون جهد ولا تفكير ولا أعذار.

جلست أغنيس على المقعد أمام النافذة تنظر إلى خارج المنزل، تراقب مجموعة من الأطفال يلعبون ولم يكن شوجي بينهم، في الساعة العاشرة والنصف تكون انتهت من أعمال المنزل ومن تزيين نفسها، ولكنها لا تخرج بل ترتدي كنزة ذات فتحة واسعة وتنورة رمادية، وتنزل مستمتعة بتناول بقايا البيرة وتتساءل أين يختبئ ابنها ولا يلعب مع الأطفال، ثم بدأت بدافع الملل بتنظيف بقعة قديمة مستخدمة جوربًا من على ذراع المقعد وصنعت كومة كبيرة من المناديل الورقية ثم وضعتها في جيبها.

كانت حزينة لأنها اشترت ذلك الطقم من الأثاث المكون من ثلاثة قطع

وما زالت تدفع ثمنه أسبوعيًّا على هيئة أقساط من الجنيهات، وسيستمر الدفع لثماني سنوات قادمة، ولكن أطفالها لا يقدرونه ويلقون ملابسهم وأحذيتهم عليه ويجلسون فوقه في أوضاع مقلوبة.

فتحت البوابة المكسورة المقابلة لها فاعتدلت في جلستها، اندفع إلى الخارج أطفال ماكافيني، يجب عليها أن تعترف أن لهم مظهرًا جميلًا وهم يدفعون دراجاتهم وسط الغبار، كانت الحيلة القذرة التي فعلتها أمهم قد أكسبتهم منظر الأسود البرية الصغيرة، بعد أن أطالت شعورهم ونفشتها فأصبحوا يشبهون الحيوانات بأعينهم البنية الغجرية التي ورثوها عن والدهم.

في إحدى المرات كانت تغسل النوافذ بماء وخل ولكنها لم تستطع التركيز والأولاد الصغار يلعبون في الشارع أمامها عند حوض السباحة ولم تستطِع الاستمتاع بعملها وهم يدعون واحدة من الفتيات بالفأرة القذرة لأنها وقعت في الوحل، فقامت بدعوة الفتاة إلى داخل المنزل رغم أنها لم ترغب في ذلك من البداية، كانت الوسطى في الترتيب، قادتها إلى الجزء الخلفي حيث أعطتها تفاحة خضراء، ثم قامت بتمشيط شعرها لمدة نصف ساعة حتى تخلصت من العقد والمنحنيات وفردت الشعر، وهي تمر بالمشط الخشبي الخاص بها من مقدمة رأسها وحتى مؤخرة عنقها، وبعد أن انتهت فوجئت كم هو طويل وناعم بلون الكراميل، ساعدت الفتاة في عمل عقدة على هيئة ذيل حصان، ومجموعة من الضفائر الأنيقة بطريقة فرنسية، كانت نفس الطريقة التي اعتادت أن تصفف بها شعر كاثرين في المدرسة.

كان مساء لطيفًا، ولكن كولين عندما شاهدت الفتاة صرخت صرخة مدوية جاءت من أعماق رئتها وعبرت الساحة حتى وصلت إلى بيت أغنيس مثل عاصفة هادرة، ثم دقت على الباب وهي تصرخ في أغنيس:

"من تظنين نفسك، لتفعلي ذلك مع ابنتي، هل تريدين أن تحوليها لنسخة منك، يجب عليك أن تهتمي بأمورك الخاصة وبابنك الصغير المنحرف".

خرج الكثير من البصاق، ولكن أغنيس لم تشعر بشيء لأنها مخدرة من الإفراط في البيرة وأمسكت المشط في يدها وضربت به فوق فخذها وهي تفكر أنها من الممكن أن تفعل به الكثير مستخدمة ظهر المشط الخشبي القاسي.

في أوقات كثيرة كانت أغنيس تشعر بالعار لأن هؤلاء النساء غير متحضرات، وتشعر أن بينها وبينهن قواسم كثيرة، ولكنها لا تجرؤ على أن تعترف بذلك.

سمعت أغنيس من جينتي أن جيمس الكبير قد صرف كل ما تبقى له من مال اكتسبه في شراء سيارات الخردة ومسدسات اللعب للأولاد الصغار وأنه كان يرسل كولين لسرقة عشاء عيد الميلاد من أجل أبنائها من متجر فاين فير[44].

كلا المرأتان وصلتا لحافة الفقر الشديد وتشاركتا في الشعور بالاحتياج للمال، كلتاهما تستيقظ ليلًا متسائلة عن الطريقة التي يمكن أن تفي بها بدفع مبلغ زهيد لفترة طويلة كأقساط لكتالوج فريمان[45]، وعن طريقة حصولهما على المال لو اشترت قطعة من الملابس لهذا الطفل وقطعة أخرى لهذه الطفلة، والطريقة التي يمكنهما بها العيش في حالة انقطاعه. كانت كلاهما أمًّا تقوم بحساباتها.

44- Fine- Fare Supermarket سلسلة من المحلات التجارية الكبرى أطلقت في المملكة المتحدة عام 1980، تتميز بعلاماتها الصفراء التي تحددها كابرز وأقدم العلامات التجارية التي ظهرت في المملكة المتحدة. (المترجم)

45- شركة إنجليزية لتجارة المنتجات والملابس تقع في برادفورد. (المترجم)

كانت كلا المرأتين طوال فترة بعد الظهيرة تمارسان رياضة الاختباء من الرجل المتخصص في جمع الديون. كانت كل نساء بيتهيد تغطس على السجاد وتزحف على الأرض بشكل متزامن بمجرد ظهور هذا الرجل.

كان بروفي رجلًا نحيلًا يرتدي بذلة رمادية واسعة ويحدق من خلال النوافذ بلا خجل، لسنوت طويلة كان يشاهد دخان السجائر يتصاعد من خلف الستائر والمقاعد في المنازل المختلفة التي يتظاهر أصحابها بأنهم غير متواجدين بداخلها.

علمت أغنيس بشكل غير مباشر عن طريق بريدي كيف تتلاعب كولين في عداد الكهرباء وكيف تفتح الصندوق بمشبك الشعر دون أن تخرب القفل، وتستعيد النقود التي وضعتها في العداد. في يوم أحد معين من كل شهر يحصل أولادها على الآيس كريم، في أحد الأيام جلست كولين تأكل المثلجات مع أبنائها وهي تشاهد حريقًا هائلًا في ثلاثة من أعمدة الإنارة بسبب العبث الذي تقوم به في عداد الكهرباء.

تمسك أغنيس العملات الفضية في يدها كأنها تمسك قطع من المجوهرات، تستطيع أن تعيد بعض القطع إلى داخل العداد لتحصل على المزيد من الكهرباء دون أن يستطيع الملاحظ معرفة كمية استهلاكها الحقيقي، تتخيل أغنيس الملاحظ وموظف الحكومة يجلسون في الحانة متعجبين من براعة الأمهات في بيتهيد.

بينما كان الحقد ينمو في صدر كولين، كانت أغنيس تتساءل لماذا تكرهها كولين إلى هذا الحد؟ كولين لديها كل شيء تشتهيه أغنيس، عائلة قريبة، وأطفال أقوياء ولكنهم يحتاجون إليها، والأهم من كل ذلك كان لها رجل بالجوار، كان لها وحدها بلا شريك وكانت كولين تعتقد إلى جانب كل هذا أن الرب ينزل عليها بتعاليمه بعد أن اختارها حامية للأخلاق في الحي، ونصبها رئيسًا أو مراقبًا يفرض سلطته. كانت كولين ترى أن التلاعب في عداد الكهرباء وسرقة المتاجر لإطعام أطفالها خطيئة ضرورية يجب عليها فعلها، وترى أن جوارب أغنيس السوداء وحذاءها ذا الكعب العالي خطيئة أكبر من ذلك وأشد دنيوية.

بحلول الوقت الذي انتهت فيه أغنيس من تناول عبوة البيرة شاهدت دراجة ماكافيني النارية وعليها جيمس الكبير زوج كولين ينطلق في الطريق، وأخذت تتابعه وهو يثير عاصفة من الغبار في طريقه، ثم شاهدت كولين تخرج من المنزل وفي يدها حقيبتها الخاصة بالتسوق.

اتسخت ملابس جيمس الكبير بفعل الغبار أو ربما كانت متسخة في الأصل، لا تستطيع أغنيس أن تحدد ذلك، فجأة دون سابق إنذار سقط الرجل على ظهره في بقعة من الزيت الأسود ظهرت حوله كأنها بركة من العسل الأسود.

وضعت أغنيس يدها بالخاتم الضخم فوق الجسم المعدني للدراجة البخارية وسألته:

"ما الأمر".

اقتربت منه أغنيس بشدة فاستطاعت أن تشعر بأنفاسه الحارة على كاحلها، قام الرجل من بين الزيت كسلطعون يتحرك ببطء، حاولت

أغنيس أن تمارس طريقتها في الابتسامات الرسمية بشكل متكلف، استطاع الرجل أن يقف أخيرًا على قدميه، فوجدت أغنيس نفسها تقف أمام رجل يبلغ من الطول ما يفوقها كثيرًا.

كان أيرلنديًّا أسود لدرجة أنه لا يمكن التمييز بين لونه ولون الزيت المسال على وجهه ورقبته التي تحمل آثارًا من انفجار المنجم، وكان شعره غير متناسق من الجانبين بشكل غريب ولكنه كان وسيمًا رغم كل ذلك، وهو الأمر الذي كرهته أغنيس.

سألته:

"هل زوجتك كولين في المنزل؟".

نظر إليها جيمس بقلق ثم توقفت عيناه أمام صدرها الذي يظهر جزأه العلوي من فتحة الملابس العلوية التي ترتديها. رد بخشونة:

"لا تحاولي خداعي، ماذا تريدين؟".

نظرت أغنيس إلى الأسفل فلمحت يده التي كانت خشنة وغليظة، ثم قالت:

"أريد أن أطلب منك معروفًا".

ابتسم الرجل مثل كل الرجال الذين تعرفهم، كانت أسنانه كبيرة وحادة

بشكل بارز في مؤخرة فمه مثل مصيدة.

قالت:

"لقد استنفدت كل الأفكار ولدي مشكلة مع ابني الصغير لا أستطيع حلها".

تجهم الرجل مرة أخرى وقال وهو ينظر إلى جسدها:

"نعم أنت على حق، إنه يكثر الحديث بينه وبين نفسه ولقد رأيته يلعب نط الحبل منذ عدة أيام، يجب عليك أن تنتبهي لذلك الفتى طوال الوقت، حتى ينتهي ذلك الأمر في بدايته".

"لهذا السبب لجأت إليك".

عقدت أغنيس ذراعيها أمام صدرها ولكنه رغم ذلك لم يزح عينه عن صدرها طوال الوقت.

"هل تريدين أن أجعل أولادي يصفعونه؟".

"لا".

"مجرد صفعات صغيرة حتى يستقيم".

"لا، هذا ليس خطأه، من الصعب أن يكبر في حالة عدم وجود رجل في المنزل".

"وماذا عن ليك؟".

توقف الرجل القذر قليلًا عن التفكير بعد أن ألقى سؤاله وأدرك أن ليك ما زال صبيًّا لا يصلح لشيء.

"حسنًا ماذا تريدين مني أن أفعل، بحق الجحيم؟".

"أريدك أن تفعل معه كل الأشياء اللطيفة التي تفعلها مع أبنائك، اصطحبه في رحلة صيد أو علمه ركل الكرة، وسوف أعطيك بعض الجنيهات".

امتعض وجه الرجل مما أوحى لها أنه يفكر في العرض، قبل أن يقول:

"أغنيس، لا أريد منك المال".

شعرت أغنيس بالعار والإحراج الشديد فنظرت في الأرض وقررت أن تعود لاحتساء الشراب مرة أخرى حتى تدفن في القدح عارها وشعورها بخيبة الأمل.

"آسفة، لقد ظننت... عمومًا لا يهم".

وهمت بالانصراف.

"انتظري، يمكنك أن تفعلي شيئًا آخر من أجلي".

ابتسم جيمس الكبير فظهرت أسنانه حادة كالسكاكين، ومسح بيده على بطنه المكتظة باللحم من فوق السترة المصنوعة من الفرو.

بقيت رائحة الشحوم وزيوت المحركات عالقة بها لفترة طويلة، كان قضيبه أغمق في اللون من باقي أجزاء جسده، الأمر كان صعبًا ولكنه انتهى سريعًا كما كانت تأمل، عضوه الذكري يشبه أرجل الدواجن، ربما من فرط الاستخدام، ولم يكن عسليًّا مثل باقي أجزاء جسده.

بمجرد أن انتهى في منزل كولين مما يفعل، قام بسرعة وأغلق سحابة سرواله ورفع أغنيس عن الأرض، وظهر عليه الندم كزبون غاضب اضطر

إلى شراء سلعة ولكنه لا يريدها، ولا يستطيع إعادتها إلى المتجر.

قال جيمس في تذمر وهو يشعر بالتوتر ويدفعها لخارج المنزل.

"سوف أصطحبه للصيد يوم الأحد".

سيصطحب شوجي إلى قناة مسدودة ومليئة بالنفايات، لم يحب شوجي الفكرة في البداية وحاول أن يتملص ولكنها صاحت في وجهه.

سمعها شوجي في المساء تجلس في الماء البارد بداخل الحمام محاولة أن تخرج آثار الزيت والشحم عن جسدها وتبكي وهي ترثي نفسها، كان بكاؤها مختلفًا هذه المرة، يختلف عن بكاء السكارى الذي كان يسمعه في السابق.

قرر الاهتمام برحلة الصيد حتى يجعلها سعيدة مرة أخرى، لذلك بدأ التخطيط لليوم وجهز كل شيء، حقيبة المدرسة الصغيرة، والأشياء التي سيضعها في كل جيب، شطائر الجبن، قطع الطماطم، الصافرة، زوجًا بلاستيكيًّا من النظارات الشمسية، وعندما جهز كل شيء في مكانه، جلس ككلب حزين مريض على حافة الفراش.

في صباح يوم الأحد بعد تناول وجبة الإفطار، بدأت الحياة تدب في المنزل في الجانب المقابل من الطريق، ظهر أبناء ماكافيني مستخدمين أطرافهم الطويلة في تحميل الشاحنة الخاصة بوالدهم بمستلزمات الرحلة، حمل فرانسيس دلوًا كبيرًا ممتلئًا بالديدان ووضعه على جانب الشاحنة، اتجهت أغنيس بعد أن سمعت الضجيج إلى غرفة نوم ابنها وقالت:

"انظر لقد أخبرتك".

نظرت بوجه مليء بالحماس إلى الصبي المتجهم.

نظر شوجي إلى الشاحنة عبر الطريق، ثم نظر إليها ولمس جبينها يمينًا ويسارًا بالتتابع كما يفعل القس في القداس وقال:

"سوف أصطاد من أجلك أكبر سمكة على الإطلاق".

قالت أغنيس وهي تضم شفتيها:

"أعلم أنك ستفعل".

سألها: "هل يجب أن أذهب الآن؟".

فكرت أغنيس للحظة ثم قالت بدافع الكبرياء:

"لا يجب أن تنتظر حتى يأتي السيد ماكافيني لاصطحابك".

ظهر جيمس الكبير عند الباب فسألها شوجي مرة أخرى:

"هل أخرج الآن؟".

كان ليك يحاول أن ينام طوال فترة الصباح، وكان يشعر بإرهاق شديد بعد أسبوع من العمل اليدوي الشاق، فصاح بغضب من تحت الغطاء:

"دعيه يذهب بحق الرب".

ضربت أغنيس براحة يدها جانب ليك وقالت:

"لا، يجب أن يأتي السيد ماكافيني لاصطحابه".

راقبت الرجل الأسمر يسير على الطريق بأقدامه الغليظة ثم يقوم بربط

أجزاء الشاحنة المفككة بقوة، ثم يعيد ترتيب بعض الحقائب في الجانب الخلفي من السيارة ويربطها بالحبال، ثم خرج من خلف الشاحنة ومضى للأمام.

كان شوجي يفرك يده بسبب بالتوتر فمدت أغنيس يدها ورفعت قلنسوة معطفه للأعلى ثم قالت:

"اسمع، كن ولدًا صالحًا وأطع السيد ماكافيني، وحاول ألا تكون عبئًا عليه، هل تفهم؟".

ثم قبلته قبلة حارة على شفتيه الرقيقة الساخنة، صاح ليك مرة أخرى من تحت الغطاء:

"أرجو ألا تغرق أيها اللعين فهي لن تستطيع تجاوز ذلك".

سمعوا محرك الشاحنة القديم يدور على حين غرة، فتفاجأ كلاهما بحركة الوحش الكبير بعد أن تأرجح قليلًا، قام جيمس الكبير بإدارة الشاحنة وقيادتها على الطريق، ولكنه انطلق في الاتجاه الخاطئ، تحرك ناحية نهاية الطريق وليس في اتجاه الخروج، كانت نهاية الطريق مسدودة بمستنقعات مليئة بأعشاب تشبه القصب.

تعثرت الشاحنة حتى وصلت لنهاية الطريق، ولم يكن أمامها خيار سوى أن تكمل للنهاية حتى تستطيع أن تدور وترجع في المسار الصحيح.

عضت أغنيس على شفتيها وهي تقول: "أعتقد أنه يحاول أن يدير الشاحنة".

حاولت أن تصدق نفسها:

"ربما من الأفضل أن ننتظر عند الباب".

أومأ الصبي برأسه موافقًا، واتجها إلى باب المنزل الأمامي ووجوههما محمرة، ثم أمسكا أيديهما ببعضها وكأنهما يستعدان بالخروج إلى المسرح.

استدارت الشاحنة الخضراء بصوت عالٍ عندما خرجت أغنيس وشوجي الذي كان يحمل في يده شطيرة محشوة بالطماطم الرطبة.

قالت أغنيس:

"حسنًا، جفف وجهك، والتزم بالتعليمات التي أخبرتك إياها".

مرت الشاحنة بجوارهما ولم تهدئ من سرعتها ولم ينظر إليهما جيمس الكبير ولا حتى من باب السخرية والاستخفاف، وعلا الغبار والأتربة وغطى على وجهي أغنيس وشوجي والشاحنة تمر في طريقها مسرعة.

عندما هدأ الغبار والأتربة التي أثارتها الشاحنة سمعت أغنيس صوت انزلاق معدني من الجانب الآخر من الشارع، كانت كولين ترفع نافذتها الأمامية وتنظر إليها في شك.

"لماذا يقف كلاكما هكذا؟ مرتدين كل هذا الفراء؟".

لم تستطع أغنيس سوى أن تتبسط متظاهرة أن الشاحنة التي فاتتها لم تكن هي الشاحنة التي كانت تقف في انتظارها.

جلس شوجي في الجزء الخلفي من المنزل بهدوء ينفض الغبار عن نفسه، ولكنه لم يكن يبكي كما توقعت أغنيس، أخرجت العملات اللامعة من عداد الكهرباء وذهبت إلى محل دولان واشترت بعضًا من الشكولاتة وقطعًا صغيرة من السمك الفيليه، وعندما أعطته السمك والشكولاتة لم يضحك كما كانت تأمل أن يفعل، هز كتفيه ببعض الحزن وقال:

"لم أكن أريد الذهاب على كل حال".

سالت دموع الإحباط على خديها واعتذرت له، فسألها:

"لماذا تعتذرين؟".

"آسفة لأنك لا تملك والدًا".

بالإكراه خرج ليك إلى الفناء الخلفي يلعب بالكرة مع شوجي، وأغنيس تراقبهما من النافذة، لم يكن أي منهم يرغب في أن يفعل هذا كما كان واضحًا، وجدت أغنيس بعض عبوات البيرة مخبأة بجوار بالوعة الصرف. أخذت تفكر في النداء الشيطاني الذي يتصاعد داخلها، ربما لو وصلت لحالة من السكر الشديد ستفعل أمرًا مجنونًا، وتجد نفسها تقتل شخصًا ما في منتصف الطريق، قبل نهاية اليوم جلست على حافة الأريكة النظيفة واستجمعت شجاعتها وفتحت عبوة الشراب.

أفرغت كولين صندوق القمامة على جانب الطريق ووقفت بجوار إحدى سيدات الحي التي تعيش في المنزل على اليسار وتبادلن الثرثرة، كانت تتحسس صليبها بطريقة تشبه المراهقات، تستطيع أغنيس أن تشعر

بأن كولين تشعر بالرضا عن نفسها وهي تحدث ربة المنزل عن سيارة زوجها ورحلته الصباحية.

ثم خرجت بريدي دونيلي لنشر تنانيرها القصيرة وملابسها الداخلية وسراويلها القطنية الضيقة، شعرت أغنيس ببعض التحسن بالنظر إلى ملابسها القذرة.

وضعت أغنيس استراتيجية لتتمكن من مواصلة شرب البيرة حتى يعود جيمس الكبير إلى المنزل ويعبر بوابته المهترئة، لتضمن أن يراها وهي تخبر كولين بما فعله معها سابقًا، لم تكن تريد أن ترتفع نسبة الكحول في دمها بسرعة حتى لا يتباطأ ذهنها وتفقد الوعي.

بينما بدأ الشراب يسري في جسم أغنيس لاحظت امرأة غريبة تجوب بين المنازل باحثة عن عنوان مكتوب في ورقة تمسكها في يدها، كان يمكنها أن تعرف أنها امرأة غريبة عن المنجم لأنها ذات شعر مرتب ومصفف بعناية، لم تكن إحدى بنات العمومة الكاثوليك. ترتدي حذاء أحمر لامعًا يتماشى مع حقيبتها الجلدية الحمراء، شعرت من نظرات كولين أنها لا تعرفها أيضًا.

اقتربت المرأة من كولين التي تقف مع جارتها وقالت شيئًا ما، أومأت كولين برأسها، وأمسكت قدح القهوة واتجهت إلى داخل المنزل والمرأة تتبعها، وبدأت النساء ينثرن الحديث مرة أخرى كالغربان.

ظنت أغنيس أن المرأة من الإخصائيين الاجتماعين الذين يأتون إلى بيتهيد للإيقاع بالذين يحصلون على إعانات اجتماعية غير مستحقة أو يدعون الإعاقة، وتمنت لو أنها طلبت تلك المرأة بنفسها للإيقاع بكولين، ولكنها لم تمكث بالداخل فترة طويلة تفي بذلك الغرض، فسرعان ما

خرجت المرأة من المنزل، وهي تضع الحقيبة الحمراء تحت ذراعها.

شاهدتها أغنيس وهي تخرج وتغلق الباب المكسور خلفها في أدب، وأخرجت نظارة شمسية من حقيبتها ووضعتها فوق رأسها لترفع شعرها، ضحكت أغنيس وهي تعلم أن كولين سوف تشعر بالغضب بسبب أناقة المرأة ونظارتها الشمسية، وراقبتها وهي تمشي في الشارع في طريقها مبتعدة عن الأنظار ورأسها مرفوع للأعلى.

انتظرت أغنيس خروج كولين ولكنها لم تخرج من المنزل، ثم شاهدت بناتها الثلاث يعُدن إلى المنزل كأشباح جائعة وشعورهن الذهبية متشابكة أمام وجوههن كحجاب يخفي ملامحهن وفساتينهن الصيفية الطويلة التي كانت في الماضي أنيقة ذات لون أرزق وبهت بفعل الزمن.

أغفت أغنيس عينها لدقيقة واحدة، وعندما فتحتها كانت شاحنة جيمس الكبير تقف أمام المنزل وأنوار المنزل مضاءة رغم أن ضوء النهار لم يكن قد غاب بعد، وشاهدت من خلال الأضواء خيالات لأشخاص يجوبون المنزل بسرعة من غرفة لأخرى وصوت جلبة واضحة، فتحت أغنيس علبة أخرى من البيرة وابتلعتها بسرعة، ثم اتجهت إلى غرفة النوم لتغير ملابسها وتختار ملابس أكثر فخامة، ارتدت المعطف الفرو والسترة ذات الأكمام اللامعة التي تكرهها كولين، وارتدت تنورة من شأنها أن تدع لها الفرصة للرفس إن اضطرت لذلك.

استغرقت بعض الوقت للبحث في علبة مجوهراتها عن أكبر خواتمها حجمًا الذي كان يشبه في الحجم خاتم البابا، الفص الزجاجي في حالة سيئة، أحضرت زوجًا من مناشف المطبخ ومزقت أحد سراويلها الداخلية الضيقة لتستخدمه في تنظيفه.

نظرت أغنيس إلى يديها المرصعتين بالمجوهرات وملابسها الأنيقة، وعبوة البيرة الفارغة التي ألقتها بالكامل في معدتها الفارغة، وأدركت أنها تسلحت بأقوى أسلحتها وأن الوقت قد حان.

تعثرت أغنيس في طريقها للخارج، واتكأت على السور المكسور ثم أخذت نفسًا عميقًا وشعرت بالقليل من الدوخة والإحباط قبل أن يبدأ الصراخ.

فتح باب منزل عائلة ماكافيني وبدأ الأطفال في الخروج إلى الحي السكني، وظهر صوت كولين من الداخل عاليًا وسرى بين المنازل المنخفضة.

"جيمس فرانسيس ماكافيني، أنت لست أفضل من كلب أجرب ينبح في الضوء".

تسمرت أغنيس في منتصف الطريق الفارغ، وتوقف الأطفال عن اللعب، فتحت النساء نوافذهن قليلًا لمشاهدة ما يحدث، وانخفضت أصوات التلفاز وفتحت الستائر.

سمعت أغنيس صوت كولين يصيح من الداخل:

"ماذا فعلت أيها الحقير؟ هل تظن نفسك رجلًا ضخمًا؟ هل تظن أن بإمكانك أن تضربني أنتظر حتى يحضر إخوتي إلى هنا فتعرف حجمك الحقيقي، كان يجب أن أستمع إلى أمي أيها الفاسق المشوه".

سمعت أغنيس صوت رجل حادًّا من الداخل ولكنها لم تتبين ما يقوله، فتخيلت أنه أمسك كولين من رقبتها ويقوم بخنقها، ولكن صوت كولين ارتفع مرة أخرى:

"لن أبقي صوتي منخفضًا، فأنت لم تحافظ على عهودك ولن يسامحك

الرب أبدًا".

ثم صمتت وتذبذب صوتها وهي تقول:

"إلى أين تعتقد أنك ذاهب الآن؟ هل ستذهب إليها؟".

خرج بيج جيمس من المنزل وعلى وجهه آثار مخالب وجروح جديدة، وياقة قميصه مرفوعة كما لو أن كولين كانت متعلقة بها، وفي يده كيس أسود يحتوي على بعض الملابس ثم صعد إلى شاحنته وأعاد تشغيلها.

لا يمكن للعين أن تخطئ مشهد أغنيس وهي تسير في منتصف الطريق إلى منزلها مترنحة ولكن تشعر بالزهو والانتصار رافعه قبضتها إلى الأعلى.

نظر إليها بيج جيمس من نافذة الشاحنة وأشار إليها وهو يصيح كرجل تائه يسأل عن الاتجاهات:

"ماذا تريدين مني أيتها العاهرة؟".

نعتها بالعاهرة وكأنه اسمها وانصرف مسرعًا، قالت:

"لم العجلة؟ انتظر قليلًا حتى تهدأ وتلتقط ما تبقى من الفضلات، لقد انتهيت بسرعة ولم تستمتع بما حدث".

سمعها جيمس ولكنه انطلق بالشاحنة مسرعًا، وعندما وصل لنهاية الطريق التف عائدًا بالشاحنة، كانت كولين قد وصلت لباب المنزل وهي تصرخ:

"جيمس، جيمس".

تعثرت أغنيس في مشيتها تحت تأثير الشراب وكاد جيمس أن يصطدم بها بإطارات الشاحنة الخلفية متعمدًا وارتفعت سحابة من الغبار والدخان غطت الطريق كما يحدث في كل مرة.

سقطت أغنيس على الرصيف المقابل، ولكن كولين لم تشعر بالسعادة لرؤيتها، كان على وجهها النحيل علامات لثورة الحياة وصمت الموت. في الوقت نفسه بسبب الغبار الذي أثارته الشاحنة سقطت كولين في حفرة وتمددت في الأسفل والتراب يعلو رأسها وأرجلها التي التوت بشكل حاد.

كانت غير متأكدة، تنظر حولها في كل اتجاه وهي لا تعرف إن كانت تتأنق للخروج في حذاء جديد أم أنها نجت من حادث سيارة.

العديد من الستائر كانت تتحرك في المنازل المجاورة للتلصص على ما يحدث دون أن يتدخل أحد للمساعدة ولا حتى أبناء العمومة ولا نساء المنجم الآخريات.

خلف النافذة وقف أربعة من أطفال كولين ينظرون بوجوههم الجميلة الحزينة مرتبين حسب أطوالهم كدمى روسية صغيرة. ربما تنوي كولين في يوم ما إعطاءهم حمامًا ساخنًا وطويلًا لتخرجهم من هذا الحزن.

من أسفل الحفرة صدرت أصوات تشبه صوت تمزق شعر بواسطة فرشاة قديمة أو صوت مشمع بالٍ وقديم يقطع إلى أجزاء صغيرة.

أقتربت أغنيس من المرأة التي سقطت، وبطنها الممتلئ بالبيرة، الغبار المتصاعد وتشابك أطرافها الملتوية جعل من الصعب عليها فهم ما تراه،

ظنت أغنيس في البداية أن قميص كرة القدم الذي ترتديه كولين تمزق إلى أشلاء، ولكنها عندما اقتربت بشكل أكبر رأت المرأة تمزق كتلًا متشابكة من شعرها وتقول:

"ارقدي بسلام، ارقدي بسلام، بعد أن تخرجي من البرية".

احتضنت أغنيس المرأة التي سقطت وقبل أن تدرك ما يحدث وجدت نفسها قابعة في الغبار تحاول أن تهدئ من روعها، ولفت نفسها بإحكام حول جسد كولين.

سألتها بصوت لطيف حتى إن أغنيس نفسها شعرت بالحيرة بسبب رغبتها في مساعدة كولين:

"لماذا تفعلين كل هذا؟".

تراجعت كولين للخلف فباعدت أغنيس بين ذراعيها حتى تستطيع أن تحتويها في حضنها، فتحت أغنيس قبضة كولين وأخرجت ما بها من شعر ممزق وبدأت في سحب خيوط الشعر السميكة من بين أصابعها كأنها تنظف مشطًا قديمًا

نظرت كولين إليها بأعين جوفاء مليئة بالتراب لمدة طويلة قبل أن تبدأ في الحديث:

"كان يجب أن أتركه لحاله، بدلًا من أن أهاجمه في هذا الوقت العصيب بالنسبة له، كل ما أخبرته إياه أننا لسنا في حاجة للمزيد من الأفواه لنطعمها".

كانت يد كولين ترتجف:

"منذ أن توقف عن العمل في المنجم، وهو يتصرف كمراهق يغلي ولم يكن ذا نفع بالنسبة لي".

كانت أغنيس تحدق في البقع الصلعاء على رأس كولين وآثار الدم والغبار المنتشرة.

"خمسة أطفال هو عدد كافٍ بالنسبة لأي امرأة".

انتحبت كولين:

"كان يرغب في مئة طفل ولأني لم أرغب في ذلك بدأ في مضاجعة النساء، اللعنة عليك يا ماكفيني، توقفت عن ممارسة الجنس معه كنوع من العقاب".

بدأت كولين في البكاء مرة أخرى، خرجت الدموع في زخات كثيفة وطويلة وكأن عينيها تسرب الماء، الذي غمر أنفها العظمي النحيل وذقنها المدبب.

أدارت كولين بصرها ونظرت إلى أغنيس كأنها تراها للمرة الأولى:

"حدث كل هذا، لأنه قام بخيانتي".

شعرت أغنيس بالحيرة أنها لم تخبر أحدًا بشأن ما حدث، وهي لا تريد أن تنتظر حتى تتحسن حالة كولين وتخبرها حتى لا يبقى الأمر جاثمًا فوق صدرها إلى الأبد، إنها لا تريد أن تكون مدينة لكولين بأي شيء. شعرت أنهما متعادلتان وأنه لا بأس من إخبار المرأة النحيلة بالأخبار السيئة على كل حال، عضت شفتيها حتى تتوقف عن الابتسام.

كانت سيدات المنجم يخرجن في الشارع الآن، أبناء العمومة والأقارب والجيران يدورون حول كولين ولا يعرفون كيفية التصرف، كما لو أن كولين قد تحولت إلى حيوان متوحش يخشون الاقتراب منه.

"جاءت إليّ مباشرة ترتدي نظارة شمس كبيرة فاخرة بدرجتين من اللون البني، قالت إن اسمها إيلين وإنها ترغب في أن تتحدث معي على انفراد، اعتقدت أنها مندوبة للكتالوج، وأنها ترغب في أن تبيع بعض الهراء للأطفال في عيد الميلاد".

أطلقت كولين تأوهًا عميقًا ومدت أصابعها وسحبت قماش تنورتها للأسفل فانقطع القماش الرقيق التحتي لنصفين من بدايته حتى وصل القطع إلى سرتها، مالت برأسها للوراء مرة أخرى.

"من أجل الرب" جذبت أغنيس القماش المقطوع حتى تغطي جسم كولين، كانت كولين لا ترتدي ملابس داخليه، ومهبلها ذا شعر مجعد يمتد على بطنها الناعم حتى سرتها، حاولت أغنيس أن تسحبها إلى المنزل وقالت:

"علينا أن نوصلك إلى المنزل، يجب أن نصعد إلى الأعلى".

حاولت أن تسحب كولين للأعلى، ولكنها ترنحت بفعل الشراب فسقطا معًا في الطين وجرحت إحدى ركبتي أغنيس.

حاولت أغنيس أن ترفعها مرة أخرى ولكن المرأة لم تكن سوى كتلة من العظام الرخوة والعضلات الضعيفة فسقطت مجددًا في الأوساخ مثل طفل شقي.

وقفت أغنيس فوق رأسها تتعرق وتبصق وهي تقول:

"لا يمكنك أن ترقدي هنا بهذا الشكل".

بعيون مغلقة مسحت كولين فوق الطين كأنها تمسح فوق سجادة فاخرة، وخرجت الكلمات من فمها بطيئة وثقيلة.

"لا شأن لك بذلك، دعي جيمس ماكفيني يعرف أن زوجته ماتت على جانب الطريق، ومهبلها العجوز مكشوف للجميع".

ضحك بعض الأطفال الذين يشاهدون المشهد من فوق درجاتهم.

فهزت أغنيس كولين بقوة، ثم كررت الأمر مرة أخرى عندما شعرت أنها استمتعت بذلك.

"سيدتي تحلي ببعض الكرامة".

فتحت كولين عينيها على مصراعيها ثم أغلقتها وسكتت أنفاسها، صرخت أغنيس:

"سيدتي، ما الذي جرى لك؟".

ولكن كومة العظام الرخوة لم تجب.

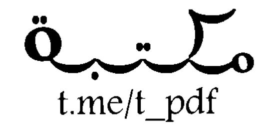
صرخت النساء على جوانب الحفرة كالغربان التي تنعق، انتشر الخبر سريعًا، جاء أقارب كولين يسعون للانتقام واحتشد أخوات جيمس للدفاع عنه.

كانت والدة جيمس ذات الثمانين عامًا تبصق وتصرخ وتلوح بممسحة قديمة وكأنها تلوح بمنجل.

لم تعرف أغنيس ماذا عليها أن تفعل فخلعت سروالها التحتي الضيق وسحبته بصعوبة من أسفل تنورتها، وكافحت لكي تلبسه لكولين. كان الأمر صعبًا، كأنها تحشر ملابس دمية في جسم لإنسان بالحجم الطبيعي،

كان جسدها ثقيلًا ومتيبسًا والدم لا يجرى في أطرافه.

بحلول الوقت الذي وصلت فيه سيارة الإسعاف كانت كولين لا تتحدث على الإطلاق، وأغنيس غارقة في التراب بجوارها، تنظر إلى سروالها التحتي الأبيض المزركش الذي أصبح يشبه الحفاضات عندما علقته على جسد المرأة وتقول لنفسها، هذا أفضل بكثير مما تستحق كولين.



15

ذكرها بلون أغلفة النقانق إلا أنه كان أقل تركيزًا في درجة اللون وأكثر انتشارًا في كل مكان، وكان ساخنًا.

كان على ليزي استخدام كلتا يديها حتى تمسك يدًا واحدة من يدي ويلي وتتمكن من وضع رأسها على صدره، استطاعت أن تلاحظ عروق يده النافرة، تلك اليد التي حملت شاحنات الحبوب لمدة عشرين عامًا، تلك اليد التي هتفت في مدرجات كرة القدم، وقتلت الإيطاليين في شمال إفريقيا، يعاني ويلي الآن من صعوبة في التنفس، يخرج الهواء من رئتيه متقطعًا كأنه فوق شوك حديدي صلب يقطع الهواء لأجزاء قبل أن يسمح له بالخروج.

مسحت ليزي على وجهه بمنديل تحتفظ به في أكمامها، كان فمه مفتوحًا بشكل دائم وحوافه جافة ومشققة، ترغب في تقبيله مرة أخرى، حتى تحتفظ بذكرى للرجل الرائع الذي كان عليه في السابق، حولهم في الأسرة المجاورة ينام رجال مسنون نومًا غير هادئ بعد أن أعطتهم الممرضة جرعة المورفين.

فكت ليزي أزار معطفها وأزاحت الوشاح عن شعرها، ثم رفعت يد ويلي ورتبت الملاءات أسفله، فكرت أن تجلس بجانبه على الفراش، ولكنها بدلًا من ذلك رقدت بجواره، ولم تبكِ، لم يكن غيرها سيلاحظ أن جبينه انفرج وعلت على جوانب فمه المتشقق ابتسامة خفيفة.

تحركت بلطف وحركت يدها على جسده جيئة وذهابًا، لم تكن ترغب في القيام بشيء قذر كما قد يظن البعض، لقد أرادت أن تشعر بدفء الحياة في جسده، رفعت يده ووضعتها بداخل معطفها حتى وصلت لملابسها الداخلية، لم تكن تريد إلا أن تشعر بدفء بيجامته القطنية فوق النسيج الناعم لسروالها الداخلي، كانت تريد أن تضخ الدم في جسده حتى يشعر ببعض الراحة وينسى الألم لبعض الوقت، أليست مدينة له بهذا؟

أشعلت ليزي سيجارة جديدة وهي تجلس متأرجحة ومباعدة بين ساقيها فوق حجر ويلي ونفخت الدخان في وجهه، يمكنها أن تتصور كم يفتقد هذه الممارسات، جاء صوت من خلفها قائلًا:

"هل أنت بخير سيدة كامبل؟".

وأمسكتها يد من مرفقها بلطف ولكن بحزم وقال الصوت:

"لا عليك يا عزيزتي، لا عليك".

لم يتحرك ويلي من مكانه بينما ساعدت يد الممرضة ليزي في النزول، كان على بيجامة ويلي آثار من التجاعيد التي تركتها ليزي وهي تتحرك فوقه ولكن لم يكن هناك شيء قد تغير تحت البيجامة، دون شكوك أو إطلاق أحكام سحبت الممرضة طرف تنورة ليزي للأسفل حتى تغطي ركبتها، فأدركت ليزي ما يحدث وبدأت في تهذيب ملابسها، ثم جلست على المقعد تشرب كوبًا من الماء البارد، أحست بأثره على الفور على شفتيها، بينما الممرضة تهدئها بصوت دافئ وكأنها تتحدث إلى قطة.

فشعرت ليزي بأنها ترغب في إخبارها أسرارها الخفية، أمسكت ليزي يد الممرضة، ونظرت في عينيها وقالت:

"أرجوك يا إلهي، لا تأخذه مني، لا تبعده عني مرة أخرى".

تسير أغنيس في طرقات المستشفى، وجهها مليء بالمساحيق بشكل مبالغ فيه، ظن شوجي أنها نسيت أن تزيل الطبقات القديمة من مستحضرات التجميل قبل أن تضيف طبقات جديدة. يتبعها الصبي من على مسافة قريبة ويجمع الأشياء التي تسقط من جيب معطفها المصنوع من فرو المنك دون أن تشعر.

بينما كانت أغنيس تمر من خلال الباب المنزلق هرعت إليه إحدى الممرضات وهي تظن أنها في حاجة للمساعدة، شاهد شوجي الممرضة تحاصر أمه وتحاول أن تضعها على كرسي متحرك رث، تخلصت أغنيس منها وتحركت في اتجاه جناح مرضى الأورام، سمع شوجي الممرضة تقول لأحد العمال إنها تظن بأن أغنيس فتاة عاملة.

رد شوجي بفخر:

"إنها ليست كذلك، والدتي لم تعمل أبدًا طوال حياتها، هي أجمل من أن تضطر إلى العمل".

أعطاها معطفها من فرو المنك وحذاؤها الأسود ذو الكعب العالي المهترئ بعض التفوق على من حولها.

دق كعبها العالي على الممر الرخامي الطويل بإيقاع غير متناغم، كان الجانب الأيمن من الحذاء مهترئًا، صبغته بالقلم الأسود الذي تستخدمه في لعبة البنغو، كان الجزء المعدني المكشوف في كعب الحذاء يصدر صريرًا قويًّا عند الاحتكاك بالأرضية مجسدًا هذه الأوقات الصعبة.

نظرت وجوه المرضى الهزيلة إليها وهي تشق طريقها، خرجت ممرضة

كبيرة في السن ذات وجه مبتسم من داخل حجرة صغيرة عند المدخل، وتحركت في اتجاه أغنيس مباشرة وقفت أمامها كأنها تعترض طريقها وهي تسأل:

"معذرة، هل ترغبين بالمساعدة؟".

كانت تحمل حافظة بلاستيكية تضمها إلى صدرها كنوع من الدروع.

ثم أشارت إلى شارة صغيرة فوق زيها الرسمي الأزرق وقالت بابتسامة متُعبة:

"أنا الأخت ميغان".

كانت المرضة تبدو لطيفة بالنسبة للممرضات التي عملت معهن ليزي قبل سنوات ماضية، ممرضات جلاسكو كبيرات الحجم، يمكنهن حمل الرجال في مساء السبت وسحب زجاجات الخمر المكسورة من ضلوعهم، ولهن وجوه جرانيتية باردة وقاسية بسبب كمية المشاهد العنيفة اللانهائية التي يتعرضن لها.

من الواضح أن الأخت ميغان لم تتعرض لكل ذلك.

نظرت أغنيس إلى المرضة الرصينة وإلى الشارة المعلقة فوق صدرها بحروف ممسوحة، وقالت محاولة أن تستخدم صوتًا لطيفًا على قدر استطاعتها:

"أشكرك، أنا أعرف طريقي جيدًا".

حاولت المرضة ميغان أن تحافظ على ابتسامتها التي تدربت عليها جيدًا:

"حسنًا، لقد تجاوزت الساعة التاسعة، وانتهى ميعاد الزيارة".

نظرت أغنيس في عيني الممرضة المنضبطة، كانت نهاية أنفها محمرة كثمرة صغيرة من الفراولة، أظهرت أغنيس نظرة حزينة وسمحت للممرضة أن تبدي التعاطف معها، ثم أمسكتها برفق من ذراعها وقالت بصوت رقيق:

"أنا هنا لرؤية أبي".

تفوح من أنفاس أغنيس رائحة الحمض والخميرة وهي تتحدث، سألتها الممرضة وهي تتصرف كممرضات جلاسكو المحترفات: "من هو أبوك؟".

"ويلي. ويليام كامبل".

نظرت الممرضة إلى أوراقها بداخل الحافظة الخضراء للتأكد من وجود الاسم ثم قالت:

"يا إلهي، انظري".

اختفت التعبيرات الرسمية المحترفة من فوق وجهها وحل محلها، مجموعة مختلفة من التعبيرات المتباينة. ثم أمسكت الحافظة وضمتها إلى صدرها، وأمسكت أغنيس باليد الأخرى فنظرت لها أغنيس وهي مندهشة، قالت الممرضة وقد تخلت عن كل قواعد التدريب والرسمية:

"آه يا دجاجتي أنا آسفة على حالة والدك، إنه واحد من المرضى المفضلين لدينا، ذلك الوغد العجوز الوسيم".

ثم اقتربت الممرضة من أغنيس وتكلمت بلهجة توحي بالتآمر وقالت:

"إنني قلقة على والدتك، لقد رأيتها بالأمس وهي جالسة فوقه على

الفراش، بعد أن أغلقت الستائر حول الفراش حتى تمنح نفسها بعض الخصوصية، كانت تحاول أن تمارس الجنس معه بلا فائدة".

شعر شوجي أن المرضة سيدة طيبة، ولكن أغنيس لم تشعر بذلك.

وربما لو لم تضع المرضة يدها على ذراعها وتتكلم بذلك الصوت المريب لما ضحكت عليها، ربما لو لم تنظر إليها تلك النظرة المثيرة للشفقة لما ضحكت أيضًا، لكن أغنيس لم تكن في حالة مزاجية تسمح بالتسامح لذلك ضحكت، كان الضحك في البداية مثل سعال خجول ثم أصبح ضحكًا عاليًا ومتعجرفًا. مالت برأسها للأمام وهي تمسك بيد المرضة، وقالت بنبرة تحمل حكمًا قاسيًا:

"هل شعرت بالغيرة؟".

فتحت المرضة فمها لآخره وقالت بصوت يبدو أنه خارج من أنفها الذي يشبه حبة الفراولة:

"يا إلهي العزيز، هل يجب عليّ أن أذكرك أنه مستشفى".

شدت أغنيس قبضتها على ذراع المرضة وما زالت أعينها تلمع من آثار الضحك، وقالت:

"بحق السماء، بعد أن أمضيا معًا سبعة وأربعين عامًا، يحق لتلك المرأة المسكينة أن تبدي بعض الحزن".

ثم مدت ذراعها المغطاة بفرو المنك وأزاحت المرضة العريضة من طريقها بسهولة كما تزيح ستارة من أمام النافذة، ومضت في طريقها إلى عنبر الأورام وحذاؤها المكسور يحدث صوتًا مخجلًا فوق أرضية المستشفى، ثم أضافت:

"كما أن أبي رجل حسن المظهر".

شاهد شوجي أمه وهو يقف في الظل وهي تشق طريقها عبر الباب المنزلق والممرضة تقف في ذهول محدقة في الآثار التي تركها الكعب العالي فوق الأرضية.

تبعها في صمت، كان على يقين من أن الممرضة لا تصدق محاولة الزوجة العجوز ممارسة الجنس مع زوجها المحتضر، ودفاع الابنة السكيرة عن ذلك.

قفز شوجي ووقف بجانب الممرضة وأمسك ذراعها اللحمية السميكة وهو يقول بصوت كأنه صادر من مسجل آلي:

"أعتذر لك، لو عرفتها حق المعرفة لأدركت أنها إنسانة طيبة".

ثم سأل في براءة:

"حسنًا، هل هذا هو المكان الذي يقصده الناس قبل الذهاب إلى الجنة؟".

أمسكت الممرضة قلبها من الخفقان، ونظرت إلى الصبي الصغير الذي يقف أمامها كرجل عجوز واضعًا ذراعيه خلف ظهره ومرتديًا بذلة كاملة كأنه مدير المستشفى، مدت يدها لتتحسس وجهه وكأنها تحاول أن تتأكد أنه حقيقي.

"آه، يا بني لو كنت تستطيع التسلل بهذه الخفة، يجب أن يخاف منك الجميع".

قال شوجي: " أنا أسير بهدوء ولا أتسلل".

وضم شفتيه بغضب وهو يعدل من وضع ربطة عنقه:

"هل يمكنك أن تجيبي عن سؤالي؟ من فضلك".

تمتمت الممرضة:

"الجنة، نعم يحدث هذا في بعض الأحيان".

أضاف شوجي وهو يمضغ شفتيه:

"وهل يمكنهم الذهاب إلى الجحيم من هنا كذلك؟".

فكرت أن تخبره أن هذا يحدث في أغلب الأحيان، وأن البشر كثيرو الأخطاء، ولكنها نظرت للصبي مرة أخرى، ولما وجدت عمره لا يزيد على ثمانية أو تسعة أعوام كذبت عليه:

"لا يا بني، ليس كثيرًا".

مد أصابعه في فضول يتأمل السلسلة المعدنية المعلقة في ملابسها وقال:

"وهل يتجهون إلى الجنة في الحافلة؟".

ظهرت ابتسامة خفيفة على شفتيها ومدت يدها بتلقائية لتربت على رأسه فانحنى بطريقة دفاعية وقال:

"من فضلك لا تفعلي ذلك، فقد انتهيت للتو من تصفيف شعري".

ثم اقترب منها وأكمل فحص السلسلة المعدنية المدلاة من ملابسها، شعرت الممرضة ميغان بالإحراج وهي تقول:

"أنت ولد صغير ومرتب".

رد شوجي: "تقول أمي دائمًا إن الاهتمام بالمظهر الخارجي لا يكلف المرء شيئًا".

ألقت الممرضة نظرة طويلة إلى الردهة وقالت:

"هل هي أمك؟".

أومأ شوجي برأسه وهو مستمر باللعب في السلسلة:

"نعم، هي طيبة وأنا أحبها، ولكن لا أحد غيري يحبها وخصوصًا عندما تخرج تشرب من العبوات التي تخفيها أسفل حوض المطبخ، لا يحبها أبي ولا كاثرين ولا ليك، ليك لا يحب أحدًا على الإطلاق، ماما تقول إنه مصاب بالشلل الاجتماعي".

اغلقت المرضة ميغان عينيها الرمادية الصافية، وبدأت تتخيل طريق الذنوب الذي أوقع أغنيس في هذه السلسلة من المتاعب، ثم سألته:

"هل تفعل ذلك، كثيرًا؟".

ترك شوجي السلسلة ونظر إليها وقطب حواجبه وقال:

"أستطيع أن أدبر كل الأمور بالنيابة عنها، أستطيع مراعاتها ووضعها في الفراش عندما يحين موعد النوم، كما أنك أيتها الأخت المرضة لم تجيبي عن سؤالي حتى الآن، لقد أخبرتني والدتي أن جدي في طريقه إلى الجنة مرورًا من هنا، وأريد أن أعرف إن كان سيستقل الحافلة أم أننا من الممكن أن نصطحبه في سيارة أجرة سوداء".

قالت المرضة وهي ترفع يدها لتمسك حلقها:

"يا بني الأمور لا تسير على هذا النحو، إنهم لا يستقلون الحافلة، ربما تكون السيارة السوداء الكبيرة اختيارًا مناسبًا بشكل أكبر".

وبدأت تتحسس بأصابعها جلد الرقبة وكأنها تمسك بقلادة وهي

تضيف :

"ولكن عندما يذهب الأشخاص إلى الجنة لا يصطحبون أجسادهم معهم".

وضع شوجي يده على عينيه وبدا صوته محتارًا وغير مصدق:

"ولا يأخذون حتى قلوبهم؟".

"لا".

"ولا أعينهم؟".

"لا أيضًا".

"ولا حتى أصابعهم؟".

"لا يا بني لا يأخذون أصابعهم ولا أيديهم ولا أرجلهم، الذي يذهب إلى الرب أرواحهم يا بني وليس أجسادهم".

بدا بعض الارتياح على شوجي لسبب ما، واستطاعت المرضة أن تميز أن أكتافه لم تعد مشدودة، دار على كعب حذائه اللامع واتبع رائحة أغنيس التي تفوح في المر، ووقف أمام باب العنبر المزدوج وقال:

"لو لم يكن جسمك يذهب إلى الجنة، إذًا لا يهم، لو فعل به أحد الأولاد شيئًا قذرًا بالقرب من صفحية القمامة، أليس كذلك؟".

ثم دفع باب العنبر الجماعي بقوة ودلف إلى الداخل.

كان الرجال نائمين على أسرة المرضى وبجوار فراش ويلي بعض المقاعد البرتقالية الخاصة بالزوار، تجلس ليزي في الركن على أحد المقاعد

بمعطف رمادي وتنورة رمادية وجواربها الضيقة تلمع تحت الضوء المتسرب من الممر.

أدارت أغنيس يدها أمام وجهها وكأنها تزيح هالة من الحزن، وتحركت داخل العنبر وكأنها تؤدي دورًا على خشبة المسرح بينما تركت حقيبتها ومعطفها ينزلقان على الأرضية في تحدٍّ واضح للأخت ميغان.

ثم ارتدت صندلًا مفتوحًا من الأمام وصعدت إلى جانب ويلي على الفراش وتمددت بجواره، نظرت ليزي إلى القلوب المطلية على أظافر قدمها، تظهر القلوب واضحة من تحت اللون البالي لجواربها السوداء. غطت أغنيس نفسها بجوار أبيها المريض وكأنها أرملته، ثم بدأت تعانقه وتبكي وكأنها عشيقته.

لم يتحرك ويلي من مكانه، نهضت ليزي وشدت تنورة أغنيس للأسفل حتى تغطي ملابسها الداخلية البيضاء المصنوعة من النايلون، فتح باب العنبر وظهر شوجي وهو يحمل متعلقات أغنيس الملقاة في كل مكان.

"سوف تفقد رأسك إن ظللت تحدق في الأسفل".

رفع الرجال المسنون رؤوسهم مرة أخرى عند دخول الفتى الصغير، ورفعت سيدة أنيقة ترتدي سترة من صوف الغنم وحذاء من جلد الغزال رأسها إليه في نظرة اعتراض، استمر الفتى في طريقه يجمع في صمت المزيد من أغراض أمه وهو يسحب المعطف المهلهل خلفه كمنشفة مبللة، ابتسمت له جدته ابتسامة مستسلمة كأنها تشاهد برنامجًا تليفزيونيًّا بلا اهتمام حقيقي، حتى انتهى من جمع الأغراض وجلس بجوارها في أحد المقاعد وأمسك بيدها الرقيقة وهما ينظران إلى أغنيس تتعثر في طريقها للهبوط عن الفراش.

كان لون الجد في الظلام يشبه لون الحليب المتخثر، وكانت بشرته صفراء مشدودة كجلد الدجاج وعظام أنفه بارزة بشدة بالشكل الذي يميز أنوف عائلة كامبل.

جلست أغنيس بجوار والدتها وأمسكت يدها، فقالت ليزي:

"انتهت ساعات الزيارة".

مالت أغنيس برأسها على كتف أمها وقالت:

"مامي، الأمر صعب بالنسبة لي، لم يكن لدي الشجاعة لأحضر".

ردت ليزي:

"أصبح لديك شجاعة كبيرة الآن".

"لقد أنهيت جميع مشاكلي في المنزل، وسوف أتعافى مجددًا وأنضم لمجموعة المساعدة في الإقلاع عن آثار الكحول سوف أصبح على ما يرام".

كانت تكذب بطريقة جوفاء.

"أنا لا أحب الجلسات الخاصة بالتعافي لمدمني الخمر، فهي تجذب أسوأ أصناف من البشر، لقد أعطاك الرب إرادة حرة يجب عليك أن تستفيدي منها".

جلس أفراد الأسرة من الأجيال الثلاثة في صمت، وأيديهم متشابكة كسلسلة، الفص الأزرق في خاتم أغنيس الرخيص كبير بحجم مرفق ليزي.

أخرجت أغنيس منديلًا من حقيبتها ومسحت دموعها ومررته إلى ليزي

التي فعلت بالمثل، ثم مررت المنديل إلى شوجي الذي بصق بداخله بعيدًا عن الجانب الذي توجد عليه آثار الماسكارا، أخرجت أغنيس عبوتين من البيرة من حقيبتها السوداء وفتحتهم مصدرة صوتًا عاليًا ناتجًا عن الرغوة الكثيرة التي اندفعت بسبب الفوران، ثم ألقت الحلقات التي تستخدم في الفتح بطريقة محترفة في قلب الحقيبة مرة أخرى.

"لا أعتقد أنني أستطيع التعامل مع هذا، سيتركني الجميع".

أخذت ليزي المنديل من شوجي وغطت به بطريقة مفضوحة الجزء المكشوف من عبوة البيرة التي تمسكها بيدها.

"أشعر أنه عاد للتو من الحرب اللعينة، الوقت مبكر جدًّا ليرحل ويتركني مرة أخرى".

شاهد شوجي المرأة التي ترتدي سترة من صوف الغنم تنظر في اشمئزاز لعبوة البيرة المفتوحة في يد ليزي، فاستدار ليخبر أمه بذلك لكنه لم يجدها في الحجرة، كانت غادرت قبل أن تسمع حرفًا واحدًا من كلام والدتها.

أخذ شوجي معطف جدته الصوفي وبدأ يقلب الأزهار المرسومة على أزرار المعطف لتنظر للأعلى في الاتجاه الصحيح واضعًا الأوراق في الأسفل والبتلات في الأعلى، حتى عادت أغنيس وانخرطت السيدتان في حديث صاخب لا تسمع فيه إحداهن الأخرى.

كان الرجل العجوز راقدًا على الفراش يلتقط أنفاسه بصعوبة بينما يصدر الهواء الخارج من رئتيه صفيرًا مزعجًا.

صاحت أغنيس بغضب شديد لدرجة أن أسنانها اصطكت كأطباق خزفية اصطدمت معًا وأصدرت صوتًا مزعجًا:

"ما كان يجب أن أرحل بصحبه شوج السافل اللقيط".

أشعلت سيجارة وأعطت لوالدتها سيجارة أخرى وهي تضيف:

"سوف أخبر أبي بذلك حين يستيقظ".

كان الحديث عن ويلي يجعل ليزي في غاية التركيز، فسحبت نفسًا عميقًا من السيجارة وأطلقته في وجهه النائم وهي تقول:

"أبوك لن تتحسن صحته على الإطلاق".

اتجهت أغنيس إلى فراش أبيها:

"لا، أبي سيصبح هادرًا مثل المطر خلال بضعة أيام".

"أغنيس، الأطباء يقولون إنه لن يعود إلى المنزل مرة أخرى".

أخذت أغنيس رشفة من البيرة، فرأى شوجي طبقات الماسكارا السوداء تذوب وتنهمر على خدها بفعل الدموع

قالت أغنيس:

"لماذا يجب علينا أن نستسلم لكل أمور الحياة؟".

ردت ليزي: "أصبحت خبيرة بأمور الحياة الآن".

وظلت الاثنتان صامتتين لفترة طويلة.

أصبح الوقت متأخرًا فرحلت المرأة التي ترتدي سترة من صوف الغنم، وبعد فترة قصيرة دخلت الأخت ميغان وأعطتهم أقداحًا فارغة لصب البيرة بداخلها وأخذت العبوات الفارغة ولم تقل شيئًا.

أدركت أغنيس حينها أن النهاية اقتربت، أعطت الممرضة لويلي المزيد من المورفين وأعطت ليزي بعض الثلج من أجل شفتيه المتورمتين وأغلقت الستارة عليهم جميعًا.

شعر شوجي بوخز في ساقيه بسبب الجلوس على المقعد الصلب، ولكنه فضل ألا يثير ضجة في هذا التوقيت.

استغلت أغنيس حالة الهدوء وبدأت في تصفح كتالوج فريمان حتى تتمالك أعصابها ووضع علامات حول الأغراض التي ترغب في اقتنائها، بدءًا من شهر فبراير وحتى بداية العام الدراسي القادم في أغسطس.

سألت أغنيس والدتها:

"كيف ستتدبرين أمورك من دونه؟ وكيف ستوفرين ما يلزمك من المال؟".

ردت ليزي:

"وكيف تدبرين أمورك؟".

نظرت أغنيس إلى والدها النائم وقالت:

"لا أرغب في أن أخبرك بذلك".

تأكدت ليزي من أن الطفل نائم بعد أن وضع رأسه على قدميها، رفعت ذراعه وضمته على جانب جسمه ثم قالت:

"اسمعي يا أغنيس، سوف أخبرك بشيء، ولكن لا أرغب أن تطلقي عليّ

أحكامك أو أن تنتقديني، لن أتحمل ذلك".

مالت أغنيس للأمام وسألتها:

"ما هو؟ هل أنت بخير؟".

"لقد كنت قاسية عليك، ولم أكن أعاملك كما ينبغي".

انتظرت ليزي أن ترى رد فعل أغنيس، ولكن لم يحدث شيء، فأضافت:

"كنت أكره شوج الكبير، ولم أعطه فرصة على الإطلاق".

"لا بأس، كان لديك الحق في ذلك".

"لا، كنت أتمنى لك الأفضل، ولم أفكر فيك على الإطلاق".

نظرت ليزي مرة أخرى للصبي، حتى تتأكد أنه ما زال نائمًا، أغلق شوجي عينه بإحكام، وتظاهر بأنه نائم ولكنه سمع كل شيء.

سحبت ليزي نفسًا عميقًا واحتفظت به لأكثر فترة ممكنه ثم بدأت قصتها:

"مهما تطلب الأمر يا أغنيس يجب عليك أن تتحملي، مهما بلغ الأمر، إن لم يكن من أجلك أنت فمن أجل أطفالك، هذا ما تفعله الأمهات".

كانت ليزي تنظف السلم بممسحة رمادية اللون، وتتوقف بين الحين والآخر لعصر الممسحة والرقص على السلم، ورائحة السائل المبيض والماء القذر تطاردها وهي تزيح الماء بعيدًا عن حواف السلم بيديها العاريتين، سحبت الدلو المعدني إلى الخارج، وألقت فائض المياه في الشارع لينساب

على الطريق المنحدر، حيث كان الأطفال العرايا يلعبون بسرور في نهر الماء الذي دفعته.

أمضت باقي النهار تغسل ملابس أغنيس الصغيرة، وهي تفكر في اشتياقها لحمام البخار حيث تجتمع النساء عرايا للثرثرة، كان الحمام مكانًا يخلو من الرجال والأطفال، تكشف كل امرأة أجزاء من نفسها للأخريات، يقلن أشياء لا يمكن الحديث عنها في الكنيسة.

كانت مستعدة أن تدفع المال حتى تخلع جميع ملابسها وتغمر جسدها في المغطس الدافئ حتى تخرج عنها جميع الأوساخ، ثم تتجمع حولها النساء في نصف دائرة ويبدأن الثرثرة التي تختلط بفقاعات الصابون.

لم يكن يحدث شيء في جيرميستون[46] لا يعلم عنه الموجودون في حمام البخار.

في أحد الأيام علمت ليزي أنهن يتحدثن عنها من وراء ظهرها، وأنهن ينتظرن حتى تغادر فيودعنها في سعادة ثم يبدأن في الحديث، ويخُضن في سمعتها الجيدة مثلما يقطعن لحم خنزير عجوز.

بينما كانت تغسل الأوساخ عن الملابس في حوض الاستحمام الخاص بالطفلة الصغيرة تناثر الماء في كل مكان ولكنها شعرت بالسعادة لأنها لم تعد مضطرة لغسل الملابس القذرة الخاصة بأحد، على الأقل ليست مضطرة لغسل ملابس ويلي كامبل.

لم يكن حوض الاستحمام الصغير يتسع لملابسه الضخمة على كل حال، وبينما كانت ليزي مشغولة بالغسيل وقد احمر وجهها لاحظت أن الطفلة أغنيس تمص جواربها البيضاء الصغيرة وتخرج منها عصارة صابونية

46- حي سكني في مدينة جلاسكو شمال نهر كلايد، عانى سكانه من تدهور الظروف المعيشية بعد انهيار الصناعات المحلية الثقيلة وهو قريب من الطرق الرئيسة ومحطة السكة الحديدية. (المترجم)

في فمها علامة على الجوع، رفعتها ليزي عن الأرض الرطبة وضعتها فوق كرسي عالٍ وربطت شعرها بشريط مخملي وهي تقول:

"أعتقد أنك جائعة مرة أخرى".

تجعد جبينها وهي تمر بأصابعها على أطراف الخزانة، لم تجد شيئًا يؤكل، بضع ثمرات من البطاطس التالفة، وقطعة صغيرة من شحوم الخنزير، وبقايا من الدقيق المتخمر.

المطبخ فارغ من كل شيء، كأنه أصيب في انفجار نسف محتوياته.

مدت يدها خلف سلة الخبز الفارغة، أخرجت علبة صابون صغيرة مخفية وأفرغت محتوياتها بلطف، بداخلها ثلاث بيضات، بيض بني كبير الحجم ذو قشرة نظيفة، كسرت ليزي البيض في مقلاة سوداء، ووضعت فوقه قطعة من شحم الخنزير وقلبتهم بترف في فقاعات من الدهن.

نظرت إلى أغنيس وأشارت إليها وهي تضع يدها فوق شفتها في إشارة للحفاظ على السرية فنظرت الأميرة الصغيرة ذات الخدود الممتلئة إلى والدتها وقربت أصبعها الوردي من فمها لترد الإشارة.

جلست أغنيس على ركبة ليزي وأكلا البيض الذي كان مخفيًا بنهم من طبق واحد، كان صفار البيض شهيًا ولزجًا لدرجة أن ليزي شعرت به يلتصق في أسنانها ويلطخ شفاه طفلتها في سعادة وشبع.

وضعت ليزي أغنيس على ركبتها وجلست تشاهد الأطفال يلعبون لعبة

الهنود الحمر في الخارج. وصوت صافرة "بروفان جاز ورك[47]" لتنبيه الرجال من أجل العودة إلى أشغالهم، تساءلت ليزي إن كان الرجال الذين يعملون في أبراج الغاز يشعرون بالخجل بسبب وظيفتهم وتذكرت اليوم الذي أخبرها فيه ويلي أنه يشعر بالخجل ولم يعد يستطيع تحمل المزيد.

كان الجو صحوًا، استطاعت ليزي أن تسمع مجموعة من الأصوات المختلطة للعابرين على الطريق بجانب أصوات الأطفال وهم يتظاهرون بأنهم يهاجمون رعاة البقر الحمقى في معركة وهمية.

تغيرت فجأة أصوات الأطفال وبدؤوا يهتفون ويلهثون لشيء يتحرك في الشارع بسرعة كبيرة، أكبر من السرعة التي يسير بها الأشخاص على أقدامهم.

تقاسمت أصوات عديدة نفس الكلمات، كرسالة تلغرافية تنتقل من فم لآخر.

تحركت ليزي تجاه الشبابيك لتسرق نظرة خاطفة من خلف الستائر الثقيلة، جميع النساء متدليات خارج نوافذهن لمشاهدة ما يحدث بشكل مخجل.

الأطفال يصرخون لإخبار أمهاتهم حول ما يحدث والأمهات يتشاركن المعلومة لمن هم بداخل الغرف المظلمة خلفهن.

سمعت ليزي طرقًا مفاجئًا على الباب، نظرت إلى أغنيس فوجدت حلقة صفراء من آثار البيض على فمها فمسحتها، علمت أن الشخص الموجود بالخارج غريب بالنسبة لها، لأنها لا تحكم إغلاق الباب أبدًا. والجميع يعرف ذلك.

47- مصنع للغاز الطبيعي في حي جيرمستون بمدينة جلاسكو تم بناؤه في الفترة من 1900 إلى 1902 ثم أصبح لاحقًا جزءًا من شركة بريتش غاز. (المترجم)

وقفت ليزي أمام مرآة الردهة وصففت شعرها بيدها بشكل سريع، ونظرت حولها للغرفة الفارغة، وفكرت في قائمة الدائنين وأعادت النظر إلى أرفف المطبخ الفارغة فشعرت ببعض الأمان ثم اتجهت للباب الأمامي وفتحته.

تسرب ضوء الكوبالت الأخضر من السلم لينعكس على وجه الشخص الغريب الذي ينظر إليها نصف مبتسم، أنزل الرجل من فوق كتفه حقيبة ثقيلة مصنوعة من القماش، وقفت الحقيبة من تلقاء نفسها بسبب ثقل محتوياتها وكادت أن تصل لطول أنف ليزي التي قالت:

"من الأفضل ألا تكون مليئة بالملابس المتسخة".

لم تعرف ليزي ما الذي دفعها لقول ذلك ربما لم تجد شيئًا آخر لتقوله، ولكن الرجل ضحك فشعرت بالامتنان أنه شاركها الضحك ولم يسخر من حماقتها ويدعها تفسد بهجة اليوم.

قال بهدوء بعد أن خلع قبعته:

"هل يمكنني الدخول؟".

كان لديها شعور أنها غير قادرة على التعامل مع هذا الغريب، كان وجهه يشبه الوجوه التي تراها في شارع رويستون[48]، شعرت بالسعادة لأنه طلب ذلك بطريقة مهذبة حتى لا تعترف بفشلها في التعامل معه.

تراجعت ليزي رغم ذلك فدخل الشخص الغريب وجر الحقيبة القماشية الثقيلة خلفه، ثم أغلق الباب، وقبل أن يفرغ محتويات الحقيبة، شعر

48- شارع يشتهر بوجود عدد كبير من المهاجرين معظمهم من أصول أيرلندية كاثوليكية ويشتهر بالاحتفال السنوي بموكب القديس باتريك. (المترجم)

بالعيون الصغيرة التي تنظر إليه من جانب الطاولة فسألها:

"هل هذه هي؟".

لم تفعل ليزي شيئًا سوى أن أومأت برأسها، لم يرَها الرجل منذ أن كانت قطعة حمراء من اللحم تشبه لحم الخنزير، ملفوفة في بطانية مطرزة صنعتها الجدة كامبل، بالطبع شاهد صورها بعد ذلك أثناء التعميد وفي احتفالات عيد الفصح، الأمر لم يكن سيان، كانت مختلفة وعيناه تراها للمرة الأولى بالفعل.

نظر إليها، كانت فتاة جميلة ذات شعر كثيف بلون الأبنوس، وعيون خضراء، وأرجل ممتلئة وهو أجمل ما تملكه الفتاة.

ركع ويلي أمامها وبدأ في البكاء وهو يتأوه ببطء لرؤية طفلته سعيدة وفي صحة جيدة. ثم أخرج من حقيبته دمية جميلة ملفوفة بقماش مرسوم رسمًا يدويًا، أخرج العديد من العجائب الملونة بألوان زاهية، الواحد تلو الآخر، شرائط مطرزة من إفريقيا، وصلبان ملونة من إيطاليا، والمزيد من دمى لها أنماط وأشكال مختلفة وأعين ووجوه متباينة الألوان، لم تر ليزي مثلها من قبل، وضع ويلي كل شيء أمامه، وحملتها أغنيس فبدأت تسقط من بين ذراعيها، لكثرتها.

عندما انحنت أغنيس لتلتقط ما تبقى من الهدايا، دفن رأسه في شعرها وبدأ في شم رائحته العطرة الفواحة.

ركع ويلي بلطف أمام أغنيس، فبدأت ليزي تلمسه بخفة، حتى إنه لم يشعر بذلك، كانت مؤخرة رقبته بنية بشكل لم ترَ له مثيلًا من قبل، بلون قرص السكر المحروق، ذهبية وحلوة، عندما أمعنت النظر خلف ياقة القميص، وجدت اللون يتغير في الداخل من اللون البني المحروق للذهبي الناصع الذي يفيض بالحياة من تأثير أشعة الشمس، تساءلت أين ذهب

لونه الأبنوسي الذي عرفته وأحبته في السابق؟

مررت شعره الناعم بين أصابعها ثم جذبته بقوة، رفع ويلي رأسه إليها في هذه اللحظة ونظر إليها بعين شبه مقفلة وابتسم، كان وجود ويلي حقيقيًّا في هذه اللحظة، كان في منزله.

لم تقل الأخبار شيئًا عنه أبدًا، كانت تراجع الصحف مرتين أو ثلاثًا يوميًّا، وفي بعض الأحيان تراجع الأسماء في الصحف عشر مرات بعد أن تعود من المستشفى، تجلس في الساحة الخلفية وتعيد قراءة الصحف التي يتركها السيد ديفلين، تتحدث الصحف عن الانتصارات الرائعة التي حققها الفتيان في شمال إفريقيا. وتحدثت عن تضحيات أبناء جلاسكو من إينفيرنيس[49] وإدنبرة الذين لن يعودوا من الحرب مجددًا. كانت القوائم تحتوي على عدد كبير من الأسماء حتى إن الحي الصغير الذي تسكنه فقد العديد من الشباب في أيام قليلة، في كل أسبوع تذهب العائلات للكنيسة لتبكي وتتلو الصلوات على أبنائها الضائعين، كان هناك العديد من المفقودين حتى إنها توقفت عن إحصائهم، السيد جولدي، الشاب ديفي آلان والإخوة كوتريل اللذان كانت أعمارهم في الثانية والعشرين والثالثة والعشرين، وتركوا وراءهم سبعة من الأبناء اليتامى.

وفي الوقت الذي أعلن فيه وفاة كل هؤلاء الجنود المساكين لم يذكر اسم ويلي، أخبرت ليزي والدتها إيزابيل أنها تشعر بالأمل، ولكن إيزابيل التي عانت من تقلبات الحياة ضمت أصغر أبنائها بين ذراعيها وقالت:

"لا داعي للشعور بالأمل، وركزي على الحقائق، مثل ابنتك الصغيرة، ووظيفتك الجديدة، وإطعام الأفواه المفتوحة حولك، لا داعي للأمل، حتى لا تصابي بالاكتئاب".

49- أكبر مدن اسكتلندا وتعتبر عاصمتها الثقافية وتتميز بكاتدرائية ضخمة وكنائس قديمة إلى جانب السوق الفيكتوري ومجمع الفنون وتقع على الساحل الشمالي. (المترجم)

ولكن ذلك لم يعد يهم في هذه اللحظة، ويلي كامبل في المنزل بالفعل، وليزي تتحرك في الغرف بحرارة، ولا تعرف ما الذي تبحث عنه، كانت هناك أصوات عديدة في الخارج فعرفت أنهم سيأتون بحثًا عنه.

اصطحبت أغنيس إلى الحمام لتغسل وجهها وتنظف ملابسها، وأخرجت كومة من المناشف النظيفة، وعدة الخياطة المخفية وفتحتها، فاحت في الهواء رائحة حلوة تشبه رائحة الكعك، وأخرجت من رف خفي قطعة من لحم الخنزير ثم قالت لأغنيس:

"انتظري هنا لحظة، مامي تحتاج أن تبقى بمفردها".

وخرجت وأغلقت الباب خلفها، قبل أن يأتوا في طلبه.

خلعت ليزي ملابسها التحتية بسرعة، واتجهت نحوه دون أن تحتضنه أو تقبله فذلك لم يكن كافيًا بالنسبة لها، أو يروي شعورها بالغياب الطويل، مالت بنفسها فوق المقعد، ووضعت أيديها فوق ذراعه الكبيرة، فاقترب منها من الخلف بهدوء، كان حضوره خافتًا في البداية وكأنه شخص غريب يقترب منها في الطريق، لمس يدها وقبل مؤخرة عنقها ثم شعرت به يندفع بداخلها بقوة وخشونة، رأت الندبة على يديه، وساعديه الشاحبين وهو يضمها إليه، انساب في داخلها ببطء ثم أخذ يتحرك بسرعة حتى التحما ببعضهما كشخصين تحت بطانية واحدة أو كشخص واحد.

سوف يأتون من أجله..

لم تكن رائحته كما تتذكرها في السابق، رغم أنها كانت حلوة، كانت تشبه رائحة برتقالة ناضجة تفوح من شعره وذراعه أو تشبه رائحة

العسل لذلك أحبتها، أدارت ليزي رقبتها لتنظر إليه كانت عيناه مفتوحة على وسعها وتركز عليها.

في إحدى المرات قبل ولادة أغنيس، اصطحبها ويلي إلى مبنى فاخر للغاية، استقلا الحافلة لثلاث محطات، وتوجها إلى قاعة كلمنغروف[50]، لم تدخل مكانًا بهذه الفخامة من قبل كان فستانها بسيطًا وصوت حذائها عاليًا، ولكن ويلي لم يكترث لذلك وتصرف كأنهما ينتميان لذلك المكان، وأخبرها لاحقًا أنه عرف ذلك المكان الفخم بسبب إصلاحه للقرميد الموجود على سطحه.

كانت فترة بعد ظهيرة استثنائية وهما يجلسان على سلم رخامي، أمامهما لوحة زيتية تحتوي على منظر طبيعي لمجموعة من الأشجار، ينساب أمامها نهر كسول، والزهور البرية لا تزال تحتفل بجمالها على ضفافه في فصل الخريف.

كان ويلي يبتسم لها فنسيت الفستان غير الملائم للمكان، عيناه خضراء بنفس درجة ألوان اللوحة، الآن وهي تحدق في الأعين التي تنظر لها، أدركت أنه نفس الرجل رغم مرور السنوات ورغم اختلاف المكان، نسيت ليزي كيف يكون شعور وجوده بجانبها، نسيت من دوام شعورها بالقلق عليه.

50- متحف وصالة فنون تم تجديده وإعادة افتتاحه في 2006 ويعتبر واحدًا من أهم أماكن الجذب السياحي في اسكتلندا. (المترجم)

كان هناك صوت ضوضاء خافتة، انتبه ويلي وتوقف عن دفع قضيبه بداخلها ونظر في الظلام كان هناك خيال ضعيف يتحرك، لم يحب ويلي ما يرى، وبدأ في تعديل مظهره، وإدخال قميصه العسكري في سرواله بسرعة.

وجد الباب الأمامي مفتوحًا، ولم يكلف أحد نفسه عناء الطرق على الباب قبل الدخول، كان الجميع هناك يشاهدونهما، رجال نقابة العمال، وزوجاتهم يحملن الشطائر وزجاجات ماكينلي[51] نصف ممتلئة، وقد حضروا لتهنئة ويلي على سلامة الوصول، لم تجد ليزي إلا وقتًا قليلًا لتضبط مظهرها وتترك ذراع المقعد الذي انحنت فوقه، قبل أن يظهر الجميع داخل الغرفة، لاحظت عينيه طول الوقت في وجود الحشد السعيد المحتفل وشعرت أنه يعتذر لها عما حدث، وعندما انصرف الجميع، صعدا إلى فراشهما، وحرصا على شد الستائر الثقيلة.

قال لها إنه متعب واستلقى بجانبها، كانت تستطيع أن تشعر بحرارة جسده بينما تفكر في ما سوف يقولون عنها بعد أن انصرفوا، كان قريبًا منها ولكنها شعرت أنه صار بعيدًا عنها جدًّا. أبعد مما كان عليه في مصر.

عندما استيقظت في الصباح، كان قد ارتدى أفخم ملابسه بالفعل، بدلته الصوفية صارت أوسع مما كانت عليه في السابق، والسروال صار

51- شركة لإنتاج المشروبات الكحولية في جلاسكو تأسست 1844 وتشتهر بالسكوتش والويسكي وهي الآن مملوكة لشركة فلبينية ولكنها تحمل نفس العلامة التجارية. (المترجم)

واسعًا كذلك، وقديم الطراز، وجد بقايا الخبز ولحم الخنزير الذي قامت بإخفائه وقطعة الكعك الأخيرة التي منحها لها البقال، كان يحاول أن يملأ فم ابنته بأصابع اللحم المقلية وكلما رفضت كان يدللها بقطعة من الكعك وهو يضحك.

لم تحب أن تراه يتناول ذلك الطعام القذر، بدأ كل شيء مع السيد كيلفيذر بائع البقالة ذي السيقان المقوسة ولكنها لا تستطيع أن تتذكر كيف حدث ذلك، حدث كل شيء بطريقة ماكرة ربما في مقابل الحصول على حصة إضافية من البيض تفوق الحصة المقررة في التموين، وربما كانت قطعة من اللحم أو الخبز، كيف يمكنها أن تخبر ويلي بكل هذا؟

كان الطفل الرضيع الآخر متكومًا بهدوء في الركن وويلي يعطيه ظهره كأنه لا يسمعه، إنه ابن السيد كيلفيذر، عندما خرجت ليزي من خلف الستائر نهض ويلي دون أن ينظر إليها، ارتدى سترته وقبل أغنيس قبلة الوداع، ثم رفع الملاءات النظيفة الموجودة حول فراش الصبي الصغير وحمله، مد الصغير يده الوردية إليه وكأنه يشعر بالثقة والطمأنينة لأخلاق ويلي كامبل الطيبة.

وضع ويلي الطفل الصغير في عربة الأطفال وأحكم لف البطانية الصغيرة تحته ووضع طرفها تحت ذقنه في حنان، ونظر نحو الباب، سألته ليزي بقلق وهي تضع يدها على مقبض العربة.

"إلى أين ستذهب؟".

"إلى الخارج".

"هل ستعود؟".

بدا مندهشًا من السؤال:

"ما هذا السؤال؟ بالطبع سأعود".

شعرت أنها لو بدأت في البكاء لن تستطيع أن تتوقف، نظرت إليه وقالت:

"أنا آسفة، لم آخذ منه إلا قطعًا صغيرة من اللحم، لم أكن أعرف بموعد عودتك، ولكني كنت أطعم الأطفال جيدًا".

رد عليها بكلمة واحدة:

"أعرف".

انهارت ليزي تمامًا:

"لما عرفت ما حدث تناولت كمية كبيرة من مسحوق أسكيت[52]، ولكن الوقت قد فات".

"لا أريد أن أعرف".

رفع وجهها بين يديه وقبلها، كانت تلك هي أول قبلة تحصل عليها منذ رحيله في سانت إينوك[53]، فهي لم تكن تسمح للسيد كيلفيذر بتقبيلها، وشعرت أنه من الواجب عليها أن تخبره بذلك.

قال لها:

"آسف إنني كنت غائبًا بعيدًا عن المنزل لفترة طويلة".

52- عقار طبي يستخدم بشكل أساسي في علاج الصداع ويباع في المملكة المتحدة. (المترجم)

53- محطة القطار الرئيسة في جلاسكو بين عامي 1876 و1966 ولكن تم هدمها في عام 1977. (المترجم)

ثم دفع عربة الأطفال وبداخلها الصبي الغريب وخرج في نهار ربيعي معتدل.

وكان هذا هو أطول يوم في حياتها على الإطلاق.

عاد ويلي قبل أن تضاء مصابيح الشارع، رأته ليزي من النافذة حيث ظلت بانتظاره طوال اليوم، يصفر بطول شارع ساراسين، أخبرتها السيدة دفيلين لاحقًا أنها شعرت بالخوف لرؤيته بسبب البشرة الداكنة التي اكتسبها فجعلته يشبه الهنود وأخبرتها أنه كان يرقص ويغني، ويتأرجح على الدرج كأنه فريد أستر[54].

عندما عاد لم تكن معه عربة الأطفال، لم تكن معه البطانية ولم يكن معه الصبي الرضيع الغريب. جمع فتاتيه بين ذراعيه وجلس لتناول الطعام، استطاعت ليزي أن تشم رائحته التي تشبه الهواء نقيًّا في الحقول المفتوحة البعيدة، أكل ويلي كل الطعام الموجود على المائدة بشراهة، وعاءان كبيران من حساء البازلاء بصلصة الكريمة ولحم الضَّأن.

لم تكن ليزي تستطيع أن تخبره كيف أحضرت كل هذا الطعام وكيف دفعت ثمنه، ولم يسألها عن مصدره فشعرت بالارتياح.

في المساء، عندما تمدد بجوارها خلف الستارة داعبت الشعر الكثيف على ذراعه، ونظرت في عينه الخضراء وسألته عن الطفل الصغير.

54- أحد أبرز نجوم الأفلام الأمريكية الراقصة والمسرحيات الغنائية في برودواي. (المترجم)

سحبها ويلي إليه ونظر بعيونه الخضراء اللامعة مباشرة في عينيها، ولم يقل سوى:

"أي طفل تقصدين؟".

16

فكرت أغنيس في ما قالته لها والدتها كثيرًا، وخصوصًا في الأيام التي تسبق وفاة والدها، في النهاية، تمكن منه سرطان الرئة واستنزف صحته تمامًا.

دفنوا ويلي كامبل في يوم رطب من أيام شهر مارس في منحدر بالجزء الخلفي الرطب من مقابر لامبهيل[55].

ظلت أغنيس تبكي أبيها لعدة أيام، ثم تبكي على نفسها وتشعر بالحزن، لأن شوج لم يحبها مطلقًا بالطريقة التي أحب ويلي بها ليزي.

في إحدى نوبات السكر اتصلت بوالدتها وصرخت بها عبر الهاتف، لأنها أفسدت ذكرياتها عن أبيها وسبت أباها، ذلك الرجل الذي أخذ طفلًا صغيرًا وأخفاه، ولكن والدتها ماتت بعد وفاة أبيها بشهر واحد، ولم يتبق أحد يتحمل صراخها في وجهه.

ماتت... ماتت إليزابيث كاثرين كامبل بعد أن انزلقت قدماها، كانت أغنيس تحاول أن تجد سيارة أجرة لتقلها من بيتهيد إلى والدتها في

55- المقابر الرئيسة في جلاسكو، وتحتوي على نصب تذكاري لتخليد ذكرى مجموعة من العمال توفوا في حادث شهير في أحد مناجم الفحم كما دفن بها عدد كبير من الجنود الذين لقوا حتفهم خلال الحرب العالمية الثانية. (المترجم)

المستشفى. ليزي ماتت بالفعل منذ ساعة ونصف الساعة وانضمت للملائكة في السماء.

خرجت أغنيس بنفسها سيرًا على الأقدام إلى الطريق الرئيس، وألقت نفسها أمام السيارات حتى وجدت سيارة أجرة تقلها، عندما وصلت إلى المستشفى، أخبرها رجال الشرطة أن سائق الشاحنة الذي صدمها رجل طيب، أمضى سنوات عمره الطويلة في خدمة الشركة.

"لقد كان يتوقع أن تعود المرأة العجوز للخلف قليلًا، وتصعد مرة أخرى إلى الرصيف، ولكنها لم تفعل، لا بدّ أنها قصدت أن تقتل نفسها".

أدركت أغنيس من نظرات رجال الشرطة لها ما يجول بخاطرهم، لا بدّ أنهم يظنون أن هذه الفتاة المخمورة ورثت ذلك السلوك من أمها، كانت نظراتهم الباردة لا تتطابق مع كلماتهم الدافئة، قالوا لها:

"يحدث كثيرًا، أن تنتحر النساء".

كأن ليزي اختارت تلك الطريقة الجبانة لإنهاء حياتها. تدرك أغنيس أن أمها كاثوليكية صالحة لن تقدم أبدًا على ذلك الفعل.

لاحقًا عندما سلمها متعهدو دفن الموتى جثمان ليزي، أعدت أغنيس جسدها في غرفة النوم وساعدها ليك في رفع السرير المزدوج عن مكانه ووضعه متكئًا على الحائط حتى يفسح المجال للتابوت الصغير والحوامل المعدنية.

ملاءتها النظيفة في الخزانة لن تستخدم مرة أخرى، أخذت أغنيس ملاءة عريضة مصنوعة من الكتان ولفتها حول المرتبة التي ترقد عليها

وجلست تبكي عند قدمها كما لو كانت تبكي شبحًا من الذكريات الجميلة التي تركتها ورحلت، ولم يمر بعد على مأساة رحيل أبيها شهر واحد.

صرخت عظام أغنيس في طلب جرعة من الشراب، جلست بجوار التابوت المفتوح وهي تغطي شعرها بأكثر الأوشحة التي تملكها إثارة للكآبة، ارتدت نفس الفستان الأسود الضيق للمرة الثانية في فترة لا تزيد على شهر.

لم يعد لديها ذكريات جيدة في شقة سايهيل بعد هذا، مات والدها ثم ماتت والدتها، هي لن تضع الورق المقوى فوق السجاد هذه المرة حتى تترك المعزين يفسدونه.

تبدو ليزي أصغر حجمًا داخل التابوت، قام متعهد دفن الموتى بوضع طبقات من مساحيق التجميل على وجهها لتحسن مظهرها، وأخفوا يدها المشوهة من أثر الحادث تحت شريط من القماش الحريري.

وضعت أغنيس فوقها الكتاب المقدس وميدالية سانت جود، بعد أن طلبت منهم أن يلبسوها الرداء الزيتي الخاص بيوم الأحد، وصبغ شعرها ووضع قبعة فوق رأسها لإخفاء آثار الجروح، وأعطتهم صورة ليزي ليروا كيف كان مظهرها من قبل.

بذل الرجل قصارى جهده ليجعلها تبدو بمظهر مناسب، ولكنه اضطر لوضع العديد من المساحيق والشمع على وجهها مما جعلها تفقد شكلها الأصلي، لم يكن هناك تورد خفيف على خديها ولا لون أحمر خافت في

مقدمة أنفها. ولكن أغنيس قبلتها على كل حال وبكت طالبة منها المغفرة.

عندما انتهت من البكاء اعتدلت في جلستها، تسمع أصوات التلفاز الخافتة المنبعثة من المنزل المجاور، خلعت فردتي حلقها غير المتطابقتين، وألبستهم لوالدتها، وهي تقول:

"أعرف أنهما غير ذي قيمة، ولكن على الأقل سوف يضحك أبي حين يراك بذلك المظهر".

ثم عدلت وضع البروش المعدني الأنيق الموضوع على ملابس ليزي، يحتوي البروش على مصغر للعذراء والمسيح طفلًا، جلبته لها ناني فلاجان من الكتالوج، ونظرت لها وهي تقول:

"مسكينة ناني، كان من الواجب عليها أن تراقبك عن قرب؟ حتى لا تتصرفي هذا التصرف الغبي؟".

قامت بالبصق على قطعة من الورق المقوى ومسح آثار الطلاء الزائد من وجه والدتها وقالت:

"سأقدم شطائر السلمون بدلًا من الجبن هذه المرة، لم تعجبني الطريقة التي كان ينظر بها هؤلاء الأوغاد في عزاء أبي، لقد رأيت هذه النظرة على وجه آنا أو ربما تكون هانا لا أعرف، حتى إنني سمعت جولي تقول لزوجها جون، كيف يحضر كل هؤلاء الناس من دونيجال[56] ولا يقدمون لهم بعض اللحم".

ثم اخرجت أحمر شفاها اللامع ورسمت لأمها شفاهًا رقيقة، ووضعت القليل من اللون الأحمر فوق الخدود، ولكنها لم تكمل ما تفعله، كانت خائفة من لمس مؤخرة رأسها بسبب الجروح العميقة المخبأة هناك. ثم

56- إحدى مقاطعات أيرلندا التي تعرف بحصن الأجانب. (المترجم)

قامت بتمشيط أطراف شعرها بمشط خشبي، وقالت:

"هذا أفضل، لقد دبت فيك الحياة، وأصبح لون خدودك مبهجًا".

توقفت هذه الكلمات في حلقها، فالتزمت الصمت. بقيت أغنيس بجوار أمها طوال الليل.

في صباح أحد أيام إبريل الرطبة، وضعوا نعش ليزي فوق نعش ويلي، كانت الأرض مبللة ومن الضروري صرف الماء الزائد من القبر قبل وضعها فوق زوجها.

بعد الدفن لفت أغنيس الشطائر في مناديل ورقية، وجعلت شوجي يدور على الحضور ثلاث مرات لتوزيعها، انتشرت في أيدي الجميع الأطباق التي تفوح منها رائحة السلمون والزبد الساخن، كلما رفض الناس تناول الطعام كانت تعيد إرسال الصبي المرة تلو الأخرى بأطباق أخرى تحتوي على قطع سميكة من اللحم.

كان الوقت ليلًا عندما عادت من حفل التأبين إلى المنزل، زوجات عمال المناجم يملن على السياج وينظرن إليها وقطرات من المطر الخفيف تتساقط كالبصاق، تسير أغنيس برصانة، لأنها تشعر بأن والدتها ما زالت تراقبها، يسير بجوارها ليك وتنمو في داخلها رغبة محمومة لتناول الشراب.

في المنزل فتح ليك دفتر الرسم الخاص به وجلس، وقفت أغنيس خلفه وهو يمسك قطعة صغيرة من الورق عليها في ما يبدو عدد لا حصر له

من الأرقام، أمسكت أغنيس بالورقة واتصلت ببطء برقم إفريقي طويل.

تعرف أن هذا الرقم، هو الرقم الوحيد الذي لم تكن كاثرين ترغب في أن تحصل عليه، ولكنها اتصلت على كل حال بدافع شعورها بالوحدة.

توترت لسماع صوت كاثرين مرة أخرى وكأن طيور الكناريا تحلق في ردهة المنزل في بيتهيد، حاولت أن تحصل منها على أكبر قدر من المعلومات، ولكنها كانت مقتضبة في إجاباتها للغاية.

تأمل أغنيس أن تكون كاثرين سعيدة، ومحاطة بسجاد مرسوم عليه نباتات استوائية، ولديها أشياء جميلة، لا تعلم أسماءها ولن تراها على الإطلاق.

كانت تأمل أن تتصل كاثرين بها وتتكلم معها ولا تتواصل مع ليك سرًّا.

ناولها ليك سماعة الهاتف، حتى تخبرها بنفسها كم تحتاج لوجودها بجانبها في المنزل.

قال ليك:

"كاثرين هذا، ليك، نعم، أنا آسف،....هذا هاتف مامي، إنها هنا تقف بجانبي".

نظر إلى أغنيس في قلق وظل صامتًا لفترة صغيرة، سمعت أغنيس صوت هياج على الطرف الآخر وتخيلت ما تقوله كاثرين:

"لا تقلقي، لن أفعل ذلك أبدًا، لقد وعدتك من قبل".

قالت أغنيس وهي ممسكة بالهاتف:

"هل تحبين جنوب إفريقيا".

سكتت كاثرين قليلًا:

"إنه بحال جيدة، كاد أن يموت في المنجم، أنت تعرفين أنه غريب الأطوار ومضحك بعض الشيء، مضحك جدًّا، مضحك جدًّا جدًّا، إنه يقلد جيرالد فيتزباتريك وباتريك فيتزجيرالد[57]".

انطلقت ضحكات من الجانب الآخر فسألتها أغنيس:

"كاثرين، هل دونالد موجود عندك؟ لا أنا لا أحقق معك، أنا أطمئن فقط، لدي بعض الأخبار السيئة لقد ماتت جدتك".

سكتت كاثرين لفترة أطول.

تمتمت أغنيس:

"هل تبكين؟".

أبعدها ليك عن الهاتف:

"صدمتها حافلة مسرعة الأسبوع الماضي، لم تكن بخير، عقلها كان مشغولًا طوال الوقت، سأخبرك الحقيقة، مات جدك في الشهر الماضي، ولم نكن نرغب في أن نزعجك بالأخبار السيئة، إنها ليست نكتة أقسم لك".

أمسك ليك السماعة بقوة وبدأ يتحدث من خلال أسنانه الصناعية:

57- أول شخصين من نفس الجنس يتزوجان في أيرلندا وقد أطلق عنهم الكثير من النكات. (المترجم)

"حسنًا، كان عدم إخبارك هو قراري، أنت اتخذت قرارك بالرحيل، ويجب عليك نسيان كل هذا الهراء اللعين، يجب عليك اتخاذ قرارات قذرة وقاسية".

ساد صمت طويل سمعت أغنيس خلاله كاثرين تبكي أو تعتذر أو خليط من الاثنين معًا.

"حسنًا سوف تعودين إلى المنزل، حسنًا حسنا، أعتقد أنه من الواجب عليّ أن أهنئك على هذا القرار".

تمتمت أغنيس وهي تحاول ألا تبدو بائسة للغاية:

"هل تسأل عني؟".

قال ليك وهو يتنهد:

"انتظرى كاث، هل تريدين الحديث إلى مامي؟".

"حسنًا أنا أفهم ذلك، لا داعي للاعتذار، افعلي ما يحلو لك، الوداع".

وعندما وضع السماعة، أدركت أغنيس أنها كانت تمد يدها إلى ليك حتى بعد انتهاء المكالمة.

قال ليك وهو يهز كتفيه:

"كانت حزينة للغاية ولا تقدر على الكلام".

"هل تعلمين أنهم في جنوب إفريقيا يتناولون قطع اللحم مطهوة باستخدام الفاكهة على عصا، يا له من أمر غريب!".

17

يتدلى جسدها بجانب الفراش في زاوية غريبة، يستطيع شوجي أن يعرف أنها أمضت طوال الليل وهي تشرب الخمر حتى أصبحت تدور مثل العجلة.

أدار رأسها للأعلى حتى يمنعها من الاختناق من آثار القيء المتصاعد من داخلها، خلع حذاءها وفك حمالة صدرها، ثم وضع الدلو بالقرب من الفراش، كانت قدماها بيضاء أكثر من المعتاد، وعلى كاحلها كدمات جديدة، وكذلك على فخذيها الشاحبين.

جهز شوجي ثلاثة أقداح، في أحدها ماء لغسل وجهها، وفي الآخر حليب ليعادل الحموضة في معدتها، وفي الثالث خليط من بقايا سبشيال برو[58] وبعض الستاوت[59] جمعهم من كل أنحاء المنزل وخلطهم بالشوكة، كان يعلم أنها ستمد يدها لهذا الكوب أولًا، حتى توقف الألم في عظامها.

انحنى ليسمع أنفاسها المتقطعة من آثار السجائر، ثم اتجه للمطبخ وجهز كوبًا رابعًا بمسحوق تبييض الأسنان، وقطع صفحة من كتاب المدرسة تخص تاريخ البابوات وكتب عليها:

58- Special Brew نوع قوي من البيرة ينتج فقط في الدنمارك والمملكة المتحدة ويتم خلطه بنكهات مختلفة من الويسكي والبراندي بنسبة كحول تصل إلى 9% وهي ترتبط بمدمني الكحول. (المترجم)

59- Stout البيرةالداكنة أو البيرة السوداء. (المترجم)

"خطر، مبيض أسنان، لا تشربيه ولا تتجرعي بعضًا منه على سبيل الصدفة".

سمع صوت الباب الأمامي يغلق برفق، سوف يتأخر ليك عن عمله مرة أخرى، إنه لا يحب مغادرة فراشه، يعتبره شرنقته الآمنة التي لا يريد مفارقتها، نظر شوجي من خلف الستارة فشاهد أخاه يسير على الطريق المنحدر، بدأ أبناء عمال المناجم في الظهور والتوجه إلى المدرسة، الأطفال الذين يتوجهون مبكرًا للملعب الخرساني للعب كرة القدم هم أنفسهم من يلتفون حوله على هيئة حلقة، ويدفعونه بأيديهم عندما يشعرون بالملل.

أمسك شوجي قلمه الحبر الأزرق، وبدأ في كتابة واجبه المنزلي، وكأنه محاسب، ثم كتب اسمها في نهاية إحدى الصفحات "السيدة بين" الأمر يبدو غريبًا حتى بالنسبة له. كان الوقت مبكرًا حسب ساعة الراديو على الانصراف للمدرسة، يمكنه أن ينتظر حتى ينتهي قداس الصباح دون أن يلاحظ أحد غيابه، انتظر في مكانه في هدوء وصبر.

نظر إلى الخزانة الصغيرة التي بداخلها علبة المجوهرات، الخزانة نظيفة ومرتبة بالطريقة التي تحبها أغنيس تمامًا. عندما لا تكون غائبة عن الوعي تُخرج المجوهرات من العلبة وتنظفها بعناية، بصرف النظر عن أنها لا تستحق التنظيف، تذكر كيف تلعب معه بالمجوهرات، وتسمح له بترتيبها وتقسيمها إلى مجموعات من الأقراط والقلادات فيتظاهر بأنه صاحب محل مجوهرات. كان الأمر أسهل، قبل أن ترهن أجمل مقتنياتها.

نظر إلى انعكاس صورتها في المرآة، ظهرها يرتفع لأعلى وأسفل كلما تنفست، أمسك شوجي زجاجة الماسكارا، وضع بعض الصبغة السوداء على تشققات حذائه المدرسي الأسود، ثم أمسك الفرشاة ومر بها على رموشه فزاد جمالها، نهضت أغنيس في تلك اللحظة كهيكل عظمي

متثاقل.

تحركت ببطء ولم تنظر إليه، حاول أن يدفع الفرشاة داخل أنبوبة الماسكارا، ولكنه لم يفلح فترك الأنبوبة تسقط بجانبه على الأرض في مكر. تترنح أغنيس بجوار الفراش، وصدرها الأيمن يتدلى خارج الحمالة السوداء التي تتدلى بدورها خارج ملابسها، ركعت أغنيس بجانب الفراش كأنها تؤدي صلاة، تظن أن شوجي رحل للحاق بالمدرسة، ولم تكن تعرف أنه يشاهدها كشبح صامت، ولكنه رحل على كل حال قبل أن تفتح عينيها مرة أخرى.

رفعت نفسها وجلست على طرف الفراش وحاولت أن تهدئ من أنفاسها، ووضعت الدلو بين ركبتيها، تقوس ظهرها كقطة تختنق، ارتفعت العصارة داخل صدرها ثم مالت برأسها نحو الدلو وبدأت في إفراغ محتويات معدتها.

بدأت صور من ليلة الأمس تتدفق إلى رأسها، فشاهدت نفسها تتحرك من المطبخ لغرفة المعيشة، ثم إلى المطبخ مرة أخرى، وشاهدت ركبتها تصطدم في كرسي بغرفة المعيشة وتقوم بكشط الجلد الملتهب بأظافرها.

تتذكر أن المنزل مضاء والستائر مفتوحة وعودة الأطفال من المدرسة.

تتقافز الأفكار في رأسها كالملابس على حبل الغسيل، تتذكر سيارة الأجرة ولعبة البنغو والشراب في حالة الفوز، والشراب في حالة الخسارة، تتذكر جلوسها بمفردها وتتذكر امرأة تسألها إن كان لديها أطفال وتتذكر عودتها للمنزل في سيارة أجرة لا يقودها شوج.

تتذكر توقف السيارة في الركن المظلم من المنجم، تتذكر وجه سائق

الأجرة وصراخها واختناقها من رائحة معطر بعد الحلاقة الذي يستخدمه. ولا تتذكر بعد ذلك إلا شعورها بالفزع.

بدأت في التقيؤ مرة أخرى، كان سيلًا عنيفًا يشوبه لون أحمر، تناثر القيء على يدها وعلى الفراش وعلى حقيبتها السوداء، مدت يدها المغطاة بالسائل اللزج وسحبت الوسادة ودفنت رأسها في داخلها وهي تتنفس بصعوبة كأنها تغرق. حركت ساقيها بخجل ووضعت يدها الجافة بين ساقيها وحشرت بعض الملاءات النظيفة فشعرت بوجع جديد يتصاعد مرة أخرى.

مر وقت طويل قبل أن تجد في نفسها القوة للجلوس، أرادت أن تحصل على حمام ساخن ولكن لم يكن لديها أموال كافية لتملأ عداد الغاز.

في إمكانها أن ترى كدمات سوداء على قدميها وفخذها، وكدمات حمراء بحجم فطيرة تخفي تفاصيل الجسد تحتها، شعرت بالبرودة تحت الماء الفاتر، ارتجفت وجففت جسدها، ارتدت ملابس نظيفة، ووضعت مثبت الشعر على رأسها وبعض المسحوق الأزرق فوق عينيها، وجلست كتمثال من الشمع المتجمد.

لم تستطع أن تتحرك عندما سمعت صوت طرق متقطع على الباب الأمامي، وجاء صوت عبر الباب يقول: "أغـ..نيس، أغنيـ..س، هذه أنا، أنا جينتي مكلينشي".

قبل أن تستطيع أغنيس أن تجيب كانت جينتي تقف بجوار كرسيها وتنظر لجسدها المتجمد وهي تقول: "هل أستطيع الدخول؟".

نظرت جينتي إلى المرأة المتجمدة وجزت على أسنانها وهي تقول:

"أوه، أيتها الدجاجة يبدو أنك نقعتِ نفسك في الماء لمدة طويلة".

من بين كل أبناء عمومتها، جينتي هي المرأة الوحيدة التي تفوح منها رائحة جيدة، تستخدم عطر إليزابيث أردن[60] وتضع الكريمات على وجهها.

تضع جينتي فوق رأسها غطاء من القش زهري اللون، وترتدي حذاء مسطحًا مريحًا لأقدامها التي بحجم أقدام الأطفال، تضع قلادة القديس كريستوفر باستمرار، وتقسم بالكتاب المقدس عندما تطلق أحكامها على الآخرين.

مثلما يجعل الخمر أغنيس حزينة ومكتئبة، فهو يجعل جينتي مكلينشي حازمة وصارمة.

تُقيم حياة الآخرين وتصحح أخطاءهم. كان يكفي أن تشرب قدحين من البيرة، ثم تبدأ في إطلاق الأحكام، تضيق عينيها بنظرة متفحصة كالقاضي المتهور في مسابقات صنع المربى ثم تقول كل ما يخطر على بالها، يقال إنها تعرف كل ما يحدث في جميع المنازل بالحي السكني.

نظرت جينتي في شفقة إلى أغنيس وقالت:

"يجب عليك أن تأكلي شيئًا أيتها المسكينة".

حاولت أغنيس الابتسام ولكن شفتيها لم تقو على ذلك، اتجهت جينتي إلى المطبخ وأخذت تبحث في الخزانة، تعلم أغنيس أنها تبحث عن شيء تشربه بجانب بحثها عن الطعام، بعد فترة من الوقت عادت بقطعة واحدة من الخبز البني المحمص وهي تسأل بصوت طفولي عالٍ:

60- Elizabeth Arden شركة أمريكية لمستحضرات التجميل والعطور تم تسميتها نسبة للسيدة المؤسسة. (المترجم)

"هل كانت ليلة سيئة أيتها الدجاجة؟".

ردت أغنيس:

"نعم".

قالت جينتي:

"حسنًا يا دجاجة، لن أستطيع البقاء طويلًا لقد جئت للحصول على بعض الشاي وسوف أرحل".

حاولت أغنيس أن تمسك بالطبق، ولكنه سقط من يدها ووقع الخبز المحمص على الأرض.

"أوه، يا عزيزتي، إن حالتك مروعة، حاولي أن تتمالكي نفسك".

رفعت أغنيس يدها في مقابل وجهها، شعرت بألم في ذراعها، تغطي الكدمات كل مكان في جسدها.

"حسنًا، حسنًا، كم أكره أن أراك تتألمين".

نظرت أغنيس إلى جينتي بجانب عينيها وأطلقت زفرة، سألتها جينتي:

"لا أعتقد أن لديك بعض من الخمر، أليس كذلك؟".

تعرف أغنيس أن جينتي لديها الإجابة لأنها بحثت بالفعل، ولكنها تعرف أيضًا أن هناك زجاجة أخيرة مخبأة في حقيبة ورقية أسفل حوض المطبخ، خلف مبيض الغسيل.

كان رأسها يسبح بالأفكار، فأخبرتها عن مكان الزجاجة.

هرعت جينتي إلى المطبخ وبحثت عنها حتى أحضرتها بسهولة، وأحضرت اثنين من أقداح الشاي الصغيرة، وضعت الزجاجة والقدحين على الطاولة، ثم فتحت الزجاجة.

قالت جينتي:

"هذا لطيف، أعتقد أنه من الممكن أن نتخطى الشاي والفطور ونتناول هذا مباشرة".

ناولت أغنيس قدحًا، وضعته أغنيس على شفتيها وتناولت رشفة صغيرة فتألمت معدتها.

رفعت جينتي قدحها وتناولت رشفة صغيرة كأنها فأر يشرب، ثم شربت قدحًا آخر ثم قدحًا ثالثًا، لم تتكلم المرأتان مرة أخرى حتى فرغت الزجاجة تمامًا.

شعرت أغنيس أن بطنها منتفخ ولكن الألم في عظامها خف قليلًا، مرت بيدها على فخذها العاري وشعرت بالغضب، نظرت جينتي إلى قاع الزجاجة الخالية وقالت:

"حسنًا لن أستطيع أن أمكث لفترة طويلة".

بدأت في وضع بعض ملمع الشفاه قبل أن تقول:

"هل هناك شخص ما ترغبين في وجوده بجوارك؟".

أومأت أغنيس برأسها في ضعف.

قالت جينتي في خبث شديد:

"لم أبحث تحت غطاء البالوعة أو في باقي الخزانات الخشبية، هل لديك مكان سري آخر؟".

فكرت أغنيس في كل الأماكن التي اعتادت أن تخبئ فيها عبوات البيرة، ولكن لا شيء، فهزت رأسها نافية.

"ربما يمكنني أن أشتري لك البعض عندما أذهب إلى المتجر، لا أستطيع أن أمكث لفترة طويلة".

فتحت أغنيس حقيبتها الجلدية لم تجد إلا قطعة صغيرة من العلكة، حاولت أن تتذكر سائق الأجرة، لعبة البنغو، ولكن لا شيء.

"لا يوجد لديك القليل من المال يا دجاجة؟".

هزت أغنيس رأسها.

قامت جينتي من مقعدها بسرعة وكأنها تعاني من الحكة، ثم نظرت إلى أغنيس وإلى القدح الفارغ وبعد تفكير قالت:

"حسنًا دعيني أنظر في حقيبتي؟".

فتحت حقيبتها الجلدية الكبيرة، سمعت أغنيس صوت مفاتيح وعملات معدنية تتحرك في الأسفل ثم سمعت صوتًا يشبه ارتجاج السوائل، وأخرجت جينتي من حقيبتها ثلاث عبوات من البيرة وقالت:

"حسنًا، ها هي يمكنك أن تدفعي لي لاحقًا".

فتحت جينتي العبوات وأعادت الكرة مرة أخرى، صبت البيرة في الأقداح الصغيرة، سالت رغاوي البيرة كالزبد على جوانب العبوات المفتوحة، وبعد أن انتهتا من تناول العبوة الثالثة بدأت السيدتان تستعيدان طبيعتهما مرة أخرى.

مسحت جينتي أنفها بمنديل قذر أخرجته من حقيبتها وقالت:

"كنت في زيارة لابنتي بالأمس، يجب أن تشاهدي المدينة من أعلى منزلها".

"أحافظ في المنزل على وغد عجوز لديه متاعب في الكبد، أعتني به ولكنه يحافظ على نظافة المنزل رغم مرضه".

سألتها أغنيس دون اهتمام:

"وكيف حال مولودها الجديد؟".

ردت جينتي:

"هي بخير على ما أعتقد، إنها تحب أن تفعل كل شيء بنفسها".

ثم أضافت في هدوء:

"سوف تحصل الآن على المزيد من المال الخاص بالإعانة الاجتماعية، لقد أخبرتها أن تبحث عن شخص يساعدها في تنظيف المنزل حتى تحصل على بعض الراحة. إنها ليست نظيفة على كل حال، أنظر إليها في بعض الأحيان ولا أعرف كيف ربيت هذه الفتاة".

وأضافت جينتي:

"كان هناك غبار كثيف على حواف الأثاث في منزلها، فنظرت إليّ كأنها تقول لي: "مامي ألا يمكنك المساعدة".

فالتفت إليها وقلت: لقد انتهيت من تربية أبنائي ولم يعد لديّ المزيد من أجلهم".

ثم أشاحت بيدها في الهواء.

أومأت أغنيس برأسها وهي تشعر بالحزن، كانت ترغب أن يعج منزلها بالأطفال والأحفاد.

أكملت جينتي قائلة:

"اتصل بي حفيدي الآخر جوليان يدعوني لعشاء عيد الميلاد، لا مانع لدي في الحضور ولكن ستكون هناك جدته الأخرى شيريل تلك العجوز الداعرة، ولن أكون الجدة الوحيدة في العشاء".

التقطت جينتي القدح ونظرت إلى أغنيس بتفحص:

"لماذا أنت هادئة لهذا الحد؟".

"أنا؟".

قالت أغنيس:

"لا شيء".

قالت جينتي:

"ربما أنت بخير، ولكنك فاشلة في الكذب".

جلست السيدتان في صمت تحتسيان آخر ما تبقى من عبوة البيرة، قالت أغنيس:

"جينتي، لو أخبرتك بشيء هل تعاهدينني أن يبقى سرًّا بيننا؟".

لمعت عين المرأة ورسمت صليبًا على قلبها لتتعهد بالكتمان، ولكنها تعمدت رسم الصليب على الناحية اليمنى من صدرها:

"أقسم بحياتي".

أخبرتها أغنيس أنها كانت تلعب بنغو الليلة الماضية، وأن سائق الأجرة الذي أوصلها مساء اغتصبها، ثم أرتها الكدمات وعلامات الأصابع التي تركها المغتصب في جلدها الأبيض، هزت المرأة رأسها ذا الشعر المجعد وقالتًا

"الوغد اللعين، من الذي يستغل امرأة ضعيفة ووحيدة بذلك الشكل؟ العالم يتجه لنهايته بلا شك، لو حدث مثل هذا الأمر قديمًا لقبض على النذل وعلق رأسه على أسوار شارع ترونجات".

وبأحد أصابعها جسدت السياج وبأصبع آخر جسدت مؤخرة الرجل.

أمسكت جينتي منديلها ومسحت أنفها، ثم مسحت التراب من على سطح العبوة الأخيرة، وقالت متحسرة:

"ألا يوجد طريقة يمكنك من خلالها الحصول على بضعة جنيهات؟".

فكرت أغنيس في كل الوسائل التي يمكن من خلالها الحصول على بعض المال، وقالت:

"لا؟".

"ألا يمكنك الاتصال بأحد أصدقائك من الرجال ليعطيك بعض المال؟".

فكرت أغنيس في كل الكدمات الموجودة على جسدها وقالت:

"لا".

نظرت جينتي إلى آخر القطرات الذهبية المتبقية وقالت:

"ما رأيك في الاتصال بذلك الصديق الذي أخبرتني عنه؟ ذلك الشخص

ذي الشعر الطويل الذي يصل إلى حافة ظهره، هذا الشخص الذي يشبه لاعبي الكرة ونجوم الروك؟".

"من؟".

فكرت جينتي قليلًا ثم قالت:

"لامبي، نعم يمكنك الاتصال به".

كان لين لامبي أحد عمال المنجم، ولكن زوجته هجرته قبل أن يجف المنجم وتركته وحيدًا، رجل طيب، بعض النساء يقدمن إليه أطباق البطاطس واللحم، وأوعية من المرق، ولكنه احتفظ بنفسه لنفسه، ولم يختلط بالآخرين بعد ما حدث، كان لامبي رجلًا مملًا ووحيدًا لم يخلق للرومانسية، حافظ على أطفاله وحصل على وظيفة بدوام جزئي لإطعامهم ودفع الإيجار، واستمرت النساء في تقديم الطعام له ولصغاره لعام أو أكثر.

صرخت جينتي مرة أخرى:

"نعم لامبي، يمكننا إقامة حفلة صغيرة لنا نحن الثلاثة".

نظرت أغنيس للقدح الفارغ فشعرت بالذعر وأومأت برأسها.

انتفضت جينتي على قدميها الصغيرة كقطة مذعورة، وأسرعت إلى دليل الهاتف وأزاحت عنه الغبار، ثم بدأت في البحث حتى توقفت عند حرف "لام".

تأكدت أن الاسم صحيح والعنوان كذلك، ثم اتصلت به، سعلت قليلًا حتى يصفو صوتها، اليوم كان الخميس والوقت وقت الغداء ولكن الرجل أجاب على كل حال.

قالت بأفضل صوت استطاعت أن تخرجه:

"أهلًا يا لامبي أنا جينتي، أعيش على الجانب الآخر من الحي، نعم هذا صحيح".

"نعم أنت تعرف مهاري، إنها مريضة الآن، وحالتها سيئة، مع الأسف كانت فتاة جميلة، سمعت أنها تعمل حاليًا في بيلثوود[61]، أنت تعرف بالطبع أن هناك فرقًا بين تناول مشروب منعش وبين إدمان الوصفات الطبية، لقد أصبحت الآن معتادة على تناول هذه القذارة المسماة بالفاليوم إنه أمر مروع".

التقطت جينتي أنفاسها:

"على كل حال، اتصلت بك لأعرف إن كانت لديك رغبة في المرور على منزل صديقتي وتناول مشروب صباحي أعرف أن الوقت مبكر ولكنها سيدة جميلة، كنت أرغب في أن تلتقي بها، نعم إنها أغنيس بين، نعم، إنها شاحبة قليلًا ولكنها جميلة".

ابتسمت جينتي ابتسامة واسعة أضاءت كل جنبات غرفة المعيشة وقالت:

"أتمنى أن تكون صديقًا طيبًا وتجلب معك بعض الشراب، نعم ست عبوات من البيرة ونصف زجاجة من الخمر، ويمكنك أن تحضر المزيد لنفسك، نعم إنها لطيفة ومحترمة وتجيد الحديث، تذكر أنه المنزل الموجود على الناصية".

أنهت جينتي المكالمة، وأخبرت أغنيس أنه سوف يأتي خلال ساعة

61- Blythswood أحد الأحياء الفاخرة الذي كانت تملكه في الماضي عائلة ثرية وطورته ليحتوي على فندق ضخم وعدد من الشركات والمصانع والمنازل ذات الواجهات الأنيقة. (المترجم)

واحدة وبدأت في تنظيف المكان وإبعاد العبوات الفارغة، ثم قالت:

"تعرفين يا دجاجة؟ لو كنت مكانك لصففت شعري، وحاولت إخفاء الكدمات واعتنيت بمظهري قليلًا حتى يصبح شهيًّا".

انتظرت السيدتان ما يزيد على ساعة حتى وصل لامبي أخيرًا، قادته جينتي إلى الداخل، كان يرتدي سترة عصرية تشبه ملابس المراهقين، جلس على حافة المقعد.

استطاعت أغنيس أن تتبين أن كل ما يقال عنه حقيقي، أخرجت جينتي الشراب من الكيس الذي يحمله وقدمته إلى أغنيس.

عندما تكلم ظهر صف أسنانه الأنيقة:

"تشرفت بمعرفتك يا أغنيس".

حشدت أغنيس أكبر قدر ممكن من الجاذبية وهي تقول:

"لطف منك أن تأتي لزيارتي، من الصعب أن يجد المرء بعض المتعة في مكان مقفر مثل هذا".

قال لامبي:

"لا يحصل الفتى من أمثالي على عرض يومي من سيدتين جميلتين".

ضحكت جينتي ضحكة قذرة وعالية.

"سمعت أغنيس مسبقًا إطراء أفضل من هذا".

سألت أغنيس:

"هل أنت غير ذي صلة؟ لم ألتق مسبقًا بأحد من سكان الحي لا تربطه علاقة بجينتي عن طريق المصاهرة أو القرابة أو الصداقة".

"لا أعتقد أن زوجتي السابقة تربطها علاقة بعائلة ماكافيني، نحن نعيش على الجانب الآخر من الحي، الجانب الذي به الأسقف المسطحة والدخان الكثيف".

ابتسمت أغنيس:

"أتعجب أن الأطفال تستطيع أن تعيش هناك".

ابتسم لامبي للإهانة المغلفة وقال:

"هذا صحيح، ولكني أبذل قصارى جهدي، رغم أني أصبحت حديث الجميع".

صبت جينتي ثلاث كؤوس من الفودكا، ثم صبت فوقها البيرة الصفراء، وكان مظهر الخليط بريئًا مثل كأس من الزنجبيل، أخذت لنفسها رشفة كبيرة حتى ملأت فمها، أخرج لامبي علبة التبغ واللفائف ولعق بلسانه الوردي حافة الورق ومرر أول سيجارة إلى جينتي، وقال:

"السعادة ليست مكلفة".

ردت جينتي:

"أغنيس مطلقة ولكنها سعيدة، وهي محظوظة أيضًا".

ثم أضافت:

"يمكن لأي امرأة أن تشعر بالسعادة لعدم وجود كيس من اللحم يشخر بجانبها كل ليلة، أليس كذلك أيتها الدجاجة؟".

قال لامبي:

"تتحدثين كامرأة ناضجة".

ظنت أغنيس أنه صغير جدًّا ليعرف من هي المرأة الناضجة، ولكنها لم تنطق شيئًا، بدأ لامبي في لف السيجارة الثانية ببطء شديد، لاحظت أغنيس أن أظافره وعنقه نظيفان للغاية وكأنه انتهى لتوه من الاستحمام، سأل لامبي:

"هل تعنين أن بعض الرجال ما زالوا صالحين؟".

عقدت جينتي ساقيها مثل مراهقة في حالة شبق، وقالت:

"لا، هل تعرفين لمَ يهدف هذا الفتى اللعوب؟ إنه يظن أننا سذج".

بدأت حرارة الفودكا تثير عروق رقبتها وهي تقول:

"هل تواعد أحدًا يا لامبي؟".

قال وهو ينظر إلى أغنيس:

"أواعد زوجًا من الطيور، أنا متاح في هذه الفترة، ولكن لي بعض العلاقات السطحية".

قالت جينتي:

"كشأن كل الرجال؟ أغنيس خصصت نفسها لسائقي الأجرة في جلاسكو".

شعرت أغنيس بوخز الكلمات في صدرها، وبألم من الكدمات المنتشرة على جسدها، ولكنها رفعت الكوب وشربت وهي تومئ برأسها في حزن.

أضافت جينتي:

"ليس لديك فرصة مع هذه الفتاة يا صديقي، فهي لا تهتم إلا بسائقي الأجرة".

نظر إلبها لامبي بدهشة وسأل:

"هل هذا صحيح يا أغنيس؟".

أجابت جينتي:

"إنه صحيح، إنه ليس خيارًا بالنسبة لها، إنها لعنة لا خلاص منها، إنها تتبدل تمامًا ما إن تسمع محرك السيارة وتشعر بحركة الإطارات".

ساد صمت كئيب وبارد في الحجرة، وكأن الهواء يمتص ببطء، بدأ الشراب يتمكن من أغنيس، فقالت بصوت منخفض يبدو كتهديد وفحيح:

"يا لك من خائنة وضيعة أيتها القذرة، لقد طعنتني في ظهري يا جينتي مكلينشي".

توقفت جينتي عن الضحك، ونظرت إلى أغنيس مباشرة نظرة حادة تشبه السكين القاطع ولكنها قالت في لطف:

"أنا لم أقصد شيئًا، هدئي من نفسك".

تنقل بصر لامبي بين السيدتين بقلق، فقالت جينتي وهي تصب مزيدًا من الشراب:

"لا تأبه لها، إنها لم تكن محظوظة في الحب بالأمس ولذلك فهي منزعجة قليلًا".

استمر الجميع في الشرب، ولم تنطق أغنيس بشيء طوال الوقت، كانت تكتفي بتناول كل ما تصبه جينتي لها من خمر، وكل ما يلفه لامبي لها من سجائر، وتكتفي كلما وجه لها لامبي الحديث بإجابات مقتضبة مثل:

"نعم، لا، ربما".

بمرو الوقت قالت جينتي:

"لا أعرف ماذا دهاها؟ لقد كانت مرحة وكثيرة الضحك".

رد لامبي:

"لا بأس".

"لماذا ترتدي سترتك حتى الآن؟ هل تشعر بالحرج لأن قميصك غير نظيف، ولا يوجد من يعتني بك في المنزل؟".

احمر وجه لامبي.

"حسنًا لا أريدك أن تغادر وأنت تظن أنك قضيت اليوم في دار المسنين، أدِر بعض الموسيقى، سوف نقيم حفلة صاخبة".

مد لامبي يده وفتح جهاز المسجل القديم الخاص بليزي وقال:

"كانت زوجتي تملك واحدًا مثل هذا".

قالت جينتي مازحة: "لا بد أن يرقص الجميع".

رد لامبي: "اتركيها وشأنها، ربما هي لا ترغب في الرقص".

نظرت جينتي إلى أغنيس نظرة حادة وكأنها مديرة مدرسة وقالت:

"سيدة بين، هذه حفلة وقد جلب لنا الرجل الشراب يجب عليك أن ترقصي له".

نظرت أغنيس إلى لامبي، وكأنه طفل في المدرسة، فمد يده وسحبها حتى تقف بالطريقة التي يزيح بها السباكون غطاء بالوعة صرف مغلقة،

قالت جينتي بخبث وهي تحكم يده خلف ظهرها:

"يجب عليك أن تحسني استقباله".

رقص الاثنان معًا بطريقة خرقاء، كأنهما في نهاية الليل واصطدمت أجسادهما المتعرقة معًا، اقترب وجه أغنيس من وجهه، فلاحظت أنه انتهى من حلاقة ذقنه للتو، كانت رقبته مثل لحم الإوز الملتهب، وتفوح منها رائحة معطر ما بعد الحلاقة التي تشبه رائحة منظف الحمام، هي رائحة لا تثيرها جنسيًّا على الإطلاق، قال لها مجاملًا:

"أنت تجيدين الرقص".

هزت أغنيس رأسها متظاهرة بالاهتمام، كان جسدها بالمكان وروحها غائبة، ارتشفت جينتي جرعة من الشراب وقالت:

"قبليه قبلة صغيرة، لا تكوني بخيلة، لقد اشترى لك كل هذا الشراب".

كانت أغنيس أطول بقليل من الرجل الذي ترقص معه، وتشعر أنه يشبه ليك إلى حد ما.

نظرت إليه بدقة فلاحظت جرحًا في وجهه، يمتد من حافة الأذن اليسرى وصولًا إلى الذقن.

قال لامبي:

"هل لاحظت ذلك؟".

صاحت جينتي وهي تفتح عبوة أخرى من البيرة:

"أعطيه قبلة صغيرة بحق السماء".

مرت أغنيس بيدها على وجه الشاب وهي تفكر في مقدار افتقادها لابنها الأكبر، وقالت:

"أنت تشبه ليك كثيرًا".

مد لامبي يده على وجهها وشعرها وفمها، شعرت أغنيس بحرارة شفتيه، وبطعم أسنانه وشعرت بيده تنزلق إلى أسفل ظهرها، شعرت جينتي بفرحة جامحة لأنها نجحت في تنفيذ مخططها، بدأت يده تصل في مكر إلى مؤخرتها وتعتصرها، ارتفع سائل حامض من البيرة والفودكا بداخل حنجرتها، حاولت أن تدير وجهها بسرعة ولكن بعد فوات الأوان، تقيأت محتويات معدتها على سترته العصرية.

صرخ الرجل بغضب: "بحق الجحيم!".

سمعت أغنيس صوت طفل صغير يصيح:

"مامي".

يقف شوجي عند الباب، تراجعت أغنيس وسقطت على المقعد وهي تخفي وجهها خلف كفيها وتبكي بحرارة، نظر الرجل إلى الصبي الصغير في ملابس المدرسة، وإلى المرأة التي تحترق من التعب والخمر، وانصرف، عبر بسرعة من جوار شوجي.

صاحت جينتي:

"لامبي يا صغيري هي ليست على طبيعتها، سوف أتصل بك في يوم آخر، لنقيم حفلة جديدة".

تابعت جينتي الرجل وهو يعبر الباب الأمامي مسرعًا، ويغلقه خلفه بصفعة قوية.

ثم اتجهت إلى المنضدة وقامت بجمع كل ما تبقى من البيرة من العبوات المفتوحة في داخل عبوة واحدة، ووضعتها في جوف حقيبتها، ثم شربت الكمية الزائدة في رشفتين كبيرتين أو ثلاث، وأخرجت من حقيبتها وشاحًا زهري اللون وقالت:

"لن أستطيع أن أمكث لفترة طويلة".

18

وقف شوجي بعيدًا عن الكرة قدر استطاعته، كان يخشى أن يصيبه الأولاد بالكرة بينما يلعبون، يفضل أن يشاهد الفتيات وهن يرقصن على جانب الملعب بالأشرطة الملونة التي تشبه قوس قزح.

وعلى غفلة شعر بانفجار قوي على جانب وجهه، ارتطمت الكرة بأذنه اليسرى ثم تدحرجت ليلتقطها أفراد الفريق المنافس ويسجلون هدفًا، توقف فرانسيس ماكافيني الابن الأكبر لعائلة ماكافيني بجانب شوجي.

كان لما حدث بين كولين وجيمس الكبير أشد الأثر بالنسبة له، أصبح مسؤولًا عن المنزل وعن إخوته، وتم ترقيته فجأة بالحصول على لقب "رجل المنزل"، صار من الواجب عليه الاعتناء بإخوته بينما غرقت كولين في حبوب بريدي الزرقاء، اقترب الفتى من شوجي بقدر ما يستطيع لدرجة أن شوجي شعر ببصاقه الحار وهو يقول:

"اللعنة عليك، توقف عن القيام بدور المخنث الوضيع".

تجمع باقي الأولاد من حوله كمجموعة من كلاب المنجم الجائعة التي يطل من أعينها النهم، قال فرانسيس غاضبًا:

"هل ترغب في أن تتحول إلى فتاة؟ هل ترغب في ارتداء ملابس الفتيات؟".

هز شوج رأسه في تأثر:

"لا، لا أرغب في ذلك؟".

دفعه فرانسيس بقوة في صدره وقال:

"لا تتحدث معي مرة أخرى أيها الوغد اللعين، سوف تحترق في الجحيم أنت والأب باري بسبب أفعالكم القذرة معًا".

ارتفع ضحك الأولاد المحيطين بشوجي، ثم اختفت الضحكات وحل محلها صياح متكرر كفرقة موسيقية:

"اضربه، اضربه، اضربه".

رفع فرانسيس يده وصفع شوجي على خده بقوة، ثم ضم قبضة يده اليسرى ولكمه في وجهه، سقط شوجي على الأرض وهو يشعر بطنين شديد في رأسه، قال فرانسيس:

"يسمي أبي هذه الضربة صائدة الفئران".

ظهرت فوق رأس شوجي أقدام عارية، وارتفع صوت فتاة يشبه صوت الدجاج:

"اتركه أيها الوغد اللعين، إن لدي أبناء عمومة أكثر من كل أقاربك، وسوف يوسعونك ضربًا".

"لا شأن لك به".

"أريدك أن تجرب أن تفعل شيئًا معي، وسوف تواجه مصيرك".

رفع شوجي رأسه فرأى أقدام فتاة عارية وجوربًا ورديًّا لامعًا، بدأ الأولاد يبتعدون وهم يسبونها، ويشيرون لها بأصابعهم إشارات بذيئة.

عندما رفع شوجي رأسه أكثر من ذلك، استطاع أن يرى سروالها

الداخلي المطرز بالأزهار مدت الفتاة يدها تحت إبطيه ورفعته وهي تقول:

"يجب أن تدافع عن نفسك، وترد له الضربة حتى لا يعيد الكرة مرة أخرى".

وقف شوجي وهو لا يعرف أي جانب من وجهه يجب عليه فركه أولًا، سألته الفتاة:

"هل تريد البكاء؟".

رد: "نعم".

"حسنًا لا تفعل ذلك بعد، انتظر حتى نصل إلى الركن بعيدًا عن الأنظار، ولن أخبر أحدًا".

قادته إلى خارج الملعب بينما كان الأولاد يتسلقون السور مبتعدين وهم يبصقون عليهم صائحين:

"اذهبوا للعب بالدمى".

انطلقت الفتاة وأمسكت أحد الأولاد ولطمت رأسه في السياج، وصاحت:

"اركض".

بدأت في الركض وشوجي وراءها، حتى ابتعدا كثيرًا عن المكان، مثيرين سحابة من التراب خلفهما، ولم يتوقفا لالتقاط أنفاسهما حتى وصلا لنصف الطريق للتل المنخفض على حافة بيتهيد.

بدأت الفتاة، بعد ذلك في الضحك، لها شعر ليموني اللون ووجه مليء بالنمش، وفارق واضح بين أسنانها الأمامية، وأعين زرقاء رخامية كعين

القطط.

سألها شوجي وهو يحاول ألا ينخرط في البكاء:

"هل لديك حقًّا أبناء عمومة يكفون للعراك مع عائلة ماكافيني؟".

"لا، لا يوجد غير أبي وهو على استعداد لأن يتشاجر معي من أجل جهاز التحكم في التلفاز، ولكن كان يجب أن أخبره بذلك حتى يشعر بالخوف".

ثم هزت كتفها قائلة:

"اسمى آني، أنا أكبر منك بعام واحد".

"أوه يا آني، لماذا لم أرك من قبل؟".

"أنا رأيتك من قبل، وكذلك رآك الجميع".

أشارت إلى طريق مسدود أعلى التل حيث توجد مجموعة من المنازل المتنقلة:

"نحن نعيش في منزل متنقل ولكني سوف أسير معك حتى تصل إلى منزلك ولن يجرؤ أحد منهم على أن يلمسك وأنت بصحبتي".

"أنا لا أرغب في أن أعود إلى المنزل".

قالت بحكمة:

"اليوم هو الخميس، أعتقد أنها لا تملك المال الكافي لشراء الشراب".

"كيف عرفت ذلك؟".

عقدت ذراعيها أمام صدرها:

"لقد رأيتها مرة واحدة، إن والدتك سيدة لطيفة، ولم أر أحدًا مثلها من قبل".

"أرجو ألا تكون أزعجتك".

"على الإطلاق إن رائحتها جميلة، هي علمتني كيف أجمل شعري، أشعر بالضيق بسبب الأشياء المخزية التي يقولونها، يجب عليك الدفاع عنها".

"أنا أدافع عنها، ولكنها تخوض معركة مع نفسها معظم الوقت".

"اللعنة عليهم جميعًا، أبي كذلك يريد أن يشرب حتى الموت، آه كم أفتقد أمي".

"هل أمك ميتة؟".

"ماتت بطريقة ما، إنها تعيش في كامبلسونج[62] مع إخوتي الصغار ولاعب كرة قدم شبه محترف".

سار الاثنان في اتجاه الحقل الذي توجد عليه المنازل المتنقلة.

قالت آني:

"في الحقيقة يجب عليكما مقاومة هذه الأقاويل، سمعت الناس يقولون إنها عاهرة تبيع نفسها من أجل الشراب، وإنها السبب في ما أصبحت أنت عليه، وإنك بحاجة لوالدك حتى تصبح كالآخرين".

ظهر الحزن على وجه الفتاة بعد ذلك:

"لكنها جميلة للغاية، لم أقابل امرأة أجمل منها، سوف أشعر بالفخر لو كانت أمي".

62- مدينة صغيرة تقع في الضواحي الجنوبية الشرقية لجلاسكو ويعتبرها البعض أكبر قرى اسكتلندا. (المترجم)

شكلت اثنتا عشرة عربة متنقلة ما يشبه نصف الدائرة وصنع شخص ما مسارًا من الحجارة والطمي، صف سكان المنازل المتنقلة المصنوعة من الصفيح خلفه متعلقاتهم الشخصية وأثاثهم الرطب بشكل بذيء، جعل شوجي يشعر بالصدمة.

وصلت آني إلى منزل يجلس أمامه كلب من نوع الراعي الألماني، وبدأت في الصعود فأخذ الكلب يقفز عليها في سعادة، تبعها شوجي إلى المنزل وهو يسير بحذر ملتفًا من خلف كلب الحراسة وهو يضم حقيبته المدرسية إلى صدره.

كان المنزل المتنقل طويلًا وضيقًا، في نهايته مطبخ صغير على هيئة حدوة حصان، وفي المنتصف صالة طعام صغيرة، وتليفزيون معلق في السقف، وعلى الأرض عدد كبير من تذاكر سباقات الخيول، وكان في الحوض عدد من الأطباق البلاستيكية المتسخة، استطاع شوجي أن يشاهد النمل وهو يحمل بقايا الطعام من بينها، قالت آني بصوت مرتفع:

"أبي لقد عدت".

رأى شوجي بصعوبة رجلًا منحنيًا على طاولة الطعام، وأمامه ورقة يضع فيها علامات بقلم الحبر على بعض أسماء الخيول.

"هل أكلت؟ يمكنني إعداد بعض رقائق الذرة أو تسخين بعض الحليب".

لم يجب الرجل، شاهده شوجي يشرب شيئًا في قدح صغير مخصص للشاي، ويكمل ما يفعله، حاول شوجي ألا يتخيل والدته تجلس في نفس المكان.

فتحت آني باب غرفة نومها ودعت الصبي للداخل، كانت الغرفة وردية كأنها قصر صغير وبها اثنان من الأسرة محشورة في مساحة ضيقة، عليها أغطية مزينة برسومات لأميرات ديزني، وعلى الجدار أرفف رفيعة عليها مهور صغيرة ملونة بألوان قوس قزح. كانت الغرفة نظيفة لدرجة ملحوظة.

قالت آني وهي تسير على السجادة الوردية الكثيفة بين الأسرة:

"آسفة على الفوضى، حاول أن تبقي قدميك دائمًا فوق السجادة، من الصعب عليّ أن أراه جالسًا طوال الوقت في هذه الحالة القذرة، أخبرني كيف تتحول والدتك بعد أن تفرط في الشراب، هل تصبح متبلدة الحس مثله؟".

قال شوجي:

"لا، إنها تسكر كثيرًا، ثم تغضب كثيرًا، أشعر بالقلق من أن تؤذي نفسها".

"كيف تؤذي نفسها؟".

"كل يوم قبل أن أذهب إلى المدرسة أخبئ كل حبوب الأدوية في مكان خفي، وأخي الأكبر يأخذ كل شفرات الحلاقة معه قبل أن ينصرف من المنزل".

ثم بدأ يلف يده تحت الغطاء ويقول:

"أسوأ ما في الأمر أنها تفقد كرامتها، ولا يريد الناس أن يكونوا بصحبتها بعد ذلك، تعيش أختي مع زوجها في بلاد السود، وأخي يرغب في أن يوفر ما يكفيه من المال حتى يرحل بعيدًا".

دفعت آني بيدها تحت الفراش، وأخرجت كتاب تلوين قديم.

شعر شوجي بخيبة أمل عندما لاحظ أنها تستطيع التلوين بشكل جيد ولكنها تخرج عن حدود اللوحات.

سألته:

"هل ترغب في التلوين؟".

"عندما أغلق المنجم اضطررت إلى البقاء هنا من أجل العناية بوالدي".

أضافت آني:

"لم تكن والدتي تتحمل هذه المعيشة".

ثم مرت بيدها خلال كتاب التلوين وسألته مرة أخرى بعنف:

"هل ترغب في التلوين؟".

هز شوجي رأسه، ولكن آني لاحظت أنه ينظر في سعادة وشغف إلى المهور الملونة على الرف، فسألته وهي تفحص ملامحه بدقة:

"هل ترغب في اللعب بالمهور الصغيرة؟".

هز رأسه في إشارة لعدم اهتمامه بالأمر.

"أرسلتهم لي أمي في عيد ميلادي، ثم أرسلت مثلهم في عيد الفصح، إنها تستمر في إرسال نفس الهدية في كل مناسبة، لذلك أدرك أنها لا تهتم بشأني".

أعطت شوجي حصانًا ورديًّا صغيرًا له شعر طويل، وذيل بلاستيكي مموج، وأخرجت عددًا من المهور الملونة الأخرى وألقتها فوق السرير، جميعها ذات وجه مبتسم وشعر طويل وألوان زاهية.

"سأسمح لك باللعب ببيتر شكوتش[63] وكوتن كاندي وكذلك بلوسوموس ألعب أنا ببلو بيل أكوس، يريد الجميع سرقة دبابيس شعرها الجميلة ولكنها سريعة جدًّا".

سمحت له آني باللعب بالمهور البلاستكية طوال فترة بعد الظهيرة. كانت تشبه الكلاب الصغيرة ولكن شوجي يراها ألعابًا سحرية رائعة، تسابقا بها على أغطية الفراش، وتحدثا بأصوات تشبه أصوات الرسوم المتحركة، ومشطا شعورها حتى خرجت منها شحنات من الكهرباء الأستاتيكية الساكنة.

في النهاية شعرت آني بالضجر بسبب اللعب بالمهور الملونة، فمدت يدها الرفيعة أسفل الفراش وأخرجت منفضة سجائر على هيئة صدفة بحرية، كان في المنفضة بعض رماد السجائر وعدد من السجائر نصف المحترقة، فتحت شباك العربة المتنقلة وأشعلت واحدة وهي تقول:

"آسفة فأنا أشعر بالعصبية عندما أراه في هذه الحالة".

سحبت نفسًا طويلًا، وأخرجت الدخان من الشباك المفتوح، عرضت آني على شوجي عقب السيجارة المبتل، ولكنه قطب حاجبيه وهز رأسه في رفض، فابتسمت آني ووضعت السيجارة بين أسنانها.

عاد شوجي للعب بالمهور، وفجأة سألته آني:

"شوجي، هل حقًّا أمسكت بقضيب جوني بيل؟".

احمر وجه شوجي وهو يتذكر بوني جوني فتى الغسالة، وشعر بالألم، أراد أن يدفع بألعاب الفتاة بعيدًا عنه، وكأنها دليل على كل الأشياء القذرة

63- أنواع من الحلوى المغلفة. (المترجم)

التي فعلها وقال في غضب كاذب:

"لا".

كانت السيجارة تتدلى بجانب فمها وأعينها نصف مقفلة، عندما سألته مرة أخرى دون أن تعير إجابته اهتمامًا وهي تطوي المهور الصغيرة في حافظة بلاستيكية مرسوم عليها نجوم ملونة:

"بماذا شعرت وقتها؟".

قال في غضب:

"قلت إنني لم أفعل".

أغلقت عينها اليسرى بسبب الدخان المتصاعد وهي تقول:

"أنا أيضًا أنكر أنني لمست قضيب أي من الأولاد، ولكني فعلت، لقد أمسكت قضيب أوهيني وقضيب فرآني بوشسان".

ابتعد شوجي عن المهور الصغيرة وقال:

"ولكنك في التاسعة من العمر، وهم أكبر منك كثيرًا".

"نعم أحدهم في العاشرة، والآخر يبلغ ثلاثة عشر عامًا، لقد اصطحباني عند الحفرة الكبيرة وجعلاني ألمس قضيبهما في مقابل بعض الباكفاست[64]".

وزفرت دخان السيجارة على شكل دائرة مكتملة الالتفاف.

"ألم تخبري الأب باري؟ سوف تسجنهما الشرطة إن عرفت بذلك".

64- نبيذ مدعم بالكافيين صنعه في الأصل الرهبان في ديفون بإنجلترا. (المترجم)

قالت بلامبالاة شعر معها شوجي بالصدمة:

"لا، الأمر لم يكن يستحق، بالإضافة إلى أن الباكفاست كان جيدًا".

أخذ شوجي يفكر في والدته وشعر أنها سوف تكره هذه العلبة من القصدير ولن تحب والد آني وآثار النيكوتين على الجوانب النحيلة لأصابع الفتاة ثم صرخ:

"لماذا سمحت بذلك؟ لماذا تسمح البنات للأولاد ليفعلن بهن ما يحلو لهم؟".

للمرة الأولى خلال هذه الليلة نفدت الكلمات من آني، فأعادت آني ظهرها للخلف وأخذت تلعب بالمهر البنفسجي.

بدأ كلب الراعي الألماني ينبح في الخارج بقوة وارتج المنزل المتنقل بسبب حركته المفاجئة، صرخت آني وهي في طريقها للخارج:

"رامبو.. رامبو".

كان الكلب ينزلق في الطين مشتبكًا بأسنانه مع كلب آخر.

شعر شوجي بعدم الرغبة في التواجد بهذا المكان لفترة أطول من ذلك، إنه لا يريد الاستمرار في اللعب بألعاب الفتيات، والتظاهر بقبول ملامسة الأعضاء الحميمة للأولاد الآخرين، إنه لا يريد أن يصبح مثل الفتاة ذات الشعر الليموني أو مثل أغنيس.

يريد شوجي أن يكون فتى طبيعيًّا ويتصرف كالفتيان الطبيعيين.

أراد شوجي الانصراف، وهو يسمع آني تصرخ في الكلب رامبو حتى يترك الكلب الآخر، هناك صوت آخر في التلفاز يشبه صوت سباقات الخيول وأراد أن يصرف عن تفكيره آني وأغنيس والرجل صاحب السترة

الملونة الذي جلب لها عبوات البيرة التي تفضلها، شعر شوجي بالغضب، ففتح حقيبته المدرسية ووضع اثنين من المهور الصغيرة بالداخل.

في كل يوم دراسي يرفع شوجي يده في أدب ويطلب من الأب إيوان أن ينصرف مبكرًا، في البداية كان الأب إيوان يشعر بالغضب من طلب الفتى المتكرر والمنتظم مثل دقات الساعة، ويطلب منه أن ينتظر لنهاية اليوم الدراسي مثل باقي التلاميذ لمدة خمس عشرة دقيقة إضافية، فيضطر شوجي إلى الانتظار وهو يشعر بالخزي والغضب، ثم يطلب منه الأب إيوان أن يقابله بعد نهاية اليوم الدراسي في الحجرة المخصصة للمدرسين بعد أن يصرف باقي الأولاد، ثم يبدأ في إلقاء النكات حول عسر الهضم الذي يصيب عمال المناجم بسبب تناول النقانق والكرنب.

كان الصبى الصغير المهذب هو الطفل الوحيد في فصله الذي يستطيع التمييز بين فعل الأمر وفعل الرجاء ولكن ذلك لم يكن يشفع له، لذلك كان يحاول الهرب والاختباء في المرحاض بسبب خوفه المتصاعد مما قد ينتظره في المنزل.

تتوقف أغنيس عن الشراب في بعض الأحيان فتصبح واعية ولكن ذلك أمر لا يستمر طويلًا، تمامًا كشروق الشمس لبضع دقائق في مناخ عاصف. توقف شوجي عن إحصاء اللحظات السعيدة والعطلات السعيدة فهي سرعان ما تنتهي ويعود الامر كما كان دون تغير. لم يعد الصبي يستطيع أن يتذكر أوقاتًا سعيدة ولم يعد يستطيع بمرور الوقت تذكر المرات التي توقفت فيها عن الشراب وأصبحت بكامل وعيها.

يتذكر عودته من المدرسة إلى المنزل في أحد أيام الجمعة في شهر نوفمبر ووقوفه خارج المنزل كما يفعل دائمًا محاولًا أن يعرف من تفاصيل المنزل ما الذي يحدث في الداخل.

في هذا اليوم كانت الستائر مغلقة على من بداخل المنزل اتقاء لشر البرد والأنوار مضاءة، استطاع أن يسمع طنينًا ونجيبًا بداخل المنزل، فعرف أنها ستكون ليلة سيئة، سوف تمنعه من الخروج وتحكي له العديد من القصص عن الرجال الذين خذلوها، كان يعرف كذلك أنه في حالة سماع أصوات موسيقى ريفية وقيثارات حزينة فإن ذلك يعني أنها ستبلل ملابسها الداخلية.

لم يكن حديثها في الهاتف في كل الأحيان علامة سيئة، كان عليه التسلل دون أن تلاحظ بين باب المنزل الأمامي والباب الزجاجي الخارجي وإلصاق أذنه بالباب ليستمع باهتمام شديد لنبرة صوتها وهو يحبس أنفاسه.

لم يكن عليها البكاء أو الصراخ حتى يدرك أن الشراب تمكن منها فهي تتصرف في بعض الأحيان بأدب شديد نتيجة تعاطي الخمر وتتحدث بلهجة ميلجاي المفتعلة مليئة بالكلمات الرنانة ذات المقاطع الطويلة، مستخدمة مفردات مثل بالتأكيد وللأسف، ما يدل على أنها في أسوأ حالاتها.

عندما تكون أغنيس حزينة بسبب كل خسائرها ولكنها لم تقترب من فقدان الوعي، تجعله يجلس بجانبها لتحكي له قصة حياتها، وبجانبها علبه سجائر لم يتبقَّ إلا نصفها.

ثم تشير إلى دليل الهاتف وتطلب من الصبي أن يطلب أحد الأرقام التي تقرأها عليه:

"خمسة - خمسة - أربعة، ستة - ثلاثة - ثلاثة - تسعة."

يتمنى الصبي في كل مرة يدير قرص الهاتف، ألا يجيب أحد، جاء صوت يشبه الزقزقة من الطرف الآخر:

"مرحبًا".

رد الغريب: "مرحبًا".

يقول شوجي وأغنيس تومئ برأسها:

"أنا آسف بشدة لإزعاجك، ولكني أبحث عن شخص يدعى السيد كام ماكالوم".

يسأل الصوت:

"من؟".

يكرر الصبي:

"كام ماكالوم، كان يعيش في دينستي في الفترة بين 1967 و1971 وعمل كسائق حافلة في الجزء الشرقي من المدينة يتنقل بين ساحة جورج وشيتلستون وله أخت تدعى رينيه تزوجت من رجل يدعى جوك".

يرد الصوت مرتبكًا بسبب هذه المعلومات التفصيلية الغريبة:

"آسف يا بني، لا يعيش هنا من ينطبق عليه هذا الوصف".

"حسنًا، شكرًا جزيلًا يا سيدي، وآسف لإزعاجك مرة أخرى".

تهمس أغنيس وهي جالسة أمامه وتطلب منه أن يبحث عن شخص آخر باسم ماكالوم في دليل الهاتف، يصبح الأمر أكثر سوءًا عندما تصل أغنيس للشخص الذي تبحث عنه، جاء صوت عبر الطرف الآخر:

"من المتصل؟ أنا كام ماكالوم، ماذا تريد؟".

يخفق قلب الصبي:

"انتظر قليلًا يا سيد ماكالوم، سوف أحول المتصل إليك".

ترفع أغنيس حاجبيها وتقول بلهفة:

"هل هذا هو؟".

يومئ الصبي برأسه وقلبه يرتجف من الخوف، تعدل أغنيس من شعرها وكأن الشخص يمكنه أن يراها عبر الهاتف يمسك شوجي بقدح البيرة وبعلبة سجائرها أو يناولها الهاتف كأنه سكرتيرة مطيعة، تشعل أغنيس سيجارة جديدة وتمسكها بين أصابعها وتمسك بالسماعة وتقول على الفور:

"مرحبًا، أيها الداعر".

يرد الرجل:

"مرحبًا، من المتحدث؟".

"أيها الداعر القذر، سليل العاهرات".

يغلق الرجل الخط بعصبية، وكذلك تفعل أغنيس، ثم تسحب نفسًا طويلًا من سيجارتها وتعاود الاتصال مرة أخرى:

"لا تغلق الخط في وجهي".

"من أنت عليك اللعنة؟".

"هل تظن أنه بإمكانك الإفلات من العقاب أيها القذر، يا جاحد القلب عديم الشعور".

يغلق ماكالوم الخط مرة أخرى وإن كان حكيمًا ربما يكون نزع الهاتف من مكانه للأبد.

تعود أغنيس للبحث في دليل الهاتف مرة أخرى كأنها تبحث في قائمة الطعام بجوع عن فريسة، حتى تصل إلى أحد الرجال الذين ظلموها حسب الترتيب الأبجدي.

الرجل التالي في القائمة بريندان ماكجوان.

تلتفت إلى شوجي:

"انتظر حتى أخبرك عن هذا الوغد الذميم كثيف الشعر، كانت خسارته لي أكبر خطأ ارتكبه في حياته".

يمكنها الجلوس بجوار الهاتف حتى يحل الظلام، ثم تستمر في الجلوس في الظلام بلا ضوء حولها سوى سيجارتها المشتعلة. يجلس شوجي بالقرب منها يستمع إلى نواحها، خائفًا من إنارة الضوء حتى تستسلم للنعاس، مخافة إن يجذبها الضوء إليه مثل العثة.

يضطر شوجي للتسلل عندما يعود إلى المنزل بعد المدرسة، حتى لا يسمع تلك الحكايات القديمة ولا يتصل بأشخاص عبر الهاتف ولا ينصت لبكائها طوال الليل.

من الممكن لأقل صوت أو همهمة أن يوقظها لتمارس طقوسها طوال الليل.

يتسلل شوجي إلى المنزل ويستمع بحرص، لا يسمع صوتًا، يظن أنها علامة جيدة. يضم يديه إلي جانبيه حتى لا تصطدم بشيء.

أغنيس تجلس على الأرض ترتدي تنورتها السوداء الضيقة ومعطفها الشتوي الفاخر، راكعة وكأنها تصلي، ولكن يدها ممددة في ليونة فوق مشمع الأرضية، الصمت خدعة كبيرة، قطعها انبعاث الغاز من فرن المطبخ الأبيض الكبير الذي أخذها لمكان بعيد. يتعلم شوجي بعد ذلك ألا

يثق بالصمت مطلقًا.

أفضل الأصوات التي يسمعها في المنزل هي أصوات الأواني في المطبخ، وأصوات النساء وهي تجلب الأطعمة والشراب، وأصوات الملاعق المعدنية وفقاقيع الحساء وهي تغلي في القدور الكبيرة.

بخلاف عائلة ماكفيني فإن أسوأ المتنمرين في المدرسة، ما زال آباؤهم يملكون وظيفة، إنهم يطهون طعامهم داخل أفران الميكروويف ويلفونه بأوراق الألومنيوم. هؤلاء الآباء الأصغر سنًّا يتركون الأطفال يأكلون ما يحلو لهم في الوقت الذي يحلو لهم.

ثم يغيظون بعد هذا الأطفال الذين يأكلون الطعام المصنوع في أفران عادية ويقولون إن رائحتهم تشبه رائحة البيض الفاسد.

كلما قالوا هذا لشوجي يشم نفسه جيدًا في حزن ويدفن رأسه بين ذراعيه، كان شوجي يحب الملفوف، ولحم الضأن، ولحم الخنزير والبطاطس، ولكن الأشخاص الطيبين الذين كانوا يحضرونها إلى المنزل توقفوا منذ زمن بعيد وكلما طال بقاؤهم في بيتهيد قل احتمال أن يعودوا مرة أخرى.

كان أسوأ الزوار الذين يترددون على المنزل هم "الأعمام" من عمال المنجم، هؤلاء الرجال العصبيون المتشدقون ذوو الشعور التي تكون مبتلة دائمًا، يأتون ليتفقدوا أحوالها، وطريقة معيشتها دون أن يكون لديها رجل، يجلبون قطع الشكولاتة وحقائب ورقية مليئة بعبوات البيرة. ويظلون مرتدين ستراتهم بداخل المنزل.

يعلم شوجي أن عودته من المدرسة تفسد مخططاتهم القذرة، لذلك كان أحد هؤلاء الأعمام بين الحين والآخر يتظاهر بالاهتمام بالصبي فيلقي قطعة من الشكولاتة فوق المائدة المغطاة برماد السجائر، ثم

يسأله عن أحواله في المدرسة، وإن كان يفضل اللعب في الخارج، استمر هذا الاهتمام المصطنع حتى وصل الصبي إلى سن العاشرة، فبدؤوا يعاملونه بسماجة وينظرون إليه في عبوس كرجل غريب، يفسد وجوده مخططاتهم الفاسقة.

تجعله أغنيس يجلس على الأريكة بجوار الرجال وهي تفتح عبوات البيرة وتدخن السجائر الواحدة تلو الأخرى، تحدثهم عن ذكاء شوجي وتفوقه الدراسي محاولة أن تصنع عالمًا مشتركًا بينه وبينهم لتبحث له عن شخص مناسب كأب.

يبتسم الرجال ويومئون برؤوسهم وكل ما يشغل تفكيرهم هو كيفية التخلص من ذلك الصبي الذي أفسد مخططاتهم في القفز على أمه فترة ما بعد الظهيرة، بعد أن أنفقوا قدرًا كبيرًا من المال للحصول على هذه الفرصة.

يمنعهم هذا الطفل الأخرق من تنفيذ خططهم وهو جالس يشاهد أفلام الكارتون عبر التلفاز، بعض الأعمام القذرين الذين تفوح منهم رائحة العرق يرغبون في اصطحابه للخارج، يشترون له الطائرات الورقية والكرات الرخيصة، ويعطونه كومة من العملات المعدنية المليئة بالدهن وكأنهم يطلبون منه التغيب لمدة ساعة عن المنزل، ينظر شوجي للرجال وهم يحاولون رشوته في صمت ويضع العملات المعدنية في حقيبته المدرسية ويشكرهم بأدب، ثم يشغل التلفاز بصوت صاخب ويجلس لمشاهدته.

يحصل شوجي على شيء إن عاد إلى المنزل مبكرًا وكانت والدته تجلس بصحبة الغريب في غرفة المعيشة ولكن إن تأخر ووجدهما في غرفة النوم، فلا يحصل الصبي على النقود ولا يسأله أحد عن أحواله ولا عن الوظيفة التي يرغب أن يكون عليها عندما يكبر.

وبقدر ما كان هؤلاء الأعمام سيئين ولا يهتمون إلا بجسد والدته، كانت العمات اللاتي يأتين للزيارة غالبًا أسوأ منهم، وكأنهن أسوأ صفات أغنيس تجسدت في شخصيات أخرى، يأتين للشرب والسكر لساعات طويلة، ويتبادلن السجائر والخوض في حكايات الناس والرجال الذين جعلوهن بهذه الوضاعة، كانوا على عكس الرجال لا يتوقفون عن الثرثرة والثرثرة مجددًا. ويضطر شوجي إلى مجالستهن والعناية بهن.

تظهر في الصباح نساء المنجم ذوات الوجوه الكئيبة أمام الباب كالقطط الضالة من الساعة التاسعة، ويبدأن في الشراب بصحبة أغنيس، وحتى لو نجحت في التوقف عن الشراب لمدة خمسة أيام متواصلة يستطيعون إعادتها للسكر مرة أخرى فتنظر بعيون نهمة لأكياس الشراب التي تقبع تحت أرجلهن، وكأنه من الواجب عليهن تناول البيرة معها، أو كأن الحزن يتطلب المشاركة.

يحاول شوجي أن يمنع النساء من دخول المنزل بعد عودته من المدرسة ولكنهن كن يأتين مبكرًا حتى قبل وصول ساعي البريد وفي أيديهن حقائب ثقيلة، يقفن أمام باب المنزل الأمامي وكأنهن أشخاص صالحون ولكنه كان يعرف حقيقتهن.

كان يحاول أن يصرفهن فينادين بصوت عالٍ:

"هل أغنيس بالمنزل؟".

ويتوسلن:

"أتيت من أجل القليل من الشاي".

يريد شوجي أن يغرس شوكة بين عيونهم حتى يتخلص منهن، تستيقظ أغنيس في الصباح بعظام متعبة ترتجف، فيدعونها لشرب البيرة

الساخنة، ينتظرن حتى يسمعن جرس المدرسة ويتأكدن من انصرافه ثم يدخلن المنزل، وعندما يعود في الساعة الرابعة يجد في أعينهن نظرة انتصار سامة تجاهه. أسوأهن على الإطلاق كانت العمة جينتي، تلاحق الصبي عندما يعود وتقبله بحرارة، يشعر بلسانها الدافئ اللزج يتحرك فوق خده كقطعة لحم بقري مدهنة.

تطلب أغنيس في بعض الأيام الباردة من الصبي أن يفرك لجينتي أقدامها الصغيرة الخشنة التي تجعدت بفعل سنوات من الشراب، لم تكن جينتي تعطي شوجي المال، حتى وأقدامها الكئيبة تتلوى بين أصابعه وتفوح منها رائحة حامضة عفنة.

تكره جينتي شوجي أكثر من أي شخص آخر، لأن وجوده يستنزف أموال أغنيس ويحرمها من تناول الشراب على نفقتها، ولولاه لاستطاعت أن تصطحب أغنيس في رحلات لأماكن عدة، مستفيدة من أموالها ومظهرها.

في أحد الأيام سألته جينتي وهو يفرك قدميها:

"في أي صف دراسي أنت؟".

فأجاب دون أن ينظر إليها:

"الصف الخامس الابتدائي".

فالتفتت لأغنيس التي تضع غطاء على شعرها وقالت:

"آه، متأخر قليلًا عن أقرانه، يمكنك تعويض ذلك يا أغنيس؟".

سألها شوجي وهو يفرك أصابعها:

"وكيف يتم ذلك؟".

"يمكنني إلحاقك بالمدرسة التي التحقت بها لويز".

فتح الفتى عينه في ذعر، ورفع حاجبيه إلى الأعلى ثم قال:

"مدرسة لويز؟ إن لويز معتوهة".

بمجرد أن قال ذلك، أدرك أنه قول لئيم، سحبت المرأة أقدامها من بين أصابعه ووضعت ساقها فوق الكرسي المريح. استطاع شوجي أن يرى آثار أصابع فوق وجهها وشفتها السفلى، فعلم أن زوجها كان يضربها، قالت جينتي:

"بمدرسة لويز قسم للاحتياجات الخاصة، والأطفال المضطربين، هل يوجد قسم مثل ذلك في مدرستك؟".

نظر إليها شوجي بعيون منكسرة:

"قالت ماما، إني لست مضطربًا".

شعرت جينتي بالانتصار وتناولت رشفة من البيرة محتفلة، كانت أغنيس مغمضة عينيها وتكاد السيجارة تسقط من يدها، أكملت جينتي حديثها:

"هناك العديد من الأطفال الذين في مثل حالتك، وستحصل على العديد من الأصدقاء وعلى وجبات ساخنة في الغذاء والعشاء".

رد كاذبًا:

"لدي العديد من الأصدقاء".

"سوف تكون مغامرة رائعة، ولن تضطر للعودة إلى المنزل إلا في عطلة نهاية الأسبوع والأعياد".

يرى شوجي الحافلة الخاصة بالمدرسة، ويرى لويز وهي بداخلها وأطفال عائلة ماكافيني يرشقونها بالحجارة، كان يراها أسعد حالًا يوم الأحد في طريقها إلى المدرسة بينما تقل سعادتها عند العودة في الإجازة، كانت لويز فتاة هادئة مثل ليك.

قالت جينتي:

"سوف تساعدك هناك ولن تكون وحيدًا بعد اليوم".

ثم نظرت إلى أغنيس التي كانت تغط في النوم كرجل عجوز، وقالت:

"حسنًا يا أغنيس سوف أتصل بالمدرسة غدًا، ويمكنه أن يلتحق مباشرة بالفصل الذي تلتحق به لويز".

ثم أعادت جينتي قدميها مباشرة إلى شوجي ليكمل فركها.

يعرف شوجي أن لويز فتاة طبيعية، ولكنها بطيئة في التعلم بسبب إهمال العائلة، مما يشعرها بالخجل والانطواء طوال الوقت، ولذلك يعتبرها الجميع أضحوكة.

تقول بريدي دونيلي إن جينتي هي المسؤولة بسبب أنانيتها، هي التي أبعدتها عنها لتقضي مزيدًا مع الوقت مع طفلتها المفضلة ستيلا أرتوا.

عندما أدركت أغنيس ما يحدث، كان شوجي قد سحب جينتي إلى الأرض وكسر الميدالية الخاصة بالقديس كريستوفر التي ترتديها حول رقبتها. عندما سأله ليك لاحقًا عما حدث قال إن الأمور تطورت ولا يعرف كيف حدث ذلك، كل ما كان يتذكره أنه لوى أصبعها الكبير حتى صرخت

من الألم وطلبت الرحمة.

قال شوجي إن الأمور سارت بشكل سريع وإنه كان يتأمل الموقف كأنه ينظر من خلال الجانب الخاطئ من النظارة المكبرة.

وقف شوجي يتنصت على الباب الأمامي قبل أن يدخل بدافع التعود، عندما دخل إلى المنزل استطاع أن يلاحظ تبلل الجدران بآثار البخار المتصاعد من قدور الملفوف وغلايات الشاي، مضى في المنزل مثل شبح حتى رآها تقف على باب المطبخ تلف في يدها قطعة من القماش الأبيض، لها شعر ناعم تبرز جذوره البيضاء من تحت طبقات الصبغة السوداء ووجه خالٍ من مستحضرات التجميل.

تنظر من النافذة إلى الأرض الممتدة أمامها وتلف قطعة من لحم الخنزير في القماشة البيضاء التي تمسكها بيدها.

فرد شوجي قامته أخيرًا بعد أن ذهبت آلام الخوف من أحشائه، رأته واقفًا في الظلال اتجهت إليه وضمته بين ذراعيها ومالت برأسه فوق بطنها الرخو.

لف شوجي ذراعه حولها ودفن وجهه في شعرها الأسود الناعم الطويل، قالت وهي تفرك خده البارد:

"رائحتك تشبه رائحة الهواء النقي".

ثم قبلته.

رد عليها قائلًا:

"ورائحتك تشبه رائحة الحساء".

"اخلع زي المدرسة يا صغيري الجميل وسوف أجهز لك بعض الشاي".

"هل ستفعلين؟".

طاردته إلى خارج المطبخ، كانت غرفة المعيشة مرتبة ورائحتها تشبه الطلاء الساخن وملمع الأثاث برائحة الليمون.

التدفئة الكهربائية تعمل، والستائر مغلقة لتمنع البرودة التي تسري في الحي السكني بالخارج. قام بتشغيل التلفاز، العداد الكهربائي ممتلئ، كأنهم يستطيعون المشاهدة لست ساعات أخرى دون إضافة قطعة صغيرة من فئة الخمسين بنسًا وهو ما يعد ترفًا كبيرًا.

وقف على طرف حذائه وخلعه، وحل سرواله المدرسي وفك أزرار قميصه الأبيض وترك الملابس تسقط حوله في الأرض مثل كومة بالية.

جلس أمام طاولة القهوة المربعة شديدة الترتيب، بملابسه الداخلية النظيفة. بدأ يشاهد برامج الظهيرة بعيون محدقة.

جاءت أغنيس وبصحبتها قدح من الشاي وطبق صغير ووضعتهما أمامه، سألها شوجي:

"ما هذا؟".

"هذا من أجلك".

نظر شوجي إلى شطيرة التفاح الذهبية الملفوفة أمامه ومد يده ببطء تجاهها، وضع أصبعًا واحدًا فوقها واستطاع أن يشعر بحرارتها. سخنت أغنيس الشطيرة وقدح الشاي من أجله.

كانت الشطيرة بنية وناعمة، فوقها بلورات بيضاء صغيرة من السكر الذي ذاب بسبب الحرارة فصنع قشرة صلبة وحواف مقرمشة ذات مظهر جميل.على كل حافة من الشطيرة تسيل مربى التفاح الذهبية اللزجة فوق الطبق لتصنع كتلًا من الفقاعات.

تحطمت الشطيرة بصوت سعيد وعالٍ عندما لمسها بأصبعه.

نظر الطفل إلى الطبق بهدوء، ولكنه كان يشعر بالقلق، لن يستطيع الأكل بسبب التوتر الذي ما زال يسيطر على معدته. وليس بدافع الخوف كما كان يحدث في السابق. شعر بالفرح، ابتسامة مشرقة تنمو بداخله كأشعة الشمس الذهبية وصلت الابتسامة لعظامه وتدفقت بين جوانب جسده حتى أصبح يرى الطاولة الصغيرة تلمع من الفرح.

اختارت أغنيس اجتماع شارع دونداس[65] على أمل ألا تجد من تعرفه هناك، حاولت الانضمام إلى جميعة أخرى للمساعدة في الإقلاع عن إدمان الكحول من قبل، ولكنهم رفضوها.

تبحث عن مصاحبة من يشبهها من الرجال والنساء المكسورين بعد أن صار الشعور بالعار يرافقها طوال الوقت وتتجنب رؤية الناس حتى في ضوء النهار. عندما التحقت بجمعية في الطرف الشرقي للمدينة، أحدثت فوضى عارمة، زارها معظم الرجال في منزلها في بيتهيد، وبدأت مشاعر الحزن والتوتر التي تشبه مشاعرها تنتشر على وجوه زميلاتها من النساء البائسات.

من الصعب أن تغير طبيعتها، ولكنها كانت تأمل في الحصول على فرصة لتبدأ من جديد وتتخلص من إدمان الكحول.

اجتماع شارع دونداس يقع في وسط المدينة بين محطة قطارات شارع كوين ومحطة حافلات بوناكان، كان المبنى في الماضي شركة تجارية ذات سقف مرتفع مبنية من الحجر الرملي، وفي فترة الستينيات أصبح يشبه مدرسة ابتدائية ذات إدارة سيئة فنزعت عنه الزخارف الخارجية والقوالب المنحوتة، ومع الوقت سقط طلاء المبنى وبدأت أرضياته في

65- شارع قصير مقسم إلى قسمين يفصلهم ممر ضيق يصل إلى محطة السكة الحديد. (المترجم)

التقشير، كان المكان غامضًا بالنسبة إلى أغنيس إلى حد كبير.

حصلت جمعية شارع دونداس للمساعدة في الإقلاع عن إدمان الكحول على عقد إيجار رخيص وطويل الأجل مقابل ذلك المقر ذي السقف المرتفع.

تحتوي قاعة الاجتماعات في مقدمتها على مسرح صغير مرتفع عليه طاولة كبيرة قابلة للطي، وستة مقاعد بلاستيكية مرصوصة خلف الطاولة، على اليسار غرفة انتظار صغيرة وممر ضيق يوجد به بعض علب البسكويت، كان المكان عاديًّا ولكن رواده المألوفين حاولوا أن يضيفوا عليه حميمية باستخدام الملصقات والبطاقات البريدية القادمة من لوورد[66] وروما وليفربول.

وضعت أغنيس شوجي في الفراش مبكرًا، واستقلت الحافلة المتجهة إلى المدينة، لم تكن متأكدة إن كانت ستصل إلى الاجتماع في الوقت المناسب أم ستغير رأيها في اللحظة الأخيرة وتتجه للعب البنغو في جالوجيت.

استلزم الأمر كل طاقتها لصعود السلالم في شارع دونداس، وعندما وصلت للأعلى أحست بالراحة، لأنها رأت وجوهًا غير مألوفة.

الهواء كثيف بفعل دخان السجائر المشتعلة، يجلس كل شخص في مقعده بعصبية على مسافة من الشخص الذي بجواره محترمًا مساحته الشخصية.

صوت السعال وخروج البلغم اللزج يمثل كورالًا ثابتًا لا يكاد ينقطع، طوال الوقت يومئ الحضور بعضهم لبعض في أدب.

شعرت أغنيس ببعض الراحة لهذا التجمع بالمقارنة بتجمعات أخرى،

66- مدينة فرنسية في الجنوب الغربي تشتهر بوجود موقع حج كاثوليكي يزوره الملايين كل عام بسبب ما تردد عن تجلي السيدة العذراء في أحد الكهوف لفلاحة محلية سنة 1858. (المترجم)

لضعف التواصل بين الموجودين وزيادة المساحات المجهولة في ما بينهم.

جلست في أول القاعة حتى تحصل على المزيد من الخصوصية، وبرغم اختراق العيون ظهرها ومعطفها الفاخر المصنوع من الموهير إلا أنها كانت تشعر بالارتياح بهذه الطريقة.

أخذ مجموعة من الأشخاص يتحدثون بهدوء من خلف الطاولة الموجودة على المسرح، وقف رجل وسيم ذو شعر فضي خلف الطاولة، عيناه بنية عميقة، وجبينه عريض به خط بارز، شعرت أغنيس بالإثارة لرؤيته رغم توتر أعصابها الذي لم تستطع أن تتحكم به.

قال الرجل بصوت هادئ ورصين:

"مرحبًا، اسمي جورج، شكرًا لقدومكم إلى مجموعة يوم الثلاثاء، كنت مدمنًا على الكحول وانضممت لمجموعة شارع دونداس منذ اثني عشر عامًا، أشعر بالسعادة لأني أرى العديد من الوجوه المألوفة اليوم، ولكني أشعر بالحزن لوجود وجوه جديدة".

أراح مفاصله السميكة على الطاولة وقال:

"لدينا اليوم على المنصة للحديث عدد من الأصدقاء القدامى، وكذلك شخص أو اثنان من الوجوه الجديدة".

ابتسم بعض الموجودين.

"قبل أن اقدمهم لكم دعونا نقف لمدة دقيقة، ونطلب المساعدة من الرب".

أخفض رأسه فلمع شعره كزينة عيد الميلاد، نظرت أغنيس إليه بدقة، لتكون عنه صورة أفضل، مال الجميع برؤوسهم للأمام وأغمضوا أعينهم للحصول على لحظة صفاء مناسبة للدعاء، لم تشعر أغنيس بشيء ولم

تفعل مثلهم.

بدأ الاجتماع وبدأ الأشخاص في الحديث وتبادل الأخبار والتهاني والمواساة، ماتت إحدى أفراد المجموعة، وعرفت أغنيس أن موتها كان بسبب الإفراط في الشراب.

قدم جورج الوجوه الجديدة الجالسة على الطاولة في الجزء العلوي وطلب منهم مشاركة قصصهم مع الجميع، وقف رجل نحيف ذو شفة مشقوقة وقال بلهجة الويجي:[67]

"مرحبًا، اسمي بيتر وأنا مدمن على الكحول".

ضاقت عيناه وهو يحكي كيف فقد التواصل مع زوجته، ثم كيف بدأ أبناؤه في إدمان الكحول ثم المخدرات، استمعت أغنيس للرجل وهو يبصق وينطق الحروف بشكل خاطئ مستخدمًا جملًا بسيطة غاضبة وكلمات مباشرة من التي يستخدمها العامة في جلاسكو، شعرت أنها تعرف كل شيء عنه، تعرف كل ظروفه، تعاطفت معه رغم عدم قدرته على النطق بلهجة سليمة.

بينما كانوا يتكلمون شعرت أنها تبتعد عنهم تدريجيًّا، وأنها بحاجة لكأس من الشراب، وهي سارحة مع أفكارها، جاءها صوت قائلًا:

"أنت، أيتها المرأة ذات الشعر الأسود والمعطف الأرجواني، هل لديك ما تشاركينه معنا؟".

حاولت أغنيس أن تجبر رأسها على أن تشير بالنفي، ولكنها بدلًا من ذلك وقفت بأرجل مرتعشة ونظرت في وجوه الجميع، كانت ملامحهم

67- كلمة محلية تعني شخصًا مزعجًا أو كثير المشاحنات من سكان مدينة جلاسكو. (المترجم)

مختلطة لم تستطِع أن تتبينها، شعرت بالقلق لأن معطفها الجميل قد يكون مجعدًا من كثرة الجلوس.

قالت بصوت هادئ متقطع:

"مرحبًا، اسمي أغنيس، أفترض أنني مدمنة أيضًا على الكحول".

جاء صوت دعم فاتر من الموجودين بالغرفة:

"مرحبًا أغنيس".

حاولت الاستمرار، ولكها شعرت أن الكلمات تهرب منها، فبدأت في ضبط ملابسها حتى تفرد التجاعيد المنتشرة على المعطف، بينما خلت القاعة إلا من صوت السعال المزمن.

صاح أحد الرجال:

"أنا مشتعل ولكني لم أحترق بعد".

ردت أغنيس:

"ماذا؟".

رد جورج:

"إنه من مقطع رثاء للقديسة أغنيس[68]".

"فعلًا؟".

كانت أغنيس غير متأكدة إن كان يجب عليها الجلوس.

68- قديسة كاثوليكية مبجلة في الكنائس الشرقية والغربية وتعتبر شفيعة العفة والفتيات العذارى والمخطوبات وضحايا الاغتصاب. (المترجم)

قال جورج:

"أنا مشتعل ولكني لم أحترق بعد، إنها كلمة صادقة تعطي الجميع أملًا في غد أفضل، كل شخص موجود هنا اليوم مسه اللهب".

ثم قام برفع ذراعه وسعل لينظف حنجرته.

"ألم نحترق جميعًا للحصول على كأس أخرى؟ رشفة أخيرة؟ ألم نشعر بالحمى والذعر، ألم نُحس بأن قلوبنا تحترق في صدورنا؟".

زفر الجميع علامة على الموافقة.

"الشراب الذي نتلهف إليه، الكأس التي نرغب فيها بشدة مثل البنزين الذي يغذي الشياطين بداخلنا، حتى تشتعل وتدمر كل شيء نلمسه، كل شيء نحبه يصبح على بعد خطوات من الاحتراق، المال، العائلة، السمعة، والوظيفة، كل شيء يشتعل ثم يحترق ونحن نحترق معه".

صاح الحشد:

"نعم".

"أستطيع أن أخبركم كيف أحرقت النار كل شيء حولي، وأصبحت وحيدًا ومنبوذًا".

أصبح الجميع أكثر تعاطفًا.

"عندما طلبت المساعدة ابتعد الجميع عني، قالوا لا تساعدوه، سوف يحرقكم معه، سوف يعود للشراب، إنه يستحق ذلك المصير ولن يتغير أبدًا، سيسحب الجميع معه للهاوية".

هز الرجل الوسيم رأسه قائلًا:

"كانوا على حق، ولكن فاتهم شيء واحد، أنا مشتعل ولكني لم أحترق بعد، هذا ما علمتنا إياه القديسة أغنيس، كلما اشتد الظلام ازداد الأمل".

تراجعت أغنيس للخلف، وجلست بعد أن عدلت من معطفها ودست ذيل تنورتها أسفل فخذها.

أكمل الرجل الوسيم حديثه:

"النيران ليست النهاية، يمكنها أن تكون البداية، يمكن أن نعيد بناء ما هدمته، ونبدأ من جديد".

ابتسمت أغنيس وبذلت كل جهدها في التركيز.

بعد الجلسة شعرت بيد تربت على كتفها، كانت يد امرأة ناعمة، منتفخة بسبب العروق السميكة الزرقاء البارزة منها، المرأة قريبة منها لدرجة أنها لم تستطع الالتفات ورؤية وجهها.

"نعم، كان بإمكان الأوغاد حرق القديسة أغنيس[69] ولكنهم قطعوا رأسها بدلًا من ذلك، يا للرجال الملاعين".

ربتت المرأة العجوز على كتفها مرة أخرى وبسعال عنيف عادت للجلوس في مقعدها.

69- تكرم أغنيس في القداس بذكر اسمها بين القديسات العذارى ومريم العذراء، وحسب معتقدات الكنيسة فقد حاول الرومان حرقها في سن الثالثة عشرة لاعتناقها المسيحية وتمسكها بالعفة ولكن حدثت معجزة ولم يشتعل الحطب فسحب الضابط المسؤول عن الإعدام سيفه وقطع عنقها. (المترجم)

19

خرجت أغنيس من رمادها بحلول عيد ميلاد شوجي العاشر، أقلعت عن الشراب لمدة ثلاثة أشهر كاملة قبل أن تلتحق بالعمل في المناوبة المسائية لمحطة الوقود الواقعة على طريق المنجم، أمضت الفترة التي تسبق عيد الميلاد في تصفح أربعة كتالوجات مختلفة لشراء الهدايا والأطعمة وجهزت منضدة عامرة باللحوم السمينة والحلويات، لم يكن بمقدار ليك وشوجي أن ينتهيا من التهامها بالكامل طوال الليل، فجلسا متخمين لمشاهدة التلفاز.

الجميع مبتهج لسلامتها، وبالهدوء الذي صاحب إقلاعها عن تناول الكحول. بعد ذلك، بدأت فواتير الطعام والهدايا تنهال عليها، ولذلك كانت مضطرة للعمل لسداد الديون وحتى لا تشعر بالوحدة، وتصبح مشغولة طوال الوقت وتجد ما تفعله في الليالي الطويلة الخالية.

لولا الوظيفة لكانت جالسة في الشرفة تفكر في شوج، وفي الأشخاص الذين لم تتصل بهم بعد، منتظرة أن يأتيها النوم قبل طلوع النهار، أبعدتها ساعات العمل الطويلة عن الشراب وعن التفكير في ليزي وويلي، وعن التفكير في كاثرين وجنوب إفريقيا.

ساعدها العمل في المناوبة الليلية بمحطة البنزين في الإقلاع عن تناول الخمر، تحتوي محطة البنزين على متجر يعتبر هو المكان الوحيد لمسافة

أميال لشراء السجائر والحلوى والأكلات الجاهزة، مكان في منتصف العدم.

سحبت أغنيس درج النقود في اتجاهها والتقطت العملات المعدنية المتسخة المتناثرة في كل مكان، ثم رتبت أكياس الحليب والعصائر خلف الواجهة الزجاجية التي تفصلها عن الزبائن، أصبح لها حياة اجتماعية بشكل ما، وهي سعيدة بذلك.

تقضي أربعة أيام خلف واجهة المتجر الزجاجية تتأمل سائقي الأجرة وسيارات الديزل، يطلب منها أحدهم بين الحين والآخر مفتاح المرحاض أو عبوة من البيرة الباردة، سعيدة بصحبة سائقي الأجرة، والتحدث معهم عبر واجهة المتجر الزجاجية في الليالي الباردة، عن تدهور أحوال نهر كلايد وما أصاب رافينسكريغ[70] وغيرها من أمور الحياة.

بمرور الوقت بدأ بعض السائقين في التردد على المحطة بانتظام لتناول الطعام أو لرؤية المرأة الجميلة التي تضحك على نكاتهم وتستمع لقصصهم المبتذلة باهتمام، لا ينصرفون إلا في حالة ظهور زبائن آخرين، يطوفون بسيارتهم حول محطة البنزين حتى يصبح المكان خاليًا ثم يعودون مرة أخرى.

بعض السائقين من كبار السن يتسلون بطلب بعض الأغراض من على أرفف منخفضة حتى يستطيعوا تأمل مؤخرتها وهي تجلبها، كان الأمر بمثابة لعبة بالنسبة لهم. يشعرون بالسعادة عندما ترتفع أطراف

70- مصانع الصلب الاسكتلندية التي أممتها المملكة المتحدة في عام 1954 وكانت تعتبر من أكبر مصانع الحديد والصلب في أوروبا الغربية قبل أن تتعثر ويتم إغلاقها عام 1992. (المترجم)

تنورتها الضيقة أو تظهر حمالة صدرها وهي تنحني على الرف لتجلب كيسًا من السكر ويظهر جلدها الوردي.

شعرت أغنيس بالوحدة بسبب العمل لساعات طويلة في المحطة ولكنها اعتادت مع الوقت على ذلك، يجلب لها البعض هدايا، في البداية أشياء بسيطة كعلب البطاطس، أو عبوة فائضة عن الحاجة من البصل المخلل من متاجر كاش أند كاري، وفي أحد الأيام أعطاها أحدهم عبوة مغلقة تحتوي على بعض السراويل الداخلية. ثم بدأ اثنان من السائقين إحضار هدايا أكبر، كثلاجة مستعملة أو تلفاز قديم أو جهاز كهربائي من التي يأخذونها من على ظهر الشاحنات.

في بعض الأحيان يعود شوجي من المدرسة إلى المنزل، ليجد باب المطبخ المتصدع جُدِد بالكامل أو يجد طلاء المطبخ أصبح جديدًا وزاهي اللون. تجلس أغنيس في بعض الأيام قبل نهاية مناوبتها الليلية تتأمل الحي من بعيد، وتقلب في كتالوجات السلع ومستحضرات التجميل للبحث عن طريقة لصرف نقودها قبل حتى أن تحصل عليها، وعلى أضواء الشاحنات البعيدة، تدس في جيبها قطعة من الشكولاتة من أجل طفلها وعلبة سجائر.

بحلول الصباح تأخذ طريق العودة إلى بيتهيد، تلقي عبارة صباح الخير بطريقة مهذبة على السيدات العاملات اللاتي يتجهن لوظائفهن النهارية في المدينة كخادمات وعاملات تنظيف، يمسكن الصلبان المعلقة على صدورهن متعجبين من السبب الذي يدفع كاثوليكية محترمة للعودة إلى المنزل في الساعات الأولى من الصباح، وينظرن بريبة للمرأة التي تضع

أحمر الشفاه وطلاء الأظافر الذي يدعو لممارسة الجنس في بداية اليوم، بينما كان الرجال المحظوظون بالاحتفاظ بوظائفهم، ينظرون إليها ويبتسمون ثم يمرون بجوارها في طريقهم للعمل ويغمزون بخبث.

وبمجرد أن تصل إلى المنزل تدس قطعة الشكولاتة تحت وسادة شوجي وتجهز له كوب الحليب ثم توقظه بقبلة حتى يذهب إلى المدرسة، وتضع عند أقدام ليك ملابس نظيفة حتى يرتديها في طريقه للعمل.

كان الصبيان ينامان على سريرين منفصلين، وينظران لبعضهما بينما يستمعان لصوت غنائها مع موسيقى الراديو الصباحية، ولا ينطق أحدهما بكلمة حتى لا يفسدا عليها تعويذتها الصباحية.

ظلت أغنيس تعمل في محطة الوقود لمدة شهرين قبل أن تقابله لأول مرة، كان يبدو كثور أحمر الشعر، ويختلف عن كل سائقي التاكسي الآخرين الذين انهارت أجسامهم بسبب الوجبات الاسكتلندية الثقيلة، وعبوات البيرة والمقرمشات، بجانب الجلوس الطويل خلف عجلة القيادة، فأصبحوا متخمين وذوي بطون ممتلئة بالشحم، وأكتاف ناعمة ورؤوس منحنية للأمام وجلد شاحب، ويزداد شحوب لونهم ليصبح مثل الأشباح عند العمل في المناوبات الليلية لسنوات طويلة وتتحول شفاههم للون وردي باهت بفعل الشراب طوال سنوات.

يذكرها هؤلاء الرجال الذين قضوا ساعات طويلة خلف الموقد ويرتدون خواتم ذهبية كبيرة بشوج.

عندما رأت هذا الرجل أحمر الشعر للمرة الأولى يخرج من سيارته،

حاولت ألا تحدق به، كان يبدو جديدًا في مهنة القيادة، ذو وجه وردي وأكتاف مستقيمة، كمن نشأ على ضوء النهار والهواء الطلق، بدلًا من الحانات المظلمة، والدخان الأسود وجرعات البيرة الداكنة.

كان طويلًا وعريضًا، يملأ محرك سيارته بالديزل، ويقف متفاخرًا بقوته واستقامة جسده، يملأ سيارته مستخدمًا ذراعه السميك، وشعره الأحمر يتلألأ تحت أضواء الفلورسنت، لم يرمش بعينه عندما رآها مثلما يفعل معظم الرجال ولم يبتسم لها كذلك، بينما هي تجلس خلف الزجاج وذراعاها مطويتان كأنها تنتظر حبيبًا غائبًا نسي المجيء في ميعاده.

أعطته باقي النقود فتمتم شاكرًا وركب سيارته وانصرف، وبعد عدة أسابيع ظهر مرة أخرى، فبدأت الحديث معه مباشرة حتى قبل ان يصل إلى النافذة الزجاجية:

"أنت لم تعمل كسائق منذ فترة، أليس كذلك؟".

قالت بابتسامة تلمع كلون ملمع الشفاه، ودفعت النقود نحوه وكأنها تدعوه لشيء ما.

رد عليها:

"اعذريني، لا أستطيع سماعك عبر الزجاج".

ردت مستخدمة الطبقة الناعمة لمرتادي ستراثكلايد:[71]

"كنت أسألك إن كنت جديدًا في مهنة سائق الأجرة".

"لماذا تسألين هذا السؤال؟".

71- جامعة بحثية عامة تقع في جلاسكو تأسست عام 1796 باسم معهد أندرسون. (المترجم)

سألها الرجل بهدوء، وأنفاسه الدافئة تترك آثارها على الزجاج البارد.

ابتسمت أغنيس وقالت:

"أرى العديد من سائقي الأجرة بحكم تواجدي في هذا المكان، تبدو أكثر تفاؤلًا منهم؟".

نظر الرجل إليها نظرة طويلة، كأنه يشاهد كلبًا يتكلم.

فأضافت مرتبكة:

"أظن الوظيفة لم تؤثر عليك بعد، فجميع السائقين أكثر توترًا وإنهاكًا بسبب التعامل مع الركاب".

"هل تظنين أنك تجيدين الحكم على الآخرين؟".

فوجئت أغنيس بالسؤال فتوقفت عن الحديث، أسقط الرجل أحمر الشعر بعض العملات في الدرج بصوت عالٍ وقال:

"أريد بعض الحليب، وخبزًا أبيض محمصًا وليس طريًا، ولا تضعي عليه أشياء غريبة".

وأشار إلى النقود بيده، استغرقت بعض الوقت حتى تنهض من مكانها وتجلب ما أراد وعندما وصلت لنصف المتجر نظرت للخلف لترى إن كان يراقبها، ولكنها وجدته ينظر إلى حذائه باهتمام كأنه يشاهد قصة مسلية مكتوبة عليه، أخذ نفسًا عميقًا من أنفه الذي يشبه أنف الحصان، وأخرجه ببطء، فارتفعت كتفه وهبطت. كان يبدو أنه متعب ومريض.

أعطته أغنيس زجاجة الحليب وقطعة الخبز، فأمسك الخبز بيده الكبيرة وقال:

"هذه القطعة صغيرة جدًّا".

نظرت إليه بدهشة، فحجم الخبز يتناسب مع المبلغ الذي دفعه، تململ الرجل ذو الشعر الأحمر وزفر زفرة قوية من أنفه الكبير، ونقل ثقل جسده من قدم إلى أخرى.

فسألته أغنيس:

"هل ما زلت ترغب في الحصول على الخبز؟ أم أنك لا ترغب في ذلك؟".

مال الرجل إلى الأمام في اتجاهها، ابتسمت أغنيس وهي تعلم أن بإمكانه الآن مشاهدة حمالة صدرها، فإذا به يضرب بيده بقوة على الزجاج، فعادت إلى الوراء خائفة، وكأنه صفعها على خدها، وصاح:

"بحق العذراء ألا يستطيع الرجل الشريف أن يحصل على بعض الخبز؟".

شعرت أغنيس أن الشياطين تقفز أمامه، وأدركت أن التصرف بتهذيب لن ينقذها من هذا الموقف، وشعرت في داخلها بالرغبة في أن تحصل على بعض الشراب بعد أن تجاهل أنوثتها بهذه الطريقة الفجة، سحبت شريحة أخرى من الخبز وأعطتها له ثم تظاهرت أنها مشغولة بمتابعة العمل، سحبها الرجل كأنه يصطاد سمكة وبدأ في التنفس بانتظام مرة أخرى. ثم قال:

"كنت أعمل في المنجم حتى أغلق، لم أكن بالفعل سائقًا طوال الوقت".

ردت أغنيس:

"استطعت أن أعرف ذلك".

"يتطلب الأمر أشخاصًا من نوعية خاصة حتى يمكنهم العمل هنا

طوال الليل، كم بقيت تعملين ليلًا؟".

"نحو شهر".

قال وهو ينظر إليها كأنه يراها لأول مرة:

"لا بد أنك تشعرين بوحدة فظيعة".

ردت أغنيس:

"هو كذلك، بالفعل".

كانت عيناه متعبتين.

"حسنًا، احرص على أن تأتي غدًا، وسوف أعطيك بعض رقائق الذرة".

ابتسم الرجل لأول مرة، كانت أسنانه عريضة وناصعة وقال:

"سأعود".

"احرص على أن تحضر كيسًا بلاستيكيًّا معك، فسوف أعطيها لك قطعة تلو الأخرى".

منذ أن رحل شوج، تدخل أغنيس في علاقات مع العديد من الرجال ولكنها لم تكن تمضي الليل خارج منزلها، استيقظت ذلك اليوم في ميعادها المعتاد، وبحلول الخامسة أخذت حمامها الخاص، وانتظرت حتى الثامنة كي يمر عليها، وفي هذه الأثناء ارتدت ملابسها وحرصت على أن تبدو جميلة، وهي تنظر لنفسها بغرور في المرآة.

وبدأت في إعداد قائمة بالأشياء التي يجب عليها ألا تخبرها لذلك الشخص الجديد، شعرت بالغباء، والحاجة إلى تناول بعض الشراب،

بينما جلس شوجي في صمت بجوارها يضع يده أمامه في صبر ويضم كاحليه وعلى وجهه علامات التوتر.

بدأت في نسج قصة حياتها بشكل مدروس، ولكنها بدت قصة مملة وسطحية، فإن حذفت كل الأشياء التي ينبغي ألا تقال، ستبدو وكأنها كانت نائمة منذ عام 1967، وهو العام التي قابلت فيه شوج.

الثور ذو الشعر الأحمر يدعى يوجين وهو اسم جيد بسيط ولكنه عتيق الطراز تختاره الأمهات لأبنائهم البكر ليكونوا أشداء وصادقين فيجلبون لهم الفخر وليس السعادة، اسم تعطيه الأمهات الكاثوليكيات لأبنائها الذين ترغب في أن توهبهم للكهنوت.

عرفت أغنيس بحضور يوجين عندما سمعت البوق الخاص بسيارته الأجرة السوداء، فقفزت من مكانها في عصبية وارتعشت زجاجة عطر صغيرة أمامها على المنضدة فعقد الصغير أصابعه من أجل الحظ السعيد. ثم حمل زجاجة العطر ورش بعضه تجاهها بابتسامة أمل.

يقف ليك بالقرب من الباب عاقدًا ذراعيه، فطلبت منه تقبيلها من أجل الحظ، وشوجي يراقب ما يحدث، في البداية لم يرغب ليك في تقبيلها، ولكنها أحاطت عنقه بذراعها وجذبته فأمطرها بالقبلات، فضحكت مثل تلميذة واضطرت أن تدفعه بعيدًا حتى لا يفسد رونقها.

في الخارج وعلى ضوء المساء الناعم شعرت كم هي جميلة مرة أخرى، الرجل يبدو أنيقًا ببذلة واسعة وشعر كثيف ممشط ومبتل، وسيارته مغسولة ونظيفة بعناية كأنها رولز رويس، فتح بابه وخرج من السيارة مرتديًا ربطة عنق رفيعة تلمع في فخر.

أدركت أن هذه هي المرة الأولى التي تراه دون زجاج يفصل بينهما، فتح لها الباب الخلفي للسيارة، ودون أن تنظر للأعلى عرفت أن كل نساء الحي يتعلقن على نوافذهن الأمامية وينظرن إليها من خلف مئات من الستائر المغلقة، رفعت شعرها الذي يتساقط على وجهها بيدها للأعلى وهي تكاد تسمع أصوات الغضب المتصاعدة من أسنانهن التي تمضغ العلكة.

سألته: "هل وصلت بسهولة؟".

أجابها وهو يغلق الباب:

"نعم، لا مشكلة على الإطلاق".

ثم سألها وهو يدير المحرك:

"هل تأخرت؟".

"لا لم تتأخر، لقد جهزت نفسي مبكرًا، ومر الوقت سريعًا".

حاولت أن تنثر ضحكات مرحة بين كلماتها، فنظر إليها باستحسان عبر مرآته وقال:

"تبدين فاتنة".

التقت عيناهما في المرآة، وقالت:

"هذا شيء مطمئن، فلم أكن أعرف ماذا يجب أن أرتدي".

لم تذهب أغنيس إلى جراند أولي أوبري[72] من قبل، كانت في الجزء الجنوبي من جلاسكو على طريق جوفان، تم تحويل قاعة قديمة إلى مكان يذهب إليه العشاق من أجل سماع الموسيقى الريفية ومسابقات الرقص والرماية. يجذب المكان سكان جلاسكو، ربما بسبب الموسيقى الريفية الجيدة وربما بسبب المسابقات واللعب بالبنادق ويتزاحمون لدخوله في جميع أيام الأسبوع. حيث تتحول سيدة مثل إدنا مكلوسكي لراقصة من كنتاكي ويتحول زوجها ستان الصغير بعد أن يرتدي صدرية جلدية مزينة بالشراشيب تخص رعاة البقر إلى ستان المتجول صائد المكافآت. أوقف يوجين السيارة وساعد أغنيس على النزول، لافتة أوبري القديمة المزينة بعلامات رعاة البقر تضيء الطريق، وتلقي بالضوء على الأشخاص الذين يتدافعون نحو المدخل، توقعت أغنيس بأن يكون المكان فاخرًا.

تقدم يوجين الطابور ومنح الحارس قطعًا معدنية فضية فسمح لهما بالدخول مباشرة، المكان في الداخل يشبه منزلًا كبيرًا به مسرح على مستوى مرتفع، وفريق موسيقي يعزف، يقوده مغنٍّ يرتدي سروالًا بنيًّا من الجلد المتشقق، ويرفع شعره للأعلى فوق وجهه المليء بالنمش، ممسكًا بالميكروفون بين ساقية وكأنه الفتاة التي يحبها، يشدو بأحد أغاني جوني كاش[73].

أمام المسرح توجد حلبة رقص صغيرة حيث يتمايل بعض الأزواج المسنين في نسخة رديئة من رقصات الغرب الأمريكية وبصحبتهم عدد من ربات المنازل ذوات الأذرع السميكة، اللاتي يتظاهرن أنهن يقضين

72- Grand Ole Opry فندق ونادٍ ريفي وغربي تأسس في عام 1974 ويعتبر الأكبر من نوعه في المملكة المتحدة. (المترجم)

73- مغنٍّ وكاتب أغانٍ وممثل أمريكي، اشتهر بملابسه السوداء وإيقاعات الجيتار الصاخبة. (المترجم)

أفضل أوقات حياتهن، يتقدمون للأمام ويتراجعون للخلف في التوقيتات المناسبة لنغمات الفرقة الموسيقية.

ارتدت النساء ملابس رعاة البقر والقبعات الكبيرة أو فساتين كلاسيكية مفتوحة الصدر، مزينة بالدانتيلا، وثبتوا بعض الريش في شعورهن.

نظرت أغنيس إلى تنورتها السوداء الضيقة والسترة الجلدية السوداء التي كلفتها ثروة بعد أن اختارتها من الكتالوج واضطرت لتبديلها مرتين حتى تحصل على المقاس المناسب لها، ثم تجولت في القاعة المليئة بالسراويل المصنوعة من الجينز والفساتين ذات الخياطة المكشكشة وكرهت مظهرها.

قادها يوجين عبر الزحام مرتديًا حذاء جلديًّا ذا رقبة عالية وتحت سترته السوداء يضع حزامًا جلديًّا مزخرفًا يتدلى من جانبيه مسدسان لامعان، أومأ البعض ليوجين كأنهم يألفونه فأومأ إليهم بثقة.

ما زال الأزواج الأصغر سنًّا يجلسون حول حلبة الرقص على طاولات صغيرة ومستديرة، لم يصلوا لحالة السكر التي تسمح لهم بالرقص دون خجل، ساعد يوجين أغنيس لتجلس في ركن هادئ، وبينما كان يأخذ معطفها أبقى يديه فوق كتفها، ورأسه قريبًا منها بما يكفي ليستنشق عطر شعرها، ابتسم ابتسامة عريضة وهو يشاهد أغنيس تتأمل المكان.

كان المكان صاخبًا بالأصوات العالية للفرقة الموسيقية وخطوات الراقصين، والهواء مشبعًا بروائح دافئة للويسكي الذهبي والجلود، وبرغم أن الوقت ما زال مبكرًا فقد تصرف الحشد بجموح حتى ضحكت أغنيس عندما أدركت أن ارتداء الملابس الرخيصة يمكنه أن يجعل المرء أكثر تحررًا.

"ماذا ستفعلين بعد ذلك" سألها يوجين وهو يبتسم ابتسامة فخر

عريضة.

"المكان رائع أليس كذلك؟".

"إنه كذلك بالفعل، هل تعلم أن جلاسكو هي الغرب المتوحش الحقيقي، يمكنهم أن يسلخوا فروة رأسك في طريق مارهيل[74] في أي ليلة خلال الأسبوع".

ضحك يوجين وهو يشعر بالاسترخاء في مقعده:

"أنا سعيد أننا هنا".

"وأنا كذلك".

"أتعرفين هذه هي المرة الأولى التي أعرف أن لك ساقين حقيقيتين، الحاجز الزجاجي في محطة الوقود الحقيرة يخفي النصف الأسفل من جسدك".

ضحكت أغنيس:

"أتمنى ألا تشعر بخيبة الأمل بسبب رؤيتهما".

"لا، لا".

ثم مد يده إليها وقال:

"مرحبًا أنا يوجين، أخبريني عن نفسك؟".

نظرت أغنيس إلى كأس من البيرة الباردة، وقالت:

"ليس لدي الكثير لأقوله".

74- طريق قديم بطول أحد عشر كيلومترًا في مدنية جلاسكو يقطعه العديد من الطرق الفرعية الضيقة. (المترجم)

وبدأت في ترديد العبارات التي حفظتها داخل رأسها:

"لقد ولدت في جلاكسو وقضيت كل حياتي بها، كانت حياة هادئة".

"وأنا كذلك".

ثم أضافت بسرعة:

"وأنا مطلقة".

شعرت بالإعجاب من قولها، أنه أفضل بالتأكيد من أن تخبره، بأن زوجها رحل من أجل عاهرة ذات ملامح عادية.

توقف قليلًا للتفكير فشعرت أنه صمت لفترة طويلة جدًّا، ثم قال بصوت كاثوليكي:

"ألم يمكنكما إنجاح الزواج؟".

لم تستطِع أغنيس أن تفهم إن كان أصيب بخيبة أمل، فهزت رأسها وشعرت بارتياح عندما ظهرت النادلة بجوار الطاولة، كانت امرأة جميلة، ترتدي جينزًا ضيقًا وحزامًا على شكل أفعى مجلجلة[75] ذات رأس كبير تمسك فيها ذيلها لإحكام غلق الحزام.

صاحت النادلة بصوت عالٍ:

"مرحبًا أيها المأمور الوسيم، هل تعاملك الحياة بشكل جيد؟".

كانت لكنتها خليطًا من لهجة سكان جوربالز[76] ولهجة ولاية تكساس الأمريكية.

75- تعرف كذلك بالأفعى ذات الجرس وهي أفعى سامة تعيش في الأمريكتين وتتميز بإصدار صوت مرتفع عند هز ذيلها ذي النهاية الحرشفية. (المترجم)

76- بلدة في جنوب نهر كلايد. (المترجم)

رد يوجين:

"مرحبًا بيلا، لا يمكنني الشكوى".

ثم أشار بيده ناحية أغنيس وقال:

"هذه صديقتي أغنيس، إنها هنا للمرة الأولى".

أومأت بيلا بقبعتها الكبيرة تجاه أغنيس دون أن تبتسم، ووجهت إليها تحية بادرة:

"حسنًا أيها المأمور، هل ما زلت تجوب المدينة بسيارتك؟".

"نعم، لسوء الحظ".

مالت عليه بطريقة هوليويدية لتظهر صدرها العاري تحت قميصها المفتوح:

"حسنًا، سوف أقنعك في يوم ما أن تقوم بتوصيلي، تمتلك ابنة أخي منزلًا متنقلًا بالقرب من النهر".

سألتها أغنيس إن كانت تقصد أن المنزل المتنقل قريب من البحر في تكساس ولم تستطع منع نفسها من الضحك. نظرت إليها النادلة وكأنها تنظر إلى حشرة، فتحول يوجين بوجهه عنها وقال:

"ربما في يوم آخر".

تنهدت بيلا ووضعت إبهامها فوق رأس الأفعى، وقالت بلكنة جنوبية خالصة:

"حسنًا، ماذا يمكنني أن أحضر لك؟".

قال بوجه لا يظهر انفعالًا:

"أريد كأسًا كبيرة من البيرة، مملوءة حتى حافتها وبعض الويسكي".

ثم أدار بصره إلى أغنيس:

"وماذا عنك؟".

كانت أغنيس تخشى هذه اللحظة طوال الليل، فقالت في ثبات شديد:

"سوف أشرب كوكاكولا".

"فقط؟".

"مضافًا عليها بعض الليمون".

وهي تستجمع قوتها.

قالت بيلا:

"سوف أحضر كل شيء، في الحال".

ثم انصرفت وهي حريصة على أن تهز مؤخرتها أثناء السير كبقرة سمينة.

راقبت أغنيس وجه يوجين، ثم ابتسمت بسعادة عندما لاحظت أنه لم يسترق النظر.

"إنها تبدو لطيفة".

رد يوجين بشكل غير مقنع:

"نعم، أعتقد ذلك؟".

"بيلا اسم جميل".

"نعم، ولكن اسمها الحقيقي جيرالدين".

ضحكت أغنيس:

"حقًّا، أيها المأمور".

سمح لها يوجين بأن تسخر منه ثم قال:

"نعم هي جيرالدين من جارتكوش[77]، وقد قتلت هذا الثعبان، وصنعت منه حزامًا، ولكن لست واثقًا من هذه المعلومة".

"يجب أن آخذ حذري".

"نعم يمكن لتلك السيدة أن تصنع حذاء ذا رقبة طويلة من زوجها السابق".

جاءت المشروبات فجلسا يشاهدان الراقصين وهم يتمايلون.

ثم مال برأسه ناحيتها وسألها:

"لماذا لا تشربين البيرة؟".

حاولت أغنيس أن تردد الكذبة التي تدربت عليها طوال النهار:

"أنت تعرف أن الشراب لا يتوافق مع الجميع، وأنا لا أرغب أن أصحو في اليوم التالي مصابة بصداع في رأسي، وألم في رقبتي".

نظر لها يوجين وبدا أنه غير مقتنع، ودار بينهما وميض يشبه الاعتراف الصامت.

77- قرية في شمال لاناركشاير على بعد أميال قليلة من شرق جلاسكو. (المترجم)

فقال:

"ربما تجربين، لاحقًا".

فردت وهي تحاول أن تغير الموضوع:

"ربما، أخبرني أيها المأمور، لماذا أنت أعزب حتى الآن؟".

"كنت على وشك أن أسألك نفس السؤال".

"إنها قصة طويلة، هل تتذكر ذلك الحذاء المصنوع من جلد الزوج؟".

"هل يجب عليّ أن آخذ حذري؟".

"يقول البعض إن المطلقة تبحث عن جلد مناسب لصنع محفظة مطابقة".

تناولت رشفة من الكوكاكولا قبل أن تقول:

"حسنا، أجب عن سؤالي".

استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن يبدأ الإجابة، تناول خلاله رشفة من البيرة وقليلًا من الويسكي.

"حسنًا، كنت متزوجًا لفترة طويلة، وظللت متزوجًا حتى نهاية العام الماضي عندما قضى عليها السرطان".

وضعت أغنيس يديها فوق يده وقالت:

"أنا آسفة لمعرفة ذلك، لقد مات والدي بنفس الطريقة".

أومأ برأسه وتناول بعضًا من صنفي الشراب، قطرات البخار المتجمعة على كأس البيرة تبدو منعشة. توقفت الموسيقى، وأعلنت الفرقة أنها سوف تأخذ استراحة قليلة.

جاء زوجان غارقان في العرق، ترتدي المرأة ملابس ضيقة كالعاهرات، ويرتدي الرجل ملابس رعاة البقر، قالت المرأة

"مرحبًا أيها المأمور، كيف حالك؟".

"بخير، على قدر ما تتيح جلاسكو".

وقدم الزوجان إلى أغنيس على أنهما ليز وليزلي، اثنان من الزبائن الدائمين للمكان.

قال ليز: "لو رأيت زوجتي فلا تخبرها أنني هنا مع هذه العصفورة الصغيرة".

وابتسم ابتسامة عريضة، أدارت المرأة رأسها وقالت:

"بحق المسيح، مرت السنين وما زلت تردد نفس الهراء على كل حال كنا نريد أن نطمئن على أحوالك أيها المأمور".

ثم مدت ذراعها السمين الذي يشبه لحم الضأن أسفل صدرها الضخم، وأخرجت الصليب المتدلي وأمسكته بين أصابعها وقالت:

"كيف حالك أيها المأمور؟".

بدا يوجين محاضرًا بعض الشيء وهو يقول:

"بخير، إلى حد ما".

قالت ليزلي: "ما زلنا نصلي من أجلك ومن أجل العائلة كلما ذهبنا إلى الكنيسة، نحن نشعر بأن الأمر قد حدث بالأمس فقط، أليس كذلك؟".

قال يوجين وهو ينظر إلى أغنيس بعصبية:

"نعم".

أمسكت ليزي الصليب في راحة يدها:

"الرب يحبها ويرعاها".

رفع يوجين كأس الويسكي للتحية، لكنه لم يشرب منه، نظرت ليزلي إلى يوجين نظرة متفحصة، شاهدتها أغنيس، كانت امرأة من النوع الذي يهتم بكل التفاصيل، انتقلت عيناها من شعره إلى أزار قميصه التي تم إصلاحها مؤخرًا إلى ياقته النظيفة.

كانت تتساءل من يكوي قميصه ومن يطعمه، وسألته في النهاية:

"كيف حال إخوتك؟".

قال:

"إنهم بخير، ربما أكون أكبرهم سنًّا، ولكنكم تنسبون إليهم الفضل في كل شيء، وتنسبون إليهم الفضل في رعاية الأطفال".

"على العكس تمامًا، أنا كنت أطمئن على أحوالك، أرجو أن تخبر كولين أنني سألت عنها وعن أطفالها، هل ستفعل ذلك؟ وأخبرها أنني سوف أرسل لها بعض الملابس التي تخص أطفالها فهم يكبرون مثل الحشائش بسرعة، لا أعرف كيف ترعى كولين أطفالها الخمسة بعد إغلاق المنجم وبعد كل ما أصاب جيمس".

جلس يوجين صامتًا وكأس الويسكي الخاصة به مرفوعة في يده، استغرقت أغنيس بعض الوقت لتدرك ما يحدث، ولكن بحلول الوقت الذي وضع فيه يوجين الكأس على الطاولة بدأت ابتسامتها تنكسر.

"تحول المنجم لكومة من براز الكلاب منذ أن تم إغلاقه، لا أدري كيف تم السماح لتلك العاهرة أن تسكن بالقرب منهم".

ثم نظرت إلى أغنيس وكأنها تطلب منها التعاطف:

"في الماضي لم تكن الكنيسة لتسمح لعاهرة كتلك أن تسكن في حي سكني مليء بالعائلات المحترمة".

في تلك اللحظة قام الرجل المرتدي زي رعاة البقر بسحب زوجته ذات الذراع السمينة متوجهًا معها إلى حلبة الرقص، نظرت المرأة من خلف كتفها تجاه أغنيس، وقالت: "تشرفت بمعرفتك يا عزيزتي".

أومأت أغنيس برأسها، بينما بدأ الكحل الأسود يسيل من عينيها التي تحبس الدموع.

وبعد أن انصرفت ليزي بقيت صامتة لفترة طويلة، وكذلك يوجين.

ثم قالت أغنيس:

"الجميع يسخر مني، أليس كذلك؟".

هز يوجين شعره الأحمر المتشابك مثل طفل في المدرسة، وقال:

"أنا لم أسخر منك".

تمتمت أغنيس بينها وبين نفسها بصوت لا يكاد يسمع:

"الجميع يسخر مني".

ثم رفعت صوتها موجهة إليه الحديث:

"لا بد أنني أضحوكة بالنسبة إليك".

فقال مرة أخرى نافيًا:

"لا".

كانت راحته الكبيرة الوردية مفرودة أمامها على الطاولة مثلما يفعل شوج دائمًا عندما يحاول أن يبدو صادقًا، راقبت أغنيس اليد الممدودة على الطاولة وأرادت أن تصدق أن صاحب اليد لا يريد أن يؤذيها وسألته:

"أخبرني ماذا تمثل كولين ماكافيني بالنسبة لك؟ الجميع في الحي من الأقارب ولن أفاجأ إن كانت ابنة عمتك، أو أختك، أو بائعة الحليب التي تشتري منها في الوقت نفسه".

تنهد يوجين:

"لقد سألتني إن كنت استطعت الوصول إلى منزلك بسهولة، وأنا أجبت بأن الأمر كان بسيطًا".

ثم أخذ رشفة صغيرة من كأس الويسكي، وفتح يده وهو يتحدث:

"كولين ماكافيني هي أختي الصغيرة".

توقفت الضوضاء المرحة التي كانت تنبعث في المكان، وشعرت أغنيس أن أعين ليزي الضيقة تتابعها وتكاد تخترقها بلهيب حار على جانب وجهها، وعلى تنورتها الضيقة وعلى الخاتم الذي تضعه في يدها، بدأت كأس البيرة الباردة التي أمامها تنادى عليها وتخبرها أن بإمكانها أن تجعل كل شيء على ما يرام.

ثم سمعت صوتًا فأدركت أن يوجين ما زال يتحدث:

"إن كولين هي واحدة من إخوتي الثمانية، الجميع ولد وتربى في الحي حول المنجم وعملنا جميعًا هناك، كان جدي من أوائل العمال الذين التحقوا بالمنجم ولم يرغب في الابتعاد عنه، وجميعنا سار على نفس الدرب، فأصبحنا جميعًا من العمال الأيرلنديين المهرة في عمل المناجم".

ابتسم ابتسامة دافئة ولكنها لم تؤثر على أغنيس التي سألته بعد أن تحفزت وشدت عظم ظهرها لينتصب:

"وما ظنك بي؟".

أغلق يوجين كفه المفتوحة فأصبحت كالكرة المستديرة:

"لا تأبهي لأحد، إنهم يقولون أشياء سيئة عن الجميع".

"حسنًا، على كل حال يمكنني أن أتخيل".

قال يوجين بهدوء:

"إنه حي صغير لا قيمة له".

"إنني مدمنة على الخمر".

"ألا يوجد حل لذلك؟".

"وأنا أم سيئة".

"لا شأن لأحد بك".

"وأقدم نفسي للرجال طواعية".

"لا تدعي أحدًا يتدخل في شؤونك الخاصة".

"أنا عاهرة حقيرة".

وعند هذه العبارة تحرك من مقعده بغرابة تليق برجل كاثوليكي صالح وملتزم، سكت قليلًا ثم نظر إليها قائلًا:

"أريد أن أسألك عن شيء".

وصمت مرة أخرى قبل أن يضيف:

"أعني. أريد أن أعرف أمرًا ما، وأعتذرعن هذا السؤال".

راقبت أغنيس رقبته السميكة وهي تهتز بينما كان يتحدث:

"هل مارست الجنس حقًّا مع زوجها؟ بيج جيمس؟".

لم تستطِع أغنيس الإجابة عن السؤال، فسنوات من إدمان الكحول تجعلها غير متأكدة مما حدث، سنوات من أسئلة الناس حول أفعالها الليلية تجعلها تفقد إحساسها بالمصداقية وتفقد إحساسها بالحقيقة، مثل الأشياء التي يفعلها الإنسان عندما ينقطع التيار الكهربائي وينساها برغم أنها قد تكون بسيطة غير ذات أهمية أو ربما تكون ملحمية.

الحقيقة أنها لم تمارس الجنس مع جيمس، لقد أدخل قضيبه بداخلها، لكنه خدعها ولم ينفذ نصيبه من الاتفاق، كما أنه انتهى بسرعة شديدة، لقد كان الأمر شيئًا آخر غير ممارسة الجنس، كان شيئًا أسوأ بكثير شيئًا لم تستطِع تسميته.

"لا لم أمارس الجنس مع جيمس".

كانت لهجتها حازمة بقدر ما استطاعت.

رفع يوجين الكأس وشرب رشفة ثم وضعها في المسافة بينهما، وبدا أنه سعيد بوجود ذلك الفاصل بينه وبينها.

قالت أغنيس:

"أنت تعلم أن هذه الأشياء التي يقولونها عني غير صحيحة إن منزلي نظيف، وأطفالي مهذبون".

صعد إلى المسرح رجل عجوز ذو ظهر مقوس، وشعر أبيض يشبه ويلي نيلسون[78]، كانت أسنانه صفراء بفعل سنوات من تعاطي النيكوتين، وكان يهتز وهو أمام الميكروفون وكأنه سوف يؤدي رقصة اسكتلندية، وفجأة صاح العجوز:

"تجمعوا أيها الأصدقاء، حان الوقت لراعي البقر العجوز أن يؤدي أغنيته الريفية القاتلة".

ضحك الجميع في لطف.

"إنه وقت تجمع العصابات القديمة، اقتربوا حتى نستطيع أن نبدأ الجولة الأولى مباشرة".

شعر يوجين بالسعادة للإلهاء الذي حدث، فتجرع ما تبقى من السائل الكهرماني الذي أمامه في الكأس وقام من مكانه "هيا لنشاركهم".

لم ينتظر إجابة أغنيس بل سحبها من ذراعها، ظهر على حزامه اثنان من المسدسات الفضية بينما كانت أغنيس تتحرك ببطء.

"راقبيني، عندما يعد راعي البقر على خشبة المسرح حتى رقم ثلاثة يجب على المتسابق أن يطلق الرصاص".

وقفت أغنس تنظر إليه في صمت.

"لا داعي للقلق، لا يجب على المرء أن يكون ماهرًا في التصويب كل ما

78- موسيقي ومطرب امريكي وأحد البارزين في حركة الموسيقية الريفية الأمريكية. (المترجم)

عليه أن يسحب المسدس بسرعة".

"لا أستطيع سأجعل من نفسي أضحوكة".

أشار إلى الشارة التي علقها على ثيابه وقال:

"أنا الزعيم في هذه الحانة، ولا أحد يعبث مع امرأتي".

لم تسمع أغنيس من حديثه إلا كلمة امرأتي، قبل أن يدعو الرجل النحيف النساء للصعود على خشبة المسرح، صعدت النساء على خشبة المسرح، فلاحظت أغنيس لأول مرة هذا الكم من الأسلحة اللامعة قبل أن تصطف النساء في صف واحد.

وقفت خلف يوجين ووضع المسدس في يدها، ووضع ذراعيه حولها ليساعدها في إمساك المسدس.

"لا أستطيع أن أطلق الرصاص".

"لا بأس، يمكنك أن تتخيلي أن كولين أمامك وتطلقي النار على الفور، وسوف تصيبينها بين عينيها بالتأكيد".

على المسرح وقفت أول سيدتين في مواجهة بعضهما بعضًا، وبينهما مسافة صغيرة، ثم استدارتا ومشيت كل منهما في الاتجاه المعاكس على أرضية المسرح المليئة بنشارة الخشب، ثم واجها بعضهما بعضًا مرة أخرى، قدمهما الرجل النحيل "ملاك أنيسلاند" و"دلتا ديرد"، ورفع يده في الهواء وبدأ العد في الميكروفون.

"واحد، اثنان، ثلاثة".

عندما وصل لرقم ثلاثة سحبت المرأتان المسدس المتدلي حول خصريهما وأطلقتا الرصاص فأحدث دويًّا عاليًا وتصاعد الدخان من فوهته كمسدسات الأطفال، صاح الرجل:

"فازت دلتا ديرد على ملاك أنيسلاند".

نفخت المرأة الدخان المتصاعد عن فوهة مسدسها، فصاحت القاعة بإعجاب.

قال يوجين: "أوه، لقد نسيت، يجب أن نختار لك اسمًا مخيفًا، ليناسب المبارزة".

ثم ابتعد عنها، وعلى شفتيه ابتسامة شريرة وجلس على الطاولة وطلب جولة أخرى من الشراب، ورفع لها إبهامه للأعلى علامة على التشجيع كان أصبعه ورديًّا وسمينًا.

بحلول الوقت الذي وصلت فيه أغنيس إلى مقدمة الصف، كان الجو مشبعًا برائحة البارود تمامًا كجاي فوكس[79].

سألت امرأة أغنيس عن اسمها ودونته في ورقة، وسلمته للرجل أمام الميكروفون.

تم اقتياد أغنيس إلى الحلبة ووقفت أمامها امرأة أخرى، تلك المرأة التي من المفترض أن تطلق عليها الرصاص لم تكن تشبه كولين لسوء الحظ، كانت ترتدي تنورة ذات مربعات ضيقة مصنوعة من القطن وجوارب بيضاء طويلة، وشعرها على هيئة ضفائر طويلة ورفيعة، كانت في الستين من عمرها، وتبدو من نوع العجائز الذي يحضر طعام العشاء لطلاب

79- تعرف بمؤامرة البارود، قام بعض الاشخاص بزعامة جاي فوكس بالتحضير لتفجير البرلمان الإنجليزي وتم القبض عليهم أسفل البرلمان بصحبة عدد كبير من براميل البارود في عام 1605. (المترجم)

المدارس لكسب لقمة العيش.

أعلن العجوز خلف الميكروفون عن المبارزة، على اليسار أريزونا أن عجوز المطبخ فهتف الحضور، فأمسكت المرأة تنورتها وتمايلت ذات اليمين واليسار، ثم أعلن عن الوافدة الجديدة "فينكس ريزرنج"[80]، صفق الحشد مرة أخرى وشعرت أغنيس أنهم هتفوا لها بصوت أعلى من الهتاف السابق، ثم بدأ العد:

"آه، واحد، اثنان.....".

صاحت أغنيس:

"انتظر قليلًا، آسفة".

توقف الرجل في غيظ فمالت أغنيس والتقطت حقيبتها القرمزية من على الأرض وحشرتها بين ساقيها، فضحك الحشد، تنهد الرجل ثم بدأ العد مرة أخرى بتركيز أكبر وضعت أغنيس لسانها خلف أسنانها، بينما وقف الجميع يراقبها:

"آه، واحد، اثنان، ثلاثة.....".

سمع دوي إطلاق الرصاص، ثم بعد فترة قصيرة سمع دوي آخر، فتحت أغنيس عينيها فكانت سيدة المطبخ ترفع يدها علامة على النصر.

عندما بدأ المأمور في المنافسات استطاع أن يشق طريقه حتى الدور نصف النهائي وظلت أغنيس وحيدة على الطاولة معظم الوقت بصحبتها كوب دافئ من الكوكاكولا.

80- صعود العنقاء، مرتبط بأسطورة قيام طائر العنقاء من بين الرماد مرة أخرى مشتعلًا. (المترجم)

كان يطلق الرصاص على الآخرين بسهولة وبطريقة مضحكة، تجعله يشعر بالفخر.

أخذت تفكر في الزوجين اللذين تحدثا معها، وفي كولين وفي كل الوجوه التي كانت تحكم عليها، وظنت أنهم ربما يكونون أشقاءه.

تم استبعاد المأمور أخيرًا من المسابقة عن طريق "البلمر" كما أعلن عنه الرجل خلف الميكروفون، كان رجلًا مصابًا بالبثور في وجهه، ولكنه يأخذ الأمر بجدية، وكأنه يخال نفسه كلينت إيستوود[81]، وهو يسحب مسدسه الرخيص في فخر، وصل "البلمر" للدور النهائي، وفاز وحصل على قسيمة لينال بعض المشروبات المجانية من البار، ثم صعد مرة أخرى إلى المسرح، وعادت الفرقة الموسيقية لمواصلة العزف، وصعد المزيد من الأزواج للرقص، وفي أيديهم زجاجات المشروب الرخيصة؟

اقتاد يوجين أغنيس إلى منتصف القاعة، ومد يده إليها يدها بطريقة رسمية، لم يعد الشباب يستخدمها في الوقت الحاضر.

"لقد أحببت الاسم الذي اخترته لنفسك".

"أشكرك ولكنك لم تقدم لي النصح الكافي".

كانت أنفاسه دافئة ورائحته جذابة وجسده ساخنًا، فسمحت لنفسها أن تقترب منه حتى التصقت بصدره، فقال لها بفخر حقيقي جعلها تشعر بالسعادة:

81- ممثل ومخرج ومنتج أمريكي اشتهر من خلال أفلامه التي تجسد رعاة البقر والغرب المتوحش وحصل على جائزة الأوسكار عدة مرات. (المترجم)

"لكنك قمت بعمل رائع".

"لقد قتلتني في ثلاث ثوانٍ".

"ألم يساعدك تخيل كولين؟".

"لقد أغمضت عيني".

ضحك يوجين بصوت عالٍ، وبرق تأثير الشراب في عينه:

"تستحقين جائزة أجمل سيقان هذه الليلة".

"اصمت، إن لدي بعض الستائر القديمة في المنزل، وسأصنع منها فستانًا طويلًا في المرة القادمة".

"سيكون هناك مرة قادمة؟".

"أعتقد ذلك، خصوصًا أنني أعددت الملابس المناسبة".

"لا أستطيع الانتظار لرؤيتها، هل ستكون على أحدث صيحات الموضة التي ترتديها العاهرات؟".

عندما قال هذا تراجعت أغنيس للخلف، وكأنه داس على أصابع قدمها وملأ الهواء البارد حيز الفراغ الذي اتسع بينهما، في هذ اللحظة بدأت الفرقة الموسيقية في عزف أغنية جديدة، كانت أغنية حزينة عن امرأة مكسورة القلب، من النوع الذي يجعل النساء ترغب في الرقص وحدهن في الحلبة ويغنين بمفردهن.

"منذ متى أقلعت عن الشراب؟".

"ربما كان من الأفضل أن تسأل كولين".

شعر يوجين بالإهانة، ولكنه واصل الحديث بجدية:

"هل كان الإقلاع عن الشراب أمرًا صعبًا".

"نعم ويزداد الأمر صعوبة مع الوقت".

"كيف ذلك؟".

"تصبح أقوى كلما مر الوقت، ولكن الشراب يظل موجودًا دائمًا وينتظر، لا يهم إن هربت منه فهو يتبعك كظلك مهما ابتعدت عنه، الحيلة الناجحة هي ألا تنسى".

"ما الذي لا أنساه ؟".

"كل شيء، كل الأشياء السيئة التي فعلها بك، كيف كنت ضعيفًا وسيئًا، ومشاعرك التي لم يعد بإمكانك التحكم بها".

قال ببساطة:

"أعتقد أنه بإمكانك التحكم بها".

رفعت نظرها إليه:

"لهذا فأنا أحضر اجتماع المساعدة في الإقلاع عن الخمر، لأتحكم بها".

"أتمنى ألا يضايقك أن أشرب في وجودك".

استغرق منها الأمر لحظة في التفكير ثم قالت: "لا".

"هل أنت واثقة؟".

"نعم، كل ما في الأمر أنني أرغب في أن أجرب معك القليل، حتى أتصرف

بشكل طبيعي".

"حسنًا، أنت طبيعية بما فيه الكفاية بالنسبة لي".

أجابها ببساطة وسرعة شديدة لدرجة أنها شعرت بالصدمة، وقالت :

"صدق هذا أو لا تصدقه الأمر سيان عندي، ولكن ما قلته الآن واحد من أجمل الكلمات التي سمعتها منذ مدة طويلة".

رقصا معًا، حاولت أن تنسى عارها، وتجمل مظهرها وتعيش أحلام اليقظة، كانت تأمل أن تستطيع الاحتفاظ به بالقرب منها كصديق، كحبيب، كعاشق، كأب، تأمل أن تطعمه وتحافظ على نظافته، ويعطيها هو المال حتى تحافظ على أناقتها، تأمل أن يقضيا العطلات معًا، ويشتريا احتياجهما من أحد المحال التجارية الفاخرة.

بدأ الهواء البارد يتبخر من المساحة الفارغة بينهما، حتى دفعها شيء مجهول إلى سؤاله:

"لماذا حضرت الليلة لرؤيتي برغم كل الأشياء السيئة التي قالتها لك كولين؟".

استغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى يبدأ في الإجابة، مما جعلها تشعر بالحرج، من الواضح أنه يعرف الإجابة من قبل أن تسأله:

"آه، كنت وحيدًا لفترة طويلة، كنت وحيدًا لأربعة أعوام، كنت وحيدًا من قبل أن تموت زوجتي، لا تسيئي فهمي، لقد كانت امرأة طيبة، كانت جيدة مثل كولين، ولكنها كانت مشغولة في روتين الأطفال اليومي".

لم تطابق الموسيقى في الخلفية الحزن الناعم في كلماته:

"عندما أفكر في الأمر، أجد أنني كنت تحت الأرض معظم حياتي، لم يكن لدي شيء لأتكلم عنه، ولم يكن لدي شيء لأشاركه، كانت امرأة جيدة، اعتادت أن تجهز لي عشاء ساخنًا، مكونًا من اللحم والمرق، وكانت تحافظ على سخونة الطعام طوال اليوم حتى أعود، وتحرص على أن يكون الطعام كثيرًا، لأننا لا نتكلم كثيرًا ولا يوجد لدينا ما نقوله لبعضنا، ولكنها كانت امرأة جيدة".

ثم تابع قائلًا:

"أنا في سن الثالثة والأربعين، أكبر من أبي عند وفاته بأربعة أعوام، كان يجب أن أتقاعد، يجب أن أتوقف عن العمل في المنجم، عندما رأيتك للمرة الأولى لم أكن أعرفك ولا أعرف شيئًا عنك".

كانت تسمع حشرجة في حلقه:

"حتى كولين لم تذكر اسمك مطلقا، هذا أمر غريب أليس كذلك؟ إنهم لا يخبرون الرجال عنك ولا يتحدثون إلا في السر، في المجالس المغلقة وساحة الكنيسة، هذا هو ناديهم السري، عندما رأيتك لأول مرة عرفت أنك وحيدة مثلي، وأردت أن يكون لدينا شيء لنقوله بعضنا لبعض".

ارتعشت شفتاه:

"وأدركت بعد ذلك أنني لا أريد أن أبتعد عنك".

قبلته أغنيس بعد ذلك.

كان يوجين خشنًا ولكنه حقيقي، وكانت شفتاه صلبة، ولكنها حلوة المذاق.

20

تجلس أغنيس على سجادة غرفة الجلوس وهي تولي ظهرها للباب، وأصابع قدميها الوردية ملتوية خلفها، متكئة على ركبتها، بينما تصدح بجوارها موسيقى لأغنية عاطفية شهيرة، وتظهر على وجهها علامات السعادة وهي تردد لحن الأغنية.

ينظر إليها شوجي في اهتمام وقلق وهي تعيد فرز ملابسها الداخلية وتقسمها إلى مجموعات ثم تعيد تقسيم المجموعات لمجموعات أخرى حسب درجة اللون، فهذا الأبيض الناصع، وهذا الذي فقد بريقه بفعل الزمن، وهذا الذي تحول للون الأصفر وأصبح كومة مهملة لم تعد تستخدمها.

تسلل شوجي من خلفها ووضع أطراف أصابعه فوق أصابع قدميها، وأدخل مرفقه بين ذراعيها وضم صدره إليها، وأخذ يتابعها وهي تعمل من فوق كتفها، رفع زوجًا من الملابس الداخلية المصنوعة من الساتان وعليها تطريز في المقدمة.

"ما رأيك بهذا؟".

"أعتقد أنها عتيقة الطراز، ومنخفضة قليلًا ناحية الأرداف".

ثم تذكر شوجي شيئًا ما، يشبه لون الملابس الداخلية، فنظر إلى الستائر الستان المعلقة فوق النافذة.

"أيها الأحمق الصغير".

ثم ألقت الملابس فوق الكومة وقالت:

"لا داعي لارتدائها".

التقط شوجي حمالة صدر قديمة بيضاء ورفعها عاليًا بيده، ثم أمسك حزامها المطاطي وجذبه وهو يقول:

"أراهن أنه من الممكن صنع منجنيق قوي بهذا الحزام المطاطي، وقذف نوافذ عائلة ماكفيني بخمس قطع كبيرة من الفحم".

التقطت أغنيس حمالة الصدر من بين أصابعه وألقتها في الكومة المهملة، وقالت: "لن أستطيع الاستغناء عنها".

سألها شوجي: "لماذا تقومين بكل هذا على كل حال؟".

زاغت عينا أغنيس كأعين السندباد في رحلة بحرية وقالت:

"أحتاج لبعض التنظيم".

"ولماذا تهتمين بالملابس الداخلية؟ علمنا الأب باري أن الشخص الوحيد الذي يجب أن يرى ملابسك الداخلية هو أنت".

"الأب باري؟ حسنا يجب أن تعلم أنني سوف أقضي الليل في الخارج".

ومالت عليه بخبث:

"سأعود مع طلوع النهار".

"هل ستقضين الليل مع سائق الأجرة؟ هل ستدعينه يرى ملابسك الداخلية؟".

ضحكت وحكت طرف أنفه بأصابعها:

"نعم سأقضي الليل مع رجلي الكبير، ولكن لمعلوماتك لن أجعله يرى ملابسي الداخلية".

شعر يوجين بحماسة شديدة وهو يقلها بسيارة الأجرة وقال لها بصوت مبتسم:

"سوف تحبين المكان، إنه مكان رائع".

يردد تلك الكلمات كل بضع دقائق، وهو يقود السيارة على طرق لم ترَها أغنيس من قبل، شعرت أغنيس في البداية بخيبة الأمل لأنهما يبتعدان عن المدينة، فقد كانت تأمل أن يتناولا غذاء لطيفًا في أحد المطاعم أو يحضرا حفلًا في أحد الملاهي الجميلة، لذلك ارتدت ثيابًا فاخرة تليق بالمناسبة، ولكنهما الآن وقفا ينظران لحفرة عميقة تمتد إلى باطن الأرض، حك يوجين مؤخرة عنقه وهو يقول:

"اللعنة يجب على أن أحملك".

كان الوحل يغطي الكعب العالي لحذائها.

"ماذا لو أسقطتني؟".

ضحك قائلًا:

"أوه، لا تقلقي سوف تموتين سريعًا".

ارتكز بإحدى ركبتيه في الوحل كالفرسان وعرض عليها أن تصعد فوق ظهره.

رفعت أغنيس تنورتها بلطف، لم تهتم لكشف فخذيها، ولكنها حرصت في الوقت نفسه ألا تكشف المشبك الغبي الذي يمسك جواربها السوداء،

لفت ساقها حوله ورفعها بسهولة، كان النزول في الحفرة خطيرًا للغاية، كلما هبط يوجين للأسف يزداد الطريق صعوبة والخطوات لا تجد موضعًا ممهدًا لتطأها.

اضطر يوجين في العديد من المرات لأن يضع أغنيس أرضًا ثم يعبر للأسفل قبل أن يساعدها على العبور لتلحقه، وعندما وصلا للقاع كان كلاهما يلهث وملابسهما متسخة.

تم نحت الوادي الذي هبطا إليه عبر سنوات طويلة من حركة المياه البطيئة، كان هناك نهر بطيء يجري في الماضي، لكنه جف ولم يبق منه غير تجمعات قليلة من المياه التي اكتسبت لونها الأحمر من ترسبات الحجر الجيري، فكانت تشبه الدم مما جعل أغنيس تشعر بالاضطراب.

الجدران الحمراء المرتفعة التي نحتها النهر بحركته البطيئة تحيط بها من كل اتجاه، وفي وسط الوادي كتل ضخمة من الحجر الجيري تشبه المذبح، والأرض مليئة بالأعشاب والطحالب، نظرت أغنيس للأعلى فكادت ألا ترى السماء.

قال يوجين مبتهجًا بفخر:

"هذا منبر الشيطان، إنه رائع أليس كذلك؟".

وقفت أغنيس بحذائها ذي الكعب العالي بين الصخور والأشواك، نظرت إليه وهي تقول:

"يجب أن تقول ذلك، فقد كنت عامل مناجم، أليس كذلك؟".

مر بيده على الجدار المبطن للوادي وقال:

"جئت إلى هنا للمرة الأولى بصحبة أمي، لم يكن أحد يعرف شيئًا عن هذا المكان، كانت تضع كرسيًّا صغيرًا هنا، ونقضي ساعات من اللعب والمتعة".

كان يوجين ينظر حوله ويتذكر أوقاته السعيدة:

"في السابق، كان هناك بعض الماء المتبقي، وكانت كولين تتمتع بأرجل طويلة، لذلك كانت تسبقنا جميعًا بسهولة".

عبست أغنيس وهي تنظر إلى الماء الأحمر:

"لا بد أن الماء طعمه سيئ".

رفع يوجين بعض الماء في يده وقال:

"لا، انظري إنه ما زال نقيًّا".

رفع الماء لشفتيها، ولكنها رفعت يدها إلى صدرها وأغلقت فمها، ورفضت أن تشرب، ولكنها تمنت في داخلها أن تشرب الماء، بدا يوجين مرتبكًا ومترددًا ومسح يده المبتلة في سرواله.

"كان غباء مني أن آتي بسيدة راقية مثلك إلى هذا المكان".

"لا، الأمر ليس كذلك، ولكني كنت أتوقع شيئًا مختلفًا".

مرت بيدها على الجدار الأحمر كما يفعل وقالت:

"يبدو أنه مر وقت طويل منذ مارس كلانا بعض الغزل".

"هل يبدو ذلك واضحًا؟".

كان يوجين يخلع قطعة من الحجر المكون لجدار الوادي ويفركها بأصابعه:

"إنني عامل مناجم بسيط، ولكن مثل هذه القطعة من الحجارة، بعد تعرضها للضغط الكافي يمكنها أن تتحول لكتلة من الماس".

وضعت أغنيس حقيبتها تحت إبطها وهي تضحك:

"لماذا لم تقل هذا من قبل؟ هذه معلومة هامة".

ظلا في الأسفل حتى هبط سائحان ألمانيان إلى وادي النهر المنخفض، فحملها مرة أخرى إلى سطح الأرض ولكنه هذه المرة تعمد أن يميل إلى الأمام حتى تلتصق شفتاها بالجلد الوردي في شحمة أذنه.

يوجين لديه خطط بشأن اليوم، لم يكن مستعدًّا لإفسادها أكثر من ذلك مهما حدث، قاد السيارة حتى وصلا إلى تلال كامبسي[82] وسارا على الأقدام في طريق مخيف حتى عبرا إلى الجانب الآخر ولكنها لم تشكُ هذه المرة.

جلسا على العشب الأخضر وشاهدا المدينة من بعيد، كان قد جهز مفرشًا قديمًا من القماش لتجلس عليه، وجلس في اتجاه الرياح ليحميها بجسده دون أن تطلب منه ذلك، وفتح حقيبة الطعام التي أحضرها معه.

كان الطعام بسيطًا وشهيًّا، كانت هناك سندوتشات من الجبنة السميكة بحيث كانت قطعة الجبن تساوي في سمكها قطع الخبز الموضوعة بداخلها، وكان هناك كم كبير من ثمار الفراولة الحمراء، وصينية من السجق المشوي في المنزل، كل شيء كان جيدًا، ولكنه يفتقر إلى الذوق، كان يوجين قد أعد كمية كبيرة من الطعام تكفي لوردية كاملة من عمال

82- في منتصف الطريق بين جلاسكو وإدنبرة وتعتبر من أفضل مناطق المنتجعات والفنادق في اسكتلندا. (المترجم)

سألته: "هل كانت زوجتك تأكل كثيرًا؟".

قال: "أعتقد أن شهيتها كانت قوية".

ترك أغنيس تضحك على عبارته ليذكرها أنه شخص طيب ثم فتح عبوة من البيرة أخرجها من حقيبة الطعام.

"لا مانع لديك، أليس كذلك؟".

كانت تنظف تنورتها من آثار الطين عندما أجابته:

"على الإطلاق".

عرض عليها الاختيار بين زجاجة من الحليب الذي يبدو دافئًا، وزجاجة أخرى من مشروب غازي كبيرة الحجم، فاختارت المشروب الغازي الذي كان بطعم الزنجبيل، فصبه لها في الكوب الصغير الخاص بالترمس.

"ماذا تشربين منذ أن توقفت عن شرب الخمر؟".

بدت عليه الحيرة وهو يسألها خشية أن يجرحها هذا السؤال ولكن أغنيس أخذت الحوار إلى اتجاه آخر:

"في الأغلب دموع أعدائي، وعندما لا تتوفر أشرب الشاي أو ماء من الصنبور".

انبعثت حولهم في ذلك التوقيت رائحة الطحالب المتخمرة التي تشبه رائحة البيرة فشعرت بانتعاش، وندمت على ترك يوجين يجلس في اتجاه الرياح.

أخذت أغنيس رغيفًا محشوًّا بالجنبة، كانت الجبنة من النوع الشيدر الشهي، وقطعته أغنيس إلى قطع صغيرة تشبه طعام الطيور حتى لا تحشر البقايا خلف أسنانها.

"لا يعجبك الطعام؟".

"لا، إنه جيد للغاية، لا يمكنني أن أتذكر المرة الأخيرة التي جلب لي أحدهم شيئًا لأكله".

"أوه، كيف استطاع الجميع إهمالك هكذا؟".

رفعت ذراعها للسماء وفتحتها على أقصى اتساعها وهي تغني:

"يا إلهي الغالي، أشكرك في جميع الأحوال".

"حسنًا، يمكنني أن أصنع سندوتشات الجبن، ولحم الخنزير مع السلطة، ويمكنني أن افتح المعلبات بمفردي، وأن أسلق البيض كذلك".

ورفع ذقنه في غرور مصطنع.

رسمت أغنيس صليبًا فوق قلبها وتظاهرت بالإغماء.

"أيها السيد النبيل أين كنت طوال هذا الوقت؟".

ربما يستطيع في وقت لاحق أن يخبرها كيف أعد الطعام من أجل هذه النزهة، وكيف أخرج حقيبة الطعام من المنزل في السر كالمراهقين في الخفاء، وكيف كان يعد السندوتشات وهو يختبئ في الحمام حتى لا يراه أحد، ربما يستطيع أن يخبرها عن ابنته بيرني وأساليبها في التطفل، ولكن هذا ليس الوقت المناسب لتلك الحكايات، حتى لا يفسد يومها الجميل.

غطت أغنيس فمها بظهر يدها وتثاءبت، فضحك يوجين وقلدها وهو يقول:

"نعم، هذا ما يحصل عليه المرء بسبب العمل في المناوبة الليلية، عندما يطلع النهار نزحف إلى مخابئنا مثل المخلوقات الليلية".

أخذ يوجين رشفة من البيرة:

"أنا سعيد بالعمل كسائق أجرة، حتى لو كان يجعل المرء يتصرف مثل... مثل...".

أكملت أغنيس العبارة:

"مثل القاقم[83]".

"هل تنعتيني بابن عرس أيتها السيدة؟".

"أنا أدعو السائقين الآخرين بأبناء عرس، أما أنت فلست مثلهم، كما أني أحب القاقم وأرغب في أن أحصل على معطف جميل مصنوع من فروه".

تثاءبت أغنيس مرة أخرى، واستدارت لمواجهة جلاسكو التي تظهر من بعيد ككتلة رمادية متجمعة في عمق الوادي الأخضر، ثم تابعا شمس الظهيرة تلقي بضوئها على المدينة من بين السحب المنخفضة.

"هل يمكننا البقاء هنا لفترة كافية لمشاهدة إضاءة المدينة؟".

"إن لم نتجمد من البرد، سنفعل ذلك".

في نفس اللحظة، هبت رياح باردة وكأن الطقس يتابع حديثهما

83- حيوان يشبه ابن عرس ولكنه قصير الذيل ويتميز بجمال مظهره وفروه وهو شرس وعدواني. (المترجم)

باهتمام، سرت قشعريرة في جسد أغنيس، ابتسم يوجين وفتح ذراعيه الكبيرتين وأشار إلى صدره كأنه يطلب منها أن تختبئ بداخلهما.

كانت أنيقة لدرجة أنها من غير الممكن أن تزحف بطول المسافة الفاصلة بينه وبينها، فوقفت وسارت بكعبها العالي فوق البطانية المفروشة على العشب حتى استلقت بجانبه، ووضعت رأسها على صدره وأغمضت عينيها، فلف ذراعه حولها حتى شعرت بالأمان.

جلسا على هذا النحو لفترة طويلة دون أن يتحدثا، اكتفت أغنيس بمشاهدة الغيوم الكثيفة وهي تحيط المدينة ببطء وشعرت بالدفء بين ذراعيه فأراحت رأسها للوراء، مد يده ليفرك ساقها حتى تتخلص من البرودة، راقبته مبتسمة فانحنى على رقبتها وقبلها قبلة ناعمة، وارتفعت يده شيئًا فشيئًا حتى وصلت إلى ركبتيها، وهي تراقب النمش المنتشر على أصابع يده، استمر يوجين في المرور بيده على ساقيها للأعلى. لحسن الحظ، نسيت أغنيس الوعد الذي قطعته لشوجي بألا تتركه يشاهد ملابسها الداخلية.

"استيقظ".

شعر الصبي بالفزع وهي تقف فوق رأسه وتصيح مرتدية ملابسها الداكنة، فتح عينه الناعسة ونظر إليها.

قالت بحماس:

"ارتدي ملابسك، سوف نخرج في مغامرة كبرى".

كان لا يزال نصف نائم، وأغنيس تجره إلى خارج المجمع السكني في منتصف الليل، كان كل شيء صامتًا حولهما، ما عدا الحفر التي يتصاعد

منها صوت البخار وبعض نقيق الضفادع.

منذ أن تعرفت على يوجين أصبحت أغنيس ترى كل شيء أقل كآبة. مشت في سعادة تسحب شوجي وهو يتذمر خلفها، عندما وصلا إلى الطريق السريع المؤدي إلى جلاسكو تسللا عبر محطة البنزين وسارا تحت شجر البلوط ثم راقبا حركة السير حتى يعبرا ليصلا إلى الجزيرة في منتصف طريق السيارات، ومثل الهاربين جلسا القرفصاء تحت غطاء كثيف من الشجيرات الخشنة.

بدأت أغنيس في الحفر وإخراج جذور النباتات الصغيرة من تحت التربة.

"يجب أن نتحرك بسرعة، لن نغادر حتى نحصل على كل واحدة من هذه النباتات الصغيرة".

عاد شوجي إلى فراشه واستلقى تحت الغطاء، ما زال يرتدي ملابس اللصوص.

كان يفكر في ذلك الرجل ذي الشعر الأحمر الذي منذ بدأ في تقبيل أمه والابتسامة عادت إلى شفتيها، أراد الصبي أن يسأل أخاه ليك في ذلك الموضوع، ولكن ليك كان نائمًا تحت كومة من الأغطية، يعرف شوجي أنه لا يجب قطع الأحلام عن أخيه.

قام شوجي من مكانه ونظر إلى خارج المنزل عبر الستائر فوجد الفناء الأمامي تغير تمامًا، تلك القطعة الصغيرة من الأرض التي كانت ممتلئة بالقذارة والأوساخ والأعشاب البنية شديدة الارتفاع أصبحت نظيفة

ومزينة بالزهور القرمزية والقشدية والخوخية التي تتمايل وترقص كالبالونات السعيدة.

ومع بداية ضوء النهار خرج شوجي وبدأ في التقاط أوراق الزهور التي سقطت على الأرض، بينما كان أطفال عائلة ماكافيني ينظرون إليه في حقد ودهشة، حتى صاحت إحداهن وفمها مفتوح على وسعه:

"من أين حصلت على هذا؟ أيها الفأر القذر، يا شبيه الفتيات".

أخفى عنها شوجي الحقيقة:

"لا أعرف".

كان على جانب فمها بقايا من الشكولاتة وشعرها الذي يشبه شعر الفئران متشابكًا على الجانبين.

"هذه الأشياء لم تكن هنا بالأمس".

وأشارت بيدها ناحية الغرب بطريقة مبهمة.

قال شوجي:

"ربما ظهرت للتو كالسحر".

ضحك الأطفال ومد فرانسيس الطفل الأكبر بينهم يده عبر السياج وقطف وردة بيضاء كبيرة، صاح شوجي:

"تمهل".

كانت صرخة شوجي أقرب لصوت ذبابة منها لصوت صبي:

"أرجوك، لا تفعل هذا".

تسلق الصبي فوق السياج ثم تدلى للأسفل مرتكزًا على بطنه وقال مهددًا:

"من الذي سيمنعني؟".

"إنها ليست لك لتقطفها".

قالت الفتاة مرة أخرى:

"وهي ليست لك أيها اللعين المخنث، هل تعتقد أنها نبتت حقًّا في الليل؟".

"من الممكن ذلك".

أظهرت ابتسامة الفتاة أسنانها الحادة، كانت أكبر منه عمرًا وتستطيع أن تضربه بسهولة:

"بحق يسوع المسيح أيها الفأر القذر، أنت سخيف للغاية".

ضحك كل أفراد عائلة ماكافيني، واقتربوا من السياج يغنون في وقت واحد بصوت عال:

"الصغير الباكي الشاذ، الصغير الباكي الشاذ".

أصداء أصواتهم في الحي تعلو على صوت بائع الآيس كريم.

قالت فرانسيس:

"إنك مثل المتشردين".

رد شوجي:

"أخبرتني والدتي أن أبتعد عنكم، وأمنعكم من وضع أصابعكم في مؤخرتي".

قفز الأطفال بعنف فوق السياج، وتناوبوا في البصق عليه، وتقطيع الزهور وإلقائها فوق رأسه، ثم قفزوا عبر السياج مرة أخرى وهم يضحكون بسعادة في طريقهم للعودة إلى منزلهم، وعندما وصلوا إلى باب منزلهم الأمامي، استدار فرانسيس ونظر إليه ملوحًا في سعادة.

رفع شوجي ذراعه ومسح وجهه بطرف ثوبه الأسود ولكنه ندم على ذلك عندما رأى كولين تتابع ما يحدث من خلف النافذة، وهي تدخن وتشرب كوبًا من الشاي.

فتحت أغنيس جميع نوافذ المنزل، وارتفع صوت الموسيقى من خلال الكاسيت، وقفت بين الأزهار التي أحضرتها بداخل المنزل مرتدية سروالًا قصيرًا من الجينز وقميصًا قطنيًّا قديمًا يخفي آثار الشمس على جلدها.

كان هذا الصيف حارًّا بدرجة غير معقولة، تخللته سلسلة طويلة من الأيام الجافة مع شمس حارقة تكفي للإصابة بضربة الشمس والحروق، دارت أغنيس حول نفسها كما لو كانت ترقص مع شريك وهمي، وصاحت:

"أحضر مؤخرتك الصغيرة إلى هنا حتى ترقص مع أمك".

كان صوتها عاليًا جدًّا حتى تردد صداه بين جميع منازل عمال المناجم.

عبس شوجي وهو يخطو إلى داخل غرفة النوم الواسعة:

"هل أستطيع أن أبقى في الداخل طوال النهار؟".

ردت أغنيس بمرح:

"ستغيب الشمس قريبًا لمدة عام كامل، وسوف تشعر بالندم".

كانت تدور حول نفسها في حلقات بسعادة غامرة، لا يمكن لشوجي أن يتذكر رؤيتها سعيدة إلى هذه الدرجة من قبل. فوجئ شوجي بسبب شعوره بالألم لسعادتها في تلك اللحظة، ولأن ذلك الرجل ذا الشعر الأحمر نجح في تحقيق ما عجز عن تحقيقه طوال الفترة الماضية.

كانت أغنيس تبدو كسيدة الورود، على كتفها ورقبتها آثار وردية فاتحة من شمس الصيف، عروقها المتشابكة كخيط العنكبوت، عادت إليها النضارة وكأن ديزني بنفسه قد أعاد تلوينها، ومنحها الحياة مرة أخرى ثم منحها جسد سنووايت. مالت بجسدها تجاهه، وأراحت صدرها الطري على رأسه، كانت تبتسم بحنان، ولم تبالِ رغم آثار الخدوش التي تركتها أشواك الورد على ذراعيها.

كان هناك صراع من الانفعالات بداخل شوجي، أراد أن يخبر أمه عما يشعر به ولكنها كانت سعيدة، ولم يرغب في إفساد لحظتها، شعر أنها سحقته بأسرارها الخفية وأراد أن يسحقها بأسراره التي لا تعرف عنها شيئًا.

فسألها بهدوء:

"ما خطبي يا ماما؟".

مسحت أغنيس وجهه الساخن بيد باردة وقالت:

"لا شيء يا صغيري، لقد بلغت العاشرة، ومن الطبيعي أن تمر بفترة نضج صعبة".

ودون مقدمات وضعت سترة سوداء فوق رأسه، وأنزلت بنطاله إلى الأسفل:

"هل ترتدي ملابسك الداخلية، أم أنك لا ترتديها؟".

أجاب بسرعة:

"بالطبع، أرتدي ملابس داخلية، نحن لا نعيش في إفريقيا".

جلست بجوار النافذة تدخن سيجارة وتشرب قدحًا من الشاي، هو نفس القدح الذي كانت تستخدمه في الماضي لتناول الخمر في سرية دون أن يلاحظها أحد، وجلس شوجي أمامها وهي تمشط شعره، سألته:

"أي نوع من الرجال ستكون عندما تكبر؟".

"أي نوع من الرجال ترغبين في أن أكونه؟".

فكرت للحظة:

"أرغب أن تكون من النوع المسالم".

ثم أعادت شعره المبلل للخلف وهي تقول:

"يبدو مظهرك هكذا أقل غرابة".

"لا أدري، كل ما أرغب فيه أن أكون معك، وأن أصحبك لمكان بعيد لنحصل على بداية جديدة".

صمت شوجي قليلًا وسألها:

"هل تحبينه؟ هل سيصبح أبي الجديد؟".

سكتت أغنيس ولم تجب.

"إنه من عائلة ماكفيني، وهم حفنة من الأوغاد".

غمغمت من بين أسنانها:

"ليسوا جميعهم".

"إنهم دمويون".

أطلق شوجي غازات من بطنه بصوت مرتفع، فضحك كلاهما رغم أن الموقف لم يكن مضحكًا لهذا الحد، ثم اختفت الابتسامة من على وجهها وهي تقول:

"لقد كنت وحيدة لفترة طويلة لا أملك أحدًا سواك".

رأها شوجي وهي تقف والسيجارة في فمها، ولم تنظر إليه في الأسفل.

تنهدت ثم قالت:

"لقد كنت وحيدة لفترة طويلة لا أملك أحدًا سواك، هذا سلوك غير صحيح".

فتحت المظروف الأزرق الكبير الذي تحتفظ فيه براتبها الذي حصلت عليه من العمل في محطة البنزين والنقود التي تدخرها من فتح عدادات الغاز والكهرباء، أعطت شوجي ورقة نقدية كبيرة وطلبت منه أن يحضر لنفسه الكثير من الآيس كريم.

وصلت عربة الآيس كريم سريعًا بالقرب من منزلهما كانت شاحنة

صغيرة من الصفيح الأبيض مرسومًا عليها طفل يضحك، وبها العديد من الثقوب والأجزاء المحطمة التي تم تغطيتها بقطع من القصدير، يقف الأطفال على جانب الشاحنة على أطراف أصابعهم للوصول إلى الشباك الذي يقف خلفه البائع، يضع البائع عينات في صندوق زجاجي خارج الشباك، حتى استطاع الأطفال معرفة ما بداخل الشاحنة.

كان جينو الذي يقود الشاحنة رجلًا إيطاليًّا، يستمتع بالنظر إلى صدور الفتيات الصغيرات اللاتي يتزاحمن أمام نافذته.

وقف شوجي في نهاية الطابور منتظرًا دوره في الحصول على المثلجات، ووقفت أمامه شونا دونيلي، أصغر أبناء بريدي وهي الفتاة الوحيدة التي أنجبتها، استدارت شونا في مواجهته، وغمزت له ثم رفعت قمصيها لتكشف الرسومات الوردية المرسومة فوق حمالة صدرها.

دائمًا ما تكون الفتاة الوحيدة بين مجموعة أشقاء من الذكور أكثر جرأة من الأخريات، هي الوحيدة بين أشقائها التي تذهب لشراء الآيس كريم من شاحنة جينو.

قامت شونا بعمل أشكال مضحكة بوجهها وتوسيع عينها فصارت تشبه الضفدعة.

كانت جينتي مكلينشي برغم سنها تشترى الآيس كريم بنكهة النعناع والشكولاتة و التبغ، أما باقي الأطفال خلفها في الطابور لا يملكون النقود، لذلك جلبوا معهم زجاجات البيرة الفارغة بطعم الزنجبيل، لاستبدالها بالآيس كريم، تساوي الزجاجة عشرة بنسات.

يرفعون الزجاجات إلى النافذة، وبعد أن يتم عدها لكل طفل على حدة

يقضون وقتهم في تناول الحلوى الرخيصة، والمارشميلو بأفواه مفتوحة.

يقف شوجي في نهاية الصف واضعًا يده على ركبته في صمت، وهو يراقب جينو يخطئ عن عمد في حساب النقود لكل طفل.

يقضي شوجي ووالدته فترة ما بعد الظهيرة مستلقيين بسعادة على الأريكة يأكلان ألواح الشكولاتة، ويشاهدان التلفاز، يتصرفان باسترخاء وكأنهما ورثا ثروة هائلة، وبمجرد أن ينتهيا من تناول أحد الواح الشكولاتة يفتحان لوحًا آخر.

ينام على ظهره وهو يحشر قطع الشكولاتة في فمه ويتطلع لانعكاسات التليفزيون على وجه أمه وعلى زجاج نظارتها سداسية الأضلاع في سعادة، تنتزع أغنيس قطع النعناع من الشكولاتة وتنظر بتركيز للدراما المعروضة على شاشة التلفاز

سو إيلين أوينغ[84] هي الشخصية المفضلة بالنسبة لأغنيس، ترى فيها انعكاسًا لها في المرآة، ولكنه انعكاس مرح.

في كل مرة تشرب الخمر، تصيح أغنيس بصوت عالٍ مخاطبة ليك:

"إنها تشبهني، أليس كذلك؟".

ثم تضحك فتظهر أسنانها الملوثة بالشكولاتة وكأنها تحسد سو إيلين على مأساتها المصطنعة.

84- شخصية درامية خيالية كانت تؤديها الممثلة ليندا جراي، وكانت في الكثير من الأوقات تعاني من إدمان الكحول، وتدهور علاقتها مع زوجها. (المترجم)

تنظر إلى التلفاز وتقول:

"إنها مريضة يجب أن تعلم هذا، هذه الفتاة المسكينة لا تستطيع أن تتوقف".

يشاهد شوجي الممثلة وهي تصطنع ارتعاشة مزيفة بشفتها السفلى، ويعلم أن كل ما يحدث ما هو إلا حفنة من الأكاذيب، لماذا لم تضع رأسها في الفرن وتنتشر رائحة الغاز في المنزل؟ لماذا لا يقف الأعمام في غرفة نومها عارين؟ لماذا لم ترحل أختها وتترك المنزل إلى الأبد؟

السـتائر مفتوحة تظهر من خلفها أنوار الحي الذي اختفى منه الأطفال بحلول هذا الوقت المتأخر. انتهت الحلقة التليفزيونية، وكذلك نفدت الشكولاتة، فقدوا اهتمامهم بالتلفاز والإعلانات التي تظهر حيوانات الشمبانزي تتكلم، فجلسوا في صمت يشعرون بالغثيان والتعفن في أماكنهم، صاحت أغنيس على نحو مفاجئ:

"ارقص من أجلي يا صغيري".

رد شوجي:

"حسنًا".

تذمر ليك وتركهم لهرائهما، كان لا يحب أن تتعامل مع أخيه كحيوان أليف، لا فائدة من صبي ناعم في ذلك العالم الخشن.

استمعا إليه وهو يغلق باب حجرته، وعرفا أنه سيتكوم فوق الدفتر الأسود ويبدأ في الرسم واضعًا السماعات في أذنيه.

"هيا، ارقص من أجلي، أريد أن أعرف كيف يرقص أطفال اليوم".

وضعت أغنيس بعض الموسيقى في جهاز الكاسيت، ورفعت تنورتها المزينة بالخرز لأعلى قليلًا، حتى ظهرت ركبتها، كانت شارده وعقلها في مكان آخر حسب ما استطاع شوجي أن يتبين، باعد شوجي بين ساقيه بمسافة كافية، وقال: "حسنًا يجب أن أقف هنا، وبعد هذا..".

بدأ في هز مؤخرته، قالت أغنيس وهي تقلده:

"هل تقصد هكذا؟".

بدا الأمر طبيعيًّا بالنسبة لها أكثر منه، لأنها امرأة.

قال وهو يحرك كتفه كما كان يشاهد في التلفاز:

"ثم يجب أن تمد يدك وتهز كتفيك".

لقد رأى مغنية سوداء تؤدي هذه الرقصة على المسرح، وهي ترتدي ملابس ذات أكتاف مبطنة تشبه فاكهة الأناناس، استمر شوجي في تحريك أكتافه وقدميه سريعًا في اتجاهين متعاكسين، ثم أخذ يتحرك بشكل أسرع وأسرع وكأنه مصاب بالصرع.

"تحركي مثلي".

سألته وهي تتحرك كمن يعاني من سكتة دماغية:

"هكذا؟".

أكمل الحديث وهو غير واثق مما يفعل:

"ثم يجب عليك أن تتحركي بهذه الطريقة بعد ذلك".

وبدا يتحرك للأمام والخلف كإنسان آلي، ثم أخذ يقفز كأنه يخطو فوق النار.

قالت أغينس:

"أنا لست واثقة أن هذه هي الطريقة التي يرقص بها الأطفال اليوم".

توقفت عن الرقص.

"أوه، أوه إنها هي الطريقة الصحيحة، لقد رأيت جانيت جاكسون[85] تفعل ذلك".

ووضع يده على رأسه وهو يرقص كمن يعاني من الصداع.

انهارت أغنيس على الأريكة وهي تلتقط سجائرها.

"أنا في حاجة للراحة لمدة دقيقة، استمر في الرقص، وسأواصل المشاهدة أريد أن أكون راقصة بارعة عندما أذهب إلى المدينة مع يوجين".

شعر شوجي بأنها خدعته، فلو كان يعرف أن هذا هدفها لرقص لها رقصة الزومبي المرعبة بدلًا من هذه الرقصة الجميلة.

استمر في الرقص حتى انتهت الأغنية، وبدأت أغنية جديدة، ظهر عليه الخجل والشعور بالعار، يهز فخذيه ويتظاهر أنه يحمل مفرقعات في يديه متماشيًا مع الأغنية الجديدة، وينفض رأسه وكأنه يملك شعرًا طويلًا ومثيرًا، يهز مؤخرته كثيرًا مقارنة بالأولاد، انفعل كثيرًا مع الأغنية، وكأنها تؤدى من قبل أوركسترا كاملة وليس مجموعة من الفتيات في الثالثة عشرة من أعمارهن.

"إنك راقص رائع ومتألق".

85- مغنية وممثلة أمريكية وتعتبر من أشهر مطربي البوب وهي شقيقة المطرب المعروف مايكل جاكسون. (المترجم)

قالت أغنيس:

"سوف أؤدي كل هذه الخطوات عندما أرقص مع يوجين في الأسبوع القادم، سوف يجن جنونه".

استمتع باهتمامها تجاه ما يفعل فزاد حماسته وكأنه يرقص بالفعل في التلفاز وسط مجموعة من الأولاد السود، كان يقفز ويصرخ بصوت أنثوي حاد. نفس الصوت الذي صرخ به عندما انقض عليه ليك في الظلام في أحد الأيام، فوقف على طرف الفراش على أطراف أصابعه مثل القطط.

عبر الشارع كان كل أفراد عائلة ماكفيني يشاهدون من النافذة ما يحدث، ويضحكون على أفعال الفأر القذر الذي يرقص بطريقة مثيرة، ويدور حول نفسه كالفتيات. يضربون بأيديهم على صدورهم ببهجة فرح، لم يرَهم في البداية ولكنه أدرك أنهم يضحكون عليه عندما سمع نكاتًا تتعلق بالطفل الشاذ جنسيًّا.

احتضنته أغنيس ولم تنظر في اتجاه النافذة وقالت:

"لو كنت مكانك لأكملت الرقص، أعلم أنهم يفوزون فقط إذا أعرتهم اهتمامك".

كانت ذراعه متخشبة وأطرافه باردة كأطراف شخص ميت.

"لا أستطيع".

"لا تجعلهم ينتصرون عليك".

بدأت الدموع تظهر في عينيه:

"مامي ساعديني، لا أستطيع".

ابتسمت فظهرت أسنانها وقالت:

"بلى تستطيع، ارفع رأسك عاليًا وتجاهلهم تمامًا".

لم تكن مفيدة بالنسبة له في حل مسائل الحساب، ولا إعداد وجبات العشاء الساخنة ولكنه رفع نظره إليها، وأدرك أخيرًا الشيء الذي تبرع فيه أكثر من الآخرين. كانت بارعة في أن تستيقظ يوميًّا بمعدة خاوية وترتدي أجمل ملابسها وتتأنق لمواجهة العالم، بارعة في رفع رأسها عاليًا وارتداء أجمل الثياب، في الوقت الذي يتضور أطفالها من الجوع وتنهار بفعل الكحول، وبارعة في تصفيف شعرها بعناية بدلًا من الاهتمام بما يظن الجميع.

كان الشعور بالموسيقى ومتابعة الرقص صعبًا بالنسبة له في البداية، كان صعبًا أن يجد ركنًا بداخل رأسه يلجأ إليه حتى يكتسب الثقة في نفسه، تحرك بأقدام مترنحة وأذرع ضعيفة ولكنه سرعان ما تحول لما يشبه القطار البطيء، الذي بمجرد أن يكتسب سرعته لم يعد بإمكان أحد أن يلحق به.

حاول أن يخفف قليلًا من الحركات المبالغ فيها، وأن يتوقف عن هز مؤخرته وتحريك فخذيه وتطويح ذراعيه بقوة ولكنه لم يستطِع، شيء ما في داخله منعه عن ذلك.

21

كالعادة، كان الاختيار الأخير في لعبة كرة القدم، كانوا يختارون الصبي البدين، الصبي ذا الأرجل المقوسة والصبي المصاب بالربو، حتى ماكلان مكاي الصبي المهووس بالضفادع يختارونه قبله.

فريق الكرة في نوفمبر يخلع قميصه، يسير شوجي في الملعب وهو يفرك صدره لا يعرف إن كان يجب أن يشعر بالبرد أم أنه يتعرق بسبب الحر.

يصيح معلم التربية الرياضية ليجعلهم يركضون بسرعة فوق العشب الأخضر الرطب حتى يشعروا بالدفء. العديد من الأولاد مصابون بالكسل أو يخافون من الكرة، فكانوا يركضون ولكنهم يتجنبون لمس الكرة، توقف المدرب عن الصياح المشجع، وبدأ في توجيه الإهانات لهم، المدرب العجوز رجل ذو جسد ممشوق. في صباه كان بطلًا رياضيًّا معروفًا في كل اسكتلندا، عندما صدر قرار منع استخدام العصا في المدرسة، ظن أنه سوف يتوقف عن التدريس وبعد مرور عدة سنوات لم يشعر أن شيئًا تغير بسبب القرار، لأنه يعرف كيف يحفز الأولاد، وينفذ للمناطق الخفيفة والمخبأة بداخلهم.

صاح المدرب بصوت عالٍ وهو يمد فمه كالبوق:

"تحرك يا شوجي، أيها المخمور الصغير".

عندما سمع الأولاد الآخرون المدرب يقول هذا بدؤوا في الضحك والثرثرة،

كانوا متعبين، ولكنهم وجدوا في نفسهم القوة للسخرية من شوجي رغم ذلك، لم يتوقع أن يشاركهم ماكلان مكاي الضحك ولكنه فعل.

من الممكن أن يمر اليوم مثل كل الأيام الأخرى ولكنه لم يكن مثلها، فقد ضحك الصبي الأشقر القذر، فتح فمه المحاط بالمخاط والأتربة على وسعه وضحك.

ركض شوجي بأقصى استطاعة ساقه الباردة بطول الملعب حتى وصل إليه وسأله:

"لماذا ضحكت للتو؟".

"نعم؟".

"أسألك، لماذا ضحكت؟".

قال وهو يمسح الوحل عن ساقه:

"لأني شعرت برغبة في الضحك".

يرتدي ماكلان مكاي ملابس بالية، قميص شقيقه الأكبر لا يناسبه، وسرواله قصير مهترئ من النوع الذي يمنح لك في حال نسيت ملابسك الخاصة بممارسة الرياضة حتى تلحق بالتمرين بدلًا من أن تبقى في المكتبة وحيدًا. أرجله متسخة وجواربه سوداء قديمة، وليست جوارب رياضية تحمل علامة تجارية مميزة.

تلعثم شوجي وهو يتفحصه بنظرة من أعلى إلى أسفل:

"ولكن... ولكن".

"ولكن ماذا أيها السخيف؟".

شد الصبي عضلات صدره ورفع رأسه كالنمس الذي يستعد للقتال:

"لكن ما الذي جعلك تظن أن بإمكانك أن تسخر مني؟".

مرت الكرة من فوقهما وركض الأولاد في الملعب مثل المهور الصغيرة التي تتحرك في قطيع حتى لا يتوه أحدهم.

صرخ المدرب وهو يركض في اتجاههم:

"أيتها السيدات، ما رأيكن أن تشاركننا في المباراة اللعينة بعد أن تنتهيا من الثرثرة الغبية وشرب الشاي؟".

ربما يكون شوجي قال شيئًا، أو وجه عبارة إلى ماكلان مكاي قبل أن يجد نفسه يسقط على الأرض وماكلان يقف فوق رأسه، زفر المعلم بفتور:

"ماذا قلت لكما؟".

انتظر شوجي أن ينتقم له المدرب، كان أمله الحقيقي والوحيد كشخص ضعيف ولكن المدرب قال:

"ألم أمنعكم عن ضرب الفتيات، عد إلى المباراة".

علا الضحك بين الأولاد في الملعب، بينما صاح ماكلان وهو يرتعش من الغضب:

"هل تظن أنك أفضل مني أيها الفتى الرخو؟".

ونظر تجاهه.

"سوف أحرص على أن أجتمع بك مرة أخرى في الميدان بعد انتهاء اليوم الدراسي".

انتشر صدى التهديد في كل أرجاء الملعب، وظل الأطفال طوال فترة المباراة يقتربون من شوجي ويخبرونه:

"سوف يقتلك، أنت ميت بالفعل، سيحولك لكومة من اللحم".

أخبره أحد الأولاد أنه لا يطيق الانتظار للساعة الثالثة حتى يشاهد ما سيحدث له، وقام أطفال عائلة ماكفيني بإثارة غضب ماكلان حتى يزيدوا من اشتعال الموقف كما أخبروا شوجي ألا يقلق لأنهم سوف يدافعون عنه.

مرت فترة الظهيرة وشوجي يتطلع إلى بحر من الأعين التي تحدق به، الجميع لا ينتبه إلى المعلم ولا إلى المادة الدراسية، ولكنهم ينظرون إلى مؤخرة الفصل، إلى كومة اللحم، ابتسمت له بعض الفتيات في تعاطف حقيقي، ولكنهن لم يستطعن إخفاء حماستهن لمشاهدة ما سيحدث.

لم يلاحظ شوجي الساعة الكبيرة المعلقة فوق السبورة من قبل، ولكنه الآن لا يستطيع أن يبعد نظره عن عقاربها الصغيرة التي تجري بسرعة معلنة قرب انتهاء اليوم الدراسي، ظن أن كل شيء سعيد بما سيحدث حتى عقارب الساعة الكبيرة.

كان الولد الأشقر القذر يبدو كفراشة تخرج من الشرنقة، هو سعيد بتبجيل أقرانه له، في الأسبوع الماضي كانوا يسخرون من رائحة أنفاسه القذرة، ويسألونه إن كانت والدته تملك مصاريف عملية تجميل حتى

يتحسن مظهره، ولكن الآن ينظرون له بتقدير مبالغ فيه، ويلقون إليه بعبارات المدح، وهو يجلس بينهم كحيوان سعيد وأليف لدرجة أنه نسي السبب الذي يتم الاحتفاء به من أجله.

شاهد شوجي ما يحدث فشعر بالألم، وفكرأن يبقى بداخل المدرسة حتى يمل الجميع ويعودوا لمنازلهم، أن يطلب من المعلم أن يحبسه في الداخل، كان يشعر أنه وصل للقاع كلما شاهد الصبي الأشقر يبتسم.

دق جرس المدرسة، غض المعلم المتعب الطرف عما يحدث، وانصرف بينما حمل الأطفال الصبيين إلى الخارج وسط أمواج من الأجساد المتلاطمة، وصل الجميع إلى الميدان الظليل المظلم خلف المدرسة، يقف ماكلان مبتسمًا والجميع يهتف باسمه كالمصارعين، الأولاد يصنعون دائرة لتشكيل حدود المعركة.

دفعت الأيدي شوجي من ظهره ليصبح في منتصف الدائرة، فوضع الصبي يده على صدر شوجي ودفعه للخلف وابتسم بخبث، شعر شوجي أنه مثل الأرنب المحبوس فصاح: "ابتعدوا عني أيها اللقطاء".

ضحك الجميع عليه وهو يتعثر ودفعوه من ظهره إلى منتصف الدائرة مرة أخرى.

نظر شوجي إلى فرانسيس وسأله:

"لماذا لا تدافع عني كما وعدتني؟".

استجداء الفأر الصغير لا قيمة له، ولكن الجميع ضحكوا وكأنها أفضل نكتة سمعوها على الإطلاق.

اشتعل شيء ما في صدر شوجي وجز على أسنانه، وقبل أن يدرك ما يحدث انطلق في اتجاه ماكلان، اختفت ملامح الانتصار من وجه ماكلان وحل محلها شعور بالرعب في لحظة واحدة، ولكنه أدرك ما يحدث متأخرًا، فقد أمسك به شوجي ولكمه بغضب في وجهه، كانت قبضة شوجي ضعيفة، فتحول الأمر لما يشبه الصفعة الحادة، تراجع الصبي الأشقر للوراء وشعر بالارتباك، ثم تمالك نفسه وبدا عليه الغضب.

صاح فرانسيس:

"هل ستقبل هذه الإهانة؟".

رد الصبي بغضب أكبر:

"لا".

كان سؤاله بلاغيًّا، ولكنه ساعد في تطور المشاجرة، اشتبك الصبيان وتلاطمت أجسادهما، في البداية حاول ماكلان رفع شوجي من وسطه وإلقاءه على الأرض، ولكنه لم ينجح، لطمه شوجي على وجهه لطمات متتابعة بقبضته الضعيفة.

لم تكن معركة حقيقية، كانت مملة، فالطرفان متساويان في الضعف، الأمر ممل حتى بالنسبة للأطفال بعد يوم دراسي مليء بالضجر، يجب أن تكون معركة مثيرة ومذلة، يجب على الفائز أن يذل خصمه حتى يستسلم.

مد فرانسيس قدمه وعرقل شوجي من الخلف، فانزلق الصبيان على الأرض في أحضان بعضهما كعاشقين، ثم ثبت قدم شوجي بحذائه، مما مكن ماكلان من توجيه ضربة قوية إلى وجهه، فتدفق الدم من أنفه وملأ وجهه وحلقه، استدار شوجي محاولًا التخلص من الجسد الثقيل الممسك به، فوجد وجهه يمتزج بالتراب والوحل وتحول لون الدم المتدفق إلى اللون القرمزي القاتم المتخثر مثل الكاسترد.

لم يستطع شوجي التحرك والصبي جالس على صدره وفرانسيس يضع قدمه على ذراعه الحرة، كان يرقد على الأرض ويصدر أصواتًا أشبه بالغرغرة والدم يسد حلقه، وبدأ الحشد يصدر أصواتًا تنم عن السعادة، وعندها فقط انهمرت دموعه.

زحفت خيوط سوداء عنكبوتية من الدم على الجانب الأيسر لوجه شوجي بينما كان يسير مطأطئ الرأس بين الأعشاب الطويلة، في حين كان الأطفال الآخرون يسيرون على الطريق الممهد إلى المجمع السكني وهم يتحدثون بحماس، وكأنهم شاهدوا ظاهرة كونية فريدة.

بدأت الشمس في الانخفاض عن منتصف السماء، الجو بارد مع بداية أيام الخريف، والسير صعب على العشب القاسي.

توقف شوجي خلف النادي الخاص بعمال المناجم، وأخذ يلعب بعبوات البيرة الملقاة في الخلف، كان من عادة بعض الأولاد الكبار أن يجمعوا

تلك العبوات ويشربون البقية المتبقية من البيرة بداخلها، ثم يدورون حول أنفسهم ويتظاهرون بالثمالة، يكره شوجي ما يفعلونه ويراه غير مضحك، إنهم لا يعرفون شيئًا عن حالة الثمالة.

ظل في الظلام لفترة طويلة، منتظرًا أن يعود كل الأطفال إلى منازلهم.

سار بين الأعشاب الطويلة الجافة، وداس بقدميه بين بقايا أجهزة التليفزيونات القديمة، وعربات الأطفال المتكسرة الملقاة بين برك الماء الراكدة، توقف للحظة يفكر في ما يفعل، ولكنه أكمل السير، فاندفعت البقايا والأوساخ بين أصابع قدميه، فشعر بألم شديد وبكى مرة أخرى.

شعر شوجي بحالة من احتقار الذات والقهر ورثا لحاله بعد أن ارتفع صوت بكائه لدرجة عالية. وصل إلى السور الخلفي للمنزل، وقفز فوق السياج متجهًا للداخل، كان قد أقسم ألا يتناول طعام العشاء، توقف أمام الثلاجة وأخرج الماء البارد من داخلها، غمر رأسه ليزيل بقايا الدم والقذارة عن جسده، كان الماء متجمدًا للغاية، وجسده متألمًا، ولكنه حبس أنفاسه تحت الماء، ولم يزل شعوره بالعار.

ظل يفرك وجهه والماء يتساقط بلون وردي ملطخ بالوحل والدماء. ظن شوجي أن لون الماء المتساقط جميل، ثم لام نفسه على هذه الفكرة.

وقف ليك فوق رأس شوجي وهو يقول:

"أين كنت؟ انتظرتك طوال فترة الظهيرة اللعينة".

ثم أمسكه من عنقه. كان المنزل مليئًا بالحركة وجميع الأنوار مضاءة بإسراف. ليك وشونا دونيلي أصغر أبناء بريدي مشغولان في الطابق العلوي بتعليق زينة وأشرطة ملونة ولوحة مكتوب عليها:

"عيد ميلاد سعيد" و"طفل" و"عيد الميلاد الأول".

وكانت هناك في الركن مجموعة من المقاعد الخاصة بطاولة الطعام، واسم أغنيس مكتوب بعناية على ورقة خاصة بالرسم البياني بخط ليك.

تم دفع الأريكة جانبًا إلى الزاوية، وفي ركن آخر مجموعة من النقانق معلقة على عصا وشرائح من الأناناس، وقطع من الجبن الشيدر برتقالية اللون، وأوعية تحتوي على الفول السوداني المملح، بجانبها زجاجات من المياه الغازية منعشة المظهر. سأله شوجي وهو يمسح الدم الرطب عن وجهه:

"لماذا فعلتما كل هذا؟".

أجابت شونا:

"اليوم عيد ميلادها".

ثم نظرت إليه وضيقت عينها متفحصة:

"هل هذا دم على وجهك؟".

"مجرد نزيف من الأنف، يحدث دائمًا عندما ينمو مخك بشكل أسرع من عظام الجمجمة".

وهز كتفه فبدا كلامه مقنعًا بما فيه الكفاية.

"على كل حال، مامي في الحادية والعشرين من عمرها لقد أخبرتني بذلك بنفسها" ثم اتجه نحو عصير الأناناس وهو يقول:

"أظن أنها في الثلاثين ولكن لا تخبروها أني قلت لكم ذلك".

كان ليك يبتسم وهو يشبك بالونات ملونة على خزينة الملابس، فتأمل شوجي ما يفعله باهتمام وهو أمر نادرًا ما يحدث.

قالت شونا ساخرة:

"يبدو أن يومك كان حافلًا في المدرسة يا شوجي، لقد كنت متألقًا".

فأضاف ليك:

"ربما كان هذا هو السبب في نزيف الأنف، على كل حال لقد بلغت أمك الخامسة والأربعين من عمرها، أما أنا فقد أصبحت في الحادية والعشرين أيها المتخلف".

لم يستوعب شوجي ما يسمعه.

"ولماذا تجعلني أشتري لها بطاقة تهنئة تحمل عيد ميلاد سعيد، وتكتب عليها: واحد وعشرون عامًا؟".

سألته شونا:

"أتفعل هذا كل عام؟".

"نعم".

نظر ليك إلى شونا وقال:

"لقد كنت على حق أليس كذلك؟ لقد فعلت كل هذا حتى أجعلها سعيدة".

قال شوجي:

"لماذا لم يخبرني أحد عن عيد الميلاد؟".

ضربته شونا على مؤخرة رأسه:

"كنت أعرف أنك لا تستطيع أن تحفظ سرًّا".

جلس شوجي على الأريكة وبدأ في أكل الفول السوداني المملح، الواحدة تلو الأخرى وهو سعيد بالطعام الوفير الموجود في المنزل بسبب عيد الميلاد.

"إنني أحفظ ما يزيد على خمسمئة سر في الوقت الحالي".

قال ليك ساخرًا:

"لا يمكن، أنت الحاصل على المركز الأول في إفشاء الأسرار".

"اسكت يا شبيه الفول السوداني، أنا أعرف مليون شيء أنت لا تعرفه، مليون شيء".

"مثل ماذا؟".

قالت شونا:

"نعم، مثل ماذا؟".

وتوقف الاثنان عن تعليق الزينة ونظرا إليه.

كان الإغراء شديدًا بالنسبة إلى شوجي، ولم يستطِع أن يمنع نفسه عن الإفصاح بما يعرف، فتناول المزيد من الفول السوداني وهو يبتسم:

"حسنًا أنا أعرف يا شبيه الفول السوداني، أن شونا، يا شبيه الفول السوداني تأخذ المال من جينو بائع الآيس كريم الإيطالي، يا شبيه الفول

السوداني، في مقابل أن تنظر إلى قضيبه كثيف الشعر".

قفزت شونا من مكانها وانطلقت في اتجاه شوجي بقدر ما سمحت لها تنورتها الضيقة من سرعة، سقطت اللافتة التي كانت تعلقها، لم تسطع شونا اللحاق بشوجي الذي فر من خلال الباب.

صاح ليك مناديًا:

"هل رأيت؟ أنت صاحب المركز الأول في إفشاء الأسرار".

كانت الحفلة مكتظة بالحضور، جلس الجميع على مقاعد غير متطابقة استعارتها شونا من أقاربها في الحي، يبدو المكان غريبًا بسب اختلاف الألوان والأحجام.

حضر عدد كبير من الغرباء، وعدد من رفاقها في جمعية الإقلاع عن الكحول بشارع دونداس ولكن لم يكن الجميع يعرف سبب هذا التجمع، جلسوا في تجمعات صغيرة تفوح منها رائحة التدخين وأصوات السعال، يتحدثون عن حالة الطقس وكأنهم في غرفة الانتظار الخاصة بعيادة طبيب.

ظلت شونا دونيلي تراقب في صمت من خلف الستارة، في انتظار ظهور أغنيس وهي واقفة على أطراف أصابعها، وأقدامها النحيلة ترتعش من طول الوقوف، وعلى الجانب الآخر من الغرفة كان يجلس بعض الجيران مثل بريدي، وأخوات شونا الأكبر، وجينتي مكلينشي التي ظهر عليها الحزن لأنهم لا يقدمون الخمر.

كانت تعرف أنهم سيقيمون حفلة، فحضرت مرتدية ملابس نظيفة، لتجدها حفلة فاترة، بها عدد من الرجال المنكسين الذين ينظرون بخجل إلى الأرض.

غسل شوجي الدم المتبقي على وجهه، وارتدى ملابس تشبه رجال العصابات في الأربعينيات، مكونة من قيص أسود ورابطة عنق عريضة، وحشر القميص بداخل البنطال وجذب بأصابعه جزءًا بسيطًا لأعلى فمنحه مظهرًا ثنائي الأبعاد، ودار بين الضيوف يوزع أطباقًا بلاستكية مليئة بالجبن الشيدر وشرائح الأناناس.

أمسكت النساء بالسجائر التي يُدخنّها بشغف، وكأنهن يأكلنها ورفضن الطعام بأدب قائلات:

"لا، لا يا بني".

دار شوجي حول الغرف بالكامل ثم أعاد الكرة مرة أخرى مع وعاء الفول السوداني حتى بدأ الضيوف في تناول الطعام الذي لا يريدونه، وتراكمت على أرجلهم الأطباق الفارغة، وبقع من الزيت وبقايا الطعام، وهم يأملون أن يتوقف ويتركهم في سلام، يقضي شوجي أجمل أوقات حياته ويشعر بالسعادة لمعاملة الضيوف له بأدب، لذلك يدور في أنحاء الغرفة الساخنة بشكل سريع.

هناك، في الركن هديتان ملفوفتان بورق ملون، لهما شكل غريب، لم يجلب الجميع الهدايا ولم يعرف الجميع سبب هذا التجمع، أو السبب الذي أحضرت من أجله هاتان الهديتان اللتان ستفتحهما أغنيس لاحقًا.

كانت الأولى تحتوي على مجموعة الأشرطة التعليمية الخاصة بتمارين جين فوندا[86] الرياضية، والأخرى تحتوي على علبة بها مئتين من السجائرالإسبانية الملفوفة في ورق ملون يحمل عبارات ترحب بالمولود الأول.

أشارت سيدة من مجموعة شارع دونداس إلى زينة الحفل بسيجارتها:

"إنه جميل اليس كذلك؟".

قال شوجي متعجبًا بجدية:

"هل يعجبك".

لم يكن واثقًا من البالونات وردية اللون التي اختارها ليك وشونا لتزين الحفل بمظهر أنثوي، ردت المرأة بوجه مبتهج:

"أوه، لقد جعلتموها تشعر بالفخر".

كان خداها ينبضان بالحياة فتساءل شوجي إن كانت بالفعل مدمنة على الخمر.

"عمل ليك في تزيين المكان طوال اليوم، لم أرَه متحمسًا بهذا الشكل من قبل".

"لقد قام بعمل رائع إنها ستكون سعيدة للغاية وكأنها تسير فوق القمر".

86- مثلة أمريكية وعارضة أزياء وخبيرة لياقة بدنية، وهي ابنه الممثل الراحل هنري فوندا. (المترجم)

سألها بعدم يقين مرة أخرى:

"حقًّا؟ أعتقد أنني أعرف مامي جيدًا، سوف تشعر بالغضب عندما تنزع البالونات من خزانة الملابس فتجد أن الخشب تقشر".

ثم عاد للدوران في الغرفة حاملًا أطباق الجبنة الشيدر وشرائح الأناناس.

فجأة خرجت شونا من خلف الستارة في حركة مسرحية وهي تصيح:

"حسنًا حسنًا لقد وصلت لقد وصلت".

ترتدي شونا تنورة قصيرة وتضع كل أصناف مساحيق التجميل التي تملكها والدتها.

"حسنًا فليصمت الجميع، إنها هنا".

استدار الجميع في مواجهتها، فأصدرت المقاعد صريرًا مزعجًا ووضع البعض أصابعه فوق فمه، بينما رسم البعض ابتسامة مزيفة، أطفأ ليك الأضواء وترك الغرفة مظلمة بشكل مفاجئ.

سمع الجميع صوت ضوضاء في الخارج وصوت محرك ديزل متقطع ثم صوت ارتطام باب ثقيل، يفتح ثم يغلق بقوة، ثم صوت أصوات خفيفة لكعب عال يسير في سعادة وفخر.

"كلاك، كلاك، كلاك".

فتح باب المنزل، وظهر جسد امرأة يلقي بظله في الداخل، أضيئت

الأنوار وصاح الجميع:

"مفاجأة".

ثم صاح بعض الرجال الأكبر سنًّا:

"مفاجأة".

بعد أن فاتهم قولها في المرة الأولى، وعلا صوت ضعيف يقول:

"إنها مفاجأة أيتها الدجاجة".

اندفع شوجي تجاهها قائلًا:

"مامي هل تريدين بعض الأناناس، إنه يعجبهم للغاية".

مالت أغنيس بجسدها على إطار الباب ورفعت يدها لتغطي فمها، كانت متأنقة وكانها عائدة للتو من حفل في الأوبرا، مع أنها قضت فترة ما بعد الظهيرة في لعب البنغو. أطلت من خلفها بقلق عينا يوجين الزرقاء وهو ينظر للداخل، فيرى المتواجدين بالمكان، خطا إلى داخل الغرفة وهو يهز رأسه كأنه استيقظ للتو من حلم عميق.

قالت أغنيس في دهشة:

"ما الذي يحدث؟".

كانت عيناها تدوران في أنحاء الغرفة وتحاول أن تتعرف على بعض الوجوه، التي تظن أنها لم ترَ أصحابها من قبل في شارع دونداس والمكاتب التجارية القديمة حوله، قال ليك:

"عيد ميلاد سعيد".

كانت أغنيس ما زالت تفحص الموجودين في الغرفة:

"ما الذي تتحدث عنه؟".

"إنه عيد ميلادك الأول، اتصلت بنا ماري دول وأخبرتنا، أنه عيد ميلاك الأول بعد التعافي من آثار الكحول".

كان ليك سعيدًا والابتسامة تملأ وجهه، وهو يشير إلى امرأة صغيرة الجسم ذات شعر بني تدخن سيجارة في جانب الغرفة.

"لقد مر عام منذ أن أقلعت عن الشراب".

صاح شوجي:

"نعم، لقد كان ليك يعد الأيام".

نظرت أغنيس بدهشة:

"هل هذا صحيح؟".

رد الصبيان في الحال:

"نعم".

أخرج ليك تقويمًا ورقيًّا ممزقًا مرسومًا عليه ضريح طاهر في لوورد من خزانة جانبية، وقد رسم ليك فوقه صلبانًا صغيرة.

بدأت النساء في النهوض بعد أن أدركن ما يحدث، واتجهن إلى أغنيس لتهنئتها، وأغنيس تنقل عينيها بينهن وهي غارقة في الدموع وتركتهن يقبلن خدها على سبيل المباركة.

أشرف شوجي على فتح زجاجات الزنجبيل، وصب الحامض اللزج في أقداح ورقية، أعطت شونا ليوجين كأسًا كبيرة ممتلئة بعصير الليمون

الأخضر، فنظر إليها بدهشة، قالت إحدى النساء الموجودات:

"أنا لم أسمع عن مكان يسمى دونداس في بيتهيد من قبل".

كانت ماري دول صغيرة ونحيفة كعود من القصب، كأن الكحول قد نحت جسمها كقطعة من الخشب، ويقبع تحت عينيها البنية الكبيرة خدان مضمحلان، وشعرها الضخم يبدو كباروكة مستعارة فوق جسدها النحيل.

شعرت أغنيس بالانقباض عندما عرفت أن هذه المرأة ما زالت في الرابعة والعشرين من عمرها، ووضعت يدها فوق صدرها في خوف عندما سمعت ليزي تهمس أنه هناك دائمًا شخص ما في حالة أسوأ من حالتك.

أمسكت أغنيس يد ماري دول ونظرت إليها وهي مبتسمة:

"كنت أصلي من أجلك، كيف حال أطفالك؟".

أشرق الشباب مرة أخرى في عين ماري دول وهي تقول:

"هل أخبرتك أن أصغرهم قد التحق للتو بالمدرسة؟".

"لا بد أنك فخورة بهم، فالأطفال يبدون مذهلين في زي المدرسة".

عبر ظل سريع فوق وجه ماري.

"نعم، أعرف ذلك، لم أتمكن إلا من رؤية صورته بالزي المدرسي ولكني اتصلت به وكان متحمسًا للغاية".

"هل ما زالوا يعيشون بصحبة جدتك؟".

"نعم، ولا تدعني أقترب منهم، أبدًا".

كان مجرد التفكير في فقدان أبنائها يجعل أغنيس ترغب في ضمهم إلى صدرها بشدة، ما زالت أغنيس تتألم بسبب فقدان كاثرين.

"هل تعرفين؟ لقد مرت عليّ أوقات ظننت أنني لن أتعافى أبدًا، اصبري وتحلي بالإيمان أيتها الدجاجة، وسوف تأتي بهم جدتك".

بدت علامات عدم الاقتناع على وجه ماري دول وهي تهمس:

"نعم، أتمنى ذلك".

قام رجل من فوق أحد المقاعد المستعارة وقال:

"هذه صورة جميلة، لقد اشتريت إطارًا جميلًا من أجل تعليقها على الحائط".

كان الرجل يسمى بيتر الإثنين والخميس، وبرغم كونه في عمر أغنيس تقريبًا لكنه كان يبدو في عمر والدها، يبدو كأنه مكون من كومة من الأطباق الخزف التي من الممكن أن تسقط في أي لحظة، ويتحدث عن نفسه ببراعة كحيلة لإخفاء شعوره بالوحدة.

"ها، أغنيس".

صاح الرجل:

"ما هو شعورك بعد أن ولدتِ من جديد؟ ما هو شعورك بعد أن أكملتِ عامك الأول؟".

أغنيس: "لأكون صادقة.. لم ألاحظ الفرق".

أشار بيتر إلى ليك وقال:

"من الرائع أن يفخر بك أطفالك، كانوا حريصين على تنظيم هذ الحفلة رغم بساطتها، كرمز لانتصارك على الكحول وإقلاعك عن الشراب لمدة عام كامل".

ما زال يوجين واقفًا عند الباب، لم يكن قادرًا على دخول الغرفة ولكنه لم يستطِع أن ينصرف بعيدًا عما يحدث.

كان شوجي واقفًا بجوار طاولة الطعام يزيل آثار الدهن والصلصلة من الأطباق، ويقلبها على ظهرها، ويعيد ترتيب قطع الشكولاتة ويغطي الجبن المتبقي حتى لا يجف ويتشقق، ثم بدأ في عمل هرم مقلوب من الأقداح الورقية الفارغة، توقف عندما لاحظ يوجين ينظر إليه في صمت.

اقترب يوجين منه وهو يضع يده في جيبه:

"كيف حالك يا رجل؟".

نظر شوجي إلى الهرم المكون من الأقداح الورقية وأشار بيده:

"حسنًا، لقد كنت...".

اصطدمت كف شوجي بالهرم الورقي فسقط على الأرض على الفور، وانتشرت الأقداح في كل مكان.

وقف يوجين بجانبه وظلا يراقبان الحفلة كأنهما يتابعان مباراة رياضية ويتجنبان النظر إلى بعضهما.

قال يوجين لشوجي متجاهلًا كل ما فعله ليك من تدبير منزلي في بداية الحفلة ومن تدمير منزلي خلالها:

"إنها ليلة هادئة، أليس كذلك؟".

"إنها كذلك، ولكني أعتقد أن ليك فقد عقله".

ضحك يوجين:

"على العكس، من الجيد أن يحب والدته".

ثم أضاف مازحًا:

"لا يحظى المرء إلا بأم واحدة طوال حياته".

سأله يوجين فجأة:

"أنت تعرف من أنا، اليس كذلك؟".

هز شوجي رأسه وأجاب بصوت رتيب:

"أنت يوجين، أنت الأخ الأكبر لكولين، وقد تصبح أبي الجديد".

وأضاف وهو ينظر إلى حذائه:

"ولم يسألني أحد عن رأيي في ذلك".

شعر يوجين بالصدمة:

"أوه، أعتقد أنه من سوء الخلق أن يطلب المرء شيئًا مثل هذا، أو أن تسأل الصبي إن كان يريد أبًا جديدًا، كان يجب أن أقدم نفسي لك بشكل صحيح من البداية، أنت على حق".

مد يوجين يده إلى شوجي مصافحًا:

"أنا يوجين، من الجيد أن أقابلك أخيرًا".

صافح الصبي يده بخوف، فقد كانت كبيرة مثل كف الدب وقاسية كما لم يلمس في حياته من قبل.

"هل تخطط للبقاء طويلًا؟".

"ربما أبقى لمدة ساعة".

"لا أنا أقصد هل تخطط للبقاء طويلًا بصحبة أمي؟".

"لا أعلم، أتمنى ذلك".

"أيها السيد وكأنها، لن أحبك لو خيبت آمالها".

وقف يوجين لفترة طويلة دون أن يقول شيئًا، لقد فاجأه هذا الصبي الصغير غريب الأطوار لدرجة أنه فضل الصمت.

"هل تعلم يا بني، ربما حان الوقت لأن تبدأ بالتفكير في نفسك قليلًا وتتوقف عن الاهتمام بوالدتك، سوف أتولى أنا هذا الأمر، لما لا تقضي الوقت في اللعب مع الأولاد في مثل عمرك، وتحاول أن تكون مثلهم بجدية؟".

أخرج يوجين من جيب بنطاله كتابًا صغيرًا لا يزيد في حجمه عن علبة سجائر، كان الكتاب لونه أحمر وعليه رسومات بدائية، وغلاف رخيص. كتب عليه:

"هدية مجانية عند شرائك مجلة جلاسكو تيمز المسائية".

أعطى يوجين الكتاب للصبي، كان على الغلاف صورة بالأبيض للاعب كرة قدم عجوز، من أبطال اللعبة، يرتدي جوارب عريضة وسميكة.

عنوان الكتاب "دليل الأطفال لتاريخ كرة القدم الاسكتلندية".

نظر شوجي إلى الكتاب وتصفح أوراقه الصفراء المطبوعة كطباعة ورق الجرائد، كانت مليئة بنتائج مباريات الدوري الاسكتلندي الممتاز لكرة القدم.

فاز فريق جيرز بـ 22 مباراة وتعادل في 14 وخسر في 8 مباريات، وإجمالي نقاطه 58 نقطة.

فاز أبردين بـ 17 مباراة وتعادل في 12 وخسر في 6 مباريات وإجمالي نقاطه 55.

فاز ماذرويل في 14، وتعادل 12، وخسر في 10 مباريات.

احمر وجه شوجي من الخجل، وفقد كل شعور بالتميز وقال:

"شكرًا".

ودس الكتاب بسرعة في جيبه كأنه يخفي سرًّا قذرًا.

عبر شوجي الغرفة ووصل إلى والدته التي تقف مع مجموعة من رجال شارع دونداس، ينظر إليها الرجال بمودة كأنها المطربة الرئيسة في حفلة كبيرة، وبيتر الإثنين والخميس يقف مستندًا بكوعه إلى الرجل الواقف على يمينه الذي يبدو أنه أصيب بجلطة أو خلل في وظائف الرأس بسبب الإفراط في تناول الكحول، وبجوارهم رجل ثالث أكبر سنًّا وأوفر صحة، ولكن أطراف أصابعه متسخة ببقايا السجائر، يرتدي ملابس عصرية من الألياف الصناعية، أعطته مظهر متسابق في حلبة الخيل، وله شعر ذو أطراف بيضاء.

يبدو الشخص ماكرًا، وذا أصابع زلقة مثل الأولاد الذين يقفون خارج المحال التجارية ويسرقون البضاعة ويدسونها في جيوب معاطفهم العسكرية كثيرة الجيوب، لذلك شعر شوجي بالسعادة لأنه أخفى التماثيل الخزفية الصغيرة التي تخص والدته.

ابتسم رجل له وجه وسيم وأسنان صغيرة، ولكنها مستقيمة وبيضاء، شعر شوجي بالضيق بسبب كتاب كرة القدم الذي دسه في جيبه.

قالت أغنيس بفخر:

"أوه، هذا أصغر أبنائي".

قال الرجل وهو يمد يده:

"أنا عمك بيتر".

نظر شوجي إليه بلامبالاة، وقال دون أن يمد يده:

"لا أنت فقط بيتر، فأنا أعلم شجرة عائلتي جيدًا".

قال الرجل:

"نعم أنت على حق، إنك صبي ذكي".

نسي الرجل أن يخفض يده لبعض الوقت، فاستطاع شوجي أن يلاحظ بعض الجروح بالموس في يده، وآثارًا أخرى للحلاقة في أسفل ذقنه.

وضعت أغنيس يدها على كتف شوجي، وهزته بقوة لدرجة أن سقط بعض الشعر من رأسه.

"ماذا أصابك؟ اعتذر فورًا للسيد المحترم".

لم تجدِ كلمات أغنيس نفعًا، وتململ بيتر الإثنين والخميس فهزت ولدها مرة أخرى:

"اعتذر لبيتر على الفور".

قال: "أنا آسف يا سيد بيتر".

كانت عيناها تراقب يوجين، بينما كانت ماري دول تعبر الغرفة باتجاه يوجين وتسأله: "لم أرَك من قبل؟ هل أنت من مجموعة شارع دونداس".

"لا".

لمعت عيناها وقالت:

"لهذا السبب لم أتعرف عليك".

بدا أنها تستجمع قوتها وهي تقول:

"لقد بدأت في التعافي، لم أقرب الخمر منذ ثلاثة أشهر، وقد منحتني المدينة شقة صغيرة بعد أن كنت على قائمة الانتظار منذ أربع سنوات، قريبًا سوف أشتري بعض المفروشات حتى أتمكن من إحضار أطفالي للإقامة بصحبتي".

كانت تلف شعرها المجعد الطويل حول أصابعها ككرة لولبية أمام

وجهها، وانطلقت ماري دول في إفشاء تفاصيل حياتها الخاصة دون توقف أو حذر.

"كنت أدخر النقود فاستطعت أن أشتري لنفسي بساطًا جديدًا وسريرًا ملونًا للأطفال، أتمنى لو كان لدي لمسة أغنيس في الأناقة، إنها امرأة جميلة ومحط اهتمام الجميع حتى عندما تكون في أسوأ حالاتها، هل تعلم ذلك؟".

"نعم".

"إنها نظيفة، تمتلك جسدًا مشدودًا مثل الدبوس في جميع الأوقات".

ثم غيرت مسار الحديث بعد أن ملت من الحديث عن غيرها من النساء، فمالت عليه ووضعت يدها فوق أسفل ذراعه وسألته:

"ما جمعية مكافحة الإدمان على الكحول التي تترد عليها؟".

"أنا لا أتردد على أي جمعية، فأنا لا أعاني من تلك لمشكلة".

"أوه، أنت محظوظ، هل تريد بيانات الجمعية التي أتردد عليها".

ضحكت في مرح فظهرت لثتها التي تحولت للون الأبيض بسبب الأنيميا.

"لا داعي لذلك، أشكرك".

سحب يوجين يده، ونظر إلى أغنيس فشعر أنها في حالة من الضيق مثله تمامًا وتساءل ما الذي قاله ذلك الصبي الصغير فجعلها تشعر بذلك.

أشار اليها مومئًا برأسه الأحمر، واعتذر للمرأة التي تشبه الأشباح ثم

تركها.

قاد أغنيس عبر الغرفة إلى الخارج متجهًا لغرفة أخرى، المكان أكثر هدوءًا وأقل دخانًا فاستطاع أن يلتقط أنفاسه، أخيرًا.

نظرت أغنيس إلى يوجين وهو يتحسس محفظة نقوده، بطريقة جعلتها تشعر بعدم الارتياح قبل أن يخبرها بأنه يجب عليه الانصراف.

"يجب أن أنصرف حتى أدرك الزبائن في وقت خروج الملاهي الليلية".

"بالطبع، هل أنت بخير؟".

أجاب بسرعة:

"نعم".

وحك مؤخرة رأسه.

كانت تستطيع أن تميز الكذب بسهولة، ولكنها تغاضت عن ذلك ومالت بشفتيها للأمام حتى تقبل شفتيه، فاستدار على نحو محرج ومنحها خده.

تحولت القبلة، لقبلة وداع بين الأصدقاء، كالتي يستعملها الفرنسيون في المناسبات الرسمية، شعرت أغنيس بالحزن والحرج فقد كانت ترغب في قبلة جنسية، ولكنها لم تحصل عليها.

ما حدث جعلها تشعر أنها عجوز، دميمة، لا فائدة منها. في تصرفات يوجين رأت صورة من كولين، وبدأت تغير مشاعرها تجاهه من حب

لجرح ومن جرح لمحاولة دفاعية بالحماية.

"حسنًا، سوف أتصل بك".

قالت بلامبالاة:

"ارجوك، افعل هذا".

قال متلعثمًا:

"حسنًا من الأفضل أن تعودي إلى.. أن تعودي إلى.. حفلتك".

راقبته ينصرف ويغلق الباب خلفه، وسمعته يهز مقبض الباب ليتأكد من إحكام غلقه ثم سمعت صوته وهو يفتح مزلاج البوابة الأمامية، ثم يغلقها وسمعته في الخارج ينادي أبناء أخته ويحييهم وهم يلعبون في الخارج بصوت لم يستعمله معها من قبل.

كما أخبرتها حياة طويلة قضتها في الاستماع إلى أصوات سيارات الأجرة أنه أغلق باب السيارة في عنف وانطلق بسرعة، كانت معرفة تصرفات سائقي الأجرة أمرًا سهلًا بالنسبة لها.

استمعت بعد ذلك لأصوات زجاجات المياه الغازية التي تفتح في الغرفة الأخرى وراقبت صديقاتها وقد زادت أوزانهم على مر السنوات بسبب الإفراط في تناول الكحول، فأصبحت آثاره عالقة تحت ملابسهن الفضفاضة بعد أن سحب منهن الحياة وجمدهن خارج الزمن.

شعرت أغنيس على غفلة بالتعب، وأنها ترغب في أن تخرجهم من منزلها حتى تستعيد أنفاسها مرة أخرى التي خنقها دخان السجائر الذي يطوف في أرجاء المنزل.

الأصوات تتعالى في الغرفة الأخرى:

"عيد ميلاد سعيد، عيد ميلاد سعيد يا أغنيس".

توجهت إلى الحمام لتجمل من مظهرها، وتساءلت هل أصبحت محطمة ومتجمدة مثلهم؟

تبادلت النظرات مع صورة إليزابيث تايلور المعلقة أمامها على المرآة، كانت صورة ذابلة التقطها أحد مصوري الفضائح لها على اليخت في بورتو فالارتا[87].

وضعت مستحضرات تجميل ثقيلة على شفتيها وخدها، ورفعت شعرها إلى الأعلى وهذبته بمشط خشبي يشبه السلحفاة حتى صار أكثر نعومة، أضافت لونًا أخضر فوق جفونها، ثم أزالت الطبقة الزائدة من أحمر الشفاه، والكحل الأزرق من تحت عينيها.

وعندما نظرت لنفسها في المرآة مرة أخرى، وجدت أن المرأة التي تبادلها النظرات لم تتغير، كانت نفسها، عالقة مثل الأخريات، ولا شيء لديها لتفعله في العالم الخارجي. هى في حاجة ماسة للحصول على كأس من الخمر، في حاجة لأن تشرب أي شيء حتى تبعد المرأة التي تبادلها النظرات في المرآة.

سحبت أغنيس مظروف فاتورة الغاز القديمة من حقيبة مستحضرات

87- مدينة في المكسيك شهدت قصة الحب بين إليزابيث تايلور وزوجها ريتشارد بيرتون الممثل البريطاني المعروف. (المترجم)

التجميل الخاصة بها وتناولت اثنين من الأقراص المخبأة بداخله، كانت تسمى أقراص السعادة كما تدعوها بريدي دونيلي، وضعتها في فمها وطحنتها ثم ابتلعتها دون أن تشرب الماء، استغرقت الوقت الكافي لتدخين سيجارة، وإلقائها في المرحاض ثم مشاهدتها وهي تطفو، نسيت ببطء ما كان يزعجها، نظرت إلى المرآة مرة أخرى وابتسمت:

"الآن تم إصلاح كل شيء".

22

عندما عاد شوجي من المدرسة في يوم عيد ميلاده الحادي عشر وجد صندوق أحذية على السلم وسيارة أجرة سوداء مركونة في الخارج، أصبح يوجين أكثر فتورًا تجاه أغنيس منذ الحفلة لدرجة أن ليك لاحظ ما يحدث.

في الليالي التي لم تكن أغنيس تعمل فيها بمحطة البنزين كان شوجي وليك يشاهدانها تجلس بجوار الهاتف تدخن بشراهة في غرفة المعيشة في وقت متأخر من الليل وتضع علامات على نسختها من اثنتي عشرة خطوة[88]. أو يستمعون إليها وهى تتنهد أمام التلفاز ولا تعير البرامج المذاعة اهتمامًا.

غاب شوجي عن المدرسة لمدة ثلاثة أيام مدعيًا إصابته بالإمساك حتى يلازمها في المنزل ويملأ أوقات فراغها بالضوضاء كي تبتعد عن الكحول، كان يقرأ لها طوال الوقت حكايات عن داني بطل العالم[89]، يقف أمام باب الحمام وهي تتبول، ويقرأ كيف أعطى داني سائقي الدراجات حبوبًا منومة[90]، كان يصعد إلى سريرها البارد في الليل ويقرأ لها بلا توقف.

عندما لم تستطِع أغنيس تحمل المزيد، أعطته مشروب حليب المغنيسيا[91] وانتظرت حتى أفرغ كل ما في أمعائه ثم أعادته للمدرسة مرة أخرى.

88- برنامج من اثنتي عشرة خطوة للمساعدة في التغلب على إدمان الكحول والمواد المخدرة والقمار والإفراط في تناول الطعام وغيرها وقد طبقته في البداية جمعية AA ثم اشتقت منها العديد من الجمعيات برامج مماثلة. (المترجم)

89- كتاب للأطفال من تأليف رولد دال نشر لأول مرة في فبراير 1974 ثم تحول لفيلم تليفزيوني 1989. (المترجم)

90- يكتشف داني أن والده ويليام الغجري يسرق الدراجات وشاركه في مغامراته. (المترجم)

91- مضاد للحموضة ولأعراض عسر الهضم والتهابات المريء وبعض حالات الإمساك. (المترجم)

جلس شوجي على الأرض وأمسك الصندوق الغريب بين ذراعيه ثم فتحه فوجد حذاء أسود ملفوفًا بزوج من المناديل الورقية البيضاء، كان حذاء رياضيًّا كبيرًا خاصًّا بكرة القدم، خلع شوجي حذاءه المدرسي اللامع، ودفع قدمه داخل حذاء كرة القدم، الحذاء كان كبيرًا بالنسبة له ولكنه يشبه الأحذية التي يرتديها الأولاد الآخرون في المدرسة.

أخذ شوجي يسير في دوائر متسائلًا، إن كان هذا الحذاء يجعله طبيعيًّا بشكل أكبر، شعر شوجي بألم في معدته من أثر الدواء الملين، حاول دخول الحمام فوجد الباب مغلقًا من الداخل، أدرك أن يوجين عاد، شعر بالسعادة، حتى لو أصبح ماكفيني أبًا جديدًا له، هذا أفضل بالنسبة إلى أمه من العودة لتناول الكحول.

وضع يده فوق قلبه وهو يصلي لأن يبقى يوجين لفترة طويلة حتى تستعيد أمه عزيمتها وتبتعد عن شرب الكحول، وصلى مرة أخرى أن يصبح فتى طبيعيًّا في يوم عيد ميلاده.

شعر بانقباض في معدته مرة أخرى، فوضع إحدى يديه على مقبض الحمام، والأخرى على معدته، حاول فتح الباب وسمع صوت مفتاح يدور من الداخل، قبل فتح الباب، ارتعش المقبض في يده، لم يكن يوجين الذي بالداخل لقد كان والده..

شعر شوجي بصدمة فهو لم يرَ والده منذ ثلاث سنوات، منذ تلك الليلة في راسكال.

"لقد عدت من المدرسة بالفعل".

أدخل شوج طرف قميصه في البنطال وهو يقول:

"هل أعجبتك الهدية؟".

لم يكن يوجين من جلب له الحذاء، كان والده شوج، وقبل أن يستطيع شوجي أن يحظى بفرصة للإجابة، صاح شوج وهو ينظر إليه ويمد يده نحو أنفه:

"اللعنة عليك، أنت لم تحصل على أنف فنيان المميزة".

مد شوجي يده ليحمي أنفه الذي يشبه أنوف عائلة كامبل في حركة دفاعية.

مد شوج يده إلى حزامه الخاص بالنقود وأخرج بحركة من إبهامه قطعتين من فئة العشرين بنسًا.

"تفضل، حاول أن تنفقهم في تعلم الملاكمة، ربما يكسر شخص ما هذا الأنف".

نظر شوجي إلى العملات لفترة طويلة وشعر بصدمة أكبر من شعوره بالجحود، لم يفهم شوج الأمر بطريقة صحيحة فأخرج خمسة وأربعين بنسًا إضافية وقال:

"لا تطلب المزيد".

ووضع المال على مضض في يد الصبي:

"إذًا، هل بدأت في مطاردة الفتيات؟".

كانت هذه هي المرة الأولى التي يسأل فيها الصبي هذا السؤال.

هز كتفه، ظن شوج أن الولد يتظاهر بالتواضع الزائف، مقارنة بما كان عليه في سن الحادية عشرة.

"حسنًا يا شوجي، أنت من رجال عائلة بين رغم كل شيء، أليس كذلك؟".

ظل شوجي صامتًا يفكر في جدته ليزي وسلة الخبز التي كانت تحتفظ بها وتصنع له سندوتشات من الزبدة ثم تأكلها بالنيابة عنه.

قال الأب:

"حسنًا لا يمكنني البقاء طويلًا، فسوف تستنفدون أموالي بسرعة أكبر من سرعتي في ربحها".

دار شوج حول الصبي، ونظر إليه وهم بالانصراف وهو يقول:

"اعتنِ بوالدتك، وابعد عنها الرجال الكاثوليك إنهم أوغاد، هل تفهم؟"

ثم اتجه إلى سيارته وأدار المحرك وانطلق دون وداع.

وقف شوجي في ظلمة المنزل ونظر إلى الحذاء الكبير، ثم خلعه وبدفعة واحدة أرسله إلى مكب النفايات خارج المنزل، وعندما دخل إلى حجرته وجدها جالسة على حافة فراشها وتحت قدميها كيس مليء بزجاجات البيرة رخيصة الثمن.

نظرا بعضهما إلى بعض نظرة يملؤها الذهول كما لو كانا استيقظا للتو من نفس الحلم، وشعرا أنهما يجب عليهما الانتظار لبعض الوقت قبل أن يستطيعا التعبير بالكلام.

سمع شوج أنها بخير أو بمعنى أدق لم يسمع عنها شيئًا منذ فترة طويلة فقد مضى عام منذ أن اتصلت بالشركة الخاصة بسيارات الأجرة التي يعمل بها، ومر أربعة عشر شهرًا منذ أن هددته بقتل الصبي بسكين وخنق نفسها بالغاز، لذلك فقد ظن أن عيد ميلاد الصبي وقت جيد لتفقد ما يحدث، حصل على حذاء كرة القدم بشكل مجاني مثلما يفعل باقي السائقين عندما يسرقون نصف دستة من أحذية كرة القدم من مؤخرة شاحنة تفرغ حمولتها في متنصف شارع سوكي هول[92] في وضح النهار، سوف يحب الفتى حذاء كرة القدم، بالتأكيد.

يعرف بأن أغنيس لو كانت حظيت برجل آخر يمكنها ببساطة التخلص من الحذاء، وإن لم يكن هناك رجل آخر ما زال يريد أن يعرف السبب في توقفها عن إزعاجه. إن ابتعادها قد جرح كبرياءه بشكل ما، ولذلك أضاف في صندوق هدية عيد الميلاد ست عبوات من البيرة التي تفضلها.

يجلس شوج متكئًا بذراعه على شباك سيارة الأجرة المعدني الأسود الساخن ويراقب انعكاس الضوء على الخواتم الذهبية التي يرتديها، يفكر في اللون البرونزي الذي اكتسبته يداه بعد بقائه في المنزل المتنقل لجوان لمدة أسبوع، يصبح مظهره أجمل دائمًا عندما يكتسب القليل من اللون.

تساءل طوال الطريق، إن كانت أغنيس جميلة كما يتذكرها، إنه يقدر وجود جوان في حياته، ولكنها لم تكن في جمال أغنيس كامبل.

92- أحد الشوارع التجارية الرئيسة في جلاسكو. (المترجم)

جوان هادئة ومسالمة، ليست من النوع المثير للمتاعب، تشرب الكحول، ولكنها لا تسكر ولا تهتم بلعب البنغو ولا بالسجاد الفاخر، ولا تملك أحلامًا كبيرة، كانت جوان كالحصان الكادح ولكنها سعيدة بذلك كثيرًا.

شخصية جوان نمطية تشعر بالامتنان للممارسات الجنسية التقليدية كسائر النساء اللاتي عرفهن ولم تكن تهتم بالنظافة. عليه أن يعترف أنه من ناحية المظاهر فأغنيس كامبل كانت فرسًا استعراضيًّا، بينما كانت جوان جوادًا يجر عربة الخردة.

تساءل بعد أن تركها في بيتهيد، إن كان الكحول قد قضى عليها وتعفنت، رأى ذلك من قبل وخاصة بين نوعية معينة في النساء بجلاسكو، يتجمدن في أماكنهن حتى يذبلن ووجوههن تنحل ويبرز العظم من خدودهن بفعل الشراب، ويظهر فوقها خطوط حمراء وينتفخ أسفل عيونهن الدامعة بأكياس من الحزن المترهلة.

يحاولن جميعهن تغطية كل ذلك ولكن بلا فائدة، يصبحن عالقين في تلك الحالة، وجوههن تشبه متحفًا قديمًا لآثار المكياج الثقيل وتسريحات الشعر العتيقة.

تساءل إن كانت لا تزال تحتفظ بنفس الخدود الوردية الناعمة التي تفوح منها رائحة النظافة الحلوة والعيون الأيرلندية الساحرة، ابتسم وهو يجلس في سيارة الأجرة الساخنة وشعر بالدم يتصاعد في أعضائه بسببها. وتساءل ما الذي يمكنه أن يقول حتى يتمكن من مضاجعتها

للمرة الأخيرة، وشعر بالسعادة لأنه استحم في الليلة الماضية.

لم يخض شوج مغامرة منذ سنوات، نظر إلى دليل الهاتف حتى يتأكد أن عنوانها لم يتغير، وأنها ما زالت تحمل لقبه. ابتسم، أدرك أن كبرياءها يمنعها من العودة إلى المدينة مرة أخرى وفضلت أن تعيش تلك الحياة القذرة.

وصل إلى المنزل بسهولة، وجد حديقة الورد الرائعة. واضحة للغاية ومبهجة للغاية بالنسبة للحي السكني لعمال المناجم المتهالك. باب المنزل كان مختلفًا عن أبواب المنازل الأخرى، طلي حديثًا باللون الأحمر اللامع، المنظر المبهج جعله يشعر بالثقة والسعادة لرؤيته.

طرق الباب وانتظر حتى تفتح له من الداخل، ثم طرق مرة أخرى وهو يسمع أزيز المكنسة الكهربائية، سكت صوت الآلة، وسمع صوت الباب يفتح، حاول أن يظهر أجمل ابتساماته بينما كان الباب الأحمر ينزلق للداخل.

لا تغلق أغنيس النوافذ في الصيف حتى تسمح بدخول الهواء، مما سمح لها أن ترى شعر شوج الذي كان طويلًا وخفيفًا يطير بسبب الهواء المندفع، وهو يحاول تثبيته في مكانه بلا فائدة فوق جمجمته اللامعة والابتسامة المخادعة مثبتة على وجهه.

لا تضع أغنيس مساحيق التجميل وتبدو عليها علامات التقدم في العمر، ولكنها نضرة كما رآها أول مرة، فوق خدودها ظهرت خطوط رفيعة متقطعة، وعينها ما زالت تلمع.

تبدو بالنسبة إلى شوج وكأنها عائدة للتو من نزهة لطيفة، فشعرها

مرفوع للأعلى وداكن كالليل، رقيق ومجعد فوق رأسها. شعر بالغضب بسبب مظهر صلعته التي يمكنها أن تراه من أعلى درجات السلم الأمامي.

"ها هي تظهر، حب حياتي".

نظرت إليه أغنيس في صمت، واصطدم لسانها بسقف حلقها من الصدمة.

"حسنًا لا داعي لأن تظهري تلك الدهشة اللعينة".

أدرك بعد أن نطق هذه العبارة، أنها لن تجعله يفوز بما جاء من أجله.

حاول أن يبدو هادئًا وخفيف الظل، لتتذكر أنها تفتقد وجوده:

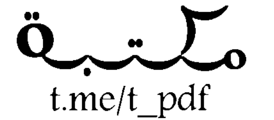
"لقد مر وقت طويل، ألا تشتاقين إليّ".

"لقد أصبحت أكثر بدانة".

انتقلت يده من فوق رأسه إلى بطنه وهو يقول:

"أوه، نعم، ربما هي طباخة ماهرة، أقصد جوانا".

شعرت أغنيس بالغضب:



"إنها عاهرة".

"حسنًا أنا لم آت إلى هنا لأخوض شجارًا أمام باب منزلك، لقد أحضرت هدية للصغير في عيد ميلاده".

ورفع الحقيبة البلاستيكية الرخيصة التي تحتوي على الهدية.

"هل يمكنني الدخول؟".

قامت أغنيس بعقد ذراعيها أمام صدرها علامة على الاعتراض، وظهرت

على وجهها مظاهر الغضب، وقالت:

"لا يحتاج ابني شيئًا منك على الإطلاق".

نظر إليها شوج لدقيقة وهو يشعر بالقلق خشية أن يفقدها للأبد، وتساءل كيف يمكن للسمكة أن تحرر نفسها من الخطاف، مد يده إلى داخل الحقيبة وأخرج الصندوق الذي يحتوي على حذاء كرة القدم، ومده إليها فلم تفتح ذراعها لتمسك به، وضعه تحت قدميها فوق الدرجة العليا من السلم، وكأنه يقدم قربانًا إلى الآلهة.

"أنت تعلمين أنك كنت دائمًا حب حياتي".

"أعلم، وقد جلب لي ذلك الخزي".

"أحضرت لك هذا".

عرض عليها عبوات البيرة وهو يتراجع إلى الخلف.

"لقد ولت هذه الأيام".

أجابته ببرود.

مط شفتيه متسائلًا:

"لكم من الوقت أقلعت هذه المرة؟".

"أقلعت لوقت كافٍ ليُحدث فرقًا".

صفق لها تصفيقًا قصيرًا وهو يقول:

"لهذا لم أسمع أخبارك منذ فترة طويلة".

"جئت لتلقي نظرة على الأنقاض التي تركتها، هل تظن أنك تستطيع أن تخدعني؟".

رفع يده إليها في تضرع، وقال:

"هل يمكنني الدخول الآن، سيدة بين" مستحضرًا أكثر طبقات صوته هدوءًا ولطفًا.

لم تجب بالقبول أو بالرفض، اكتفت بالاستدارة والتوجه ناحية المطبخ، سمعت صوت باب المدخل الأمامي يغلق خلفها وصوت المفتاح يدور في القفل، وصوت خطوات شوج الثقيلة تلحقها.

"أحببت ما فعلته بالمكان".

جلس شوج في الركن على طاولة صغيرة قابلة للطي، وهو يتجول بنظرة ليدرس المكان، وورق الحائط الذي تملؤه الرطوبة.

استطاعت أن تلاحظه وهو يتأمل الثلاجة الكبيرة والمجمد بجوارها، فعرفت أنه يتساءل كيف استطاعت أن تتحمل تكلفة شراء كل هذا وهي امرأة وحيدة تعول طفلًا، وتعاني من إدمان الكحول.

دون أن تنطق كلمة جهزت الغلاية، وفتحت سلة الخبز لتخرج قطعتين من الخبز الأبيض الملفوف في شرائح سميكة من الورق، وتضع بينهم قطعة عريضة من الزبد، ثم قطعت المزيج إلى نصفين ووضعتهم في طبق شاي صغير، وأزاحت الطبق في اتجاهه، فشكرها وتناول شريحة الزبد وحشر طرفها في فمه، كان الزبد رقيقًا وشهي المذاق.

"سمعت أن كاثرين تقضي وقتًا ممتعًا في جنوب إفريقيا".

"نعم، سمعت ذلك".

كان التعب يبدو على أغنيس.

"هل تحدثينها كثيرًا؟".

"لا، ليس دائمًا".

"حسنًا، سوف تصبحين جدة في القريب، أليس كذلك؟".

وضعت يدها على حافة المنضدة أمامها، وقالت بصوت هامس:

"أظن ذلك".

"يجب عليك أن تسافري بالطائرة إلى هناك، حتى تقدمي لها العون اللازم من أجل المولود".

ثم أضاف في قسوة:

"في تلك الأوقات تحتاج المرأة إلى أمها، حتى لو كانت حماتها بجوارها في كل مكان".

استدارت أغنيس حتى تخفي وجهها وهي تقول:

"ومن أين أحصل على المال اللازم للسفر؟".

حاولت أن تشغل نفسها بصنع قدحين من الشاي في الظلام، وهي تأمل ألا يلاحظ أن يدها ترتجف.

"دونالد الصغير متأكد أنه سيكون ولدًا، طلبت منه أن يطلق عليه شو تيمنًا باسم عمه المفضل، وسوف أشتري له عربة أطفال إن فعل".

استطاعت أن تتحكم في انفعالات وجهها الحارة، ثم استدارت وحملت

أقداح الشاي إلى الطاولة، وقدمت له الشاي ممزوجًا بجرعة كبيرة من الحليب وثلاث ملاعق من السكر.

"أحاول أن أقلل استهلاكي من السكر، ولكن لا ضرر".

"قلبك ما زال مريضًا".

"نعم ما زال يتلاعب بي من وقت لآخر، على الأقل يجعلني ذلك أدرك أنني أملك قلبًا".

ضحك، ووضع باقي قطعة الخبز المحشوة بالزبد دفعة واحدة تحت شاربه، ومضغها في فمه.

"كيف حال ابني؟ هل أصبح يشبهني؟".

"يا إلهي الرحيم، إنه لا يشبهك".

نهضت أغنيس وتركت المكان دون أن تخبره إلى أين ستذهب، كانت تريد أن تستوعب الأخبار التي سمعتها عن كاثرين دون أن يلاحظ، ظل شوج يجلس على الطاولة، أكل شريحة أخرى من الخبز والزبد. وأخذ يحسب في داخل عقله تكاليف الأجهزة الكهربائية الجديدة، توصل لأنها من الضروري أن تكون عرفت رجلًا آخر.

أدار رأسه ناحية الباب حتى يرى ماذا تفعل، ثم بدأ يمسح آثار الزبد من أصابعه في سرواله، ويتساءل مبتسمًا إن كانت اتجهت إلى غرفة النوم.

وفي حالة من التردد قام من مكانه ليبحث في أنحاء المنزل عن المكان الذي ذهبت إليه.

مد رأسه في فضول بين أبواب الغرف نصف المفتوحة، ولاحظ أن المنزل نظيف ومرتب، بدأ التفكير في جوانا ومنزلها المتسخ، شعر قطتها الذي

يغطي الأريكة، والملاءات المتسخة على أرضية حجرة النوم، وتخيل كيف تزيل فتات الخبز بلا مبالاة عن أغطية الفراش غير المتطابقة.

وبينما كان شوج يتجول في الصالة باحثًا بين الغرف ببطء، كانت تنظر له بعينها الحزينة نظرة زجاجية، لم يجدها في أى واحدة من الغرف، حتى وصل للغرفة الأخيرة وتوقف أمام الباب فوجدها بالداخل توليه ظهرها.

كانت غرفة مخصصة للأولاد، بها فراشان صغيران يتسع كل فراش لشخص واحد، وعلى طاولة صغيرة بجانب الباب كان الصغير شوجي يضع بضعة مجسمات لأشخاص آلية وفي الفراغات بينها أوراق صغيرة تحمل أسماء أشخاص آلية أخرى لم يحصل عليها بعد مكتوبة بخط أنيق، ذكره هذا بأغنيس التي لا تتوقف عن الطلبات، وتطلب المزيد والمزيد.

قالت أغنيس:

"انظر حولك جيدًا، ثم انصرف".

"أين الملصقات الخاصة بكرة القدم؟".

كان الحائط خاليًا، لا توجد عليه ملصقات.

"إنه لا يحب كرة القدم، ولا يحب الملصقات، ويعتقد أنها شيء للعامة".

نظر شوج إلى الغرفة الحزينة مرة أخرى، ولم يجد شيئًا يدل على الطفولة إلا الركن الخاص بالأشخاص الآلية المرتب بدقة، ثم نظر إليه مرة أخرى فأدرك أنها مجرد تماثيل يستخدمها الصبي كحلي فوق رف

المدفئة الشتوية.

"هل رأيت ما يكفي؟".

بدت أغنيس في تلك اللحظة كمدرس سئم من الشرح.

قال بنبرة موافقة:

"أعتقد ذلك".

مدت أغنيس يدها في اتجاه الباب بابتسامة مصطنعة:

"حسنًا، ارحل عليك اللعنة".

كانت قلقة على بياض بشرتها، كانت الأخبار طوال الصيف تتناول مفاعل تشيرنوبل[93] والانفجار الذي وقع هناك، إنها أخبار حزينة ولكنها وقعت في مكان بعيد.

حتى حذر أحد المذيعين من الأمطار النووية الخفية التي سقطت في غرب اسكتلندا، وكيف ستتجه إلى أيرلندا بعد ذلك.

كان شوجي يساعدها في جمع الغسيل من الساحة الخلفية، فسألته عن قدرة الغبار الذري في إزالة البقع الصعبة عن الملابس المتسخة، هز الفتى رأسه بالنفي، وأخبرها أنها لن تكون مثل المبيض.

ثم أخبرها عن الرسوم الكارتونية المحبطة للحرب النووية التي جعلهم الأب باري يشاهدونها، وأخبرها، أن من شأن الغبار النوي أن يتلف

93- حادثة نووية إشعاعية كارثية وقعت في المفاعل رقم 4 من محطة تشيرنوبل للطاقة النووية . يوم السبت 26 أبريل من عام 1986، قرب مدينة بريبيات في شمال أوكرانيا السوفيتية، وتعد أكبر كارثة نووية شهدها العالم. (المترجم)

ملاءات السرير.

وبينما كانوا يحملون السلة الأخيرة من الملاءات الرطبة للداخل بدأت قطرات المطر تتساقط، شاهداها تتطاير من النافذة الأمامية كقطرات من السكوتش، وقفا يشاهدان المطر ثم ابتكرا لعبة رائعة بإعداد قائمة من الأشياء التي يرغبان في رؤيتها تحترق.

"دوري كرة القدم".

"جينتي مكلينشي!".

"أبناء عائلة ماكفيني".

"الحي السكني بالكامل".

أرادا أن يحترق كل شيء ثم ينفجر.

استلقى شوجي أمام المدفئة وشاهد أغنيس تكوي آخر قطع الغسيل المتبقية، وتزيل عنها بقايا الرطوبة وتأمل الدخان المتصاعد، اضطرت أن تمسح وجهها وجبهتها بين الحين والآخر باستخدام منديل ورقي تحتفظ به في أكمامها.

استغلت البخار وصوت الهسهسة التي يحدثها لعمل وجوه مضحكة من خلفه لمداعبة شوجي، لم يكن من المعتاد بالنسبة إليه أن تمارس هذه الألعاب، لذلك كأن يأمل ألا تنتهي الأمطارالمشتعلة في الخارج، وأن يظل عالقًا معها في الداخل بمفرده ويحافظ عليها في سلام للأبد.

برغم محاولة شوج الأب أن يعكر صفوها إلا أن شوجي وأغنيس لم

يتكلما على الإطلاق عن تلك الزيارة، وفي لفتة كريمة منحا كل عبوات الشراب إلى جينتي.

ارتديا أفضل ملابسهما المتطابقة وتسللا بهدوء إلى منزل عائلة مكلينشي، وطرقا الباب في هدوء، فتحت جينتي في دهشة وعبوس، حاولت أن ترسم على وجهها نظرة ازدراء، فابتسما في وجهها كأنهما أكثر إخلاصًا من شهود يهوه[94].

ولم ينفرج وجه جينتي إلا بعد أن رأت الحقيبة البلاستكية التي تحتوي على عبوات البيرة فشعرت بالسعادة بعدها، وتعجبت بشدة كأنها بعثت للحياة مرة أخرى.

اتصل يوجين في ذلك اليوم، اتصالاته بأغنيس قلت شيئًا فشيئًا منذ يوم عيد ميلادها. توقعت أن يخذلها بشكل تدريجي كرجل صالح يتصرف بلطف شديد، قبل أن يختفي ولا تسمع عنه مرة أخرى.

دعاها يوجين لتركب معه سيارة الأجرة، كانت السيارة لامعة وكأنه غسلها خصيصًا لهذه المناسبة عندما خرجت لمقابلته خارج المنزل، لم يترك السيارة ويفتح لها الباب كما كان يفعل في السابق.

اصطفت كولين والنساء الأخريات على السياج الأمامي لمنازلهن، تمسك بريدي وعاء لسلق البطاطس ومنشفة خاصة بالمطبخ وكأنها قاطعت نشاط حياتها المعتاد، عندما سمعت محرك الديزل الخاص بسيارة يوجين لتشاهد ما يحدث، ظهر الغضب على كولين حينما غادرت أغنيس بصحبة جائزتها الثمينة.

94- طائفة مسيحية ذات معتقدات خاصة تختلف عن معظم الطوائف المسيحية الأخرى كما يؤمنون بأن الاستعداد لمعركة نهاية العالم هو الوسيلة الوحيدة للتخلص من كل الشرور. (المترجم)

ابتعدا في نزق ولم يتحدث يوجين حتى عبرا بجوار الكنيسة على طريق المنجم، توقف على بعد أمتار قليلة من باب منجم الفحم الكبير المغلق، وأطفأ محرك السيارة، توقفت عن الاهتزاز من أسفلهما كوحش فقد الحياة، كان المكان شديد الصمت والسواد، فمد يده وأضاء النور الصغير لغرفة القيادة.

حضرت أغنيس لذلك المكان من قبل مع أحد سائقي الأجرة الذين لا تتذكر وجوههم فشعرت بالبرودة تسري في داخلها.

نظرت إلى عيني يوجين الهادئة في المرآة، وأدركت أنها لو بدأت بالحديث سوف تقول شيئًا أخرق وسيبدو البؤس في نبرات صوتها، فمدت يدها إلى حقيبتها متظاهرة بالبحث عن سجائرها منتظرة أن يبدأ الحديث ويحدد مساره.

فقال بهدوء من دون أن يلتفت إليها:

"أعتقد أنني أصبت بالرعب".

"هل أنا مخيفة إلى هذه الدرجة".

"السبب، هؤلاء المدمنون وأمراضهم اللعينة".

أغلقت أغنيس عنق المعطف بشكل دفاعي.

"لا داعي للقلق الأمر ليس معديًا".

فتح شفتيه وأغلقهما دون أن ينطق بشيء، قبل أن تسمعه يقول:

"أعرف أن الأمر يبدو غبيًا، لكن كل ما في الأمر هؤلاء الأشخاص الذين حضروا حفلتك، لقد كانت حالهم يرثى لها كما تعلمين".

تلقت الإهانة دون أن يبدو عليها تأثير، ثم فاجأت نفسها بالإجابة:

"يوجين، يجب أن تعرف شيئًا عن هؤلاء الناس، فأنا واحدة منهم".

تغير شكل وجهه للدرجة التي عرفت من خلالها أن هذه لم تكن الإجابة التي يرغب في سماعها.

"أنا لم أقصد الإهانة، كنت فقط، حسنًا، أنت تبدين طبيعية للغاية".

أنهت أغنيس سيجارتها، وأدارت لسانها بداخل فمها قبل أن تقول:

"يوجين لا داعي لقول عبارات قاسية، من الأفضل أن تعيدني للمنزل".

ظل صامتًا لفترة طويلة قبل أن يغلق الحاجز الموجود بينه وبينها.

دبت الحياة في سيارة الأجرة مرة أخرى، وأضاءت أنوارها الأمامية لتظهر بوضوح بوابة المنجم المسورة، وطلاؤها الأحمر الذي بدأ في التلاشي، وكتابات تقول لا فحم ولا حياة لم يبقَ إلا الإعانات.

انطلقت سيارة الأجرة في طريقها، وبدلًا من أن تسلك الطريق المختصر من أجل العودة إلى الحي السكني شقت الطريق الرئيس في اتجاه الزحام، مالت أغنيس على الزجاج بدافع الخوف والفضول وطرقت عليه بخاتمها المعدني وهي تقول"

"طلبت منك أن تعيدني إلى المنزل".

لم يجب عليها فغَرقت في مقعدها ولم تلح في السؤال، وتخيلت كم منت نفسها بقضاء ساعة سعيدة بعد أن وردتها منه تلك المكالمة الهاتفية.

لم يبتعدا كثيرًا، فبمجرد أن وصلت السيارة إلى الطريق الرئيس المليء بالأنوار واكتسبت سرعة المرور، انعطفت في طريق جانبي، وتباطأت مرة أخرى وهي تسلك طريقًا مظلمًا مفروشًا بالحصى.

شاهدت فندق لاعبي الجولف من قبل ولكنها لم تدخله أبدًا، كان فندقًا فاخرًا لا يستطيع أمثالها الذهاب إليه، لأن السبيل الوحيد للوصول إليه عبر سيارة خاصة.

كانت تراقب السيارات الجاجوار الفخمة في الطريق من مقعدها في الأتوبيس العام، سيارات فاخرة من المنطقة الغربية الثرية البعيدة عن الحي الذي تسكنه.

كانت تراقب الرجال ذوي الوجوه الناعمة يسحبون عصي الجولف من داخل سياراتهم، وبجانبهم زوجاتهم يرتدين أحذية ذات كعوب قصيرة، يحملن حقائب صغيرة ويرتدين سترات مصنوعة من الصوف الاسكتلندي الفاخر.

المساحات الخضراء حول جلاسكو تضم الأحياء الفقيرة الجديدة، وهم يعيدون اكتشاف المناطق المنسية وتخضيرها. تعلم أغنيس أن هذه المساحات الخضراء تحتوي على أفخم الفنادق، والنوادي الخاصة على الإطلاق، لا يحب هذا العالم الفاخر الوثير النظر إلى عالمها الغريب عنه.

"لن نذهب إلى هناك، أليس كذلك؟".

"وما المانع؟".

قالها وهو ينزلق بين سيارتين فاخرتين كبيرتي الحجم.

حدقت أغنيس في فوانيس الحديقة التي تنير الطريق إلى باب النادي الأبيض.

"هل نظرت إلى هذا المكان؟ إنه غير مخصص لأمثالنا".

ضحك يوجين:

"لقد شعرت بالإهانة، بسبب ما تقولين".

شعرت بالكبرياء يسري في عروقها، وقالت وهي تمسك ذيل تنورتها:

"يوجين، أنا لا أرتدي الملابس اللائقة لذلك المكان".

دون إضافة كلمة واحدة، خرج يوجين من السيارة، فتح الباب الخاص بها واضطر أن يمد يده بطول المقعد الخلفي للسيارة حتى يصل إليها، بدت يده الكبيرة الدافئة صغيرة بشكل مفاجئ، كانت تشعر بالفخر والخوف وكان يشعر بالخجل بسبب الكلمات التي قالها سابقًا.

غرفة الطعام في نادي الجولف بسيطة، ولكن أغنيس رأتها شديدة الكلاسيكية، غرفة كبيرة مفتوحة تطل على جدار زجاجي يكشف الملعب الأخضر من ورائه الذي يحتوي على ثماني عشرة حفرة تخص رياضة الجولف.

أرضية الغرفة مغطاة بسجاد سميك ذي نقوش باللون الأحمر ولون البقدونس، والجدران مغطاة بألواح، فوقها صور لأعضاء النادي والرعاة المشهورين، لم تتعرف أغنيس على أي من الأشخاص الموجودين في الصور، ولم تحب أن تواصل التحديق في وجود الغرباء.

قادتهما فتاة صغيرة ترتدي تنورة طويلة من الكتان، إلى مقعد في الخلف بقسم المدخنين.

شعرت أغنيس بالخجل الشديد عندما طلب يوجين طاولة بالقرب من الجدار الزجاجي والممر المضاء من خلفه. اكتفت الفتاة بالابتسام بلطف وقادتهما إلى طاولة أقرب قليلًا إلى الأمام.

قبل أن يجلسا حيّا يوجين بصوت مرتفع الأشخاص الجالسين على كلا الجانبين، فاكتفوا بالإيماء إليه بأدب.

حاولت أغنيس أن تكتفي بطلب الدجاج -الذي تعرفت عليه- ذي الاسم الألماني الغريب، والبطاطس المقلية، ولكن يوجين لم يقبل بذلك وطلب من النادل أن يجلب بعض المقبلات كبداية، ثم يجلب الطبق الرئيس، ومن بعده التحلية، وأن يأخذ منها قائمة الطعام، شعرت أنها في حاجة لقضاء عدة أيام بجوار قائمة الطعام لتفهم كل تلك الأصناف المكتوبة حتى تستطيع الاختيار بينها وهو ما جعلها تشعر بالدوار.

كانت تشبه كتالوج مستحضرات التجميل، ولكنها أجمل ولذلك لم تطلب إلا الوجبة التي فهمتها وهي تشعر بالقلق بسبب التكلفة.

"اسمع يمكنك أن تتناول بعض الشراب لو كانت لديك رغبة في ذلك، ولا داعي للقلق بشأني".

أحضر النادل كأسين كبيرتين من المياه الغازية، وبداخل كل منهما عصا مخصصة لتقليب الكوكتيلات.

قالت أغنيس وهي تلف عصا التقليب:

"أنا أتخيل ذلك، أليس كذلك؟ لا مانع لدي أن تحصل على بعض الشراب".

وصلت المقبلات في وعاء يشبه وعاء الآيس كريم، قريدس وردي كبير

الحجم يسبح في صلصة كثيفة من الروزماري، وأوراق البقدونس والخس، وعلى حافة الوعاء الزجاجي شرائح الليمون، القريدس لا يزال باردًا، ولم يتخلص من الثلج بداخله. علق يوجين أن المكان ليس جيدًا، ولكن أغنيس لم تمانع لأنه طازج والثلج أكسبه مذاقًا شهيًّا ومقرمشًا مع الليمون وصلصة الروزماري.

قالت أغنيس:

"صنعت هذه الصلصة من قبل، ولكني لم أفكر في إضافة الليمون...".

قاطعها يوجين في منتصف جملتها:

"أوه، يجب أن أسألك عن شيء ما".

تركت أغنيس الشوكة الصغيرة من يدها.

"هل تريد فتح ذلك الحوار مرة أخرى؟".

قال يوجين وهو يشعر بالغرابة:

"إني فقط أحاول أن أفهم، هل لديهم أشخاص، ممم، هل أخبروك في الجمعية متى يتم شفاؤكم؟".

جاء النادل وحمل وعاء المقبلات قبل أن تتفوه أغنيس بكلمة واحدة.

"لا أدري ماذا أقول لك؟ إنهم يخبرونا جميعًا أننا لن نشفى، على الأقل بالطريقة التي تقصدها".

ونظرت إليه بشكل مباشر.

حاول يوجين أن يتكلم بنبرة هادئة:

"ولكنك أخبرتني أنك شخص مختلف الآن، لقد أخبرتني أنه هو السبب

في إدمانك على الكحول وقد اختفى الآن، أليس كذلك؟ لقد قطعت مسافة طويلة وكل شيء أصبح مختلفًا".

"الأمور لا تسير بهذه الطريقة".

"أيتها الغبية الحمقاء، أنظري إلى نفسك، وانظري إليهم، أنت لست مثلهم لم تعودي في حاجة إلى الشراب، فأنا معك الآن، وأنت لست مثل هؤلاء الحمقى الأوغاد الحزانى، انظري لي الآن، انظري في وجهي بحق الجحيم".

سعل الزوجان اللذان يرتديان ملابس بلون الباستيل على الطاولة المجاورة سعالًا مقيتًا فاضطر يوجين لأن يخفض من حدة صوته:

"انظري لنفسك أنت امرأة مذهلة".

لم يكن يوجين من النوع الذي يعترف بالهزيمة، تعرف أغنيس أنه من نوع الرجال الذين يظنون أن في إمكانهم إصلاح كل شيء محطم.

شعرت، كأنها آلة لجز العشب تعمل بلا هوادة فقالت:

"حسنًا أنا أحبك أيضًا".

حضر النادل وفي يده الأطباق الرئيسة، كان يلف يده بمنشفة وترك الأطباق الساخنة تنزلق أمام الزوجين برفق.

نظرت أغنيس إلى الدجاج المشوي أمامها ثم نقلت عينيها إلى لحم الحمل الذي طلبه يوجين والبطاطا المسلوقة التي تشبه طعام الأطفال في الكريسماس، تجاهل يوجين كل الموجودين حوله وأشار بأصبعه الغليظ في اتجاه منجم الفحم وقال:

"أنت المرأة الأكثر جمالًا في هذا الحي بأكمله، إن معظمهن لا يمررن

الفرشاة في شعرهن على الإطلاق، انظري لهن وانظرى إلى نفسك أي وقت خلال اليوم، أنت تختلفين عنهن، ويمكن ملاحظة ذلك".

ثم انحنى عليها وقال:

"أريد أن أطمئن قبل أن أحبك أكثر من هذا، قبل أن آخذ خطوة أكثر جدية".

شعرت بعدم الارتياح فأرادت تغيير الموضوع بالحديث عن الطعام:

"إنه يبدو شهيًّا وبكميات كبيرة، أليس كذلك؟ اعتقدت أنهم سيجلبون صدرًا أو فخذًا، ولكن ليس دجاجة كاملة".

سعل النادل وسألهم إن كان لديهما كل ما يحتاجانه، أم يريدان شيئًا آخر.

أومأ يوجين برأسه، ولكنه أعاد التفكير:

"أحضر لنا زجاجة من النبيذ المنزلي[95]".

سأل النادل بهدوء:

"أحمر أم أبيض يا سيدي".

نظر يوجين إلى أغنيس التي تصلبت في مكانها:

"أعتقد أن الأبيض يصلح مع الدجاج".

هز النادل رأسه علامة على الموافقة، كأنه يقول إنها فكرة جيدة.

طلب يوجين زجاجة من النبيذ الأبيض.

95- نبيذ غير مكلف يقدم في المطاعم الفاخرة دون تفاصيل حول نوع العنب وبلدة المنشأ أو المصنع. (المترجم)

قال بهدوء:

"أنت لست مضطرة لذلك إن لم تكن لديك الرغبة".

تحول الدجاج الذي كان ذهبيًّا ومليئًا بالعصارة لكتلة ميتة وجافة في نظرها، أحضر النادل زجاجة النبيذ وصب كأسًا لأغنيس فلم تمنعه، لاحظت أن لون النبيذ يشبه لون زهور الخوخ الفاتحة في حديقتها الأمامية، تعبر زهور الخوخ عن الإخلاص والامتنان.

جلس الاثنان ينظران إلى الزجاجة لفترة طويلة، ثم رفع يوجين كأسه وقال:

"نخبنا، لم يعد إلا القليل من أمثالنا في هذا العالم".

ابتسمت نصف ابتسامة ورفعت كأس الكولا، كانت قد فقدت رغوتها بعد مرور هذا الوقت:

"لم تخبرني كثيرًا عن ابنتك".

ودفعت طبق الدجاج بعيدًا.

"اسمها برناديت، أليس كذلك؟".

"بلي، هي كبرت، أفترض أنها تفعل أشياء رائعة في حضانة الأطفال بسانت لوقا، إنها تشبه والدتها وتقلد كل تصرفاتها لما كانت على قيد الحياة، كانت تهتم بالعمل الخيري في الكنيسة ومساعدة أرامل عمال المناجم".

أخرج بعض قطع الطعام العالقة في أسنانه الخلفية قبل أن يضيف:

"ولكنهما كانا بفرطان كثيرًا في ذلك، كانا يتطهران بالماء المقدس اللعين ذهابًا وإيابًا، وكأنها صلصة للغموس".

قالت أغنيس:

"إنها تبدو كشخص جيد على عكس كولين تمامًا، هل أخبرت كولين عني؟".

رد يوجين بشكل قاطع:

"لا".

زفرت أغنيس وهي تشعر بهزيمة ثقيلة.

"لم أخبرها بسبب سوء أفعالها".

"لا بد من أنها رسمت صورة جميلة لمستقبلك".

ترك يوجين عينيه تطفو فوق كأس النبيذ البكر وقال:

"أفترض أنها فعلت ذلك".

انتهيا من تناول أطباقهما وتحدثا عن سيارات الأجرة والحانات الليلية، وجنوب إفريقيا، ومناجم البلاديوم هناك.

دفعت أغنيس ببواقي البطاطس أسفل قطع الدجاج التي لم تأكلها، حمل النادل الأطباق وجلب حلوى التيرامسيو، انتهى يوجين من شرب زجاجة النبيذ الأبيض بينما بقيت كأسها التي بلون زهور الخوخ لم تمس حتى أصبحت دافئة، جلست أغنيس تعبث بحلوى التيراميسيو وهي تقول:

"لا أعتقد أنني أستطيع أن آكل قطعة أخرى".

"إنها جميلة رغم ذلك، إنها أفضل قطعة كاسترد تناولتها في حياتي".

ثم أضاف وهو يضع آخر قطعة من الحلوى في فمه:

"ربما لو تناولتِ كأسًا صغيرة من الويسكي لتمكنت من إنهاء طعامك".

"هل تعلم؟ لم أكن سأشكرك أبدًا لو أحضرت لي كأسًا من الويسكي، حتى في أسوأ أيام حياتي فالويسكي مثل الجين يجعلك حزينًا وأنا لا اشرب لأشعر بالحزن بل لأهرب منه".

"ماذا كنت تشربين إذًا؟".

"في الغالب البيرة وفي بعض الأحيان كنت أشتري نصف زجاجة من الفودكا عندما أستطيع تحمل تكلفتها، عندما أمر بيوم سيئ أصارع نفسي من أجل كأس واحدة".

توقفت قليلًا ثم أضافت:

"أصبح بعدها في حالة سيئة من عدم الوعي، وخصوصًا إن كنت أهدف في البداية إلى ذلك".

"أوه، لا أستطيع أن أصدق أنك نفس الشخص الذي تحكين عنه".

وسكت قليلًا ثم أضاف:

"ماذا تظنين أنه سيحدث لو شربت بعض هذا النبيذ الآن".

"ربما أرغب في شرب المزيد".

"وربما لن ترغبي".

"ربما".

ثم أضافت بطريقة أخف:

"يوجين، أنت لا تحتاج لأن أسكر حتى تمارس معي أفعالك الشريرة".

ضحك وقال:

"نشكر الرب على هذا".

مسح بيده الكبيرة بعض بقايا الطعام عن الطاولة وهو يقول:

"سوف يكون في هذا إهدار للكثير من المال".

ثم ضحك حتى تحول خده إلى اللون الوردي وهو يقول:

"اسمعي، أنا لا أحاول أن أجعلك تسكرين، أنا أحاول أن أجعلك تجربين بعض الشراب".

سألته أغنيس:

"لماذا؟".

شعرت فجأة بتعب شديد.

رفع الكأس في اتجاهها:

"لأن هذا ما يفعله الأشخاص الطبيعيون، أنا أحاول أن أجعلك تنخرطين في الحياة الاجتماعية، اشربي القليل من هذا، ولو حدثت مشكلة سوف أجعلهم يطردونك من المكان وستعودين إلى المنزل سيرًا على الأقدام".

ودفع الكأس الطويلة في اتجاهها لمسافة أقرب:

"ستكونين بخير، أنت الآن امرأة مختلفة".

أمسكت أغنيس الكأس الدافئة وشمت رائحة النبيذ التي تشبه أشعة الشمس.

ثم دفعت الكأس بعيدًا وقالت:

"أنا لا أحب النبيذ".

"أوه، أيتها الحثالة الكاذبة".

كانت خائفة، بل إنها كانت مرعوبة، ولكنها لن تسمح له أن يدرك ذلك فرفعت الكأس الزجاجية إلى فمها وأخذت رشفة صغيرة، لم يكن طعمه مثل طعم النبيذ الذي تتذكره، كان مريرًا مثل خل التفاح.

"لقد فعلت".

قالت أغنيس وهي تضع الكأس جانبًا:

فرد يوجين:

"هل رأيت؟ لم يحدث شيء".

كان متحمسًا وكأنه سيقفز في الهواء.

"لم تشتعل بك النيران، ولم ينبت لك رأس آخر".

وأمسك زجاجة النبيذ ورفعها في الهواء لتحيتها:

"في صحتك، إنني أشعر بفخر حقيقي بسببك، كما أني تأكدت أن كل ما قالته أختي لم يكن حقيقيًّا".

شعرت بالارتياح فقد كان على حق ولم يتغير شيء فيها، وأثبتت أن كولين مخطئة فشربت كأس النبيذ ببطء، على أمل ألا تتغير حالتها وتستطيع أن تتغلب على مقولات جمعية مساعدة الإقلاع عن الإدمان وتصبح طبيعية مرة أخرى.

عندما جاءت الفاتورة دفع الحساب على هيئة أوراق نقدية من فئات صغيرة، جمعها ورتبها بإحكام من عمله كسائق أجرة في الليالي السابقة، وعندما هما بالانصراف شعرت بالدفء يسري بداخلها.

اصطحبها يوجين إلى حانة صغيرة ووضع يده حول وسطها، وشعرت أغنيس بالسعادة لأن الناس كانوا ينظرون إليهما في إعجاب وهما يجلسان بهدوء في الركن، قبل يوجين شحمة أذنيها طلبت الفودكا ومشروبًا غازيًّا للتخفيف ثم طلبت كأسًا أخرى وكأسًا ثالثة.

عادت سيارة الأجرة إلى الحي السكني المظلم تسير بشكل متعرج، كان من حسن الحظ أن الوقت متأخر ولا توجد سيارات أخرى على الطريق، أوقف يوجين السيارة مرة أخرى أمام مدخل المنجم المظلم وحاول أن يمارس معها الجنس، ولكنها كانت في مزاج سيئ وتتصرف بطريقة غريبة وتعاني من أثر ذكريات لا تستطيع أن تحددها.

حاول أن يصعد فوقها، فسقطت من جيوبه قطع من النقود المعدنية، أحست أنها تمارس الجنس من أجل المال.

بحلول الوقت الذي استطاعت فيه أن تجد مفتاح المنزل وتفتح القفل كانت أنوار الصالة مضاءة بالفعل، عندما مرت من الباب الأمامي سمعت صوت تمزق معطفها الفرو وكذلك جواربها النايلون الضيقة من أثر الاشتباك في شيء خشن.

كانت متأكدة أنها ابتسمت إلى ليك ولكنها لم تعرف السبب الذي دفعه لأن يصرخ فيها بكل هذا الغضب، أدركت أنه يضرب عنق يوجين السميك بقبضته، وأدركت أن باب غرفة النوم فتح وخرج منه صبي صغير ذو وجه خائف ومبتل بسبب الشعور بخيبة الأمل، الجزء الأمامي من بنطال بيجامته ملطخ بالبول الداكن.

23

جاء عيد الميلاد وانتهى، وبدأت أغنيس في الاحتفال بهوجماني[96] مبكرًا.

وبحلول مساء اليوم الأخير من العام، كانت انفردت في سرية بالفودكا التي أبقتها مخفية بعيدة عن الأنظار تحت المقعد الخاص بها، بدأ التلفاز في بث الاحتفالات، وهي تسكب عبوات الشراب الواحدة تلو الأخرى كالشلال في قدح الشاي القديم، تبقت عدة ساعات على أجراس نهاية العام، ولكنها بدأت بالفعل في تذكر كل الرجال الذين أساؤوا إليها.

لاحظت أغنيس، أن ليك يتجنبها ولكنها لم تفصح عن ذلك، يقضي أغلب إجازة عيد الميلاد في المنزل نائمًا ليهرب من رؤيتها، وفي يوم هوجماني انصرف مبكرًا متجهًا إلى المدينة وأنفق معظم أجره الذي حصل عليه في فترة التدريب على آلات التبغ المنتشرة في أروقة المحطة الرئيسة.

كان مثل الرجل الذي يجري حتى يهرب من الآمال التي يتوقع سقوطها.

ظل شوجي في المنزل ليمنع أغنيس السكيرة من الاقتراب من الهاتف في ليلة رأس السنة الجديدة، جلس بجوار النافذة يراقب أضواء شجرة عيد الميلاد تأتي من الجهة المقابلة من الشارع في غرفة أخرى، ووضع أطراف الستائر البيضاء في فمه حتى ملأته بالكامل، فشعر أنه أقل جوعًا مما كان يشعر به في السابق. كان يتلف ستائرها المحببة وهي تنظر إليه مباشرة، انتظر أن تمنعه عن ذلك ولكنها لم تفعل.

96- الاسم الذي يطلقه الاسكتلنديون على ليلة رأس السنة والاحتفالات المصاحبة لبداية العام الجديد. (المترجم)

أطفال عائلة ماكفيني يلعبون بدراجاتهم في الخارج ويستمتعون بزيارة والدهم بيج الكبير، وشوجي يجلس تحت قدميها بلا حركة كظل هادئ لا يتحرك، وهي تشرب من قدح الشاي كأنه لا ينتهي، بدأت تحكي له قصصًا سيئة عن والده مرة أخرى، وكأنها تجلبها من كتاب حكايات من المفترض أن تحكيه له كل عام.

عدما انتهت نشرة الساعة السادسة كانت في فراشها تتحدث في الهاتف مع جينتي مكلينشي، وشوجي جالس في الرواق بالخارج مستندًا بظهره إلى الباب حتى يتمكن من سماع المكالمة ويراقب حالتها المزاجية، تساءل لكم من الوقت سوف تتمكن من الصمود قبل أن تفقد الوعي وتنال قسطًا من الراحة.

كانت هناك موسيقى منبعثة من مشغل الكاسيت الخاص بها، يعرف أنه نذير شؤم، تسلل إلى داخل غرفتها كشبح حذر، كانت تدخن سيجارة ولا ترتدي إلا زوجًا من الجوارب السوداء، وحمالة صدر من الدانتيل الأسود.

يشتري لها شوجي الجوارب الجديدة دائمًا، لا تستطيع أن تغادر المنزل وهي ترتدي جوربًا مقطوعًا، كان الصبي يعرف مقاسها واللون الذي تفضله، ويجلبه لها دائمًا.

إن كل ذكرياته معها ترتبط بارتدائها جوارب سوداء شفافة، في أيامها الصعبة تكون الجوارب متسخة ومتناقضة مع لون لحمها الوردي، تحرص دائمًا أن ترتدي ملابس لائقة مثل سائر الأمهات، ولكن الجوارب تترك علامات فوق فخذها الذهبي وكأنها تعرضت للقرص في أماكن لا يجب على الآخرين رؤيتها.

نسيت أنه في المنزل، فنظرت إليه نظرة زجاجية وابتسمت ابتسامة معلبة دون أن تفتح فمها عندما لاحظت وجوده في المرآة، ومدت يدها إلى داخل حقيبتها الجلدية وأخرجت قطعة معدنية بخمسين بنسًا وأعطتها له قائلة:

"انظر إلى نفسك، كيف ستحتفل بالعام الجديد وأنت ترتدي البيجامة".

طلبت منه أن يذهب إلى الحمام ويملأ البانيو بالماء، كان يدرك أن جسدها في المنزل ولكن عقلها أصبح غائبًا، أحاطت يديها حول وسطه ووجهته إليها وطبعت قبلة على شفتيه، شعر بحرارة أنفاسها تنبعث من المسافة المفتوحة بين شفاها، تجعلها تلك المسافة تبدو كأنها فارقت الحياة.

قالت له:

"نظف نفسك جيدًا، أريد أن نبدأ العام الجديد بشكل لائق".

بعد أن أمتلأ حوض الاستحمام حتى المنتصف بالماء الفاتر، انزلق شوجي بحذر إلى الداخل ووضع الصابون في فروة رأسه واستلقى وهو يستمع لخطواتها التي تنتقل من مكان إلى مكان باحثة عن الخمر الذي أخفته منه في مكان ما، ونسيت ذلك المكان مع الوقت.

أمسك كتيب كرة القدم الأحمر الصغير الذي أعطاه له يوجين وبدأ في حفظ أسماء الفرق ونتائج مباريات العام السابق لدوري المحترفين لكرة القدم وهو يسمع أغنية:

"السلام عليك يا مريم".

ظل يردد ويكرر النتائج التي لا معنى لها حتى علقت بذاكرته، بداية

العام الجديد كانت فرصة جديدة بالنسبة له.

ملابسه الخاصة بالعام الجديد ملقاة على الفراش، تشبه رجال العصابات مكونة من قميص أسود ورابطة عنق بيضاء.

يرتدي ملابسه واقفًا بجوار أغنيس التي ارتدت هي الأخرى ملابسها في صمت، فبديا كزوجين غير سعيدين يستعدان من أجل الذهاب إلى حفلة غير مرغوب بها، اتكأ على والدته حتى يحفظ توازنه، ثم ساعدها في ارتداء تنورتها.

"دعني ألقي عليك نظرة".

وبلت طرف أصبعها ومرت بها فوق أنفه:

"انظر كيف تبدو وسيمًا".

ثم هزت رأسها كأنها تتخيل شيئًا، ثم أضافت: "لا تشبه على الإطلاق، والدك الداعر السمين".

أخرجت أغنيس عبوة البيرة الخاصة بها من الكيس البلاستيكي ووضعتها في يد الصبي وقالت:

"خذ هذه إلى كولين، وأبلغها تمنياتي لها بعام جديد سعيد، واحرص على أن تنبهر بذكائك في الحديث".

وابتسمت ابتسامة مريرة وهي تقول:

"احرص على أن تقول لها: عام جديد سعيد، تحية مني ومن يوجين".

في كل منازل الشارع، أشجار عيد الميلاد مضاءة بجوار النوافذ الأمامية تتوهج بفخر. بعض الأولاد يلعبون في الطريق بحماس، وفي أيديهم زجاجات الكولا.

خطا شوجي المسافة القصيرة بين منزلهم ومنزل كولين في بطء وسار بمحاذاة السور الخارجي للمنزل، لم يكن لديه النية لأن يقدم لها عبوة المشروب ولا رسالة أمه الخاصة، تساءل أثناء السير، عما يأكله الجميع في هذا الوقت، تخيلهم متجمعين لاتقاء البرد وبطونهم ممتلئة.

وقف أمام نافذة كولين يعصر بعض ثمار التوت الشتوية في كف يده، ويتذكر شطائر اللحم والزبد التي صنعتها له أغنيس في العام الماضي، تذكر جلوسه بداخل حضنها على الأريكة، يأكل الشكولاتة المحشوة بالنعناع ويشاهد الحشد في ميدان جورج يقرع الأجراس وينشد الأغاني احتفالًا بالعام الجديد.

لم يعرف شوجي ما الذي يجب عليه فعله بعبوة البيرة، ظل يتجول في الظلام بالقرب من منزل كولين، وجلس تحت سقيفة منخفضة وسحب الحلقة المعدنية التي تغلق عبوة البيرة، وبدأ بطرف لسانه في تذوق الرغوة الغازية المتدفقة بحذر، كانت الرائحة مألوفة ومذاقها غير ضار، رقيق مثل الهواء ومر وحامض ومعدني في وقت واحد، مثل من يحيط بشفتيه صنبور المطبخ.

كان الجوع يعصر بطنه ويتضور لتذوق أي شيء، ربض كالحيوان، وأدار ظهره إلى الشارع، شرب القليل من البيرة حتى ملأ فمه فلم يشعر بالاحتراق، كان طعمها يشبه الزنجبيل المخلوط بالخبز المتخمر، تجرع رشفة أخرى ثم رشفة أخرى حتى هدأ صوت الزمجرة الذي كان يخرج من أمعائه.

أحس في قلبه بشعور مختلف فأصبح سعيدًا كما أنها منحته الدفء

وهدأت من جوعه، شعر ببعض الخفة، حتى سمع صوت زمجرة محرك الديزل وشاهد أغنيس تسير متعثرة على الرصيف غير المستوي وهي ترتدي معطفًا أرجوانيًّا فوق تنورة قصيرة، مالت نحو السائق وقالت عبارة غزلية، وصعدت بسرعة إلى العربة التي لم يكن سائقها يغلق زجاجها بإحكام كافٍ، استطاع أن يتبين أنه ليس يوجين بسبب نظاراته السمكية، شعر شوجي بالذعر والعربة تنطلق مبتعدة عن بيتهيد.

خلال الأشهر الأربعة والثلاثة عشر يومًا التي مرت منذ أن ساعد يوجين أمه على العودة لشرب الخمر، اعتاد السائق أحمر الشعر على أن يأتي إلى المنزل مرتين أو ثلاثًا كل أسبوع.

كان شوجي يرى أخاه ليك يترك المنزل في هذه الأيام مبكرًا من أجل الالتحاق بالتدريب، ثم يأتي يوجين مباشرة متسللًا إلى داخل المنزل الهادئ، منذ تلك الليلة في نادى الجولف، أصبح يوجين يخشى مقابلة ليك.

في تلك الليلة جلست أغنيس على السجادة تغني لنفسها، بينما كان ليك مرتديًا ملابسه الداخلية في الشارع يضرب يوجين، كان بإمكان يوجين بسهولة أن يقاومه ولكن أخلاقه حتمت عليه أن ينسحب إلى الخارج وهو يقدم الاعتذار، حتى لو تعامل معه بهذه الخشونة.

نام يوجين في تلك الليلة وبداخله شعور كبير بالذنب، وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي تسلل إلى الحمام وبصحبته الهاتف، أغلق الباب خلفه متجاهلًا نظرات ابنته العابسة، واتصل بأغنيس وأيقظها واتفق معها على مقابلته أمام باب المنجم القديم، اعتذر لها عن الضغط الذي قام به بالأمس، ووعدها أن يساعدها على أن تعود للطريق الصحيح مرة أخرى.

قبلها وهي تجلس بجواره في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة، كان لسانها

باردًا وثقيلًا وتفوح من أنفاسها رائحة البيرة، تمنى يوجين أن تكون تلك الرائحة من بقايا الأمس وبينما كان رأسها يتدلى أمامه تذكر أنها لم تشرب بيرة بالأمس معه في نادي الجولف.

توقع شوجي أن يفر يوجين ذلك المساء، ولكنه اتصل بدلًا من ذلك، اتصل بها في مكالمة طويلة استمع إليه شوجي وهو جالس أمامها بالزي المدرسي، ثم جاء يوجين في صباح اليوم التالي للزيارة.

وضع يوجين واجبات شوجي المدرسية أمامه وقلد توقيع أغنيس بقلم حبر قديم في عناية فائقة. تذكر شوجي عندما كان يلعب بتمثال خزفي يخص أمه على هيئة مزارع صغير يحمل منجلًا، وفي عينيه نظرة حزينة كأنه يشاهد غروب الشمس في بيت ليزي. وكيف كانت تطلب منه أغنيس أن يترك التمثال وشأنه حتى سقط من يده في إحدى المرات، فتكسرت ذراعه والمنجل الذي يحمله.

أخفى شوجي التمثال في خزانة ليزي، وحاول أن يعيد لصق الذراع في مكانها مرة أخرى وهو جالس بجوار الغلاية مستخدمًا كل شيء، بدءًا من الغراء وحتى مسحوق الأرز.

كان يلقي نظرة على التمثال المكسور كل أسبوع، ويصلي من أجل حدوث معجزة. أسبوع كامل من الخوف، شعر بالذعر عندما لم يجد التمثال بين المناشف القديمة بداخل الخزانة مثلما خبأه، لقد وجده شخص آخر وأصلحه.

تذكر شوجي ذلك التمثال وهو يشاهدهم يتحدثون في صوت هادئ غير الصوت الذي يستعمله البالغون في الصباح، استطاع شوجي من خلال الصوت أن يعرف أن يوجين أصيب بالتعب من جراء العمل في المناوبة الليلة.

جاء الرجل وفي صحبته كتالوج يحتوي على نماذج من ورق الحائط، وسأل أغنيس عن النمط المفضل بالنسبة لها، هل هي الزهور الصغيرة السعيدة، أم الخطوط البنغالية الجريئة، يستطيع شوجي من مكانه أن يدرك أن والدته تعاني من صداع في رأسها، وتركز كل طاقتها في إعداد الكبد المقلي لإفطار يوجين.

"الأمر لا يدعو للقلق".

قال يوجين في سعادة تامة.

"يمكنني أن أنتهي من المطبخ في يوم واحد، لقد علمني أبي تعليق ورق الحائط في يوم ما، يمكن أن أزيل الطلاء القديم في الصباح وأعلق ورق الحائط في فترة بعد الظهيرة، لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا".

قالت أغنيس بصوت مخفض:

"نعم، حسنًا".

سألها:

"هل أنت بخير؟".

"نعم، إنه مجرد دوار بسيط".

سمع شوجي يوجين يغلق الكتالوج الخاص بورق الحائط، تخيله يضع يديه فوق رأسها وهو يقول:

"حسنًا، ربما لا داعي لتناول الشراب اليوم، ما رأيك في أن نخرج في نزهة على الأقدام أو شيء من هذا القبيل؟".

أدرك شوجي أن والدته تكافح من أجل الحفاظ على اتزان نبرات صوتها حتى لا يبدو فيه انفعال أو سخرية كقطعة من الخشب المسطحة:

"نزهة على الأقدام؟ حسنا إنها فكرة جيدة".

بعد بضعة أسابيع من تركيب ورق الحائط، لاحظ شوجي أن يوجين توقف عن طرح مثل هذه الأفكار واتفق معها إن رغبت في تناول الشراب أن تتوقف عن محاولة الاتصال به على جهاز الاستدعاء الخاص بسيارة الأجرة.

جلس شوجي على طاولة الهاتف مرة أخرى وتناول دليل الهاتف ذا أذني الكلب الخاص بوالدته ووضعه على قدميه، وأمسك القلم الحبر وبحث عن اسم يوجين. بدل الستة إلى ثمانية من رقم هاتفه وغير رقم الواحد إلى سبعة من رقم شركة النقل التي يعمل بها بمنتهى البراعة. ثم نظر للأعلى، فوجد يوجين يقف فوق رأسه وفي يده مفك براغي.

شاهده شوجي يتجه إلى باب المطبخ ويحكم ربط جميع المفصلات من الأعلى والأسفل حتى أحكمت تمامًا،

ثم قال لها:

"كنت أفكر، سيارة الأجرة تحتاج إلى صيانة الأسبوع القادم لبضعة أيام وسأكون متفرغًا أن نقضي بعد الوقت في الخارج، ما رأيك أن نذهب إلى نادي الجولف ونتناول كوكتيل القريدس الذي أحببته مرة أخرى؟ أفكر أنني لن أتناول اللحم هذه المرة، وربما لن نكون في حاجة إلى شرب الخمر".

أمسك شوجي قدح الشاي المتسخ الخاص بها وتجاوز يوجين متجهًا إلى داخل المطبخ بينما كانت والدته جالسة على المنضدة تضع يدها فوق رأسها وتفرك جمجمتها بأطراف أصابعها ودلو معلق بين ركبتيها.

ورق الحائط الجديد جميل ومبهج بالفعل، له ألوان الحقل والزهور

الصفراء والزرقاء فأكسب المساحة الصغيرة بهجة إضافية.

يوجين ذكي ومرتب، أحسن لصق ورق الحائط وتنسيق الورود بجانب بعضها، مما تسبب في شعور شوجي بالحزن كلما نظر إلى الخارج، ورأى المستنقع الكبير القذر كوصمة عار كبيرة خلف حقل من الأزهار.

جلس شوجي خارج منزل ماكفيني يسكب ما تبقى من البيرة المخصصة للاحتفال ببداية العام الجديد على الحشائش، ثم خبأ العبوة الفارغة بداخل قميصه بدافع الخجل وهو يشعر بالغرابة.

عاد إلى المنزل فوجد الأنوار مضاءة، بحث عنها في كل الغرف الفارغة، غير مصدق أنها رحلت، وتوقع أن يجدها في مكان ما. بحث في خزائن المطبخ الفارغة حتى وجد آخر علبة كاسترد، فتحها وغمس فيها الملعقة بعمق.

ساعده السكر الذائب في المسحوق الطري على أن يتوقف ارتعاش معدته بسبب تأثير الكحول، جلس على المنضدة يتابع المحتفلين في ميدان جورج بالعام الجديد على التلفاز وهو يأكل الكاسترد بشراهة.

عندما ظهرت الفرقة الموسيقية الشعبية، أدرك أنها لن تعود إلى المنزل، ارتمى المحتفلون بعضهم في حضن بعض، وبدؤوا في ترديد الأغنيات.

شعر شوجي بأنه مولود صغير في حاجة إلى أمه، شعر بأن الحياة ليست عادلة، وشعر أنه ليس من العدل أن ترحل وتتركه كما يحلو لها.

بحث شوجي في المنزل عن ملاحظة أو رسالة أو خريطة كنز تخبره بمكانها، ولكنه لم يجد شيئًا، فتش حقيبتها السوداء التي تأخذها عندما تذهب للعب البنغو، لم يجد شيئًا هناك، اتجه إلى طاولة الهاتف الصغيرة،

وفكر في الشخص الذي يمكنه أن يتصل به، كان دفتر الأرقام ذو الغلاف الأحمر المصنوع من الجلد الموضوع بجوار الهاتف، يحتوي على أرقام كل الأشخاص الذين عرفتهم أغنيس، هى حريصة جدًّا على أن يتم تحديثه باستمرار.

بعض الأسماء، شطبت بسبب الغضب على ما يبدو، وبعضها بجانبه خطوط وإعلانات مرسومة بخط اليد وملاحظات، عرف من خلالها أن نان فلانيجان ما زال مدينًا لأمه بخمسة جنيهات منذ عام 1978 وأن ماري إيستون عاهرة ذات وجهين، وكذلك عرف أن ديفي دويل ارتدى بذلة كحلية اللون في جنازة والدها، وأن وبريندان ماكجوان تحتاج لأن تمتلك عبدًا لا مديرة منزل.

العديد من الإدخالات في الدفتر تحمل الاسم الأول فقط، ظن شوجي أنهم معارفها في جمعية المساعدة في الإقلاع عن إدمان الكحول، وبعض الأسماء كان بجوارها معلومات وصفية إضافية كطريقة للتمييز بين فتاة وفتاة أخرى تحمل نفس الاسم.

ضحك شوجي بسبب الطريقة التي كان أعضاء جميعة المساعدة في الإقلاع عن الإدمان يصفون بها أنفسهم متجنبين ذكر اسم العائلة.

ربما كان ذلك بدافع الخصوصية وعدم فضح الهوية، وربما كان السبب الأرجح أن الأشخاص تنضم وترحل كثيرًا، لذلك الوصف أفضل من الاسم بالكامل في هذه الحالة.

تصفح صفحة الأسماء التي استطاع أن يتعرف عليها.

بيتر الإثنين والخميس، بيتر الأصلع الكبير، ماريدول، جانيت صديقة ماريدول، كاثي من كومبيرنولد، جينجرجيني الصغيرة.

شعر بالحيرة لأن الاسم الأخير مكتوب تحت حرف ح وليس ج.

بدأ يشعر بالانزعاج والرعب، من الممكن أن تكون والدته في أي مكان، ومن الممكن ألا يراها حتى شهر فبراير.

صرخ مخاطبًا الدفتر السميك: "اللعنة عليك، أخبرني أين هي؟".

الاحتفالات بليلة هوجماني في اسكتلندا أسطورية، لا تتوقف لمدة يومين، وجلاسكو على وجه الخصوص احتفالاتها ممتدة بلا نهاية، رأى الصبي عند أول مجيئهم إلى بيتهيد إحدى الحفلات المنزلية تمتد لعدة أيام.

الساعة السادسة صباحًا، أغنيس لا تزال مخمورة، يرتدي شوجي زي المدرسة من أجل بداية الفصل الدراسي الجديد مع أول الربيع، قرر ليك أن يكتفي مما يحدث، بعد أن تحمل في الماضي الكثير، في السادس من يناير قام صارخًا في أنحاء المنزل حاملًا حاوية القمامة في يده، وطرد اثنين من عمال المناجم سيئي السمعة إلى الشارع المتجمد.

تساءل شوجي عما فعله ليك عند صراخه وإلقائه بحاوية القمامة وأعصابه المشدودة. سئم ليك من إغلاق عينيه بصحبة أخيه الأصغر وسئم من الوقوف مكتوف الأيدي تجاه ما يحدث وهو يزم شفتيه.

رفع شوجي سماعة الهاتف، استطاع أن يشم رائحة الدخان وأحمر الشفاه الخاص بها عالقة في طرف السماعة، وضع السماعة فوق أذنه وبدأ في الاستماع إلى الصوت الصادر من الهاتف فشعر بالراحة، لاحظ أخيرًا زر إعادة الاتصال فوق لوحه الأرقام.

ضغط عليه، رن جرس الهاتف لوقت طويل قبل أن يجيبه أحد، سمع شوجي صوتًا ضعيفًا لامرأة على الطرف الآخر بسبب الضجيج الناتج من موسيقى عتيقة الطراز تعزف بصوت عالٍ:

"مرحبًا مرحبًا، من المتصل؟".

تصرخ بصوت غليظ بسبب التدخين ومتقطع بسبب الخمر.

"هل مامي موجودة؟".

سألها وانتظر رد الفعل.

بدت منزعجة من صمته:

"من أنت، من هي مامي؟".

قال: "أمي، أغنيس كامبل باين"

سكت ثم قال:

"هل يمكنك إخبارها بأن شو....".

ثم تمالك نفسه وقال:

"هل يمكنك إخبارها بأن الكاسترد نفد لدينا".

عادت المرأة تصرخ في الضوضاء التي حولها:

"هل يعرف أحدكم هنا فتاة تدعى أغنيس؟".

سألت في الغرفة الخلفية، وسمع شوجي عدة أصوات قبل أن تقول:

"هل يمكنك أن تنتظر دقيقة واحدة من فضلك؟".

وقبل أن يجيب، تركت السماعة بالفعل، استطاع من خلال السماعة المتدلية أن يسمع أصوات الموجودين في الحفلة، ويحدد أنهم كبار في السن بسبب الأغاني الاسكتلندية الحزينة التي يسمعونها.

انتظر شوجي وقتًا طويلًا شاعرًا أن المرأة نسيته، ثم سمع صوتًا مألوفًا

من الطرف الآخر:

"مرحبًا، من أنت؟".

"مامي، هذا أنا".

سكت الصوت لبعض الوقت، وعندما تكلم كان مرتبكًا:

"ماذا تريد؟ كم الساعة الآن؟".

"متى ستعودين إلى المنزل؟".

"كم الساعة الآن؟".

أطل شوجي بوجهه ناحية الزاوية ومن الضوء الخافت المنبعث من التلفاز استطاع أن يلمح الساعة الصغيرة:

"إنها العاشرة والنصف، لا لا أنها الحادية عشرة تقريبًا".

سكت الصوت قليلًا، سمع شوجي صوت إشعال سيجارة ونفسًا عميقًا:

"حسنًا، يجب أن تكون في فراشك الآن".

""متى ستعودين إلى المنزل؟".

"لا داعي للإزعاج، ألا تستحق مامي أن تحتفل قليلًا؟ لقد مضى وقت طويل منذ أن احتفلت يا صغيري".

تلعثم الصوت قليلًا:

"لقد تلقيت العديد من الدعوات خلال اليوم، ألا تستحق مامي أن تحتفل قليلًا؟".

كانت تكرر كلامها.

"مامي أنا خائف، أين أنت؟".

"أنا في منزل أنا أوهانا، اذهب إلى فراشك وسوف أراك عندما أعود إلى المنزل". كان كلامها غامضًا بشكل ينذر بالسوء

أغلق الخط، استغرق شوجي بعض الوقت ليتمكن من وضع السماعة في مكانها.

فكر شوجي في الاتصال مرة أخرى ولكنها لن تعود للرد على الهاتف، ظل يشم سماعة الهاتف لفترة أطول، ثم اتجه إلى فراشه، كان يرتدي ملابسه بالكامل تاركًا الأنوار مضاءة والاحتفالات بليلة هوجماني صاخبة في التلفاز. يستطيع سماع أصوات صاخبة في الشارع وأطفال عائلة ماكافيني يهتفون على طول الطريق "سنة جديدة سعيدة" بأعلى ما يملكون من صوت، وهم يمسكون مضارب خشبية يضربون بها صفائح القمامة، لتصدر ضجيجًا هادرًا.

نهض من مكانه واتجه إلى دفتر الهاتف وبحث عن اسم أنا أوهانا تحت حرف الألف ثم تحت حرف الهاء، سمع الاسم من قبل، إنها لم تكن من أعضاء جميعة المساعدة في الإقلاع عن الإدمان، إنها إحدى صديقات الطفولة بالنسبة إلى أغنيس، وربما كانت تربطها بها أيضًا صلة قرابة بعيدة. لقد عملا معًا في مطعم إس تي في وذهبا للرقص في تولكروس[97] أيام شبابهما، على حسب ما قرأه بخط يد والدته، وجهت لها أنا أوهانا طعنة في ظهرها، وهى ثرثارة لا تخفي سرًّا ولكنها أفضل صديقة حظيت بها في حياتها. تحت الاسم كان العنوان مكتوبًا في جيرميستون[98]، لم يكن يعرف ذلك المكان ولكن كل معارف أغنيس يعيشون في جلاسكو

97- منطقة تقع شمال نهر كلايد بها حديقة شهيرة افتتحت في عام 1897 وتشتهر بالاحتفالات ومعارض الزهور الدولية. (المترجم)

98- حي في شمال نهر كلايد. (المترجم)

وكان لديه أمل أن جيرميستون هناك.

قطع شوجي ورقة بيضاء من دفتر الهاتف الخاص بأمه ونسخ العنوان بأكثر ما يستطع من دقة ثم اتصل برقم آخر مكتوب تحته كلمة سيارة أجرة.

جاءه صوت رجل فظ:

"مرحبا، ماك هالك".

"أريد أن أعرف أين تقع جيرميستون؟".

رد الرجل بصبر نافد:

"إنها في الشمال الشرقي يا رجل، هل ترغب في سيارة أجرة".

رد الصبي بأدب شديد:

"آسف لإزعاجك مرة أخرى، كم تكلفة التوصيل إلى هناك؟".

تنهد الرجل:

"من أين تبدأ الرحلة؟".

أجاب شوجي على الرجل بدقة، موضحًا رقم المنزل وعنوان الشارع والحي، وحتى الرمز البريدي.

"حسنًا إنها ثمانية جنيهات بالإضافة إلى زيادة قدرها جنيهان ونصف الجنيه لأنها ليلة بداية العام الجديد".

"حسنًا، ابعث لي سيارة أجرة".

قالها شوجي وأغلق الخط على الفور.

باستخدام سكينة الزبد فتح عداد الغاز بالطريقة التي علمتها لهم جينتي ليخرج العملات من فئة الخمسين بنسًا، ووضعها بعناية على الطاولة أمام الهاتف.

كان هناك خمسون قطعة فاستطاع أن يعرف دون العد على أصابعه أن إجمالي المبلغ عشرة جنيهات كاملة.

أخذ الصبي سكين الخبز الطويل وبدأ في فتح عداد التلفاز بالطريقة التي شاهد أغنيس تقوم بها مئات المرات، حتى تسقط العملات دون إتلاف العداد نفسه، لو لاحظ قارئ العداد أنه تالف، سوف يتورط في مشكلة كبيرة. كل سكان الحي لديهم خبرة كبيرة في هذا الأمر فلا يقابل أحدهم مشكلة جراء ذلك.

اعتاد شوجي على مشاهدة أغنيس، وكذلك ليك يسرقون عداد التلفاز بشكل منتظم. كان من الواجب أن تضع في العداد قطعة من فئة الخمسين بنسًا لتشاهد التلفاز لمدة ثلاث ساعات، وعندما ينتهي الوقت يتم إيقاف تشغيل التلفاز تلقائيًّا، تاركًا خلفه ظلامًا. بمجرد انتهاء المال يتحول التلفاز للون الأسود دون الدخول في مفاوضات لمشاهدة نهاية الفيلم أو انتهاء فترة الإعلانات.

وضع شوجي السكين في فتحة العداد فسقطت قطعتان من النقود، لو كان الرجل يقول الحقيقة سيكون المبلغ كافيًا للذهاب إلى جيرميستون، ولكن لن يكون لديه المال الكافي للعودة.

عندما سمع شوجي صوت بوق سيارة الأجرة خرج إلى الشارع، كانت كل المنازل مضاءة والجميع يغني في سعادة ويقرع الأجراس، تقف كولين وحدها بجوار النافذة تشاهد أطفالها يجوبون الشارع جيئة وذهابًا، ويصدرون أصواتًا عالية

لوح لهم شوجي بابتسامة كما علمته أغنيس وهو في طريقه ليستقل سيارة الأجرة.

كان السائق رجلًا نحيفًا أشقر الشعر، شعر السائق بالدهشة لرؤية صبي صغير يرتدي ملابس عصابات شيكاجو.

"هل طلبت سيارة أجرة أيها الرجل الصغير؟".

"نعم".

ثم سلم السائق العنوان المكتوب بخط اليد.

خفض السائق رأسه ونظر في اتجاه نافذة منزل شوجي الأمامية في انتظار ظهور شخص بالغ أو أب أو أم بقرب الباب أو النافذة بداخل غرفة المعيشة.

أخرج شوجي حقيبة بلاستيكية مليئة بالعملات المعدنية من جيبه، ووضعها على ركبته فأحدثت دويًا عاليًا، تطلع السائق للصبي الصغير وللمال، ثم أنزل فرامل اليد وهو يزفر، تحركت السيارة ببطء خارج الطريق الترابي للحي السكني وسرعان ما وصلت للطريق السريع المزدوج، واكتسبت سرعتها، عرف شوجي أن هذا الطريق يؤدي لوسط المدينة، فبدأ في تدوين الملاحظات والتحقق من المعالم الرئيسة، وجهز نفسه للعودة تلك المسافة الطويلة سيرًا على الأقدام.

مرا أولًا بجوار المدرسة الثانوية ثم بعض ملاعب الرجبي، ثم بحيرة سوداء ساكنة وبعدها أصبح الطريق مبهمًا، وبدلًا من أن يسلك السائق الطريق الرئيس، اتخذ طريقًا متجهًا إلى أعلى كأنه يتجنب السير في المدينة. كان الطريق يشبه الطرق الجانبية، كأن المدينة كشفت لهما نهايتها في طريق غير ممهد. على اليسار منازل قصيرة ذات أسقف مائلة غير مكتملة

البناء، تواجه ظهورها حركة المرور، تحيط حدائقها غير المزروعة أسيجة من الخشب البني، وعلى اليمين أميال مظلمة من الحقول البور الفارغة.

لا بد من أن السائق كان يحفظ الطريق جيدًا لأنه كان ينظر كثيرًا إلى الصبي، ويتمتم متأملًا رابطة عنقه البيضاء.

"أنت تبدو أنيقًا للغاية، هل أنت ذاهب إلى حفلة؟" سأله السائق.

"حسنًا، إلى حد ما، كما أني أظن أن الشخص يجب أن يبدو دائمًا على أفضل صورة".

ضحك الرجل:

"أين والدتك؟ هل هي في الحفلة؟".

تمتم شوجي:

"أتمنى ذلك".

"أصبحت كبيرًا، ويمكنك السفر بمفردك في هذا العمر".

أضاف الرجل:

"إن لدي صبيًا صغيرًا في مثل عمرك أنت في الثانية عشرة من عمرك؟ إنه يحب الجلوس في المقعد الأمامي، والتحدث في جهاز الاستقبال الخاص بالسيارة".

كان عمر شوجي أحد عشر عامًا فقط، ولكنه أصبح سعيدًا لأنه يبدو أكبر من عمره الحقيقي، لذلك لم يجب.

كان من الغريب أنه لا يستطيع إلا رؤية عين السائق أو فمه في المرآة الأمامية، ولا يمكن رؤية الاثنين في الوقت نفسه.

قال فم الرجل وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

"هل ترغب في الجلوس على المقعد الأمامي بجانبي".

تباطأت سيارة الأجرة حتى وقفت، ليس على جانب الطريق أو في إشاره مرور ولكن في منتصف الطريق الفارغ المهجور، نظر شوجي إلى المنازل نصف المبنية على اليسار، والحقول المسطحة على اليمين، وأدرك أنه يجب أن يفعل ما أمره به الرجل لو كانت لديه الرغبة على إيجادها.

طلب السائق من شوجي أن ينزل من السيارة، وفتح له الباب الأمامي، لم يكن هناك مقعد بجوار السائق في الركن الأيسر من السيارة، كانت الأرضية فقط مفروشة بسجادة سوداء، وقف شوجي على السجادة وبجواره جريدة المساء، ومعطف قديم وشطيرة لم تؤكل بالكامل.

حاول شوجي ألا يحدق في الطعام، ولكنه لم يستطِع فقد كان جائعًا للغاية، كان الخبز خشنًا، ولكن شوجي لم يهتم فهو مستعد لأكل أي شيء.

"ها أنت ذا، هنا أفضل كثيرًا، أليس كذلك؟".

ثم أزال أغراضه من على الأرضية وأمسك الشطيرة في يده، وقدمها للصبي:

"هل ترغب في بعض الطعام؟ إنها فقط بعض الزبدة ولحم الخنزير المعلب".

رد شوجي بأدب: "لا، شكرًا".

ولكن عينيه كانت تتشوق لنصف الشطيرة المتبقي.

"خذها".

ومال الرجل على شوجي وهو يقول:

"أستطيع أن أسمع صوت زمجرة أمعائك من هنا".

أخذ شوجي الشطيرة، كانت جافة بسبب تخثر الزبد، حاول أن يأكلها ببطء، ولكن البيرة كانت تملأ معدته فأخذ قطعة كبيرة من لحم الخنزير المملح، ووضعها في فمه.

جلس شوجي على ركبته يأكل الشطيرة، كان طوله منخفضًا بالنسبة إلى السائق، نظر إليه، كان لا يشبه والده على الإطلاق. وجهه ألطف وحواف عينيه عليها آثار تجاعيد بسبب الابتسام، ويعلق صليبًا حول رقبته في سلسلة فضية مما جعل شوجي يطمئن بطريقة غير متوقعة.

أشار الرجل إلى جهاز الاستقبال وقال: "هذا هو صانع العجائب".

يبدو الجهاز كماكينة حلاقة الشعر الكهربائية، أمسك السائق بمقبض الجهاز وأضاف:

"يمكنك أن تثرثر كما تريد، لن يسمع هذه القناة غير سائقي المسافات الطويلة والقلوب الوحيدة".

ابتسم الرجل فظهرت أسنانه المستقيمة، شعر شوجي بالرغبة في أن يعرفه على أغنيس، ويخبرها أنه الرجل الذي قدم له الشطائر.

بلمسة من البنزين انطلق السائق في الطريق المظلم مرة أخرى فترنح شوجي وسقط على الحاجز الزجاجي.

"أوه، تمسك بشيء يا رجل"، ثم طوق بذراعه اليسرى خصر الصبي وجذبه تجاه أغراضه ليبقى ثابتًا ومستقيمًا.

سارت السيارة لمسافة أطول على الطريق المظلم، كان لحم الخنزير سميكًا وشديد الملوحة للدرجة التي ألهبت شفتيه

قال الرجل فجأة:

"كثيرًا ما يترك الأطفال وحدهم، هذا الأمر شائع".

نظر إلى شوجي وابتسم:

"أرى الكثير من الآباء والأمهات يتركون أطفالهم ويتجهون للحانات، والأطفال يجب عليهم العناية بأنفسهم، مساكين هؤلاء الأطفال".

أنهى شوجي تناول الفطيرة وحاول ألا يلعق آثار الزبدة من على أصابعه.

"هل كانت جيدة؟".

أومأ شوجي برأسه في أدب:

"نعم، شكرًا جزيلًا لك".

كانت ذراع الرجل ما زالت تطوق خصره حتى تثبته.

كرر الرجل ساخرًا مثل بغبغاء مسلٍّ:

"أوه، شكرًا جزيلًا لك، أنت طفل مهذب، أليس كذلك؟".

حاول شوجي ألا تظهر عليه علامات الإحراج، فثبت نظره على المرآة الأمامية وتمنى أن يكون ليك بجواره، الطريق الفارغ يمكنه أن يمتد إلى ما لا نهاية، حاول أن يعد قائمة بالعلامات التي رآها على الطريق، مثل إعلان يحتوي على جدة عجوز، ولكن بعد أن مر على خمسة عشر شارعًا وإشارة مرور واحدة أصبحت كل الأشياء متشابهة فاستسلم على مضض.

ببطء أنزل السائق ذراعه على جانب الصبي، وبحركة يد بطيئة جذب طرف قميص شوجي لخارج البنطال القماش، ودفع بأصابعه السمينة الدافئة بخبث أسفل ملابس شوجي الداخلية، ودون أن ينظر استطاع شوجي أن يلاحظ أن الرجل يبتسم

"نعم، إنك طفل مضحك، أليس كذلك؟".

كرر الرجل كلامه وهو يدفع يده بقوه إلى الداخل حتى وصلت لنقطة أبعد، وبدأ يستكشف جسد الصبي بأصابعه، تسبب الاحتكاك بحافة البنطال الأمامية لشوجي بألم رهيب في أجزائه الأمامية، كان يمكن أن يصرخ بفعل الألم، ولكنه لم يفتح فمه.

أصدر السائق صوتًا مضحكًا، وهو يضم فمه وكأنه يلعق الحساء الساخن من خلال أسنانه الأمامية، بينما السيارة تسير ببطء، تضغط أصابع الرجل على مؤخرته بطريقة غريبة، يشعر شوجي بطعم المستردة والبيرة الحامضة والخبز مختلطين في معدته، فظن أنه مريض.

كان السائق يضغط بأصابعه للأسفل، ويضغط ويضغط وهو يزوم بفمه.

تمنى شوجي أن تظهر إضاءة في أحد المنازل.

"هل تعلم أن أبي سائق أجرة؟".

توقف الرجل عن ضم شفتيه ونظر إلى شوجي.

استمر شوجي في محاولة إبقاء صوته طبيعيًا، وتجاهل الأصابع التي تعبث في أماكنه الحساسة.

"وصديق أمي كذلك؟ إنه يسمى يوجين".

وأخذ نفسًا عميقًا وهو يطرح عليه سؤالًا:

"ربما يعرفك، أليس كذلك؟".

ببطء سحب السائق يده من الجزء الخلفي لملابس شوجي الداخلية، دفع شوجي بظهره للخلف مستندًا إلى الحاجز الزجاجي، وضع مؤخرته بمأمن على أرضية السيارة، وتحسس بيده على بطنه فشعر بالآثار الوردية للأصابع التي كانت تفتش بداخله. كانت تشبه الإحساس بالعلامات التي يتركها خلع الجوارب المدرسية الضيقة ولكنه أسوأ.

ارتفع صوت عبر جهاز الاتصال، كان رجل ذو لهجة جنوبية يتحدث عن فيضان على طريق بيرث، تحسس السائق بيده على مقدمة سرواله، وقال:

"هل قضيت عيد ميلاد سعيدًا؟".

قال شوجي وهو يكذب:

"نعم، أشكرك على السؤال".

"هل كان بابا نويل طيبًا معك؟".

كانت هدايا عيد الميلاد من كتالوج مستحضرات التجميل.

"نعم".

بدأت بعض الأضواء الرمادية تلوح أخيرًا في الأفق.

فسأله السائق:

"أخبرني يا بني ما هو اسم أبيك، مرة أخرى".

فكر شوجي في الكذب:

"شو بين".

شعر الرجل بالارتياح واسترخى في مقعده، عندما أوصل السائق شوجي إلى جيرميستون تعدت الأجرة المبلغ الذي يحمله شوجي معه، أعطى السائق حقيبة بلاستكية تحتوي على القطع المسروقة من فئة الخمسين بنسًا، نظر إليها الرجل جيدًا ربما بدافع الشفقة أو الذنب، وقال إن الرحلة مجانية لأن شوجي ولد طيب.

تمنى الصبي لو أن الرجل احتفظ بالعملات المعدنية حتى لا يظن أنه كان سعيدًا بالطريقة المؤلمة التي عبثت بها أصابعه.

شعر شوجي أن الرجل ينظر إلى ظهره وهو يصعد السلالم الحجرية للمنزل في شارع سترونساي، لم ينصرف السائق إلا عندما استدار شوجي وابتسم في وجهه بشجاعة.

لم يرتب شوجي ملابسه ويدخل القميص بداخل سرواله إلا عندما وصلت سيارة الأجرة لناصية الشارع، شعر بحموضة في أمعائه عندما وجد أن كل المنازل متطابقة ومزدحمة والشارع ضيق. نظر للأعلى فوجد الأنوار مضاءة والموسيقى تنبعث من الطابق الثالث، ضغط الجرس الخاص بتلك الشقة ودون سؤال فتح له الباب ودخل.

صعد شوجي للأعلى، كانت الإضاءة وأصوات الموسيقى والرقص والمرح تبعث صاخبة.

بإمكان أي طفل في جلاسكو أن يشعر أن المنزل المتصدع يخص مجموعة من أشد الناس فقرًا، السلالم مكسورة والطلاء بني قذر والبلاطات المزخرفة التي تبطن المدخل بها العديد من الأجزاء المفقودة، وهناك بعض الزخارف والأشكال المرسومة على الحائط تشير بالمحبة والولاء للجيش الجمهوري الأيرلندي.

تأكد شوجي مما رآه أن حي جيرميستون ينتمي للكاثوليك، وهو يصعد السلم سمع صوت الحفلة في الطابق الثالث أكثر وضوحًا، كانت حفلة سعيدة وكان الليل لم يفقد مذاقه الحلو.

صعد الصبي السلم شديد الانحدار ببطء، الدرجة تلو الأخرى، كان مصنوعًا من الجرانيت الصلب المنحني عند المنتصف، ولم يكن هناك حاجز خشبي للسلم، كان السلم مبنيًّا حول جدار صلب من الخرسانة المصبوبة، كان يصعد ولم يستطِع أن يرى ما سيقابله في جانب السلم، صعد بهدوء حتى وصل للطابق الثاني فوجد رجلًا وامرأة يجلسان على السلم البارد، وينحني كل منهما على الآخر ككومة من الغسيل القذر، ويفعلان أشياء بعضهما لبعض، رآها الصبي من قبل.

المرأة العجوز غير واعية، والرجل يعبث بيده أسفل تنورتها ويلمس أجزاءها الحساسة، عقد شوجي ذراعه فوق صدره ورفع عينيه بأدب حتى لا يرى ما يحدث ونزل عدة درجات من السلم بهدوء وأوشك على النزول، عندما فتحت المرأة أعينها الزائغة ولاحظت وجوده، ونظرت اليه بينما لم يتوقف الرجل عن العبث بجسدها وكأنه يلعق حذاء.

"ما الذي تنظر إليه؟".

سألته وهي تمط شفتيها.

"هل أنت بخير؟ هل يؤذيك هذا الرجل؟".

سألها في هدوء.

في مكان بالأعلى فتح باب وصدرت ضوضاء عالية لبعض المنصرفين من حفلة كبيرة، دفعت المرأة يد الرجل بعيدًا:

"توقف في الحال يا جون".

بدأت المرأة في جذب ملابسها العلوية إلى الأسفل، لتضيف بعض الوقار على المشهد، ونظرت إلى السلم الرخامي، بينما عبر بجانبها الرجال المخمورون دون أن يعيروها اهتمامًا.

أخرج شوجي قطعة معدنية من فئة الخميس بنسًا، ووضعها على ركبة المرأة العارية، وتجاوزهما للأعلى في طريقه إلى الحفلة الصاخبة.

كان عدد من الرجال والنساء في طريقهم للأسفل يرتدون معاطف شتوية، استغرق منه الأمر بعض الجهد والخطوات السريعة حتى لا يجرفوه في اتجاههم بأرجلهم الطويلة وستراتهم السخيفة، وصل إلى الطابق الثالث، وجد الباب ما زال مفتوحًا على مصراعيه فدلف إلى الداخل.

لم يعترض أحد طريقه وهو يتسلل بين السيقان إلى الردهة الضيقة، تسلل إلى الغرفة الرئيسة ولم ينتبه أحد لوجوده أيضًا.

كانت عبارة عن غرفة معيشة صغيرة مغطاة بورق حائط عنابي اللون، وفي الجانب مدفأة كهربائية تحتوي على قطع من الفحم البلاستيكي المزيف، يلقي ضوءًا برتقاليًّا على الغرفة التي تفوح منها رائحة العرق.

في منتصف الحجرة ركن للجلوس مكون من ثلاث قطع ومغطى بمفرش بلاستيكي، في الزوايا بعض المقاعد الخاصة بالمطبخ يبدو أنها مستعارة، يجلس عليها رجال ونساء في الأربعينيات والخمسينيات، يملكون وجوهًا لم يشاهد شوجي مثلها من قبل.

كان الرجال يرتدون بدلات رمادية ثقيلة، ورابطات عنق عريضة،

وترتدي النساء بلوزات جميلة، والجميع متصلب وكأنهم يجلسون في الكنيسة، ولكن أعينهم زائغة كأنهم أفرطوا في تناول النبيذ ليسهل الاندماج بينهم.

يبث المسجل في الزاوية أغنية حزينة، وبجواره مجموعة من الرجال الأكبر سنًّا يمسكون زجاجات البيرة الساخنة، ويتكلمون بلغه أشبه بالعواء وبجوارهم سيدة مسنة تبكي، كان الجميع في حالة من النشوة والسكر والليل في ذروته، بحث في الغرف عن علامة تدل على وجود أغنيس ولكنها لم تكن موجودة.

في الزاوية بالقرب من النافِذة، يجلس صبي صغير على طاولة قابلة للطي في عمر شوجي، يراقب شوجي الصبي بعناية وهو يدور باحثًا في الغرف عن والدته. يرتدي الصبي ملابس نظيفة وله شعر منمق، وكأن أمه قد انتهت من تصفيفه منذ فترة قصيرة، نظر شوجي إلى الصبي وتساءل إن كان يبحث مثله عن والدته أو أنه تائه.

رفع الصبي يده ملوحًا فمشى شوجي عبر الغرفة متجهًا إليه، رأى وهو في منتصف الطريق فوق الطاولة الصغيرة طبقًا مملوءًا بالكعك غريب المظهر، وكوبًا من المشروب الغازي الذي ما زالت فقاعاته تنبعث، لا بد أن شخصًا ما كان يعتني بالصبي الصغير خلال الحفلة، عاد شوجي أدراجه واستكمل البحث عن أغنيس.

مر بين السيقان الطويلة مرة أخرى متجهًا إلى المطبخ الصغير الضيق حيث وجد امرأة ذات شعر أسود لامع، سقط قلب شوجي في مكانه حين أدرك أنها ليست والدته وفكر في أن يسألها عنها ولكنه شعر بالإحراج بسبب الصبي الآخر الغريب فمنعه كبرياؤه أن ينطق شيئًا.

مرت المرأة ذات الشعر الأسود من أمامه كأنها لا تراه، كان المنزل يحتوي على ثلاث غرف للنوم جميعها خالية إلا من أشخاص يبكون، أو يدخنون في هدوء, نظر إليهم جميعًا فلم يجدها، الغرفة الأكبر مغلقة بإحكام، فاضطر إلى سحب المقبض والضغط عليه بقوة حتى يفتح الباب، ثم انزلق إلى الداخل.

كانت الغرفة مظلمة ومن خلال وهج المدفئة الموجود بالخارج استطاع أن يرى فراشًا كبيرًا عليه كومة من المعاطف الشتوية، وقف شوجي قليلًا ثم وضع يده فوق كيس العملات الموجود في جيبه، سوف تكون كافية لإعادته مرة أخرى إلى المنزل وربما يجدها هناك تدخن في الظلام يعتريها القلق وبجوارها الشاي الساخن وشرائح الخبز المحمص.

تمنى أن يكون مثل ليك حتى لا يحتاج إلى أحد، بدلًا من التصرف كطفل صغير يحتاج إلى والدته.

حفر شوجي بأظافره في اللحم العاري ليده اليمنى وهو يبكي، ولم يتوقف عن البكاء عندما تحرك شيء ما تحت المعاطف الثقيلة، تراجع شوجي خائفًا للخلف.

من أسفل معطف رمادي خرجت يد بيضاء صغيرة، وبمرور القليل من الوقت أزاحت تلك اليد المعطف عن وجه رمادي ملطخ بالماسكارا، كان وجه أغنيس.

شعر أغنيس كان مفرودًا أسفل رأسها، استطاع أن يدرك من شكل عينيها أنها ليست ثملة حتى تلك اللحظة، عندما نظرت إليه بدأت شفتاها في الارتعاش، فتوقف هو عن البكاء واستبد به الخوف.

حاول أن يقف بشكل مستقيم كالأولاد الكبار، وبدأ في إبعاد المعاطف الشتوية الواحد تلو الآخر حتى يكشف عن باقي جسدها، ظهرت ببطء

نصف عارية، بجسد منهك متكوم في الظلام الدامس، رفعت عينها ولم تنطق بكلمة واحدة، استمر في سحب طبقات الملابس من فوق الفراش حتى ظهرت ساقاها وأقدامها البيضاء.

نظر إليها شوجي على ضوء المدفئة المنبعث من الردهة، اكتشف أن جواربها السوداء مزقت بالكامل، بداية من أصبع قدمها الصغير وصولًا لخصرها.

24

فتح الفتى عينيه، كانت هناك، تجلس على طرف فراشه، بتلك الشخصية الفظيعة التي تظهر بها دائمًا في الصباح الباكر، شاهدها ترتعش لبعض الوقت بسبب آثار الرطوبة التي تركها الشراب في جسدها.

كانت تمسك قطعة من المناديل الورقية في يدها وهي تسعل بقوة محاولة طرد البلغم من صدرها والتقاط قطرات القيء التي تلته، رفعت أغنيس رأسها للأعلى ونظرت إليه بعيون منكسرة وقالت:

"استيقظ يا صغيري".

"صباح الخير".

مد شوجي أصابع قدميه حتى وصلت لنهاية الفراش، كانت يداها ترتعش وهي تسحب أغطية الفراش من فوقه ببطء، بدأت نسائم مارس الباردة تلفح جسده، بدأ شوجي في التذمر والتف جسده حول نفسه ككرة تشغل أقل مساحة ممكنة.

مدت أغنيس يدها الباردة ووضعتها فوق قدمه الساكنة، فرد ساقه مرة أخرى فانكمش طول بيجامته القديمة ولم تعد تغطيها، نظرت أغنيس إلى الشعر النابت في قدميه ولاحظت أنه صار أكثر طولًا وأشد دكانة.

"بعد عام من الآن سوف تصبح رجلًا، ماذا سأفعل في ذلك الوقت؟".

سألها: "هل تعتقدين أنني سأكون أطول من ليك؟".

كان فراش أخيه خاليًا بالفعل.

"بالتأكيد".

أزاحت شعره الداكن من أمام عينه بيدها، وقالت بصوت حاولت أن تجعله مبهجًا قدر استطاعتها:

"ما رأيك أن تبقى معي اليوم، وتأخذ إجازة من المدرسة؟".

اتسعت عيون شوجي لسماع هذا العرض.

"لا أعرف، الأب باري يقول إنني تغيبت كثيرًا بالفعل".

"أوه، لا تهتم به، أنت ذهبت للمدرسة تقريبًا كل أيام الأسبوع الماضي، وسوف أكتب لك ملاحظة تفيد بوفاة جدتك".

تأوه شوجي، وضم أصابع قدميه بسبب شعوره بالبرد.

"إنه ليس غبيًّا لقد فعلنا ذلك ثلاث مرات من قبل".

كان يعلم دوافعها الحقيقية، بمجرد أن وصلت الساعة إلى التاسعة والنصف، دفعته للخروج إلى الشارع في البرد، حاملًا كتيبًا يحتوي على قسائم الإعانة الاجتماعية الخاصة بالصرف في يوم الثلاثاء في يده وهو يرتدي سترتة ذات القلنسوة وسروالًا ضيقًا، ويحمل في اليد الأخرى حقيبة من البلاستيك مخصصة للبقالة، ولكن تلك الحقيبة كانت مجرد تمويه، فهي خالية لا تحتوي على شيء، والهدف منها أن يبدو أكثر وقارًا.

بدأ شوجي كالمرابي الجشع يحصي القسائم في دفتر الثلاثاء الخاص بدعم وإعاشة الأطفال، وجد المبلغ المكتوب يساوي ثمانية جنيهات وخمسين بنسًا على جميع القسائم المؤرخة، أخرج القسيمة الخاصة بهذا الأسبوع ووضعها في الحقيبة المستخدمة في التمويه، بعد أن تأكد أنها ملأت بياناتها بشكل سليم.

يعلم أنها تراقبه من خلف الستائر في المنزل، لذلك تحرك بسرعة نحو الهدف ولكن بمجرد أن وصل للزاوية قضى فترة من الزمن في سحق ثمار التوت البري حتى يهدر الوقت، جرب شوجي كل الطرق في الماضي حتى يتأخر لأطول مدة ممكنة في العودة. كان يقضي الوقت في المستنقع، أو يتسكع في الشوارع.

في إحدى المرات صرف كل مبلغ الإعانة الاجتماعية لشراء لحوم من الجزار وبعض المؤن الأخرى.

ولكن الأمر كان ينتهي دائمًا بنفس النتيجة، تعيد الطعام وتشتري الشيء الوحيد الذي تحتاج إليه وهو الخمر، لذلك أصبح الآن عندما يصرف الإعانات يسلمها إليها بنوع من الاستسلام.

لم تعد أغنيس لسابق عهدها منذ ليلة رأس السنة الماضية، منذ أن وجدها شبه عارية تحت كومة من معاطف الغرباء، نزع احتفال رأس العام الجديد السعادة من داخلها، عندما يراها شوجي حاليًا، تشرب الخمر يدرك أنها فقدت مذاق الأيام السعيدة، يدرك أنها تشرب فقط حتى تهرب من نفسها وتهرب من شعورها بالألم والوحدة.

طردتها محطة البنزين من العمل بعد أن تغيبت عن مناوبات كثيرة، ولم يكن هناك بديل ليحل محلها فاضطر المتجر للإغلاق والبقاء مظلمًا عدة ليالٍ.

لم يعنِ الطرد في البداية، شيئًا لأغنيس مثل كل الأشياء الأخرى، حتى بدأت الفواتير تتراكم ولم تجد المال الكافي لشراء الشراب ليلة الخميس، تتحدث عن أسباب طردها كأنها تعرضت إلى مؤامرة، وأنها حولت المكان لواحة انتظار لسائقي سيارت الأجرة بسبب جمالها وشهرتها بين

السائقين، وهو ما لم يعجب أصحاب المحطة.

جلس ليك يستمع إليها ثم وضع ملعقة من حبوب الفطور الساخنة في فمه، وقال بهدوء:

"لكم من الوقت ستستمرين في الكذب على نفسك؟".

الطابور طويل كأنه يمتد إلى ما لانهاية وصامت لا يقطعه إلا السعال الخشن وحفيف الجوارب المصنوعة من النايلون، وختم المرأة المضطربة التي تجلس خلف المنضدة العالية. يتململ الناس بطريقة توحي بقضائهم وقتًا طويلًا في انتظار أن تصرف إعاناتهم قبل عطلة نهاية الأسبوع. بعضهم يعاني من الجوع وبعضهم نفدت سجائره بسبب سهرة الأحد، وآخرون ممن هم مثل والدته يشعرون بالظمأ الشديد.

اقترب شوجي من المنضدة العالية ووضع القسمية على مستوى نظر السيدة، أعادت موظفة البريد القسيمة إلى شوجي وقالت:

"القسيمة غير موقعة؟".

تناول شوجي القلم ووقع باسمه في خانة مكتوب عليها حامل القسمية أو من ينوب عنه بالطريقة التي تدرب عليها مرات عديدة من قبل، وأعطاها للسيدة مرة أخرى وهو يبتسم، فرفعتها بالقرب من عينيها وفحصتها بدقة من الجانبين، كانت ترتدي نظارة وردية الإطار وتنظر إليه من أعلى كمعلمة تراقب التلاميذ من فوق كرسي مرتفع.

"هل يمكن أن تحضر السيدة باين بنفسها لصرف إعانة طفلها؟".

سألته بصوت شديد الارتفاع فشعر شوجي أن الطابور من خلفه يضطرب لنفاد صبر المنتظرين فقال:

"لا".

انحنت المرأة للخلف وكأنها تشد عضلات ظهرها المتعبة.

"أيها الصغير، ألا يجب أن تكون في المدرسة؟".

سمع الطابور من خلفه يضج بالسعال والجدل.

همس في حذر للمرأة:

"أمي ليست بخير".

مالت المرأة على الزجاج الفاصل بينه وبينها وقالت ووجهها متجهم:

"نعم، لاحظت ذلك فأنت تحضر دائمًا في صباح أيام الإثنين والثلاثاء".

تنفست من طرف أنفها ورفعت القسيمة عاليًا وأشارت لمكان التوقيع ثم تنفست مرة أخرى وهي تقول:

"مكتوب هنا، أن من ينوب عن الشخص في التوقيع يجب أن يكون لفترة مؤقتة وفي حالة عدم قدرة الشخص على صرف الإعانة بنفسه تعود القسيمة إلى هيئة الضمان الاجتماعي".

شعر شوجي بتسرب بعض قطع صغيرة من البراز في ملابسة الداخلية، ولكنه تمالك نفسه:

"أرجوك يا سيدتي".

"هل آخذ تلك القسيمة منك أيها الصغير؟".

قامت برفع نظارتها على عينيها بأصابعها الملطخة بالحبر.

"هل أعيدها مرة أخرى إلى هيئة الضمان الإجتماعي؟".

شعر الصبي بالفزع وبدأ التسرب يتفاقم فتوسل إليها:

"لا أرجوك، لا تفعلي ذلك".

لم تستمع المرأة إليه أو لم تهتم، طوت القسمية ووضعتها أمامها ووضعت يدها على المنضدة بشكل رسمي وكأنها تتضرع، بدأت مقلة عين شوجي تبتل كأنها تعرق، وصوت الحشد الغاضب من ورائه يعلو بالشكوى.

تعتبر الإعانة الخاصة بالطفل، أكثر من ربع النقود التي تحصل عليها أغنيس خلال الأسبوع لإطعامهم.

حاول الصبي مرة أخرى بشفاه مرتعشة:

"أرجوك يا سيدتي".

تعالى صوت الحشد خلفه بالغضب ونفاد الصبر:

"إن أمه مريضة".

قال رجل آخر ذو وجه وردي طويل:

"أعطيه المال، وإلا لن يجد الصبي ما يأكله".

انضمت امرأة عجوز للحديث بعد أن تعبت من طول الانتظار:

"من أجل المسيح أعطي الصبي المال، هذا تصرف بلا قلب".

قامت السيدة من خلف المنضدة العالية بوضع ختم على القسيمة بمضض، بعد أن نظرت إلى الصبي الخائف والطابور الطويل المتذمر، ومزقت العلامة الخاصة بالصرف الأسبوعي.

وضعت علامة في دفتر الثلاثاء، ثم مدت يدها في الدرج أمامها وأخرجت

ورقة تساوي خمسة جنيهات وثلاثة جنيهات أخرى وقطعة جديدة تساوي خمسين بنسًا، ثم أغلقت الدرج، ونظرت إلى الصبي عبر الثقوب الموجودة في الزجاج الفاصل بينهم وقالت:

"أنت صبي ذكي، لا داعي لأن أمسك بك هنا مرة ثانية في الأسبوع القادم، ارجع إلى مدرستك وذاكر دروسك، ولا تقضِ عمرك كله واقفًا في طابور الإعانات".

تحمل عيناها علامات السخط وهي تغلق الدرج مرة أخرى، أومأ الصبي برأسه علامة للطاعة، ولعق البلل من فوق شفتيه العليا ووضع النقود في جيبه، لم يكن عليه القلق بشأن الأسبوع القادم على كل حال، كان من الواجب عليه القلق على ما تبقى من الأسبوع الذي لم ينتهِ بعد.

تحرك شوجي في اتجاه بيتهيد بأسرع ما يستطيع، بمجرد أن اجتاز مبنى المدرسة قفز من فوق سور متهالك واتجه في طريق مليء بالأوساخ إلى الأسفل.

عندما شعر أنه ابتعد بما فيه الكفاية عن الطريق الرئيس، خلع سرواله وملابسه الداخلية، ومال بجسده لينهي ما بدأته الموظفة في مكتب البريد، وبعد ذلك قلب الجزء الداخلي من ملابسه الداخلية البيضاء للخارج، وحاول تنظيفها عن طريق الاحتكاك ببعض الأعشاب الجافة.

عاد إلى المنزل ولم تكن الساعة تجاوزت العاشرة والنصف، والشارع بدأ للتو في فتح ستائره، بمجرد دخوله من الباب الأمامي جرى نحوها، كانت ترتدي أفضل معاطفها المصنوعة من الموهير، وتضع فوق عينيها

طبقة كثيفة بلون اللافندر، شعرها ممشط ومفرود وعليه طبقة من المثبت التي تلمع عند أطرافه مثل الندى، تضع تحت ذراعها اليسرى أفضل حقيبة لديها، ويدها الأخرى حرة وعلى جانبها بقعة حمراء اللون كأنها تعاني من مرض، سألته وهي لا تنتظر إجابة

"أين كنت بحق الجحيم؟".

فتح الصبي الحقيبة التي معه وأخرج النقود من بين ملابسة الداخلية المتسخة وأعطاها إياها، وضعتها أغنيس بحرص شديد في حقيبة يدها.

"حسنًا أريدك أن تسير معي قليلًا، ولو قابلنا أي شخص تحدث معي".

"عن ماذا أتحدث معك؟".

"أي شيء، أي شيء لعين، فقط تحدث معي ولا تتوقف عن الحديث".

أدارت أغنيس جسد شوجي ودفعته للخارج عبر الباب، وسارا حتى وصلا إلى الشارع، شعر شوجي أنها سعيدة لعدم مصادفتهما أحدًا حتى تلك الحظة.

تقف كولين ماكافيني أسفل التل متكئة على سور حديدي، تتحدث إلى إحدى قريباتها وقريبات يوجين، وتدخنان السجائر، وبجوار كولين كيسان كبيران لونهما أسود خاصان بالمهملات، بداخلهما ملاءات ومناشف وما تبقى من الملابس الخاصة ببيج الكبير، نظرت السيدتان إليها عندما سمعا صوت الموسيقى التي يصدرها كعبها العالي عند السير فوق الأسفلت.

ارتبكت أغنيس قليلًا في مشيتها، كان من المفترض أن تعبر الطريق للجهة المقابلة ولكنها أكملت في خط مستقيم وهي ترفع رأسها عاليًا،

مشت في ثقة وهي تواصل عزف السيمفونية الموسيقية بكعب حذائها، وتقول للصبي:

"ماذا الذي ترغب في تناوله الليلة، على العشاء؟".

نظر شوجي إلى أمه، وفعل كما كانت تعمله إياه.

"من فضلك أريد الدجاج المشوي، لقد سئمت من لحم الشوي، في كل ليلة".

ردت عليه بضحكة خفيفة:

"ستتناول اللحم الليلة، يجب عليك أن تكون شاكرًا".

كانا يمران بجوار النساء اللاتي توقفن عن حديثهن، أخفت أغنيس يدها المتورمة خلف ظهرها.

"أوه، مرحبًا كولين، مرحبًا مولي، هذا الطفل ينمو بسرعة كالعشب في البرية".

لم تقل النساء شيئًا أثناء مرورها، ولكنها شعرت بأعينهما تتفحص معطفها وشعرها وحذاءها، عندما ابتعدت عنهما، شعرت بالأمان فتجمدت تعبيرات وجهها وقالت:

"يالك من مخادع".

عبرا الطريق إلى الجانب الآخر من الشارع، كان متجر دولان العمومي يقع على قمة التل الذي يطل على بيتهيد بالكامل، وله واجهة كبيرة.

عندما كان المنجم لا يزال مفتوحًا، كان المتجر مزدحمًا بالعائلات لشراء الخضار الطازج وأجود أنواع اللحوم والثرثرة، لكن الآن السيد دولان لا يضيء حتى الأنوار، وربما كان سيغلق المتجر بشكل نهائي. لو لم يكن أقرب متجر تجاري يبعد عنه بمسافة لا تقل عن ميلين.

يعترف السيد دولان بهزيمته من خلال إطفاء الأنوار طوال الوقت، والاعتماد كليًّا على ضوء النهار الذي يتسرب من الباب الزجاجى الأمامي المغطى بالورق وكذلك ترك أبواب المتجر نصف مفتوحة.

السيد دولان رجل لطيف ومهذب، ولكن مظهره كان مخيفًا بالنسبة إلى شوجي، عندما كان السيد دولان صبيًّا صغيرًا، وكان المنجم ما زال مفتوحًا سقط الصبي من فوق شجرةِ الكريسماس وتضررت ذراعه اليمنى بشدة حتى اضطروا إلى بترها، ومن ويومها كلما تسلق صبي شيئًا مرتفعًا يقولون له:

"انزل من هناك، حتى لا يصبح مصيرك مشابهًا لمصير السيد دولان المسكين".

رن جرس المتجر، بدا السيد دونلان سعيدًا وحزينًا على حد سواء لرؤية أغنيس، كان يضع عبوات البيرة وزجاجات الويسكي في الرف الذي خلفه دلالة على فهمه بالمتطلبات التجارية الجديدة لسكان الحي السكني، ولكنه رغم ذلك عندما رأى المرأة الجميلة لم يستطِع ذلك الرجل صاحب الذراع الواحدة إلا أن يشعر بالشفقة.

سألته أغنيس وهي تحاول أن تتجاهل الشعور الواضح على وجهه:

"كيف كان يومك؟".

هز السيد دولان كتفه، ونظر إلى الصبي مومئًا برأسه:

"لماذا لم تذهب إلى المدرسة؟".

تدخلت أغنيس مقاطعة:

"إنه يشعر بوعكة بسيطة يا سيد دولان".

بدأ الرجل العجوز في امتصاص أسنانه علامة على عدم تصديقه للكذبة، أخرجت من ملابسها قائمة صغيرة بالأشياء التي ترغب في شرائها، كانت القائمة تحتوي على بعض الأشياء البريئة مثل الكاسترد المعلب والبازلاء المعلبة وبعض اللحم المفروم وثمار البطاطس وشرائح من لحم الخنزير.

تململ السيد دونلان بعصبية وهو يقطع اللحم بمهارة بواسطة آلة التقطيع، مستخدمًا يده المتبقية، تبدو مؤخرة الخنزير المستديرة مثل حافة ذراعه المقطوعة ولا يمكن التفريق بينهما، سألته وهو يضع شرائح اللحم في حقيبته االبلاستكية:

"كم تكلفة ذلك؟".

قال الرجل: "خمسة جنيهات وبنسان".

ترددت أغنيس للحظة ثم قالت:

"أريد أن أحصل على جريدة اليوم من فضلك".

"يكون الإجمالي خمسة جنيهات وسبعة وعشرين بنسًا".

"وقطعة من شوكولاتة كادبوري من أجل الصبي".

"خمسة جنيهات وخمسون".

قالت وهي تتصنع النسيان في لهجة مخادعة:

"أوه، لقد كدت أن أنسى".

نظر شوجي إلى قدمه وهو يشعر بالخجل:

"أريد اثنتي عشرة عبوة من البيرة المميزة، من فضلك".

عندما استدار الرجل ليجلب ما طلبته من الرف الموجود خلفه، كانت أغنيس تلعق كل ما تبقى من أحمر الشفاه عن شفتها السفلى.

قال الرجل: "ثلاثة عشر جنيهًا".

فتحت حقيبتها وبحثت في الأركان ثم قالت:

"أوه، يبدو أني لا أملك المال الكافي اليوم يا سيدو دولان" مد الرجل ذو الذراع الواحدة ذراعه تحت الطاولة، وأخرج دفترًا أحمر كبيرًا، وقام بتصفح الصفحات حتى وصل إلى سجل المديونين، فوجد اسم أغنيس وقال:

"أنت مدينة لي بالفعل بأربعة وعشرين جنيهًا".

ثم أضاف بوقار:

"لن يمكنني منحك شيئًا، حتى تسددين ديونك السابقة".

بابتسامة مستسلمة مدت يدها في الحقيبة البلاستكية وأخرجت لحم الخنزير والبازلاء المعلبة والبطاطس ووضعتهم أمامه، نظر إليها السيد دولان ولكنه لم يصرح بما يجول بخاطره، يدرك شوجي أنه رجل عطوف

رغم ذراعه المفقودة، تصفه جميع الأمهات بقولهن: "قاطع الطريق ذو الذراع الواحدة" بسبب الأسعار المرتفعة التي يبيع بها السلع، ولكن شوجي لم يكن يتفق معهن في هذا الرأي وكان يراه شخصًا عطوفًا.

ترتعش أغنيس أمامه في صباح كل ثلاثاء وكأنها في إحدى المتاجر باهظة الأسعار ذات العلامات التجارية الكبرى في ويست أند، لا يفضح أبدًا السيد دولان تمثيلها المكشوف حتى إنه كان في بعض الأحيان يغمز بعينه للصبي المتورد من الخجل ذي الشعر المبلول، ويعطيه ثمرة فاكهة ناضجة، ولكنه لم يفعل ذلك اليوم، استعاد جميع البقالة وترك لها البيرة فقط.

اتجهت أغنيس إلى المجمع السكني وهي تحمل حقيبة البقالة إلى الجانب العكسي من الطريق، كانت تسير بسرعة في الطريق لأسفل التل لدرجة أن شوجي كان يعاني في اللحاق بها.

عندما وصلت إلى المنزل دخلت المطبخ دون أن تخلع معطفها، جلس شوجي في غرفة المعيشة وتركها تستجمع قوتها وانتظر أن يسمع صوت فتح عبوات البيرة وتدفق الشراب ثم صوت البحث وإخفاء العبوات المتبقية، وعندما سمع صوت الماء يجري من الصنبور إلى الحوض المعدني سألها عند المدخل:

"هل تشعرين بتحسن؟".

استدارت وفي يدها قدح الشاي، كانت العصبية قد زالت عن وجهها ولكنها ما زالت تشعر بالقلق:

"أنا أفضل كثيرًا، أشكرك، لقد ساعدتني كثيرًا هذا الصباح".

اتجه إليها ولف ذراعه حول خصرها:

"سوف أقوم بأي شيء من أجلك".

يقف على طول الطريق عبر مستنقع الخبث، ثم يعود ويلوح بيده حتى اختفى المنزل عن الأنظار تمامًا. لم يعد يستطيع رؤيتها من النافذة بعد الآن، يواسي نفسه وهو يشق الطريق بين الكتل الفحمية المتجمدة، يعلم أن اليوم كان شاقًا بالنسبة لها، ولن يؤثر في ذلك التزامه بتعليماتها أو عدم الالتزام بها.

أمسك شوجي أوراق العشب الجافة وفركها في الهواء وهو يتساءل هل ستصاب اليوم بحالة من الحزن؟ الأعشاب جافة كالعظام الصلبة، وعندما يفركها تخرج منها بذور تطير كجنود المظلات الذين يحلقون في الهواء ثم يعودون في اتجاه الحي السكني كموكب من الأشباح الصغيرة، تخيل أنه يخبر الأشباح بحبه لها ثم يفرك المزيد من الأعشاب في يده لينطلق موكب آخر من الأشباح في الطريق إليها.

الدائرة العشبية الصغيرة التي كان يتصرف بداخلها كصبي عادي، لم تتغير منذ تركها، يجمع قطعًا من الأثاث المهمل ويجلبها إلى جزيرته السرية في الأيام التي لا تجعله فيها يذهب إلى المدرسة. عندما تمر بنوبات من المزاج السيئ بشكل خاص، يقضي يومه في سحب كرسي مكسور أو جمع بقايا من السجاد الممزق من صفائح القمامة، وغيرها من الأماكن الغريبة. جلب مجموعة من الأواني وأدوات المائدة المكسورة، وتلفاز مكسور وضعه في منتصف الدائرة التي يعتبرها جزيرته، وعلى الرغم من عدم وجود شاشة في التلفاز لكن وجوده في المكان جعله يبدو كالمنزل. عندما حصل على كل قطع الأثاث التي يريدها، أمضى الأيام المملة في ترتيب المكان ثم إعادة ترتيبه مرة أخرى كغرفة رئيسة رثة.

وجد عربة أطفال قديمة الطراز في أحد المرات، فقام بدفعها أمامه في صعوبة بين الأعشاب الطويلة، وجمع أجمل الزهور من أجل بيته الجديد.

عندما وجد أرنبًا أسود صغيرًا ميتًا ومتجمدًا في الثلج، قام بتنظيفه وغسله، ثم دفنه ودفن بجواره المهور الصغيرة الملونة التي سرقها في الماضي، المهور البلاستكية المخزية ذات العطر الفواح التي لا تخص الأولاد ولا يليق لعبهم بها.

في الربيع التالي قام بالبحث في أرجاء المجمع السكني حتى وجد زهورًا قرمزية ووضعها فوق تلك القبور، انشغل كثيرًا بهذه الطقوس لأنه لم يكن يملك الأصدقاء ليتحدث معهم، كان يقضي يومه بالكامل في ذلك المنزل، ويشعر بالفخر في داخله بعد قضاء وقت الحداد كأرملة وحيدة.

يتجول طوال الوقت في جزيرته ينظف الأشياء ويزيل عنها التراب والأوساخ، يمسك الشوكة والملعقة ويحك الأطباق لإزالة آثار الحرق، ثم يغسلها بالماء، يرفع قطع السجاد ويحاول أن يزيل عنها الطين، ويعلق القطع المبللة في الهواء حتى تجف، يعلق البطانية فوق الكرسي، ويضعها في الشمس منخفضة الحرارة لتكتسب الدفء.

الشمس تغادر السماء بعد أن يمضي يومًا قصيرًا في هذه الأعمال المنزلية.

يتسلق السياج الخلفي للمنزل في طريقه للعودة ويحلم بالحصول على حمام دافئ وبعده يقرأ في الكتاب الأحمر الخاص بكرة القدم.

عندما وجد الباب الأمامي مفتوحًا على مصراعيه، وقف متجمدًا في مكانه لعدة لحظات، يتساءل عما يخفي له الحظ، أطرق السمع مثل كلب الحراسة، تسلل داخل الرواق الطويل، سمع ضجة تصدر من داخل غرفة المعيشة، اتجه بحذر إلى الباب، ودفعه للداخل حتى فتحه كانت أغنيس على الأرض وليك يجلس فوق صدرها مثل الأطفال الذين يتنمرون عليه في المدرسة.

النقوش الحمراء على السجادة تبدو على غير هيئتها، الرسومات

متقطعة وغير مترابطة، عندما اقترب شوجي، استطاع أن يرى الدم، كان هناك دم على وجه أغنيس وعلى وجه ليك كذلك، ولو كان بمقدوره أن يركز بشكل أكبر، لاستطاع أن يرى الدماء على التلفاز والمنضدة البنية وحواف الأريكة.

كان ليك يضغط على معصميها بقوة، وحوله كومة من المناشف الملطخة بالدماء، كانت تلك المناشف في الماضي، نظيفة تستعمل في المطبخ.

شتمت أغنيس ليك بأوصاف لم يسمعها شوجي من قبل، كان أخوه يبكي في حرارة ويكافح من أجل الضغط على معصمها، وشفرة حلاقة ملقاة على السجادة. ظن شوجي أنها شفرة بريئة وصغيرة ومهملة في غير مكانها الطبيعي، تشبه المقصلة التي يهددون بها الفأر في أفلام الكارتون. لاحظها شوجي فقط لأنه من الغريب أن يوجد شيء مثل هذا في غرفة المعيشة بداخل الحي السكني وخصوصًا فوق سجادة أمه الفاخرة.

يصرخ ليك بشيء ما في وجهه، ولكنه لم يستطيع أن يفهم ما يقول، كان كل ما يريد أن يفهمه أسباب وصول الدماء إلى قدح كوب الشاي الخاص بها، ينظر أخوه في اتجاهه ويكافح أن يحكم القبض على المناشف فوق معصمي أغنيس.

استطاع ليك أن يسيطر على إحدى ذراعيها تحت ركبته، مد يده وسحب شوجي من مقدمة قميصه، ولكن أغنيس استطاعت أن تحرك ذراعها الأخرى في حرية فتطايرت كمية من الدم. وصرخ شوجي ليسأل أخاه عن الدم ويعرف مصدره، ولكن ليك لم يمهله فقد جذبه من ياقة القميص وهز جسده بقوة لدرجة أنه شعر أن رقبته سوف تنكسر

نظر ليك إليه بأعين متسعة على آخرها، ورغوة بيضاء تسيل على جوانب فمه:

"شوجي استمع إلي".

كان وجه ليك مغطى بطبقة جيرية بيضاء يعلوها الدم الذي وصل إلى أسنانه البيضاء:

"استدعِ سيارة الإسعاف، استدعِ الإسعاف اللعينة".

صرخت قائلة:

"ايها الفاسق الأناني، اتركني أرحل".

جسدها يرتجف من شدة البكاء ودموع ليك الغزيرة تسقط على وجهها وتختلط بدموعها.

"لقد تعبت للغاية".

كانت تحاول التخلص من قبضته وتقاوم، ثم تدور عيناها للخلف وكأنها تبحث عن الراحة من خلال النوم.

"أنت لا تحبني".

وكررت نفس العبارة مرارًا وتكرارًا:

"أنت لا تحبني".

ترك الصبي الغرفة وأغلق الباب خلفه واتجه إلى الهاتف، وجلس قليلًا حتى يهدئ من روعه ثم اتصل برقم 999 وطلب سيارة الإسعاف.

يصرخ ليك بشيء في وجهه، ولكنه لم يفهمه ولم يفهم ما تقوله كذلك.

عندما استيقظت أغنيس في مستشفى الأمراض النفسية لم تكن

تحتفظ في ذاكرتها بالطريقة التي وصلت بها إلى هناك، اصطحبتها سيارة الإسعاف تحت جنح الليل كل هذه الأميال الطويلة حتى وصلت إلى المستشفى الملكي في سايهيل.

خيط أحد أطباء الطوارئ جرحها بمهارة وأوقف النزيف، ثم منحها حقنة مهدئة لمنعها من إيذاء نفسها مرة أخرى، وبينما كانت تنام نومًا متقطعًا، قبلها مستشفى جارتنافيل لتبدأ رحلة العلاج الحقيقية.

يحتوي العنبر على ثلاث عشرة امرأة، تبكي المرأة الأكبر سنًّا على نفسها والمرأة التي يبدو عليها الفقر تصرخ في دمية وتطلب منها الاستعداد للمدرسة.

كن نساء في حاجة لمهدئات قوية حتى يمكنهن النوم في الليل.

أغنيس نائمة بسبب المخدر، جذب ليك ويوجين طرفي الستارة بجوار فراشها ووقفا بجوارها على جانبي الفراش للاطمئنان عليها كحارسين، كان الرجلان سعيدين لوجودها بينهما على فراش المستشفى، ولكن لكل منهما أسبابه الخاصة، كان هذا هو الوقت الأطول الذي قضياه معًا، يركزان في النظر إليها بنفس الطريقة التي يركز بها العجائز في الطفل الصغير الموجود بصحبتهم في نفس الغرفة، لأنه لم يعد لديهما شيء آخر لقوله بعضهما لبعض.

لم يتحدث ليك إلى يوجين منذ أن شجعها الأخيرعلى العوة لشرب الخمر، ولكنهما الآن يقضيان فترة ما بعد الظهيرة في التعامل مع بعضهما بحذر ويتجنبان التواصل من خلال نظرات الأعين، وتحدثا عن أغنيس وكأنهما لا يعرفانها حق المعرفة.

لم يتفقا إلا على شيء واحد بخصوص تلك المرأة المجروحة، اتفقا على أنها سعيدة الحظ للنجاة من الجرح العميق في معصميها. كان من الواضح أنها ترغب أن تحسم الأمر ولا تتركه للصدفة.

"إذًا، هو رئيس العمال".

سأل يوجين ليك وهو غير قادر على النظر في عينيه.

"نعم".

"هذا، من حسن الحظ".

"نعم، لا أعرف عدد المرات التي اتصلت بي خلال هذا اليوم، لقد أصبحت تطلبني كثيرًا مؤخرًا".

"نعم وهي تتصل بي أيضًا على جهاز الاستدعاء كثيرًا".

انحنى كتف ليك للأمام وكأنه مثقل بكل هذه الذكريات.

"كان رئيس العمال وأتى على غير العادة ليخبرني أن أتوجه للبيت على الفور لوجود حالة طارئة".

"هذا ما قاله لك؟".

أومأ ليك برأسه.

"كان يمسك معطفي في يده، فكرت أن أترك له ملابس العمل، ولكنه طلب مني أن أسرع وأعطاني نقودًا حتى أستقل سيارة أجرة".

رفع ليك الشعر المتدلي عن عينيه، وقال:

"هكذا عرفت أن شيئًا سيئًا قد حدث".

عندما استيقظت أغنيس أخيرًا، استغرقت بعض الوقت لتدرك ما فعلته لتصبح في هذا الموقف، في البداية ابتسمت لهم كأنهم يجلبون لها قدحًا من الشاي في الصباح، ثم داهمتها الذكريات كغيمة، فنظرت إلى معصميها المضمدين، اقتربت من الموت هذه المرة أكثر من أي وقت آخر.

موقع البناء الذي يعمل فيه ليك في الجانب الجنوبي من المدينة، لم تكن تعرف أنه سوف يصل بهذه السرعة، ولم تكن تتوقع أن يكون رئيس العمال العجوز بهذه الطيبة.

سألت بصوت متصدع بفعل حلقها الجاف:

"أين صغيري؟".

نظر ليك إليها ثم نظر إلى يوجين للمرة الأولى خلال الليلة، ثم قال:

"إنه بخير".

دارت عين أغنيس في المكان وقالت:

"سألتك أين هو، ولم أسألك عن أحواله".

دارت عين ليك السوداء في الحجرة محاولًا أن يشغل نفسه بشيء بدلًا من مواجهتها، وسكب لها كوبًا من عصير البرتقال لتهدئة عطشها، ولكنها رفضت يده الممدودة بالعصير.

نظر ليك إلى حذائه وهو يقول:

"حسنًا، إنه بصحبة شوج"؛ تمنى لو كذب عليها في هذه اللحظة.

لم تعلق أغنيس بشيء وظنت أنه يكذب عليها، كانت الطريقة التي تنظر بها إليه وتزمّ على شفاها تشبه التحذير الذي تبعثه إلى ليك حتى يتوقف عن الهراء.

"قبل أن تجرحي نفسك لا بد من أنك اتصلت به، وطلبت منه أن يأتي لاصطحاب شوجي، حدث كل شيء بسرعة، لم أستطع أن أنقذك وأن أعتني بشوجي في الوقت نفسه".

زفر ليك زفرة عالية وقطب جبينه مثل الستارة في نافذة مفتوحة:

"هذا كثير يا مامي، لا أستطيع أن أكون الشخص الذي ينقذ الجميع طوال الوقت".

25

بحلول الوقت الذي استيقظت فيه أغنيس بمستشفى جارتنافيل، كان ابنها قد أمضى أسبوعًا بالفعل يعيش بصحبة والده.

قبل أن تقطع أوردتها، اتصلت بشركة النقل التي يعمل بها، وطلبت منهم إبلاغ شوج أن رغبته قد تحققت، وأنها سوف ترحل وتتركهم إلى الأبد، وأن عليه أن يأتي ليصطحب الطفل الصغير، وقالت إنها اشترت لشوجي بذلة جديدة اختارتها من كتالوج الأزياء وأن عليه أن يرتدي تلك البذلة السوداء في جنازتها، وكذلك جوارب سوداء، وأن على شوج أن ينفذ ذلك بدقة.

لم يعرف ليك كيف استقبل شوج ذلك الأمر، هل سمع جميع سائقي الأجرة عبر جهاز الإرسال الخاص بسيارتهم هذه الرسالة التي نقلتها جواني ميكلوايت متحدثة عن الأمنية الأخيرة للمرأة التي ساعدت في قتلها؟

لم يكلف شوج نفسه عناء الإسراع لتلبية ذلك النداء، فعندما حضر إلى بيتهيد كانت أغنيس انتهت من تنفيذ مخططها بالفعل، والطفل يجلس مذهولًا على الأريكة الملطخة بالدماء، يأكل الخوخ المعلب ووجهه مبتل بالدموع، تواسيه شونا دونيلي.

لم يذهب شوجي إلى منزل والده الجديد من قبل. بينما اخترقت السيارة الشوارع المظلمة، أخذ الفتى يحصي على أصابعه الوقت الذي قضاه بصحبه والده منذ أن سرقته منهم جواني ميكلوايت، فوجد أنه لم يزِد على ثلاث ساعات.

جلس شوجي في الجزء الخلفي من السيارة مثل راكب غريب، كان لا يتذكر رؤيته لجواني ميكلوايت من قبل، ولكنه يتذكر الحذاء الطويل الأصفر الذي جرح قلبه.

كانت جوان في عقله تمثل الشيطان، وكان الواقع والخيال مختلطين لديه بقوة، فكراهية أغنيس لها تأصلت بداخله كالعروق داخل الخشب، لذلك جلس شوجي يترقب في صمت، بينما كانت سيارة الأجرة تتحرك بين شوارع حي سكني غليظ المظهر.

كان كل شارع يبدو قذرًا ومرهقًا بالمباني غير المرخصة، والمياه المنسابة في قنوات عفنة، والسيارات المحطمة، هذا المكان في نظر الصبي يشبه سايهيل حيث توجد خمس أو ست ناطحات سحاب كبيرة ترفع سماء الشتاء الثقيلة إلى مكانها، ولكن على عكس سايهيل تحيط بتلك الناطحات من الأسفل منازل صغيرة خرسانية منخفضة تشبه الصناديق بدلًا من المنازل الأنيقة التي تقع في ساحات فارغة، تبدو هذه المنازل الصغيرة مثل النمل المتجمع حول الأشجار، أو كفضلات البناء التي تبقت بعد تشييد ناطحات السحاب، تحولت هذه المنازل التي بينت لتكون جديدة وصحية لكتل من البؤس والفقر، ولا تملك الأمل.

لا يحتوي الحي السكني على عشب أو خضرة، جميع الأسطح المستوية تم تغطيتها بالخرسانة أو وضعت فوقها صخور مستديرة كبيرة وناعمة، أوقف شوج الكبير السيارة بجوار كابينة الهاتف المتهالكة.

استطاع شوجي أن يدرك من مكانه في الجزء الخلفي لسيارة الأجرة أنها كنت محادثة صعبة لأن شوج بعد أن وضع السماعة وقف في مكانه داخل كابينة الهاتف يمسح شاربه، فتح شوجي الحقيبة التي طلب منه شوج إحضارها، فوضع بداخلها كل ممتلكاته وملابسه التي لم يكن معظمها نظيفًا. راقب شوجي الرجل الواقف أمام كابينة الهاتف

مرتديًا سترة باهتة وفي يده سيجارة وظل يفحصه. اعتاد في الماضى أن يختبئ تحت رأس والدته ليشاهد الصور في ألبوم الزفاف الخاص بها، ويتفحص شكل والده.

يختلف شوج تمامًا عن الرجل الموجود في الصور، فقد استقر لسنوات خلف عجلة القيادة لسيارة الأجرة فأصبح مكورًا ومربعًا وقصيرًا، بخلاف الرجل الذي كان يجلس في الصور مبتسمًا بين وصفيات العروس، وعيناه التي اعتادت أن تشع بالذكاء أصبحت غائرة في لحمه الوردي الطري، لا يستطيع شوجي أن يتخيل امرأة ترغب في الرقص منفردة مع هذا الرجل بعد الآن.

لم ينظر شوج إلى الصبي بتمعن حتى ركب بالفعل سيارة الأجرة ووصل إلى الجزء الشمالي من المدينة، ولكنه عندما عاد إلى السيارة استدار ونظر إليه، ولاحظ التراب والدم الذي يلطخ وجهه وملابسه المدرسية، فسأله إن كان يمتلك ملابس نظيفة حتى يبدل ملابسه وبالفعل بدل الصبى ملابسه وارتدى بيجامة منزلية، كان الأمر غريبًا بالنسبة له، فلم يكن معتادًا على أن يبدل ملابسه بصحبة رجل غريب في مؤخرة سيارة أجرة غريبة.

يرتدي شوجي بيجامة نظيفة، بينما كانا يعبران عتبة منزل جوان ميكلوايت، كان منزلها واحدًا من المنازل الأسمنتية المبنية في دائرة حول ناطحات السحاب الكبيرة وكان الفناء الأمامي خرسانيًّا والساحة الخلفية أسفلتية، ولذلك كانوا يدفعون إيجارًا مرتفعًا.

لاحظ الصبي وهو يعبر الباب الأمامي وجود سلالم داخلية تقود لطابق ثانٍ، فشعر بالرعب لأن معرفة ذلك سوف تقتل أغنيس بلا شك، تقف جوان ميكلوايت في نهاية الرواق القصير عاقدة أصابعها أمام بطنها المستدير، لم ترحب بشوج ولا بالصبي، واكتفت بالإيماء برأسها، والعودة

مرة أخرى إلى المطبخ.

تأخرا بالفعل عن ميعاد العشاء عند وصولهما، قاد شوج الصبي لغرفة صغيرة اسمها غرفة الطعام، فدون شوجي ملاحظة في عقلة ألا يخبر أمه أبدًا بأن لديهم سلالم داخلية وغرفة طعام، جلس الصبي في منتصف الطاولة القابلة للطي، وجلست جوان عابسة عند طرفها، وجلس والده على الطرف الآخر، يجلس على الطاولة بالفعل أبناء جوان الستة، يشعرون بالجوع ويفتقدون لروح المرح، وكأنهم يعلمون أنهم يجلسون في انتظار طعام لن يكون مميزًا.

كان أصغرهم يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، وبينهم فتاة واحدة تسمى ستيفاني وهو الاسم الوحيد الذي تمكن شوجي من حفظه بعد أن عرفه شوج عليهم، فهو الاسم البروتستانتي الوحيد الذي سمعه من قبل، عندما كانت كاثرين تهدد بقتل ستيفاني ميكلوايت عندما رحل شوج وتركهم حتى تشعر أغنيس ببعض السعادة.

بينما يجلس شوجي أمامها أدرك أن كاثرين لم تكن قادرة على تنفيذ التهديد. فستيفاني لديها ذراعان كبيرتان مكسوتان بالشعر، وهي الوحيدة من بين الجميع التي لا تخفي كراهيتها للزائر الجديد.

جلس شوجي صامتًا بينما أبناء ميكلوايت- باين يقصون على والدهم الجديد ما فعلوه خلال يومهم، كان لديهم الكثير ليقصوه، فلديهم وظائف كتابية، ولديهم سيارات، وينتظمون في المدرسة أو ينتظرون خطابًا من الجامعة، يتلقى أحدهم تدريبًا ليصبح مدرسًا، وتعمل ستيفاني في مكان حيث يملك كل شخص شيئًا يدعى "الحاسب الشخصي" كانوا جميعهم ينادونه بلقب أبي، ويستمعون له بإنصات كأنه ضيف الشرف على العشاء، الأمر الذي أربك الصبي، كان شوجي لا يستطيع أن يتوقف عن التحديق في الجميع لدرجة أن ستيفاني نظرت إليه، وسألته بعيون باردة

إن كان يرغب في التقاط صورة لها، حاول شوجي بعد ذلك أن يبقي عينيه ثابتة لا تتحرك، ولكنه خلسة يحاول أن يجمع كل التفاصيل عن والده، الذي لم يكن يعرفه على الإطلاق. كان يسترق النظرات إلى الرجل بينما كان الآخرون يأكلون، ويتساءل لماذا يعتني بهؤلاء الأشخاص ويتركه دون رعاية؟

رفع الرجل الغريب كأس الحليب الخاص به، وبدأ يشربه بينما كان يوزع نظراته بين الجميع كالكشاف، يقوم برفع كأس الحليب وخفضها مرة أخرى، وبيده الأخرى يمسح بقايا الحليب من فوق شاربه شاعرًا بالرضا.

جلس شوجي يفرك شفته العليا بعصبية، حتى نظر إليه والده وظلا ينظران لبعضهما في صمت، وبعد العشاء قادت جوان الصبي إلى حيث سينام، وعلى الرغم من وجود غرفة للطعام، كان منزل ميكلوايت صغيرًا للغاية.

ينام الابن الأكبر على فراش صغير بجوار خزانة رفيعة تحت السلم، كان يعمل أستاذًا لمادة الكيمياء أو شيئًا كهذا، والمكان مزين بتذكارات فيلم حرب الكواكب المعلقة من السقف بواسطة خيط الصيد غير المرئي، لم يستطِع الصبي أن يتخيل المكان الذي تقوده إليه بعد أن رأى أكبر أبنائها وأشدهم ذكاء ينام في خزانة تحت السلم.

اصطحبت جواني ميكلوايت شوجي إلى الطابق الثاني، ومرت بجوار ثلاث أو أربع غرف نوم صغيرة، كانت تخص الابن السابع المسمى شو كذلك، والذي كان غائبًا لالتحاقه بالجيش، أضاءت جوان مصباح النور الصغير، وقالت شو الجديد يمكنه أن ينام هنا "مؤقتًا، إن كنت لا تمانع".

كانت الغرفة في حالة من الفوضى، وكأنها في حيرة بين كونها غرفة

رجل كبير وغرفة طفل ما زال صغيرًا، هناك ألعاب على هيئة جنود خضر موضوعة على سور النافذة وملصقات عارية لسامنتا فوكس[99].

يترك شو ميكلوايت ملابسه النظيفة والمتسخة معًا في كومة واحدة على حد السواء بجانب الفراش. أفسح شوجي مكانًا لنفسه وسط الملاءات وجلس على الفراش المنبعج ورأسه يدور، قام بالعد على أصابعه، بإضافة ليك وكاثرين فإن شوج لديه أربعة عشر ابنًا، أربعة أبناء من زواجه الأول، ثم هناك شوجي وذلك بالإضافة إلى ليك وكاثرين والأشقاء السبعة أبناء ميكلوايت، لوالده ثلاثة أبناء يطلق عليهم شو تيمنًا باسمه، شو واحد لكل امرأة.

بعد أن أنهى شوجي حساباته شعر أنه محظوظ بقضاء ثلاث ساعات بصحبة والده، يهرب شوج الكبير من المنزل طوال الوقت متذرعًا بالعمل على سيارة الأجرة في مناوبات مختلفة. مناوبات صباحية، مناوبات ليلية، مناوبات مضاعفة، وكان شوجي يتسلل في الظل ويتجه إلى ناطحات السحاب العالية على المرتفعات خارج المنزل، ويختبئ منهم جميعًا.

تطلب جوان من شوجي منح والده الوقت الكافي للنوم، لأنه يعمل طوال اليوم، تطلب منه أن يذهب للعب في الخارج بالحي السكني متى يحلو له، تدفعه ناحية الباب وتضع في يده قطعة من الخبز والمربى وثمرة من الجزر وتطلب منه ألا يعود حتى يحل الظلام ولا تهتم بوجهته.

بينما كان جميع الأطفال يتوجهون إلى المدرسة، كان شوجي يتجول بين ناطحات السحاب.

يحتوي كل طابق سكني في ناطحة السحاب على غرفة مشتركة بين جميع الوحدات السكنية لغسيل الملابس، هناك غرف مفتوحة من أحد

99- ممثلة بورنجراف أمريكية. (المترجم)

الجوانب، حيث تعلق ربات المنازل الملابس المبتلة وينتظرنها حتى تجف بواسطة رياح جلاسكو التي ترفع عنها البلل.

يستقل شوجي المصعد متنقلًا بين طابق وآخر بحثًا عن غرفة غسيل فارغة غير مغلقة، الغرف الأعلى هي الأفضل بالنسبة له، يجلس عاقدًا ذراعيه وساقيه في مواجهة النافذة، ناظرًا إلى المدينة والطريق الرملي الذي يقود إلى سايهيل.

رياح الشمال تحرق وجهه وهو يلقي مجموعات الجنود الخضر على الأرض ثم ينظر إلى الأفق وقت المغيب، يحاول أن يتخيل كم تشتاق إليه رغم البعاد، يتمنى أن تكون بخير وما زالت على قيد الحياة.

ظل الفتى يسقط الجنود الخضر على الأرض متخيلًا أنهم يلاقون مصرعهم منذ أن دخلت أغنيس إلى المستشفى منذ ثلاثة أسابيع، حتى أخرجت نفسها من المستشفى برغبتها في النهاية.

اتصلت أغنيس في إحدى الليالي، وسمع شوجي المكالمة في فضول حزين، حدثتها جواني ميكلوايت بكراهية بقدر ما تستطيع، شعر بأنه خائن لأنه سمح لنفسه بالعيش في منزل العاهرة الكبرى، وخاصة عندما أغلقت الهاتف في وجه والدته، ثم سمعها تسخر منها مع أبنائها ويتحدثون عنها كدجاجة يوشكون على تقسيمها لأجزاء.

شعر الصبي بالحزن وهو يشاهدهم يستمتعون بذلك، وخاف أن تظن أنه أصبح الآن واحدًا منهم ويسخر منها كما يسخرون في الهاتف، تذكر معصمها والدم على مناشف المطبخ، فجلس يبكي أمامهم بسبب شعوره بالإحباط كطفل كبير، ولسبب ما تغيرت طريقة جوان في التعامل معه منذ هذه اللحظة، لم يفهم الصبي لماذا أصبحت رقيقة مثل السكر في معاملته وبدأ يتعامل معها على أنها شخص مفيد بدلًا من كونها عدوًّا.

كان الصبي بالنسبة لها طريقة رائعة وساحرة ومؤلمة في الوقت نفسه لتظهر تفوقها على أغنيس باين مرة واحدة إلى الأبد.

سئمت أغنيس من إطلاق التهديدات ومن الدموع البائسة فجلست أمام المرآة للتزين، ووضعت فوق شعرها تاجًا أسود اللون من الزهور، ورشت عليه طبقات وطبقات من مثبت الشعر غالي السعر، وارتدت تنورة ضيقة سوداء، وبلوزة بيضاء جديدة، وفوق كل هذا ارتدت معطفها الأرجواني المصنوع من الموهير، وتأكدت أن أكمامه طويلة بما فيه الكفاية لتغطي الضمادات وآثار القطع في معصمها، شربت ثلاث عبوات من البيرة في تتابع سريع، ثم فتحت عداد الغاز عنوة لتحصل على ما بداخله من النقود واستدعت سيارة أجرة.

هددت أغنيس بالقيام بذلك من قبل، ولكنهم لم يصدقوها واكتفوا بالضحك والتنمر عليها في الهاتف ولكنها الآن في سيارة الأجرة السوداء وتطلب من السائق الانتظار قائلة: "ابقَ هنا، لن أغيب أكثر من دقيقة واحدة"، وأضافت:

"جئت إلى هنا لأضحك الضحكة الأخيرة".

وبخطوات واثقة قطعت الطريق تبحث عن المنزل ثم فتحت البوابة المعدنية ووقفت في الفناء الأمامي الصغير، وضعت يدها على قلبها عندما رأت المنزل ذا الطابقين والنوافذ الزجاجية الجديدة، وظهرت على وجهها أمارات الغضب.

أخرجت من جيب معطفها الأرجواني الورقة المطوية التي تحتوي على العنوان وتأكدت منه، ثم تقدمت وطرقت الباب، لم يجبها أحد، سمعت أصوات أقدام تجري بالداخل، ويتبعها قهقهة، قامت أغنيس بالطرق على الباب مرة أخرى قائلة:

"شوج، شوج باين، أظهر نفسك، أنت وزوجتك العاهرة الكبرى".

انتظرت ولم يأتها جواب من داخل المنزل ذي الطابقين ولكن المارة في الطريق توقفوا كالموتى في أماكنهم يشاهدون ما يحدث من خلف السيارات الواقفة وصناديق البريد، واقترب الأطفال الذي يلعبون أو يستقلون دراجاتهم لمسافة كافية حتى يستطيعوا رؤية ما يحدث بدقة، فزادت شجاعتها لشعورها بوجود من يشاهد.

"شوج أيها الأصلع اللعين، توقف عن اللعب بقضيبك الصغير وأظهر لي وجهك القذر".

ارتد صدى صوتها عبر المباني المنخفضة ووصل أيضًا، لبعض الشقق شاهقة الارتفاع بوضوح.

شدت أغنيس ظهرها وسحبت نفسًا عميقًا حتى تصرخ مرة أخرى، ثم لفت انتباهها شيء ما، الفناء الأمامي خالٍ تمامًا وخرسانته مسطحة ورمادية لا يوجد عليها إلا القليل من الحشائش المتناثرة، وفي الزاوية حاويتان فضيتان كبيرتان لجمع القمامة، التقطت أغنيس الحاوية الأولى، في حركة خرقاء لوت جسدها والتوى كعبها الرقيق تحت قدميها، وألقتها رغم أنها لم تكن ممتلئة بالكامل ولم تكن ثقيلة للغاية، لكنها اضطرت لأن تتركها لأن معصمها ما زال متضررًا منذ أن غادرت المستشفى.

كادت أن تسقط للخلف بلا هوادة، طار غطاء الحاوية المعدنية في الهواء، ظنت لوهلة أنه ربما يصيب النافذة ويسبب ضررًا ما، فحبست أنفاسها خوفًا من أن يفوتها المشهد.

نجحت خطة أغنيس وأصاب الغطاء المعدني منتصف زجاج النافذة وحطمه إلى مكعبات زجاجية صغيرة ونفذ إلى داخل الغرفة وسقطت الستائر الأنيقة الضخمة من العمود المثبتة عليه، صرخت النساء المسنات

اللاتي يشاهدن في الشارع طلبًا للرحمة، وصرخ الأطفال الذين يركبون الدراجات في إثارة.

كان أبناء عائلة ميكلوايت يجلسون في غرفة الطعام بالجزء الخلفي من المنزل، عندما بدأت أغنيس في سب الجميع، ركض شوجي مسرعًا بمجرد أن سمع ضوضاء عند الباب الأمامي.

جوان التي كانت تسخر من أغنيس وهي تقدم أطباق البطاطس ذهبية اللون، كانت أول من وصل للمكان وشاهد الزجاج المحطم وغطاء الحاوية المعدني، فصرخت كما لو أن أحدهم طعنها بسكين.

بحلول الوقت الذي استطاع فيه شوجي مشاهدة ما يحدث من بين أقدام عائلة ميكلوايت المتشابكة، كانت جوان تقف بين الحطام والقمامة وفمها مفتوح ويداها مرتخيتان بجانبها، وضعت ستيفاني ذراعها حول جسد أمها حتى لا تسقط، التلفاز الملون الكبير ملقى على وجهه محطمًا، لاحظ شوجي أنه لا يحتوي على عداد لوضع العملات المعدنية، وانتظر أن يخبر والدته بذلك في اللحظة المناسبة.

تقف والدته في الفناء الأمامي منتصرة، يريد شوجي أن يجري إليها صارخًا: "هدف، هدف" ويمسك يدها ويركضان محتفلين عبر الحي السكني.

وصل شوج إلى الباب الأمامي قبل الجميع ووضع يده حائلًا حتى يمنع أبناء ميكلوايت من الخروج للفناء الأمامي، خرجت أذرعهم من خلفه محاولة أن تطولها مثل مشاهد الزومبي في الأفلام السينمائية التي يسمح

له ليك بمشاهدتها، وضعت أغنيس يدها بهدوء في حقيبتها وأخذت سيجارة طويلة وأشعلتها ببطء، وسحبت نفسًا عميقًا ثم قالت:

"أيها الوغد، كف عن العبث وأحضر الصبيّ إليّ حالًا".

استطاعت جوان التي تقف وسط الزجاج المحطم أن تستجمع نفسها أخيرًا وتجد القدرة على استخدام لسانها الحاد، فأطلقت صرخة من النوع الذي يبدأ من أصابع القدم ويعبر كل عضلات الجسم حتى يخرج من الفم: "أيتها السكيرة العجوز العاهرة، سوف تدفعين ثمن ذلك الزجاج، فليساعدني الرب".

التقطت أغنيس قطعة من الفضلات من طرف أطراف أصابعها وقالت:

"انظري، ما الذي جعلتني ألمسه؟" وقامت بتحريك أصابعها لأعلى ليظهر طلاؤها الفاخر، ثم أعادت النظر بعينها الباردة إلى شوج وقالت بصوت يشبه الهسيس من خلال أسنانها الباردة:

"أخرج ابني من هنا حالًا".

شقت جوان طريقها عبر الصالة متجاوزة الصبي والأجساد التي يستخدم شوج كل قوته لمنعها من الخروج، كان لون وجهه يتدرج بين الأحمر والقرمزي، وجوان تبصق وتكشط بمخالبها الهواء بعنف وهي تقول:

"أيتها العاهرة السكيرة، سوف أقتلك، عليك اللعنة".

سحبت أغنيس نفسًا آخر من السيجارة، بينما تجمع المزيد من الجيران وتركوا منازلهم.

"شوج باين، أنا أحذرك".

اقتربت أغنيس من حاوية القمامة الثانية، وهي تقول: "إن لم تعطني ابني الآن سأحطم كل نافذة في ذلك الشارع اللعين".

واصلت جوان النبش بمخالبها من خلف شوج، وزادت حدة البصق وهي تحاول الخروج إلى الشارع، نظرت أغنيس إليها في غيظ ثم عادت لتتأمل اظافرها المتسخة.

صرخت جواني بعصبية: "أيتها المتخلفة اللعينة، يجب عليهم ألا يتركوك أبدًا خارج مستشفى الأمراض العقلية".

بحركة سلسة ألقت أغنيس السيجارة من يدها، ورفعت إحدى فردتي حذائها ذي الكعب العالي، ووجدت في نفسها الشجاعة بعد أن أتى غطاء حاوية القمامة أثره، فألقت الحذاء وهي التي لا تجيد إلقاء الكرة، طارت الفردة الأولى كخنجر حاد في الهواء في اتجاه باب المنزل واصطدم بإطار الباب وسقط على الأرض، مالت أغنيس إلى الأمام كلاعب رماية محترف، ورفعت فردة حذائها الثانية وألقتها في اتجاه جوان، فارتطمت بوجهها بقوة، ركضت جوان داخل صالة المنزل ووجهها يدمي وهي مترنحة، صرخ الأطفال أصحاب الدراجات في نشوة شريرة، ومالوا على الأرض لجمع الحجارة للمرأة المحاربة في انتظار المزيد من الدماء، وهم يصرخون:

"يا..ياااا.. المزيد يا سيدتي، المزيد".

كان هناك دم قليل على وجه ويد جوان ولكنه كان كافيًا ليصرخ أولادها غضبًا ويزيدون الضغط على شوج للخروج وإعدام أغنيس، تشبث شوج بالباب وواصل الدفع حتى كاد قلبه أن ينفجر من شدة الضغط.

بالكاد رأى شوجي والدته وهي تقف في الفناء الأمامي، المدخل مليء بالأجساد التي تندفع في اتجاه والده، فكر أن يعبر في فوضى الأطراف الغاضبة، لكنه لن يتمكن من الوصول إليها، فاستدار وتراجع ببطء، حتى خرج من الصالة وانزلق إلى الغرفة اليسرى في هدوء واجتاز غرفة المعيشة والتلفاز المكسور ثم تسلق النافذة حتى وصل إلى حافتها متجنبًا الزجاج المكسور ثم قفز على قمتها فأصبح بالخارج.

تحرك شوجي بحذر في اتجاه والدته، كانت هزيلة ومعقوفة الظهر، تخفي تحت مساحيق التجميل فقرًا في الدم يكسب وجهها لونًا رماديًّا لم يرَه من قبل، ولكنها ما زالت على قيد الحياة.

شاهد شوج ابنه يقفز بين الزجاج المكسور فصاح: "شو عد إلى هنا، حالًا".

كان شوج ينبح ومن خلفه أصوات عائلة ميكلوايت تنعق من أجل الدم، ويطلبون من شوج أن يتركهم للانتقام.

صاح شوج: "عد إلى هنا يا بني إنها ستبقى مريضة ولن تتحسن حالتها".

توقف شوجي في مكانه ونظر من خلف كتفه وقال: "ربما تتحسن".

نظرت أغنيس إلى طفلها بأعين لامعة ومدت يدها إليه: "لا يمكنك أن تتخلى عني يا بني".

قال شوج: "أنا أعرف ما في صالحك يا بني، لا تعد إليها".

ثم أضاف وهو يلعق الشعيرات التي تسللت من شاربة لداخل فمه: "يمكنك الاعتناء بنفسك بحق السماء، انظر كيف جعلتك طفلًا منكسرًا".

انحنت أغنيس للأسفل وضمت الصبي إلى صدرها في حضن عميق، خدشت أزرار معطفها الفاخر وجهه لكنه لم يهتم، دفن وجهه في صدرها مرة أخرى، وحاول أن يخترق لحمها بذراعيه من شدة العناق، بدأت شفته السفلى ترتعش ووجهه يحمر من سخونة الملابس وعيناه تجحظ، وضعت أغنيس إبهامها برقة فوق رأسه وقبلت أذنه اليسرى، انسابت كلماتها بدفء ونعومة بداخله كشروق الشمس.

"اصمت، لقد تعانقنا أمامهم لفترة طويلة لا داعي لأن نتركهم يعرفون مشاعرنا، ولا داعي للبكاء حتى لا يشعروا بالرضا عما فعلوه بك".

انتصبت مرة أخرى، ولكنها كانت أقصر من المعتاد بسبب غياب الكعب الأسود ونظرت في اتجاه شوج والعصابة البشعة من خلفه التي ترغب في التهامها.

"برغم عدم رغبتك في شيء ما، في بعض الأحيان، لا تطيق أن يمتلكه سواك".

ودون كلمه إضافية سحبت شوجي من يده وخرجت به من البوابة، الأطفال في الخارج يصرخون من أجل المزيد من الدم فرفعت يدها لتحيتهم، فبدؤوا في الهتاف: "السيدة أحرزت هدفًا، السيدة أحرزت هدفًا".

وصلت مرة أخرى بصحبة شوجي إلى المقعد الخلفي لسيارة الأجرة، مد يده وتحسس وجهها وكأنه يشاهد شبحًا ثم تحول ببصره تجاه المنزل،

فقالت:

"ألق نظرة مرة أخرى على هذا المنزل البغيض، ليساعدني الرب على ألا أتركك تعود لذلك الوغد السمين مرة أخرى".

ثم أمسكت بذقنه.

أثناء انصرافهم شاهد شوجي والده يدفع أبناء ميكلوايت للداخل، كما لو كان يحاول جمع خيمة غير مربوطة بكلتا يديه في حقيبة ضيقة، شعر شوجي أن كل التبجح والتنمر الذي مارسوه ضده طوال الأسابيع الماضية لم ينفعهم بشيء، غادرا الحي السكني والأطفال يلحقونهما راكبين الدراجات وكأنهم سرب صغير من العصافير المحلقة في مجموعات تبتعد وتقترب من بعضها.

جذبت أغنيس الصبي إلى جوارها فالتصق بها مثلما تلتصق الرخويات بصدفتها، حضنته بقوة لفترة طويلة محاولة تجاهل رائحة صابون المرأة الأخرى التي تفوح من شعره، تركها شوجي تبكي وسمح لها بالتحدث ولم يقاطعها عندما وعدته بالعديد من الأشياء الجيدة التي يعلم أنها لن تنفذها.



26

أوقف يوجين سيارة الأجرة خلف المنزل في انتظار شروق الشمس وطلوع النهار على الحي السكني، انتظر أن ينصرف ليك وتابعه حتى اتجه للعمل، وضع الشاب يده في جيب الأفرول بينما كانت كتفه اليمنى تئن تحت ثقل صندوق الأدوات الذي يحمله.

من الزاوية التي يراقبه منها يوجين بدا مثل سكين لفتح الجوابات، حاد وقاطع وجاهز للعمل، ليس مهملًا أومتروكًا للصدأ. عندما رحل ليك دخل إلى المنزل مستخدمًا المفتاح الذي أعطته إياه، كانت نائمة تشخر بتلك الطريقة التي يحتقرها، عرف أن رأسها ملقى للخلف على حافة الفراش، وأن حنجرتها تكافح الانسداد الذي تسبب فيه الإفراط في الشراب الليلة الماضية.

وقف خارج باب الحجرة لأنه يعرف أنه لن يمكث طويلًا اليوم فهو لم يحضر في الوقت المناسب. في أيام أخرى يأتي بعد أن يزول تأثير الشراب من اليوم السابق، يجدها جميلة وساحرة حتى لو ظهرت عليها علامات التعب والتقدم في السن، وفي أحيان أخرى يجدها غارقة في الحزن. كل هذه الحالات من الممكن التعامل معها، ويصبح الاعتناء بها مثل الاعتناء بنبات ذي سيقان طويلة يوجهه ناحية ضوء الشمس حتى تزدهر أوراقه.

سمع أصواتًا منخفضة من غرفة النوم الأخرى، خطوات صغيرة، وصوت أصابع شوجي تبحث داخل حافظة أقلامه التي على شكل

دب، اتجه يوجين إلى المطبخ ووضع الحقائب الورقية التي يحملها على الطاولة، ملأ الثلاجة بالكبد الطازج والزبد، وفي الجزء الخلفي لخزانة المطبخ وضع أربع عبوات صغيرة من شوربة الطماطم، وأربع عبوات أخرى من الكاسترد كما يفعل في صباح كل يوم.

شعر بالراحة لأن الرف يئن تحت وطأة الطعام المخزن، وفي داخل الخزينة فيض كافٍ من الطعام، صنع الشاي والخبز المحمص لنفسه ولشوجي، وترك نصيب شوجي على السجادة أمام غرفة نومه.

جلس وحيدًا على طاولة المطبخ، وجد صحيفة الأمس، ولكنه كان قد قرأها، أعاد قراءتها مرة ثانية لأنه قضى ليلة بطيئة، حتى إنه قرأ العامود الخاص بالمشاكل الاجتماعية واستمتع بقراءته، ووجده حقيقيًّا ومناسبًا لحالته ولكنه لم يعترف بذلك لأحد.

كات صحيفة أغنيس مفتوحة على صفحة الوظائف الخالية، والقلوب الوحيدة والعربات المخصصة للبيع. تبحث في الإعلانات وتضع علامات دائرية حول بعضها بالقلم الذهبي الخاص بها. أخذ يطالع تلك الإعلانات بينما يشرب الشاي.

صفحات التبادل بين ربات المنازل ملطخة بالحبر، وضعت أغنيس علامات فوق كل شيء لا تملكه، تفاجأ يوجين أنه لا يشعر بالحزن بسبب فعلتها تلك، منذ أن خرجت من مستشفى جارتنافيل كان يوجين يراقبها بعناية، تتصرف كأنها حيوان محبوس في قفص، تنظر إلى آثار الجرح في

معصمها ثم تسخر من طلاء النافذة وحواف الفراش، وأطراف الأريكة. اضطر للتسلل من خلفها في نهار يوم ما واحتضنها بشدة حتى كادت ضلوعها تتحطم بين ذراعيه، ولكنه واصل الضغط حتى انتهت نوبة القلق التي تنتابها.

يدرك من علامات الحبر في الجريدة أنها ترغب في الانتقال الى حي سكني آخر أقرب إلى المدينة، وأقل انعزالًا، أخبرته في هذا الصباح أنها تريد أن تعيش في مكان جديد حيث تستعيد كرامتها وهويتها وكبرياءها.

ثم أضافت في خجل:

"أرغب في أن أنتقل إلى منزل حيث يمكننا أن نعيش معًا كرجل وامرأة".

لم يرد عليها يوجين ذلك الصباح، ولكنه واصل اعتصارها في حضنه حتى هدأت النوبة تمامًا.

عرف يوجين بعد ذلك أنها طلبت من الحكومة أن تجد لها منزلًا آخر في حي آخر.

وضعوها على قائمة الانتظار الطويلة، حتى أكثر الأشخاص بؤسًا يجب عليهم الانتظار لسنوات طويلة قبل أن تمنحهم الحكومة منزلًا، يصبح الطلب غير ذي أهمية لو كان الشخص يملك منزلًا بالفعل، ولذلك يلجأ الأشخاص الذين منحتهم الحكومة منازل في السابق لعملية المبادلة المباشرة مع أصحاب منزل آخر بشكل عرفي ودون توثيق في السجلات، هذا يقلل العمل الحكومي، ويقلل عدد الطلبات المطلوب مراجعتها، وكذلك عدد الشكاوي التي ترد إلى مكاتبهم، التبادل المباشر حل جيد من وجهة نظر موظفي الحكومة حتى لو لم يكن حلًّا قانونيًّا وجذريًّا، ولكنه

يبعد الأمر عن أبوابهم.

تمدد يوجين محاولًا تقويم عموده الفقري الذي انحنى من التعب، وجد مظروفًا قديمًا يخص فاتورة الغاز، كانت أغنيس تحاول كتابة إعلان فوقه، وتعيد الشطب والكتابة مرة أخرى حتى أصبحت صياغته مثالية، أعادت أغنيس التفكير في الإعلان مرارًا وتكرارًا بشكل متباطئ خلال ليالي الشراب الطويلة، حتى إنها شعرت بالرثاء على نفسها بسبب أن الأمر أصبح ملحًا، أخذت كل الصيغ التي كتبتها وأعدتها مرة أخرى ثم اختارت منهم صيغة واحدة لا تزيد على ثلاثين كلمة أو أقل، نجحت من خلالها في جعل بيتهيد مكانًا جميلًا ومسالمًا وهادئًا يتمتع بالطبيعة الساحرة وحسن الجوار.

كتبت في الإعلان كذلك أنها مستعدة لتقبل أي عرض للتبادل، قرأ يوجين الإعلان، وشعر أنه يشبه إعلانات القلوب الوحيدة، بائسة وكاذبة.

انتهى من كوب الشاي، ووقف استعدادًا للمغادرة، ربما لو غادر الآن لن تعرف أبدًا بحضوره، وسيستطيع أن ينام في المساء في فراشه بسلام، عندما استدار وجد الصبي أمامه، يرتدي شوجي ملابس أنيقة، محكمة فوق جسده ويعلق حقيبته المدرسية فوق ظهره، حيا يوجين قائلًا:

"هل انتهت مناوبتك الليلة يا سيدي؟".

جلس يوجين مرة أخرى محاولًا ألا يبدو كاذبًا قدر الإمكان:

"نعم، ولكني مضطر للعمل مرة أخرى بالنهار، ولن أستطيع أن أبقى لتناول المزيد من المشروبات".

هذه طريقة يوجين ليخبر الفتى أنه يستعد للانصراف قبل أن تستيقظ.

عاد يوجين مرة أخرى في نهاية الليل متمنيًا أن يجدها واعية، يقضي معها في بعض الأحيان ليلته في الفراش الدافئ، دون حتى أن يخلعا ملابسهما، يتحدثان عن المنزل الجديد، الإعلانات التي قرأتها والأشياء اللامعة التي ترغب أن تضعها في ذلك المنزل. إن لم تكن في حالة سكر شديدة، يفتح سوستة سرواله ثم يجلس فوقها.

تحاول أغنيس أن تفيق، وتتجاهل الألم الذي يسببه احتكاك حزامه المعدني بسرتها، يدخل قضيبه بداخلها، وقبل أن يمضي وقت طويل، يرغب كلاهما في التوقف. يهبط من فوقها، يمنحها قبلة سريعة على خدها، ثم يخبرها أنه في عجلة من أمره وليس لديه متسع من الوقت للعناق، يقف سريعًا حيث إنه لم يخلع ملابسه في البداية ويتجه إلى المطبخ يجلس في الظلام، تنهض وراءه، وتجهز شيئًا ليأكله في المقلاة السوداء، وتصنع له قدحين من الشاي الثقيل الأسود، تضع الطعام وقدحي الشاي أمامه في وقت واحد، وتشاهده يشرب الشاي في جرعة واحدة، قدحًا بعد الآخر وهو ساخن وكأنهما قدحان من الماء. يتحدثان لبعض الوقت عن اللاشيء، ثم يتركها مع القليل من النقود التى تكفي لشراء بعض الخبز، وربما مثبت الشعر، ثم يقبلها، غالبًا ما تكون تلك هي القبلة الوحيدة الجيدة منذ بداية زيارته لها، ينصرف عائدًا إلى ابنته، ومنزله وفراشه الخاص.

انتظرت أغنيس حتى صعد فوقها في أحد الليالي، وبمجرد ما انزلق قضيبه إلى الداخل سألته بصوت ناعم:

"يوجي، هل ستنتقل معنا عندما أحصل على منزل جديد عن طريق

عملية التبادل؟".

توقف يوجين عن الحركة، شعرت بقضيبه ينزلق للخارج، جلس يمسح وجهه السميك الذي تصاعد فيه الدم، ارتبك بشكل صبياني سبب لها الشعور بخيبة الأمل، قبل أن يجيب ببساطة:

"لا".

وانسحب تاركًا الفراش الدافئ.

شعرت بحرج شديد حتى إنها لم تقدر على أن تعدل جلستها لفترة طويلة من الوقت، ظلت مستلقية فوق الأثر الذي تركه في الفراش، وهي تراه متجهًا إلى المطبخ يسحب مقعدًا، ويجلس، منتظرًا أن تقوم على خدمته.

احتاج الأمر منها أن تستجمع كل القوة والطاقة حتى تنهض، كأن جسدها بلا عظام، وصلت إلى المطبخ، بدأ الحديث قائلًا:

"أنا لا أحبك، عندما تفرطين في الشراب".

أدركت مغزى كلامه، هو لم يكن يتحدث كعاشق يستعد لفراق حبيبته، ولكنه يتحدث كموظف يستعد للاستقالة من وظيفة يكرهها، أرادت أن تخبره أنها لا تحبه عندما لا تفرط في الشراب، ولكنها فضلت الصمت، لم يكن لديها القوة لتكذب، ولم يعد لديها من الكرامة ما تستطيع الحفاظ عليه، بدلًا من ذلك وضعت قطعتين متلاصقتين من النقانق في المقلاة حتى نضجتا، وصنعت قدحين من الشاي من أجله، ولم تخرج الباكت من داخلهما، شربهما ثم انصرف.

لم يرَ شوجي يوجين مطلقًا بعد ذلك، استطاع أبناء أغنيس أن يدركا أن بها شيئًا مختلفًا، كان الأمر مثل إدراك أن سبب اشتعال النار البنزين وليس الحطب. كانت في قمة غضبها وحزنها غارقة في شرب البيرة، عندما تصاعد الحزن أغرقت نفسها في شرب الفودكا لمدة أسابيع، كان باب منزلها مفتوحًا لبريدى وجينتي وكل من يحضر معه عبوات الشراب.

اضطر شوجي أن يغيب عن المدرسة محاولًا احتواءها في المنزل، أغلق الأبواب عليها، ومنعها من التواصل مع الآخرين، عندما تغفو من شدة التعب والحزن على مقعدها، يخرج الكتب الدراسية ويبدأ في قراءتها حتى لا يتخلف كثيرًا عن زملائه.

صاحت أغنيس في أحد الأيام:

"سوف أخرج من هنا، اطلب لي سيارة أجرة".

سألها شوجي ناظرًا من فوق الكتاب الذي يحمله:

"لكن... إلى أين؟".

صاحت بغضب

"لا تسألني إلى أين. سأذهب بعيدًا عن هنا، سأذهب لأي مكان آخر بعيدًا عن هنا، بعيدًا عنك".

حاول ألا يضطرب:

"وماذا سأخبر سائق الأجرة؟".

"أخبره أنني، أرغب في التوجه إلى مكان به أضواء وحياة".

لعقت شفتيها قبل أن تقول:

"ليأخذني لألعب البنغو بحق الجحيم".

التقط شوجي سماعة الهاتف، وتظاهر بطلب رقم، ضغط على 111-1111، انتظر لدقيقة، ثم تحدث مبتهجًا دون أن تأتيه إجابة:

"موقف الأجرة، حسنا إنه باين، ليلة البنغو، سننتظرك، أشكرك".

وضع السماعة وهو يغمغم:

"قال الرجل إن أمامه نصف ساعة على الأقل".

تقف أغنيس بالفعل، أمام الباب الأمامي، يدها تسحب المقبض، ترقص وتنتقل من قدم لقدم، وكأنها في حاجة لدخول الحمام.

"اللعنة، ألا يرغب أحدهم في أن أحظى بحياة حقيقية".

"مامي".

صرخ شوجي:

"شعرك غير مصفف بشكل جيد، عودي إلى هنا حتى يمكنك إصلاحه".

قالت بغيظ:

"لا".

مررت أصابعها من خلال شعرها المتشابك.

"تعالي، يمكنك تناول القليل من الشراب".

تركت أغنيس حقيبتها الجلدية تنزلق على طول الأرضية، وعادت متعثرة إلى الصالة وألقت بنفسها على المقعد، تشعر بالنعاس، رأسها ثقيل، ويتأرجح فوق كتفها كما لو كانت تستقل حافلة في طريق وعر.

جلس شوجي على ركبته بجانبها وصب لها قدحًا مليئًا بالشراب، وضع كمية من الفودكا أكثر من كمية البيرة التي وضعها في القدح قبل أن يعطيه لها، شربته وكأنها تشرب كأسًا من الماء.

فتحت عينيها ونظرت له:

"هل ستمشط شعري ؟".

جلب الفرشاة وجلس على حافة المقعد، بدأ في تمريرها من خلال شعرها الأسود.

تمتمت أغنيس والشراب يملأ فمها:

"هل مر نصف ساعة؟".

أجاب متنهدًا:

"لا يا مامي".

"كنت سأخرج لأحضر لك أبًا جديدًا".

تمر الفرشاة بداخل شعرها السميك، تثير غبارًا من مثبت الشعر، فيتناثر في الجو مثل حبوب اللقاح.

"هذا جيد، فأنا لا أرغب في الحصول على أب جديد".

هزت رأسها بقوة، وكأنها تعترض على ما يقوله:

"هل مر نصف ساعة، بعد؟".

"لا يا مامي".

"هل مر نصف ساعة بعد؟".

"لا يا مامي".

"أتمنى أن تتصل بهم مرة أخرى".

غفت أغنيس على المقعد، ومال رأسها للأمام فوق صدرها، تلتقط أنفاسها بصعوبة ودون انتظام وهي تشخر.

عدل شوجي من وضع جسدها وانحنى ليخلع حذاءها بلطف وحذر، حتى لا يقطع جوربها الجديد، وبأيدٍ ثابتة خلع أقراطها غير المتشابهة، وأعاد كل هذه الأشياء مرة أخرى لحجرتها، على أمل أن تنسى عندما تستيقظ محاولاتها في الخروج.

التقط الكتاب المدرسي مرة أخرى وجلس عند قدمي أغنيس ككلب مخلص يستمع إلى تنفسها الثقيل، شاهد عبر النافذة الأطفال في طريق العودة من المدرسة قمصانهم متهدلة، وربطات عنقهم يلفونها حول جبهتهم، من الواضح أنهم لم يمضوا ساعة واحدة قبل أن يعبثوا بمظهرهم بذلك الشكل.

عندما عاد ليك من العمل أغلق الباب الأمامي بقوة، فنظر إليه شوجي بعصبية، ثم نظر إلى أمه، يبدو وجه ليك مخيفًا، يعلوه غبار الجبس الأسود.

أصدرت أغنيس صوتًا يشبه الصوت الصادر من المولد عند بدء تشغيله، وضع شوجي رأسه على ركبتها، أول ما خرج من فمها من كلمات كانت "أريد نقودي".

لم يرد ليك عليها، ونظر في عتاب إلى شوجي، وكأنه يقول له لماذا منعت عنها الشراب.

ثم انصرف إلى غرفته، وأغلق الباب خلفه، ومن خلف الباب انبعثت أصوات الجيتار الخاصة بموسيقى الميتال.

فصاح شوجي وهو يميل برأسه للخلف ككلب ينبح في الهواء:

"لقد بذلت غاية ما بوسعي".

قامت أغنيس متثاقلة وقالت: "امنحنا الهدوء من أنت لتصرخ هكذا؟".

وغرست ظفر إبهامها في صدره، فقال:

"أنا رجل هذا المنزل، أنا".

ترنحت أغنيس بطول غرفة المعيشة حتى وصلت إلى باب غرفة النوم الخاصة بها وارتفع صوتها، تعيد ارتداء حذائها ذي الكعب العالي، وتهز فكها بيدها، أدرك أن فترة النوم القصيرة التي قضتها لم تنسِها ما تفكر به، ولكنها أعادت إليها قوتها ورغبتها النارية مرة أخرى.

أمسكت أغنيس باب غرفة النوم مرة أخرى، خرج ليك مجددًا إلى غرفة المعيشة بعد أن بدل الملابس الخاصة بالعمل، وارتدى أفضل ما لديه من الجينز الذي خصصه للعب القمار في وسط المدينة.

قالت أغنيس:

"قمت بتربيتك، لتجيبني، عندما أنادي عليك".

حاول ليك أن يكون مهذبًا قدر المستطاع:

"نعم يا أمي، ماذا تريدين؟".

"ماذا أريد؟ ماذا أريد؟".

دارت أغنيس في غرفة المعيشة بغضب:

"هل تتوقع أن أنظف وأطبخ لكما طوال الأسبوع، وعندما أحاول أن أتحدث معك بشكل متحضر، لا أحصل منك على إجابة سوى".

أضافت بغضب أكبر:

"نعم يا أمي، ماذا تريدين؟".

فتح ليك فمه ليعتذر، ولكن بعد فوات الأوان أكملت أغنيس حديثها الغاضب:

"سأخبرك ما أريد، عليك اللعنة، بينما أتعفن هنا طوال اليوم في المنزل، وفكي يؤلمني" أشارت بإبهامها إلى شوجي مرة أخرى، وتابعت الحديث:

"تعود أنت إلى المنزل، ولا تقول لي، حتى عبارة لطيفة".

"أنا آسف".

"أنت آسف، ولكني أكثر أسفًا منك".

نظرت إليه من الأسفل للأعلى وتوقفت عند سرواله الجينز الأزرق:

"هل هذا سروال جديد؟".

"لا".

"أنا لم أرَه من قبل، لا بد أنه كلفك مبلغًا كبيرًا من المال، هل ستذهب به إلى الحانة".

"ربما".

"ماذا تعني بربما؟ هل تظنني ساذجة؟".

"حسنًا سوف أفعل".

"لا بأس، كل ما أردت أن أعرفه، إن كنت ترغب في تناول عشاء ساخن قبل أن تنصرف؟".

تردد ليك، وشعر شوجي بالخوف:

"نعم، من فضلك".

انطلت الخدعة على ليك.

"كنت أعرف أنك ستطلب، ولكنك لا تدفع لي مالًا كافيًا ليكون في المنزل طعام ساخن".

استدار ليك عائدًا إلى غرفته ليجلب لها بعض المال، ولكنها ثارت:

"لا تدِر ظهرك إليّ عندما أتحدث معك، من تظن نفسك أيها الفتى؟".

وضعت يدها أسفل ذقنها، أصابعها المفتوحة تشبه المروحة، غضبت عندما أولاها ليك كتفه العريضة، ومضى منصرفًا عنها، خلعت خاتمها الضخم وألقته بقوة في منتصف ظهره فأصابه بشكل مضحك، ولكن شوجي رآه يتلوى من الألم وهي تقول:

"ترتدي أفضل ملابسك، وتتأنق من أجل الذهاب إلى الحانة مع رفاقك اللقطاء، ما أنت إلا نسخة تعيسة من جيسي الكبير، ما أنت إلا شاذ قذر، أليس كذلك؟".

شيء ما في العبارة جعل ليك ينظر إلى شوجي قبل أن يبادر بالإجابة.

تحول لون شوجي للرمادي، إنها نفس الكلمات التي يسمعها في شوارع الحي السكني بشكل يومي، بالقرب من المنجم، من زملائه في مؤخرة الفصل الدراسي، وفي ملعب المدرسة. وأدرك من خلال هذه النظرة، أن ليك يعلم أنه ليس طبيعيًّا، وأن به شيئًا مختلفًا.

كانت تزمجر من أثر الشراب، ولكن كلًّا من الصبيين لا يعيرها اهتمامًا، فرفعت ذراعها في غيظ ودفعت ليك في صدره النحيل، وبحركة غريزية رفع يده فأصاب مفصل يدها مُصدرًا صوتًا عاليًا، وأدرك شوجي من الطريقة التي أمسكت بها معصم يدها من الألم أنها تضررت كثيرًا، والأسوأ من ذلك أن كبرياءها تضررت أيضًا.

وقفا -أغنيس وليك- في مواجهة بعضهما بعضًا يستشيطان غضبًا.

"هل تظن أنك رجل المنزل؟ هذا محال".

تسيل الدموع الغاضبة على وجهها، دفعته في صدره مرة أخرى:

"اجمع أغراضك واخرج من منزلي، لقد أصبحت ضيفًا ثقيلًا".

قال ليك بصوت يشبه الأطفال:

"ضيف ثقيل؟".

رأى شوجي ارتعاشة في فك ليك السفلي لم تستمر إلا لحظات قليلة،

ثم توقفت وتحولت إلى رعشة كهربائية بدأت من ركبته حتى اجتاحت جسده بالكامل، شد ليك نفسه، وصار طويلًا، أطول مما يتذكر شوجي.

انتظر شوجي في مكانه حتى التقطت والدته الهاتف وبدأت في طلب رقم ما، ثم اتجه إلى غرفة النوم. يمد ليك يده إلى الرفوف والخزانة اللذين صنعهما بشكل يدوي من قطاعات الخشب، كانت الأرفف جميلة والخزانة عملية، تحتوي على أبواب مزخرفة وأدراج خفيفة، تحت شباك غرفة النوم وحدة ضخمة من خشب رقيق تحتوي على أسطوانات ليك ومذياعه، صنع عشرة أرفف تتسع كل منها لعشر ألبومات، على نحو متساوٍ بدقة.

مد الصبي يده الرقيقة بحذر، وبدأ بجمع أشياءه وحشوها في كيس أسود كبير.

نبح ليك عندما رأى شوجي يعبر إلى داخل الغرفة:

"أغلق الباب اللعين".

فعل شوجي ما طلب منه، وأغلق الباب برفق، ثم أزاح المزلاج برقة، تفحص ليك الألبومات ليقرر ما يأخذه معه وما يتركه وراءه، سار شوجي في اتجاه ليك عبر الغرفة، ثم وضع أصبعه في حلقة حزامه، وأخذ يعتصرها حتى هرب الدم من أطراف أصبعه.

"إنها قالت ما قالته، بسبب ما فعله يوجين بها، انتظر وسوف تنسى الأمر".

استدار ليك في مواجهة أخيه، نزع أصابعه من حلقة حزامه، وأزاحه بعيدًا.

"بحق المسيح، أريد أن أخبرك بشيء يا شوجي، وأريدك أن تصغي إليّ

جيدًا، لا أن تسمعني لمجرد السمع".

هز شوجي رأسه موافقًا.

"لقد أصبحت الآن رجل المنزل، يجب عليك أن تتصرف بنضج حتى تحافظ عليه، يجب عليك أن ترعاها وتحافظ على نقودها، عندما تصرف نقود الإعانة يومي الإثنين والثلاثاء يجب عليك أن تحتفظ بجزء من المال، وامنعها أن تنفقها بالكامل كي تستطيع أن تجلب الطعام حتى نهاية الأسبوع، هل تعتقد أن بإمكانك فعل ذلك؟".

يريد شوجي أن يخبره أنه يفعل ذلك بالفعل، يريد أن يخبره أنه بدأ بفعل ذلك منذ إن كان في السادسة من عمره.

"سوف تضطر إلى إبقائها في الداخل، ومنع كل هؤلاء الأوغاد من دخول المنزل، افصل الهاتف عندما لا تكن منتبهة، وإذا طرقوا الباب اصرفهم بعيدًا، أخبرهم أنها انصرفت، وابذل جهدًا أكبر لصرف الرجال على الأخص، هل تفهم؟".

كان ليك يملأ كيس القمامة بتفاصيل معيشته ويلقي في الركن الأشياء التي لم يعد في حاجة إليها، يتصرف كأنه فكر في الأمر من قبل مئة مرة، وأنه ليس على عجالة.

"الرجال يريدون استغلالها والاستفادة منها".

توقف وسأله:

"هل تفهم ما أعنيه؟".

"نعم".

يدرك شوجي ما يعنيه ليك، لدرجة أكبر مما يتخيل.

"هل ستبقى في المدرسة؟".

"سأحاول".

"حسنًا حاول بجهد أكبر، لا ترتكب نفس الخطأ الذي ارتكبته في الماضي يا شوجي، افعل شيئًا من أجل نفسك".

أمسك ليك بخصلة من شعر شوجي في قبضته وهز رأسه بلطف:

"إن اضطرت إلى مغادرة المنزل وشعرت بالقلق عليها، اخفِ كل الحبوب المنومة من الحمام، خبئها عندما تكون منشغلة، اخفِ السكاكين وشفرات الحلاقة، لفها في مناشف المطبخ، خذها للخارج ثم القها وسط الشجيرات، هل تفهم؟".

نظر ليك إلى أخيه للحظات ثم قال:

"كم أصبح عمرك، ثلاثة عشر عامًا؟".

أطلق ليك زفرة عميقة وهو يقول:

"سحقًا، سوف تنمو أعضاؤك الحميمة قريبًا، وسترحل عن المنزل في أقرب وقت ممكن أنت الآخر".

سحب شوجي رأسه للخلف ممتعضًا:

"من سيبقى إذًا ليعتني بها؟".

"حسنًا، عليها أن تعتني بنفسها في ذلك الوقت".

"ولكنها لن تتحسن بتلك الطريقة".

توقف ليك عن تعبئة أشيائه، ارتكز على ركبة واحدة وهو ينظر إلى شوجي، شفتاه تتحركان دون أن تصدرا صوتًا تقريبًا، وكأنه لا يعرف

من أين يبدأ حديثه:

"لا ترتكب نفس الخطأ الذي ارتكبته، بمجرد أن يكون في وسعك الرحيل يجب عليك أن ترحل، هي لن تتحسن أبدًا، الشيء الوحيد الذي سوف يمكنك إنقاذه هو نفسك".

بمجرد أن رحل ليك من المنزل ساحبًا أكياس القمامة السوداء التي تحتوي على متعلقاته، تلاشت الحماية الضعيفة التي كان يوفرها وجوده في المنزل، فتدفق أسوأ الشياطين من المخمورين والمقامرين وغمروا جسدها بالخمر، دخنوا معًا وشربوا معًا وغطوا في نوم عميق جالسين على مقاعدهم، ومن استيقظ منهم خلال الليل عاد للشراب مرة أخرى.

حاول شوجي إبعادهم، حاول الحفاظ على القليل من المال والانتظام في المدرسة، حاول أن يبذل أقصى ما في وسعه حتى يثبت إلى ليك أن في إمكانه الحفاظ عليها، وأن في إمكانها أن تتحسن، ربما يشجعه ذلك على العودة إلى المنزل مرة أخرى، ولكن الأمر كان صعبًا للغاية.

1989

الطرف الشرقي

28

بعد حياة طويلة ومعزولة بين تلال الخبث والفحم، أصبحت المنازل مزدهرة ومليئة بالحياة. على جانبي الطريق الرئيس منازل مبنية من الحجر الرملي السميك، تنتشر أسفلها مئات المحلات، في كل ميل يوجد مكتب بريد، وفي كل مبنى محل لبيع الرقائق والحلويات، وتنتشر محلات الملابس والأحذية حيث يمكن أن تتسوق أغنيس بالتقسيط.

تحترم السيارات الإشارات الضوئية، والمشاة يعبرون من الأماكن المخصصة لهم والحافلات ذات الطابقين تمر على كل مربع سكني، اثنان في المرة الواحدة، كما يوجد سينما وقاعة للرقص وحديقة خضراء كبيرة، والعديد من دور العبادة والكنائس، لم يرَ شوجي مثلها من قبل.

الأرصفة عامرة، العابرون كل منهم مشغول بشأنه الخاص، ولا يفكر في من حوله، يتحرك كل فرد بشكل مستقل ومجهول بالنسبة للآخرين، حتى إنهم لم يومئوا بعضهم لبعض، ولكل منهم مطلق الحرية في ما يفعل، ولم يسمع شوجي كلمة الأقارب في حوارهم ولو لمرة واحدة.

انحرفت الشاحنة المتحركة بشكل حاد إلى أحد الشوارع الجانبية، بدت السماء أبعد ولم يكن هناك شروخ في المساكن إلا عند بعض الزوايا، وكانت تزيد كلما ضاقت الشوارع الجانبية.

نظر شوجي إلى الأعلى فشعر أنهم دفنوا في وادٍ من الحجر الرملي، توقفت الشاحنة فسدت الشارع تمامًا، وظهر عدد من الرجال المنتمين

لجمعية المساعدة في الإقلاع عن الإدمان وتجمعوا أمام الباب الخلفي لأحد المنازل.

نظرت أغنيس إلى قطعة من الورق في يديها، ثم رفعت بصرها لأعلى تجاه المبنى، مبنى رمادي وأصفر وفي منتصفه يبرز عمود طويل من نفس اللون، كان معلقًا بجوار الباب أجهزة استقبال لثمانية شقق، أشارت أغنيس إلى لجهاز الذي يخص أحد شقق الطابق الثالث، يستطيع الصبي أن يراه، وقالت:

"هذا نحن".

أصبح شوجي كبيرًا جدًّا، ولكنه سمح لها أن تمسك يده لعلها تصدق في وعدها وتمتنع عن الشراب، نظر شوجي إلى يدها التي تمسك يده، فشعر أن يدها أصبحت صغيرة مرة واحدة، كانت تضع في أصابعها كل خاتم ما زالت تملكه، وبرغم المعدن البارد استطاع أن يشعر بالتوتر والعرق يجري في راحة يدها، صلى وهو يمسك يدها كعروسين جديدين.

"دعينا نأمل أن تكون بداية جديدة، دعينا نأمل أن نكون أشخاصًا طبيعيين".

كان مدخل المنزل نظيفًا لكنه بارد، والسلالم جميلة كأنها منحوتة من قطعة واحدة من حجر جميل، وتفوح منها رائحة، كأنها تم تنظيفها مؤخرًا بالمبيض.

صعدوا السلالم الحجرية ببطء، والتزموا على جانب للسماح للرجال بالصعود بالصناديق والهبوط مرة أخرى، في كل طابق بابان ثقيلان متشابهان في مواجهة بعضهما، والمكان مقسم بدقة وبشكل متساوٍ.

بينما كانوا يصعدون كانت بعض ألواح الأرضية تصدر صريرًا خلف بعض الأبواب المغلقة، رفعت أغنيس رأسها عاليًا وصعدت السلم.

كان باب شقتها على اليمين في الطابق الثالث، مسحت بعينها المكان لتحصي التراب والأوساخ، وبقايا المفروشات والسجاد التي يجب أن تتخلص منها، وأشارت إلى علامات الأصابع هنا وهناك وهي تقول كمرشدة سياحية:

"حسنًا، لم تكن سيدة المنزل نظيفة تمامًا، من المحتمل أن تتأقلم بشكل جيد في بيتهيد".

الشقة الجديدة صغيرة ولها مدخل ضيق على شكل حرف اللام، تساءل شوجي في نفسه عن المكان الذي ستضع فيه طاولة الهاتف، الجزء الأمامي من المسكن المطل على الشارع يتكون من غرفة معيشة كبيرة، وغرفة نوم رئيسة صغيرة الحجم، وفي الجزء الخلفي من المنزل مطبخ صغير ضيق المساحة، وغرفة نوم أصغر من سابقتها.

خطا شوجي داخل الغرفة الصغيرة، وقاسها بخطوات واسعة في كلا الاتجاهين، كان يأمل أن تتسع لفراشين ولكنها لم تكن تتسع لذلك، فشعر بأن الأمر أصبح محسومًا وشعر بالحنين لوجود ليك بجواره.

وقفت أغنيس تنظر من النافذة التي تطل على الخليج الكبير، فوقف شوجي بجوارها ليطوقها بذراعه، وسمح هؤلاء "الشخصان الجدد" لأنفسهما بدقيقة من الهدوء والسكينة وأحلام اليقظة المسالمة، قامت أغنيس بفرك أسفل ساقها بأظافر قدمها الأخرى، فعرف شوجي أنها تشعر بالقلق.

رحل الرجال منذ فترة طويلة واصطحبوا معهم الصناديق الكرتونية الفارغة، ارتدت أغنيس معطفها المصنوع من الموهير، ووعدت شوجي

بإحضار الشاي الساخن وفطائر التفاح كوجبة غداء.

أغلق شوجي الباب خلفها وتجاهل النظر إلى العلامات التي تركها الحذاء على الأرضية ثم اتجه إلى المطبخ ووقف لفترة طويلة يطل من النافذة الصغيرة على المساحة الخلفية الخضراء المقسمة إلى منازل متساوية الحجم، يحيط كل منها بسور يبلغ ارتفاعه خمسة أقدام يخصص لكل منزل مساحة متساوية من العشب الأخضر غريب الشكل، ويعلوه سقف خرساني مثلث الشكل.

كل المساحات الخضراء مليئة بالأطفال الذين يلعبون نابضين بالحياة والهواء، وأصداء الصراخ والضحك يضخمها السقف الحجري المثلث كضجيج مرتفع، يقف أحد الأطفال صارخًا تحت أحد المنازل بين الحين والآخر، فتفتح أحد النوافذ وتلقي إليه كيسًا من الرقائق، أو سلسلة من المفاتيح من ارتفاع أربعة طوابق.

جلس شوجي يتابع المشهد طوال فترة ما بعد الظهيرة، وتساءل ما هو الشعور الذي ينتاب الأطفال عند اللعب في طمأنينة وراحة، شاهد بعض الأطفال يتسلقون الجدران لغزو مساحات خضراء جديدة، وشاهدهم يسقطون وتجرح رؤوسهم، وشاهد النوافذ تفتح وتشير إليهم كما يشير ضابط الشرطة للمتهم، ثم يختفي ذلك الطفل لباقي اليوم بعد أن ينخرط في البكاء في خوف وندم.

في النهاية شعر شوجي بالوحشة والملل جراء انتظارها كل تلك الفترة الطويلة لتعود بالشاي وفطائر التفاح، أخرج الكتيب الأحمر الخاص بنتائج مباريات كرة القدم وقرأ نتائج فريق إربروث للمرة المئة. عندما سمع صوت المفتاح يدور في قفل الباب الجديد استطاع أن يدرك ما حدث من مكانه على المقعد في المطبخ، قالت بابتسامة عريضة من عند المدخل وعيناها مرتخيتان في منتصف رأسها:

"مرحبًا يا بني".

"هل كنت تشربين الخمر؟".

قالها وهو يعرف الإجابة مسبقًا.

"لا".

عبر شوجي المطبخ الصغير قائلًا:

"تعالي إلى هنا واسمحي لي أن أشم رائحتك".

"تشم رائحتي، من تظن نفسك؟".

كان يزداد طولًا كل يوم فاستطاع أن يمسك بأكمامها ويجذبها تجاهه بقوة رجل ناضج، ظلت تحاول أن تحرر أكمامها من قبضته، وتدفع الأرض بقدميها، ولكنها لم تنجح، ولكنه شم رائحتها وقال:

"لقد فعلت، لقد عدت لشرب الخمر".

"انظر لأفعالك، أنت تحب دائمًا أن تفسد فرحتي".

وهي تحاول أن تحرر أكمامها من قبضته.

"كل ما فعلته هو تدخين السجائر مع صديقتي الجديدة ماري".

"ماري؟ لقد وعدتني أننا سنبدأ بداية جديدة، ونصبح أشخاصًا جددًا".

قالت والغضب بدأ يظهر عليها من أفعاله:

"نحن كذلك، نحن كذلك".

"أنت تكذبين، أنت حتى لم تقومي بالمحاولة، لقد أصبحنا أضحوكة، ولم نحصل على بداية جديدة".

شد شوجي أكمامها بقوة لدرجة أنه خلع عنها الكنزة التي ترتديها، وانزلقت عن عنقها وكتفها تاركة علامات حمراء على جلدها الأبيض الناعم، فظهرت حمالة صدرها السوداء، مد يدها ليمسكها، ظهر الخوف على أغنيس في تلك اللحظة وصرخت:

"ابتعد عني".

ودفعت جسدها خارجًا مما تبقى من كنزتها بسرعة، حتى إن الصبي وجد نفسه ممسكًا بالهواء، فاصطدم بالحائط في قوة ثم وقع على الأرض في زاوية الرواق.

تمتمت أغنيس وكأنها توجه الحديث إلى نفسها:

"من تظن نفسك حتى تتحدث معي بهذه الطريقة".

مرت فكرة بعقلها فنظرت إليه وقالت:

"أبوك، أبوك الحقير هل تعتقد أنك تشبهه؟".

ومدت رأسها للأمام في إشارة وقحة بالتحدي، وبصقت عليه.

"سيكون هذا هو يومك الأخير أيها المغفل".

شاهدها من مكانه وهي ترتدي الكنزة مرة أخرى، وتخرج من الباب الأمامي دون أن تغلقه خلفها، وسمعها تدق الأبواب المغلقة الواحد تلو الآخر، حتى أجابها أحدهم فقدمت نفسها بأدب شديد:

"مرحبًا أنا آسفة للإزعاج، اسمي أغنيس، أنا الجارة الجديدة".

سمع شوجي الصمت والتردد في صوت الجيران الطيبين، قبل أن يردوا التحية وهم يشعرون بالإحراج، في استطاعته أن يرى تجول أعينهم في جسدها من الأعلى للأسفل محاولين أن يتخذوا قرارًا بشأن تلك المرأة ذات

الشعر المصبوغ بلون أسود قاتم مرتدية التنورة الضيقة والكعب العالي، التي جاءت إلى بابهم مخمورة، قبل أن يحين موعد الغداء.

المدرسة الثانوية أكبر من كل المدارس التي شاهدها شوجي من قبل، انتظر قليلًا قبل أن يتبع صبيًّا يعيش في نفس منزله بالطابق الأسفل، يمتلك الصبي سمرة من أثر العطلة الصيفية.

استدار الصبي عند ناصية الشارع ونظر بعينيه البنيتين نظرة ارتياب إلى الصبي الشاحب الذي يتبعه مثل الحيوان الضال.

جهز شوجي الطاولة المخصصة بالكي، وقام بكي ملابسه استعدادًا لليوم الأول في الدراسة، كان يرتدي سروالًا رماديًّا وسترة حمراء أنيقة اشترتها له أغنيس.

بواسطة قسائم السجائر، بدأ بكي ملابسه حتى أصبحت مفرودة تمامًا، وثنائية الأبعاد ثم قام بكي الجوارب والملابس الداخلية كذلك.

ظل شوجي يتبع الصبي حتى وصل إلى ناصية الطريق، المدينة متسعة أمامه، فشعر وكأنه يملكها بمنازلها المربعة، وأسطحها المثلثة التي تتقاطع بزوايا مختلفة، وتمتد بطول الأفق بشكل يشبه المنازل الخشبية الصغيرة، ولكنها أكثر صلابة

لم تكن هناك نوافذ للخارج فوق الكتل المصمتة التي تقف فوق الشوارع الأسفلتية.

اتبع شوجي الصبي حتى دخل من بوابة كبيرة، ساحة المدرسة كبيرة وممتلئة وتتحرك بداخلها كتل كبيرة باللون الأزرق البروتستانتي، والأبيض وبعض الأحمر، كان جميع الأطفال تقريبًا في كل اتجاه ينظرون إليه، يرتدون قمصان فريق جلاسكو رينجرز، وفوقه سترة التدريب أو

يمسكون عل الأقل بحقيبة رياضية.

إعلان مكيوان[100] معلق بحروف بيضاء كبيرة، مد شوجي يده إلى جيبه وشعر بالاطمئنان لوجود الكتاب الأحمر المزين بأذني كلب الخاص بكرة القدم.

رن الجرس فاتبع الصبي عبر بعض الأبواب الزجاجية، لم يكن لديه فكرة أفضل من هذه، دخل الفتى إلى الفصل، شغل الأولاد مقاعدهم المعتادة وبدؤوا في الحديث بأعلى ما يملكون من أصوات، وضع شوجي حقيبته على المكتب في مؤخرة الفصل، وحاول أن يخفي نفسه وراءها.

دخل الفصل رجل قصير في منتصف العمر، ذو لحية بيضاء ونظر ككلب صيد غاضب وقال بلهجة أهالي جلاكسو، وبصوت عالٍ:

"حسنًا، أغلقوا أفواهكم والتزموا الصمت، وبعد أن أحرر الغياب، يمكنكم الحديث مرة أخرى عن الأقراط والحلي".

ثم صمت قليلًا وقال:

"هذا الحديث موجه فقط للأولاد".

صمت الجميع وهم يزفرون من الضيق والملل، بدأ المعلم في تحرير الغياب حتى وصل إلى نهاية الكشف، فعاد الجميع للصراخ مرة أخرى.

جلس المعلم على مكتبه ثم انحنى للأمام مغمضًا عينيه، واستند برأسه إلى ذراعه محاولًا أن يحصل على خمس دقائق إضافية من النوم، رفع شوجي يده إلى الأعلى في الهواء، ثم أنزلها مرة أخرى ثم أعاد رفعها، وقال بهدوء:

100- علامة تجارية لمنتج بيرة اسكتلندي يصنع في إدنبرة. (المترجم)

"سيدي، سيدي المحترم".

فتح المعلم عينيه ونظر نحو الفتى الجديد، وقال:

"نعم".

سأل، وهو لا يشعر بألفة مع وجهه في بداية العام الجديد.

قال شوجي بصوت منخفض حتى لا يسمعه الحشد:

"أنا جديد".

"الكل جديد يا بني".

"أعلم، ولكني تخلفت عن التحويل".

استخدم نفس المصطلح الذي أخبرته أغنيس أن يستخدمه.

هدأ الفصل مرة واحدة، واستدار الجميع ينظرون إليه في وقت واحد، ثلاثون شخصًا استداروا للخلف معًا، الأولاد الذين تعلو شفاههم خيوط رفيعة من الشعر، والفتيات اللاتي بدأن يكتسبن أجساد النساء ووجوههن ملطخة بالمساحيق البيضاء.

سأله المعلم وقد عادت إلى وجهه نظرة كلب الصيد:

"أنت فعلت ماذا؟".

"تخلفت عن التحويل من مدرسة أخرى إلى هنا".

ساد الصمت تمامًا في الفصل الدراسي.

حتى قال المعلم:

"أوه، وما هو اسمك؟".

وقبل أن يستطيع الإجابة، بدأت الأصوات تعلو، كانت همهمة في البداية، ثم قالها أحدهم بصوت عال:

"فتى مخنث".

وقال الآخر:

"يبدو عليه الغباء".

حاول شوجي أن يرفع صوته حتى يغطي على أصواتهم، فاحمر وجهه.

"إنه شوجي يا سيدي، شو بين، انتقل إلى هنا من سانت لوقا".

قال فتى آخر ذو شعر قصير أجعد:

"اسمعوا هذا الصوت".

فتح الصبي عينيه على مصراعيهما كأنه فاز باليناصيب لتوه.

"ما هذه اللهجة اللعينة، أيها الصبي، هل أنت راقصة باليه لعينة؟ أم ماذا؟".

جاءت تلك العبارة وكأنها مصدر إلهام للجميع.

"لماذا لا تمنحنا رقصة صغيرة؟".

تعالت الضحكات.

"هز أردافك أيها الوغد؟".

جلس شوجي في مكانه يستمع إليهم وهو يحظون بالمتعة على حسابه، وأمسك كتيب كرة القدم الأحمر، ألقاه في أعماق الدرج المظلم لذلك المكتب

المدرسي الغريب، شعر في داخله ببعض السعادة، فقد انتهى الأمر بالنسبة له، وأدرك بوضوح

أن لا أحد يستطيع أن يحصل على بداية جديدة.

29

طرق الفتى ذو الأعين البنية الذي يعيش في الطابق السفلي الباب كأنه صديق قديم، رغم كل ما بذل من الجهد طوال الشهور التي تلت الانتقال حتى يتجاهل وجود شوجي.

عندما فتح شوجي الباب، وجد الصبي ذا الأعين البنية أمامه يومئ برأسه للتحية، ثم طلب منه أن يرتدي معطفه ويتبعه.

سأله شوجي باستنكار: "لماذا؟".

"لأنني في حاجة إلى مساعدتك".

كان الصبي بالفعل في منتصف الطريق للأسفل.

كير وير، هو لوحة فنية مصنوعة من ألوان دافئة، لذلك ذهب شوجي بصحبته، إنه أكثر وسامة من أي شخص عرفه شوجي في السابق، شعره البني يتألق تحت أشعة الشمس التي لم يكن شوجي يراها إلا نادرًا.

لون عينيه بني داكن مثل خشب الجوز، وشفتاه الصغيرتان مرسومتان على هيئة قوس، تجذبان شوجي ليحدق بهما. من الممكن أن يصبح نموذجًا للمراهق المثالي، لو لم يكن أنفه ذا حافة مدببة، وتظهر على شفته العليا باستمرار، قرحة مزعجة.

سحب شوجي معطفه وتبع الفتى كخادم مطيع، وعندما وصلوا إلى باب المنزل توقف كير في مكانه ودار على عقبيه، ثم نظر إلى شوجي،

وقال:

"اسمع، لا يمكنك الخروج معي وأنت بهذا المنظر".

نظر شوجي إلى نفسه، إنه يرتدي نفس الملابس التي يرتديها كل يوم، سروالًا مدرسيًّا قديمًا من الصوف الرمادي، حذاء قديمًا أسود وسترة زرقاء ذات قلنسوة من الفرو جلبتها له أمه من كتالوج الملابس التي تباع بالتقسيط، يشبه أحد معاطف أغنيس القديمة التي تشعر بالحرج من ارتدائها مجددًا.

"سوف تصيبني بالحرج، هل ما زالت والدتك تختار ملابسك؟".

مد كير يده إلى سترة شوجي ذات القلنسوة الفرو حتى وصل إلى الأجزاء القابلة للتعديل، وبدأ بسحب الحبال الصغيرة.

السترة ضيقة عند الخصر حتى إنها تكاد تقسمه إلى نصفين، وذات أكتاف عريضة مبطنة كملابس النبلاء الكلاسيكية، أمسك الفتى ذو الأعين البنية بالياقة المكوية وقلبها للخارج، ثم رفعها بعنف لأعلى، شعر شوجي أنه ينظر إليه من خلف قمرة سفينة، فعاد برأسه للخلف، وتحدث من فوق حافة الياقة:

"إلى أين نحن ذاهبون؟".

"سوف أعرفك ببعض الفتيات الجميلات، ولكن لا يجب أن يبدو شكلك مضحكًا".

ثم أخرج كير من جيبه الخلفي مشطًا رخيصًا أسود اللون، كانت أحد أطراف المشط معضوضة لحد التلف، بصق كير على المشط بصقة بيضاء مليئة بالرغوة ووضعه على مفرق رأس شوجي، عاد شوجي للخلف في رعب ولكن كير وضع أصابعه الطويلة خلف عنق شوجي، وسحبه في

اتجاهه مرة أخرى.

أصبح شوجي يشبه تمامًا الرجال الذين يجذبون أغنيس في المجلات التي تتصفحها، لم يكن الأمر يعني شيئًا لكير، ولكن شوجي شعر كما لو أن مقلتي عينيه تتعرقان، وأن رأسه سينشق لنصفين متساويين بسبب حركة المشط الملتوي فوق شعره، غير الصبي بحدة من مظهر الشعر الأنيق الذي منحته أغنيس لشوجي وقسم شعره المتساوي ككتل سوداء متفرقة

"هذا أفضل".

ثم فرك مؤخرة رأس شوجي وكأنه سعيد بما فعل.

"أنت تبدو جذابًا الآن".

ثم استدار وخرج للشارع.

"أحتاجك ليوم واحد؟ مجرد يوم، لن يحدث أي ضرر، أليس كذلك؟".

"بالفعل".

وافقه شوجي وهو يسير خلفه مترنحًا، يتخيل طرقًا تجعل كير يمسك به مرة أخرى، كان كير وير يسير بخيلاء في الشارع رافعًا ياقة سترته لتخفي وجهه وواضعًا يده في جيوبه بعمق، سار شوجي قليلًا خلفه محاولًا استخدام طريقة المشي التي علمها له ليك ذات مرة.

"نحن ذاهبان لمقابلة اثنتين من الفتيات، واحدة منهن طائري الصغير، أما الأخرى فهي لك، ستكون جيدة في المضاجعة إلى حد كبير".

ثم أضاف:

"هل لديك طائر صغير؟".

كذب عليه شوجي وهو يقول:

"نعم".

سأله كير:

"من هي؟".

نظر إليه شوجي بعبوس من فوق ياقة سترته.

"فتاة من حيث كنت أعيش".

"أوه، نعم وما اسمها؟".

لم يستطِع شوجي أن يحدد إن كان كير يسخر منه في هذه اللحظة، من الصعب تحديد ذلك عندما تكون شفاه الشخص مخفية تحت ياقة معطفه.

"ممم، إنه مادونا".

بمجرد أن قال شوجي الاسم شعر بالارتياح، وجهه المختفي خلف الياقة الطويلة، صار أحمر كعادته عندما يكذب.

نظر إليه كير وضيق عينيه ومر على وجهه ظل أسود يوحي بأنه يشعر بالندم لطرح ذلك السؤال.

"حقًّا؟".

تقوس حاجباه وهو يسأله:

"وهل تسنت لك الفرصة للعب معها بأصابعك؟".

ارتعشت شفاه شوجي خلف ياقة معطفه، وأومأ برأسه ببطء.

شعر شوجي بزفرة تخرج من فم كير وشعره يهتز من الشك.

"حسنًا إن صديقة طائري قذرة للغاية، وسوف تسمح لك بمضاجعتها لو طلبت منها ذلك".

وأضاف ساخرًا:

"هذا إن لم تعترض مادونا؟".

ثم وضع في فمه سيجارة وهو ينظر إلي شوجي بشك.

"كل ما أطلبه منك أن توقفها عن مضايقتنا، هل تفهم ذلك؟".

مشيا في الشارع ذي المنازل الرمادية ذات القمم الصفراء، ولم يتوقفا عن مشاهدة النساء اللاتي يسكبن المياه وسوائل التنظيف على الأرصفة.

يقطع كير الطريق بخطوات ذكورية واسعة ويقفز فوق المقاعد الحجرية والنتوءات البارزة في خط واضح ومستقيم، بينما شوجي يكاد أن يركض خلفه للحاق به، لم يبطئ كير من خطواته إلا بعد أن وصلا إلى مجموعة من المنازل العصرية، فوطأ السيجارة بقدمه، ومد يده في جيبه ليخرج قطعة من العلكة، وبدأ في مضغها بسرعة بعد أن وضعها في فمه.

استطاع شوجي أن يشم رائحة النعناع العطرة تنساب بين أسنانه الكبيرة البيضاء.

كان يمضغ العلكة بسرعة مثل كلب جائع، ثم أخرج القطعة المبللة من فمه وعرضها على شوجي.

"خذ، امضغ هذه حتى تصبح مستعدًّا للمقابلة".

أمسك شوجي قطعة العلكة المبللة بين أصابعه الصبيانية وهو يشعر بالقرف، كما شعر بالامتنان لياقته المرتفعة التي تخفي التواء فمه للأسفل في حالة مقيتة من العبوس.

"لا تكن شاذًّا داعرًا".

دفع كير العلكة إليه بالقوة، أمسك شوجي بها ووضعها في فمه كانت رفيعة ودافئة، طعمها خليط من النعناع والفاصوليا والسجائر.

لم يمانع، وبدأ في مضغها، حتى إنه استخدم لسانه ليدفع بقايا البصاق الخاص بكير في المنطقة الدافئة بأعلى فمه، وكأنه سيحافظ عليها لفترة أطول، صعدا إلى الطابق العلوي لأحد المنازل، وكلما وصلا لأحد الطوابق، يقف شوجي في الشرفة الواسعة معجبًا بمنظر المنزل في الأسفل كعجوز خانع.

عندما وصولهما لوجهتهما قال كير:

"حاول ألا تبدو مثل صبي ثري، لا نريدهما أن يسخرا منا".

قرع كير الجرس الموجود بجوار باب زجاجي مزخرف، فتح باب آخر داخلي وتصاعدت موسيقى البوب من الداخل حتى ملأت الرواق، شاهدا فتاة شقراء تقترب أكثر وأكثر من الزجاج المزخرف بفقاعات زجاجية.

تقف عند المدخل فتاة قصيرة شاحبة اللون، ذات أعين خضراء واسعة، تخفيها نظارة وردية سمكية، شعرها الكثيف المجعد مطوي للخلف على هيئة ذيل حصان كبير، وعلى جوانب رأسها مجموعة من مشابك الشعر وردية اللون تشبه ضلوع الخنزير، كانت تبدو أصغر في العمر

من أعمارهما إلى حد قليل، الطلاء العشوائي على أطراف أصابعها، جعل شوجي يتذكر فتيات عائلة ماكافيني عندما كن يتجولن مرتدين أحذية ذات كعب منخفض تخص كولين، قالت الفتاة من خلف الباب:

"مرحبًا".

رد كير والابتسامة تظهر على جانب وجهه

"مرحبا أيتها الجميلة".

ووضع راحة يده على الباب في علامة لشعوره بالتملك

ابتسمت الفتاة ثم نظرت إلى شوجي بريبة

"ماذا تريدان؟".

وأغلقت الباب قليلًا.

"هل أمك بالمنزل؟".

سألها كير.

"أنت تعلم جيدًا أن لديها عملًا في الخارج".

"هل يمكننا الدخول لفترة قليلة من الوقت؟".

"لا".

أغلقت الباب لدرجة أكبر.

"لم، لا؟".

"لأنني قلت ذلك، أخبرتني أمي أنها ستضربني إن سمحت لك بالدخول مرة أخرى بينما هي في العمل".

قال وهو يخلع حذاءه:

"أوه، لا عليك".

صرخت بطفولة:

"لا".

"أنت تفسد المكان، وتبول على مقعد المرحاض وحافة الجدار، لن ترضى أمي أن يحدث ذلك مجددًا، سوف تجلدني".

ثم أغلقت الباب لدرجة أكبر، حتى لم يعد يظهر إلا وجهها، ووقفوا للحظات على هذا النحو حتى علا صوت شريط الكاسيت الخاص بموسيقى البوب من الداخل، وهو يتحول للوجه الآخر، بدأ كير الحديث:

"حسنًا، لقد أحضرت لك هذا".

وأمسك في يده قطعة من الصابون ملفوفة بورق الهدايا المصنوع من السوليفان الشفاف، كان يشبه الصابون الرخيص المكدس في سوق باراس[101]، نفس النوع الذي رفعت أغنيس أنفها عليه وقالت بعد أن شمته:

"إن هذا النوع لا يجب أن يباع بالقطعة".

أخرجت يدها البيضاء الصغيرة من خلف الباب بحذر، وأخذت الصابون فأصدر ورق السوليفان ضوضاء وفرقعة خافتة، شهقت الفتاة الصغيرة من الفرح، ثم قالت:

"هذا لا يغير شيئًا".

101- شارع رئيس وسوق كبير في فترة العطلات في الناحية الشرقية من جلاسكو. (المترجم)

"هل ما زلت ترغبين في أن تكوني طائري الصغير؟".

نظرت إلى الصابون، ثم إلى الفتى الطويل، وقالت:

"نعم، ربما".

"حسنًا يمكنك الخروج، لنقضي معًا بعض الوقت في أي مكان".

صرخت:

"لا".

"لم، لا؟".

ركز كير وير عليها بعينيه البنية بقدر ما يستطيع.

"لأن ليان موجودة هنا، هذا هو السبب".

أومأ كير برأسه، ثم بدأ في تنفيذ الخطة التي أعدها مسبقًا:

"حسنًا، أقدم لك شوجي، إنه معجب بليان".

تقدم شوجي وخرج من بقعة الظل التي كان يقف بداخلها.

"لذلك يمكننا الخروج جميعًا".

ابتسمت الفتاة، واتسعت عينها ثم أعادت رأسها إلى الداخل وأغلقت الباب الزجاجي.

شاهد شوجي شعرها الأشقر وهو يختفي بداخل ردهة المنزل، هل هذه هي اللحظة المناسبة لجعله شخصًا طبيعيًّا؟ هل كانت كل هذه التدريبات على المشي بالطريقة الصحيحة وعلى التقاط الكرة البيضاوية، وحفظه لنتائج مباريات كرة القدم السخيفة، من أجل هذه اللحظة.

انفتح الباب وطل وجهان صغيران، ثم أغلق الباب مرة أخرى، وعلت في الداخل ضحكات صاخبة، نظر كير إليه وقال:

"حاول ألا تبدو شاذًّا إلى حد كبير، اتفقنا؟".

تمتم ولم يرد.

أخذ شوجي نفسًا عميقًا، حاول أن يشد جسده ويقف مستقيمًا، ولكنه في النهاية طأطأ برأسه كسلحفاة حزينة، وأدخل رأسه داخل المعطف مرة أخرى.

فتح الباب مجددًا على اتساعه هذه المرة، وقفت الفتاتان على الباب ممتلئتين بالبهجة، كانت ليان كيلي أول من خرج، ذات جسد ممشوق تطل من الأعلى وفوق رأسها شجيرة شقراء مموجة، فكها ثابت، لم تكن تضع حليًّا أو تستخدم مستحضرات التجميل ولا تضع مثبتات فوق شعرها. تقدمت إلى الأمام بثبات، ووقفت وسط الأولاد بطريقة توحي بأنها نشأت في مستعمرة من الإخوة، عندما تحدثت كان فمها ضيقًا وكأنه يحرس أسنانها، وعيناها تشبه الزبيب كما ظن شوجي، سألت شوجي بوقاحة:

"كيف يمكن أن تكون معجبًا بي وأنت لم ترَني من قبل؟".

تجمد شوجي في مكانه، فركله كير في المنطقة الرخوة من كاحله.

"حسنًا، إن.... الأمر... لقد سمعت عنك العديد من الأشياء الجيدة".

انكمش أنف الفتاة علامة على عدم التصديق وقالت:

"ماذا سمعت؟".

"سمعت أنك فتاة جذابة للغاية".

"لماذا تتحدث بشكل مضحك؟".

قالتها دون أن تبتسم وما زال أنفهما منكمشًا.

"أنت ملتحق بأي مدرسة؟".

تقدمت الفتاة إلى الخارج في ضوء الشمس، اكتشف شوجي أن وجهها ليس قذرًا كما كان يعتقد في البداية، ولكنه مغطى بالآلاف من حبيبات النمش الجميلة، وعيناها التي بلون الزبيب تنظر إليه بشكل مريب.

"أذهب إلى مدرسة على الطريق الرئيس، برودي دمب".

تنهدت الفتاة:

"حسنًا".

وزال الانكماش من على شفتيها.

"للأسف أنا ملتحقة بمدرسة القديس منجو[102]، إنها للكاثوليك".

"لا عليك، إن أمي كاثوليكية أيضًا، لذلك فأنا أفهم ما تعنين".

ظهرت ابتسامة خفيفة على شفتيها:

"لا يهم، سوف يسلخ إخوتي جلدي لوعرفوا أني اتجول مع كلب برتقالي قذر".

أراد شوجي أن يخفي شعوره بالارتياح، وأراد أن يزفر زفرة طويلة، كان بإمكانه أن يخبرها أنه كاثوليكي بالتعميد، وأنه تناول القربان ولكنه فضل أن يقول:

"حسنًا، تشرفت بمقابلتك".

102- مبشر كاثوليكي في أواخر القرن السادس الميلادي ويعتبر مؤسس مدينة جلاسكو وقديسها. (المترجم)

واستدار مودعًا وهو يرغب في الركض مبتعدًا.

زفرت ليان بصوت عالٍ:

"لا تصطنع أنك صعب المنال، على الأقل أعطني الفرصة حتى أرتدي معطفي اللعين".

ابتسمت ابتسامة خفيفة، ولم يمر وقت طويل حتى أصبح الجميع يتجولون في الشوارع الرمادية، ساروا كمجموعتين كل مجموعة مكونة من زوجين هبوطًا وصعودًا بين الوحدات السكنية المتماثلة.

كانت الفتاة في البداية تسترق نظرات جانبية إلى شوجي، ثم بدأت تحدق به في حيرة تشبه الحيرة التي كان ينظر بها إلى الأطفال الأفارقة الجائعين الذين يعرضون صورهم في التلفاز. فمها مفتوح لآخره وعيناها ترغبان في الانصراف بعيدًا، ولكنها لا تقدر بسبب شعورها بالاستغراب الشديد مما تراه. تعبث شاردة في شعرها المجدول على هيئة ذيل حصان بني طويل، قالت فجأة بعد أن اكتمل تقييمها له:

"تبدو غريبًا".

"آسف".

وتساءل كم يحتاج من الوقت حتى يعود إلى المنزل.

"أنت لا تملك أبًا، أليس كذلك؟".

أدار شوجي رأسه في غضب:

"لماذا قلت ذلك؟".

زفرت كعرافه تشعر بالملل:

"أستطيع أن أعرف، أنا جيدة في تخمين هذه الأشياء".

قال:

"مات أبي".

وتساءل إن كانت تستطيع اكتشاف كذبته.

"حقًّا، كذلك أبي".

قالتها بلهجة مبتهجة، ثم تداركت:

"أعني أنا آسفة، هذا أمر محزن للغاية".

هز شوجي شعره وقال:

"بل هو أمر رائع".

ضحكت ليان بمرح:

"هذا قول سيئ، سينتقم منك الرب".

"لا بأس، كان أبي رجلًا سيئًا".

مشيا قليلًا قبل أن تتكلم مرة أخرى:

"هل تحب الفتيات؟".

قال بشكل غير متوقع:

"لا أدري".

خرجت الكلمات منه غير محسوبة، كأنه أطلق ريحًا، شعر بالندم على الفور، فاحمر وجهه وجحظت عيناه وظلت مثبتة في اتجاهها، كانت تلك أفضل فرصة بالنسبة له حتى يكون فتى طبيعيًّا ولكنه أفسدها، ولكن الفتاة قالت ببساطة وهي تتنهد:

"حسنًا، أنا أيضًا لا أحب الأولاد".

أمضت بعض الوقت تفكر في ما قالت، قبل أن تضيف وهي تشعر بالهزيمة:

"هل تريد أن تصبح صديقي الحميم على كل حال؟ فقط بشكل مؤقت".

رد شوجي:

"حسنًا، بشكل مؤقت".

ثم وضعت يدها في يده، كانت يدها أطول من يده ولكنه أحب الطريقة التي لمسته بها. كانت دافئة وجعلته يشعر بالأمان، واستمرا في السير حتى وصلا لقطعة أرض طينية تنمو عليها أعشاب خضراء حيث يلعب بعض الأطفال كرة القدم.

كان كير والفتاة على الطرف الآخر، يدفع كير بالفتاة الشقراء عبر شق في السياج المغلق بسلسلة حديدية، وقفت ليان في غضب وعقدت ذراعها فوق عظام صدرها، شعر شوجي بالدهشة لرؤية أسنانها محتشدة في مساحة فمها الضيق.

"القذرون المنحرفون".

ثم بصقت وهي تقول:

"كل ما يرغبون فيه هو التسلل إلى هناك ولعق وجوه بعضهم بعضًا، أشعر بالتقزز من الطريقة التي يقتربون بها إلى بعضهم، إنها أصبحت شهوانية منذ أن بلغت الثالثة عشرة".

توجه وفتاته إلى طريق مظلم، فقال شوجي:

"سوف يظنان أن بنا شيئًا غريبًا، إن لم نفعل مثلهما".

فكرت الفتاة في الأمر لمدة دقيقة وهي تخدش الأرض بأقدامها:

"حسنًا؟".

ثم صاحت:

"أخشى أن يقتلني أشقائي".

مر كير بين السياج وأشار إلى شوجي أن يسرع، مر شوجي عبر السياج وأمسك السلك حتى تعبر ليان، التي اضطرت أن تحني نصف طولها حتى تستطيع العبور.

على الجانب الآخر من السياج كان العشب ينمو بشكل عشوائي لطيف، وأسفل التل تسير السيارات المتجهة إلى إدنبرة، مصدرة أصواتًا مريعة على بعد عشرين قدمًا إلى الأسفل، مشوا على طريق صخري لمسافة قصيرة حتى وصلوا لجسر مشاة قديم، انزلقوا تحت الجسر الواحد تلو الآخر، وساروا مرة أخرى تحت الجسر الخرساني، تفوح حولهم رائحة البول وعوادم السيارات، ولكن المكان كان جافًّا ويمكنهم الجلوس خلف أحد الاعمدة الخرسانية الضخمة في خصوصية مطلقة.

جلس الزوجان في صمت قلق، يشاهدان حركة المسافرين المسرعة في صباح يوم السبت، ثم قاما بإلقاء الحصى على جانب الجسر وهللا عندما وصلت للأسفل واندفعت تحت عجلات السيارات المسرعة، قالت الفتاة الشقراء وهي تعبث في مشابك شعرها التي تشبه ضلوع الخنزير:

"هل معك سجائر".

أجاب كير: "لا".

قالت:

"من أجل خاطر الرب، أخبرني بالسبب الذي جعلني أوافق أن أكون صديقتك".

وواصلت شكواها قائلة:

"أخبرنا ستوكي، أنه سوف يعطني لفافة من السجائر يوميًّا لمد أسبوع إن وافقت أن أخرج بصحبته، أليس كذلك يا ليان؟".

ردت الفتاة الطويلة شاردة الذهن:

"نعم".

هز كير كتفيه وهو يحاول خداعها:

"يمكنك الخروج بصحبة ستوكي، أنا لا أهتم".

أحست ليان بالبرد تحت الجسر وهي تجلس بعيدًا لا تتعرض لأشعة الشمس الضعيفة، ثم بدأت ترتجف، يراقبها شوجي من خلف ياقة

معطفه ذي القلنسوة المصنوعة من الفرو بابتسامة سعيدة. ثم ضحك عندما انكمشت ذراعاها الطويلتان داخل أكمامها القصيرة، فأحاطت شوجي بذراعها الطويلة، وجلسا في هدوء لفترة طويلة يشاهدان حركة المرور في الأسفل.

عندما أدار شوجي رأسه وجد كير مستلقًا فوق الفتاة الشقراء، يفتح فمه ويغلقه أمام فمها وكأنه يحاول أن يمتص جسدها، شاهد شوجي يدًا طويلة وغليظة تنزلق أسفل قميص الفتاة، أحاط كير الفتاة بساقيه، وأمسك مؤخرتها بقوة، يتابعه شوجي وهو يحرك فمه فوقها لأعلى ولأسفل كأنه يمضغها، كان كير يئن ويزأر، والفتاة تتلوى تحته بشكل أخرق.

نظر شوجي بشغف إلى العروق المنفوخة كالحبال في ذراع الصبي، واشتهى تقوس ظهره واهتزاز مؤخرته، فتح كير عينيه، التقت بنظرة شوجي الجائعة، كان فمه رطبًا ومتشققًا وعليه آثار حمراء، ضاقت عيناه البنية وهو يصيح:

"هل كنت تنظر إلى مؤخرتي اللعينة؟".

استدار شوجي في الاتجاه الآخر ناظرًا إلى السيارات التي قل عددها، ظهرت على وجه الفتاة الشقراء نظرات امتعاض وكأنها تشعر بالإهانة.

"ليان يا دجاجتي، هل أنت بخير؟".

تردد صدى صوتها المنخفض أسفل الجسر الخرساني:

"اشعر بالبرد والضجر".

جلس الاثنان في صمت، بينما كان العاشقان يتحدثان خلفهما، قال كير في البداية بصوت عالٍ للغاية متعمدًا:

"هل رأيت؟ كان الجميع يعلم قدراتي الجنسية، إلا أنت".

غمغمت الفتاة:

"أنت نذل لا تصلح في شيء".

ولكنها كانت تتأوه تحته مرة أخرى، بصق كير كتلة من البلغم فوق العمود الخرساني، بينما كان شوجي يشعر بنظرات كير وعينيه الحارقة تصيب رقبته، عاد كير للفتاة المنسحقة:

"هل يمكنني أن أدس أصابعي داخل فتحات جسمك لفترة قصيرة".

أجابت بصراحة:

"لا، الجو بارد جدًّا".

ناشدها قائلًا:

"أوه من فضلك، سوف أنفخهم قليلًا حتى يتدفؤوا، ليس عليك حتى خلع سروالك".

"لا".

"لكني أحبك واشتريت صابونًا من أجلك".

قالت الفتاة الشقراء:

"لقد سرقت الصابون".

ثم تنهدت:

"حسنًا، لكن عليك تدفئتها أولًا، ويكون الأمر لدقائق قليلة".

تحول وجه شوجي إلى اللون القرمزي وشعر بالحرارة تنبعث من

خلال جسده فأخرج مشط كير المعضوض من جيبه ووضعه ببطء في فمه، كانت رائحة المشط تشبه رائحة السجائر ومثبت الشعر، كانت تشبه رائحة كير.

"إذا كان لديك الرغبة، سوف أتركك تلمس ثديي".

قالت ليان وهي تجلس بجواره:

"إذا كانت لديك الرغبة".

هز الفتى رأسه دون أن ينظر لها:

"لا، أشكرك".

ومر بيده فوق كتلة من الحصى الصغيرة الرمادية، فانزلقت فوق الجسر وعلى الطريق السريع، قبضت الفتاة على حفنة من الأعشاب الخضراء الصغيرة وقالت:

"أنا لست جالسة هنا لأموت بسبب الملل".

أخرج شوجي المشط من فمه ومسح طرفه المبلل في سرواله فترك ذلك بقعة داكنة مبتلة فوق ساقه.

"ربما أستطيع أن أمشط شعرك؟".

لم تجب الفتاة فشعر باندفاع الدم والاحمرار في وجهه مرة أخرى، تنهدت الفتاة وسحبت ببطء الشريط المطاطي الذي يربط شعرها، سقط ذيل الحصان الرفيع الرقيق حول أذنها فقلت حدتها، انخفضت حواجبها، وبدا جلدها أكثر رقة ونعومة. أصبحت الفتاة أكثر لطفًا وأصغر في السن مما كانت عليه سابقًا.

مسك شوجي بالمشط ومرره بطول شعرها، لم يكن شعرها بنيًّا بل

كانت ملايين من الدرجات الحمراء اللامعة ممزوجة بلون كستنائي داكن، انساب الشعر بين يديه كخيوط من حرير، وكأن كل شعرها خيط مصنوع من أشعه الشمس.

ظلا جالسين على هذا الوضع لفترة طويلة يستمعان إلى الفتاة التي تتأوه في الخلف ويشاهدان حركة الحافلات في الطريق من إدنبرة وإليها، يمرر شوجي المشط برقة في شعر الفتاة حتى إنها هدأت وأغلقت عينيها ومالت برأسها على صدره.

"هل تشرب أمك الخمر؟".

سألته على غرة.

"نعم، إنها تشرب القليل من الخمر في بعض الأحيان".

ثم اعترف شوجي:

"كيف عرفتِ هذا؟".

"أنت تتصرف بغرابة شديدة".

ثم رفعت يدها حتى وصلت لحافة أنفه وداعبته بلطف:

"لا داعي للقلق، فإن أمي مدمنة كذلك".

ثم قالت:

"أعني أنها تشرب القليل من الخمر في بعض الأحيان".

ركز شوجي نظره على المشط وهو ينساب بين الشعر الناعم كأنه يخترق جدولًا من الماء:

"أعتقد أنها ستستمر في الشراب حتى تسبب لنفسها الموت".

سألته الفتاة:

"هل ستحزن؟".

توقف عن تمشيط شعرها وقال:

"سوف أحترق من الحزن، ألن تحزني لموت أمك؟".

هزت الفتاة كتفها وقالت:

"لا أعلم".

وأضافت:

"الكل سوف يسلك ذلك الطريق".

ثم ارتجفت:

"أعني الموت، ولكن البعض يسلك طريقًا بطيئًا إليه".

اهتز شيء بداخله وانفلت، وكأن الصمغ القديم الذي كان يجمع أجزاءه الداخلية تفكك، شعر بثقل غير متوقع في عضلاته، وكأن أكتافه تسقط من مكانها، وشعر بأن الكلمات تتساقط منه وأنه يرغب في أن يخبرها بعض الأشياء، ولكنه لا يعرف إن كان ذلك سيخفف وطأة مشاعره.

"من الصعب أن تعرف ما الذي ستقابله معها أثناء الليل".

"نعم، ولكنه لا يكون أبدًا، عشاء ساخنًا، أليس كذلك؟".

اعترف شوجي: "لا".

وهو يشعر بالقلق يعتصر معدته:

"هل لديك أعمام كثيرون؟".

"نعم فنحن من الكاثوليك".

"لا أنا أعني أعمام ليليون؟".

"نعم فهمت قصدك، هؤلاء الأوغاد الدنيئون، إنهم لا يمكثون لفترة طويلة، ينتهي الأمر بهم دائمًا لضربها، ثم يقوم أشقائي بضربهم في النهاية".

تثاءبت وكأنها تقص عليه حكاية طبيعية:

"وظيفتي، أن أفرغ جيوبهم من المال".

تفاجأ من شعورها بالفخر بهذا الأمر:

"حقًّا؟".

"نعم، أنا أنظف جيوبهم من كل شيء".

وهزت كتفيها بلامبالاة:

"يجب عليّ أن أفعل ذلك، تنفق أمي كل نقود الإعانة الاجتماعية في شراء الخمور".

التقط شوجي بقايا الشعر الطويلة من بين أسنان المشط ولفها حول أصابعه:

"أتساءل إن كانت والدتي تعرف والدتك؟".

"أشك في ذلك".

"ربما من خلال اجتماعات جمعية المساعدة في الإقلاع عن إدمان الخمر".

"لا، مويرا العجوز تجاوزت هذا الهراء".

وهزت كتفيها:

"علها حاولت إرسالك إلى ألاتين[103]".

"لا، ما هي ألاتين؟".

"إنها مثل جمعية المساعدة في الإقلاع عن إدمان الخمر، ولكنها مخصصة لأفراد العائلة، قالت مويرا إنها مجموعة دعم سوف تساعدني في التأقلم مع علتها".

"هل ذهبت؟".

اعتدلت الفتاة في جلستها وأمسكت خصلة من شعرها:

"ذهبت مرة واحدة، ولكني لن أذهب مجددًا لذلك المكان اللعين، ما الذي يدفعني للذهاب إلى هناك إن كانت هي نفسها لا تذهب".

ثم شدت أكمامها القصيرة على يدها التي تحولت للون الأزرق:

"على كل حال، يجب عليك أن ترى هؤلاء الأثرياء الأوغاد وهو يشتكون من أمهاتهم اللاتي شربن كل كؤوس الشيري[104] في ليلة عيد الميلاد، وغفون للنوم قبل بدء الاحتفال".

ثم ظهرت على شفتيها ابتسامة قاسية وهي تقول:

"لقد أخبرتهم عن أمي وهي تفتح كل هدايا عيد الميلاد، حتى تخلط

103- Al- Anon family group زمالة عالمية تقدم مجموعات دعم للتعافي لأسر وأصدقاء مدمني الكحول تأسست عام 1955. (المترجم)

104- نبيذ إسباني محصن يحتوي على نسبة كحول أعلى من النبيذ العادي، وقد أطلق عليه الأيرلنديون والإنجليز هذا الاسم. (المترجم)

معطر بعد الحلاقة الخاص بأشقائي بشراب بيرة الزنجبيل، كان يجب عليك أن ترى النظرة في وجوههم".

ابتسمت ليان ابتسامة شيطانيه عريضة وهي تقلد لهجة أثرياء إدنبرة:

"أنا أشعر بالقلق، سأشرب مشروب الكوكا الخاص بالحمية".

"مشروب الكوكا الخاص بالحمية".

"نعم، إنهم يخشون على أوزانهم".

ضحك شوجي ثم شعر بالسوء لذلك، وسألها:

"هل شربت حقًّا ذلك العطر؟".

"أوه، نعم شربت كل شيء، حتى كادت تقتل نفسها وظلت تتقيأ لعدة أيام".

فركت ليان ساقها المتجمدة وقالت:

"كانت رائحتها أثناء المرض لطيفة رغم كل شيء".

نظرت ليان للأسفل مرة أخرى، كانت أطراف أنفها زرقاء بسبب البرد:

"في عيد الميلاد استيقظت مويرا كيلي العجوز، وهي تشعر بالظمأ فأخذت بعض الهدايا إلى نهاية شارع دوك[105]، ووقفت في عشية عيد الميلاد والثلج يصل إلى ركبتيها وباعتهم من أجل الحصول على المال اللازم لشراء الخمر، باعت مشغل موسيقى بخمسة جنيهات ومبردًا صغيرًا بعشرين".

"أنا آسف".

105- أحد الشوارع الرئيسة في النهاية الشرقية لمدينة جلاسكو. (المترجم)

"أسوأ ما في الأمر أني ما زلت أدفع أقساط هذه الأشياء".

تسربت الكلمات على شفتيه قبل أن يدرك ما يقوله:

"حاولت أمي قتل نفسها الليلة الماضية".

استدارت ليان ونظرت إليه:

"هل تناولت الحبوب؟".

"لا".

"قطعت معصمها؟".

"لا".

ثم صمت قليلًا:

"ليس هذه المرة على كل حال".

"وضعت رأسها في الفرن؟".

"لا، لقد حاولت ذلك في السابق، ولكن هذه الشقة تعمل بالكهرباء".

"إن هذا لا يمنعهم من القيام بذلك".

أخذت ليان خصلة من شعرها بين أصابعها، ونظرت إلى أطراف شعرها المهترئة:

"حاولت أمي أن تفعل ذلك من قبل، كنت في رحلة مدرسية لحديقة حيوان إدنبرة أقضي وقتًا رائعًا في مشاهدة طيور البطريق، وعندما عدت إلى المنزل كان أشقائي مجتمعين حولها وهم يضحكون، كان وجهها يبدو كما لو أنها تمددت في الشمس ساعات طويلة، حاولت أن تنتحر، ولكنها

خبزت وجهها بدلًا من ذلك، وتركت حمالات الشواء المعدنية الموجودة في الفرن علامات غطت نصف شعرها".

جذبت أطراف شعرها بقوة:

"إنها تصرفت بجنون، حتى أفسدت نصف وجهها بشكل دائم، وما زال النصف الآخر يشبه موج البحر".

لم يستطِع شوجي أن يمنع نفسه عن الضحك.

ضحكت الفتاة ضحكة خفيفة، ثم تنهدت بنفس السرعة التي ضحكت بها:

"ماذا فعلت والدتك؟".

"حاولت إلقاء نفسها من النافذة".

وأخفض عينيه للأسفل:

"وهي عارية".

أطلقت الفتاة صافرة مرحة:

"واو، مويرا العجوز لم تحاول أن تفعل ذلك من قبل، تلك المحظوظة الفاسقة نحن نعيش في الطابق الأرضي".

فرك شوجي ذراعه، وشعر بآثار صراعه لمنعها تلتهب تحت ملابسه.

اختارت أغنيس أن تقف على حافة النافذة كطريقة جديدة للانتحار، جعله هذا يشعر بالرعب، كانت تتحدث عبر الهاتف ثم سكتت تمامًا. ثم وجدها في المطبخ تضع إحدى ساقيها على الأرض، والأخرى فوق حافة النافذة، ومهبلها العاري يلفحه الهواء، كانت تصرخ وهي عارية، وكان

عليه أن يستخدم كل قوته لجرها للداخل، ظلت قطع من جلدها عالقة تحت أظافره، أدرك الآن ما حدث فشعر بالانكسار.

"أشعر أنها ستموت بفعل الشراب، وأعتقد أن كل هذا خطئي".

قالت:

"نعم سوف يقتلها".

قالت وكأنها تتحدث عن حالة الطقس:

"ولكن كما أخبرتك أنه طريق بطيء، ولا يوجد شيء تستطيع القيام به من أجل مساعدتها".

توقفت أصوات الالتهام البائسة القادمة من الخلف، عادت ليان بجسدها إلى الأمام كان شعرها ناعمًا ورطبًا كأنه مبتل، ووجهها أكثر لطفًا وهدوءًا عما كان عليه من قبل، اندفع تيار من الهواء البارد بينهما، فترك شوجي كرة صغيرة من الشعر تتدحرج عبر الجسر، ثم شعر فجأة بالوحدة وتمنى أن يعود للجلوس فوق ركبة أغنيس مرة أخرى مثلما كان يفعل وهو صغير.

استدارت ليان ونظرت إليه من فوق كتفها من خلال الأضواء المنبعثة من المصابيح الأمامية الساطعة، استطاع أن يرى جمال عينيها، لم تكن بنية فقط بل كانت خضراء وذهبية ورمادية وحزينة.

أدرك الآن، أنه لم يستطع الوفاء بوعده، لقد نكث بوعده لأغنيس كما نكثت بوعدها له، هي لن تستطيع أن تصبح طبيعية ولن تتوقف عن تناول الشراب، وهو يجلس في البرد بصحبة فتاة جميلة، مدركًا أنه لن يستطيع أن يحس بشعور طبيعي كالأولاد.

30

أول ما قاله لها وهو يعبر الباب بعد أن عاد من المدرسة:

"أنا جائع".

لم يهتم أحد قط بما تشعر به، لم يسألها أحد إن كانت تشعر بالجوع، كانوا فقط يخبرونها بما يريدون وبما يرغبون في أن يأخذوه منها.

جلست على المقعد، وسندت بيدها إلى ذراعه، ثم أشعلت سيجارة أخرى وهي تستمع لأبواب خزانة المطبخ وهي تفتح ثم تنغلق.

"مامي، لا يوجد شيء صالح للأكل".

صرخ في المطبخ، تغير صوته، لم يصبح عميقًا ولكنه مسموع كصوت رجل بالغ، لم يبذل جهدًا في التأكد من وجودها بالخارج، يعرف فقط أنها موجودة في نفس المكان.

شربت جرعة كبيرة من القدح الذي أمامها، ثم قالت وهي لا توجه الحديث لشخص محدد:

"لماذا يعتبرني الجميع شيئًا مسلمًا به؟".

كانت تسمعه يجر الحقيبة المدرسية عبر السجادة:

"مامي أنا جائع، مامي أنا جائع".

أصبحت الكلمات تخرج من فمه مثل أغنية، فتح باب غرفة المعيشة ودلف إلى الداخل، إنه يتغير، أصبح أكثر طولًا واستطال جسده، وصار جائعًا طوال الوقت.

نظرت إليه أغنيس، شعره مصفف بشكل مختلف، والملابس تتدلى فوق أكتافه النحيلة، قررت أنها لا تحب ما أصبح عليه.

سألته:

"لِمَ لَمْ تسألني ماذا فعلت خلال اليوم؟".

تجاهل شوجي ما تقول، وخطا عبر الغرفة بكفاءة كخادمة في فندق، فتح الستائر وأنار المصابيح، ثم أشعل المدفأة الكهربائية، تلك المدفأة التي يشغلها عندما يرغب في أن تشعر بالنعاس وتخلد إلى النوم.

صرخت:

"اغلق هذه المدفأة".

نظر إليها، ثم نظر مباشرة إلى المدفأة وتركها تعمل.

قالت بسخرية:

"أنا بخير أشكرك، كيف حالك؟".

"قلت لك إنني جائع، ولا يوجد في المنزل شيء لأكله".

نظر إليها وهو يشد جسده للأعلى، ولكنه كان متعبًا.

"كيف ستتصرفين في هذا الموقف؟".

كان يشبه ليزي تمامًا، يمكن لأغنيس أن ترى ليزي واقفة ترتكز بيدها على خصرها، وتهز رأسها في خيبة أمل، وتخبرها بأنها عديمة الفائدة، شعرت بالصدمة لذلك المشهد ثم استجمعت شجاعتها وصرخت:

"لا تنظر إليّ بهذه الطريقة".

كان شوجي يتحمل بما يكفي فجلس على المقعد المقابل لها، وفرك رأسه بأطراف أصابعه كما لو كان يؤلمه: "قلت إنني جائع، فماذا ستطعمينني؟ ".

كان يضغط عليها متعمدًا.

"أوه، إنكم متشابهون جميعًا، تأخذون، تأخذون، تأخذون، دعني أخبرك بشيء، لم يعد لدي المزيد لأقدمه".

قال مقلدًا لها:

"تشربين تشربين تشربين، دعيني أخبرك أنني أتضور جوعًا".

قالت وأسنانها المصطنعة تصطك داخل فمها:

"أيها المتبول اللعين".

عيناها تدور في مقلتها بعد أن أمضت طوال فترة الصباح وهي تشرب، ولكن وجهها كان مشدودًا، وقف شوجي مرة أخرى ونظر إلى المدفأة.

"كنت أرغب في أن أمكث هنا طوال النهار، ولكن يجب عليّ الخروج والاختلاط بالناس".

أطلق تنهيدة طويلة كإطار دراجة مثقوب، كانت عظام كتفه بارزة بشكل واضح كأنها فقدت الحياة.

"أريد أن أعرف ما الذي يحدث في المدرسة، لم أعد قادرًا على الاستيعاب، وكأن المدرسين يستخدمون لغة غير اللغة الإنجليزية".

"سأخبرك ما الذي يحدث: إنهم يطعمونك ثلاث وجبات ساخنه سخيفة، أليس كذلك؟ ثلاث مواد دراسية ساخنة، أراهن أن هذا أكثر مما أطعمك أنا في المنزل".

وضع شوجي لسانه بين أسنانه وعض عليه بقوة، ولم يتحدث معها حتى هدأ تمامًا وتحكم في سرعة تنفسه:

"حسنًا، لم لا تعطينني بعضًا من مال الإعانة الاجتماعية، وسأخرج لشراء عشاء ساخن".

"هل ترغب في ذلك؟ حسنًا ليس هناك مال على الإطلاق".

"كيف؟".

عادت الحياة إلى أكتافه بشكل مفاجئ:

"وماذا عن إعانة يوم الإثنين ويوم الثلاثاء، أين ذهبت كل نقود الأسبوع؟".

قالت:

"هوووف".

وهي تلوح بيدها كطائر وحيد اللون يرفرف بأطراف أجنحته:

"لقد اختفت تمامًا، ذهبت مثل كل الأوغاد الذين عرفتهم من قبل".

مال شوجي تجاهها وانحنى إلى الركن الخفي تحت المقعد الذي تجلس عليه، فلم يجد إلا ست عبوات من البيرة الرخيصة، لم تكن تلك الكمية

كافية لإهدار كل المال المخصص لقضاء الأسبوع.

"أين ذهبت كل النقود؟".

"أوه، كنت ألعب البنغو، كانت ليلة كبيرة، وكذلك اشتريت ساندويتشًا كبيرًا، اعذرني".

قال: "أغنيس، سوف نتضور جوعًا طوال الأسبوع".

نظفت أغنيس حلقها، ثم هزت كتفها وقالت:

"نعم، هذا من المحتمل".

جلس شوجي في منتصف الأريكة وهو ينظر إلى قضبان المدفأة الساخنة، سحبت أغنيس عبوة أخرى من الشراب، وفتحتها باستخدام أظافرها المطلية، فأصدرت صوت هسهسة لذيذًا، ثم أمسكت الحلقة بأصبعها، وبدأت تفقد وعيها تدريجيًا:

"اسمع، يجب عليك أن تأكل كل الوجبات الساخنة المتاحة، أظن سيوفرون لك وجبة واحدة جديدة".

أجاب بهدوء شديد:

"لقد أخذوا مني كل القسائم، لن يمكنني الحصول على غذاء مجاني".

نظر إلى وجهها، فدفعت عنقها للوراء وهي تشعر بارتباك شديد.

"هؤلاء الأولاد في الصف الرابع لا يحبونني، ولا يحبون طريقة حديثي، يقولون إنني أتحدث مثل الأثرياء، لقد استولوا على قسائمي، وأكلوا غذائي".

ظهر شيء ما في عينيها، زادت شدته بسبب لمعان النار البرتقالية،

ولكنها كانت تشعر بالبرد رغم ذلك، قالت بهدوء:

"نعم، أنا أعلم".

جلست أمام الضوء المنبعث من المدفأة الكهربائية لفترة طويلة قبل أن يتحرك شوجي، الحرارة تجعله يشعر بالنعاس، ورائحة البيرة تجعله يشعر بالمرض، كان عليه أن يخرج، فكر أن يسرق بعض رقائق البطاطس من بائعي الصحف كما علمه كير، حتى يتناول طعام العشاء يمكنه سرقة أربع أو خمس علب من الرقائق، حتى لا يشعر كلاهما بالجوع بعد تناولها.

نظرت أغنيس إليه يقف في صمت ثم يتجه نحو الباب، كان يجر أقدامه فوق السجادة ببطء أثناء حركته، يدل نمو جسمه أنه سوف يصبح في طول مقارب من طول أخيه، بلغ الخامسة عشرة من العمر واضطرابات النمو تجعله سريع الانفعال، في نظرها يبدو كقطعة من الحلوى الشاحبة التي تم مطها في الحجم فأصبحت قابلة للكسر في المنتصف، تستطيع أن ترى في أبنائها نفس انحناء أبيهم، يحمل ألكساندر وشو نفس العبء على أكتافهم. عندما فكرت في شوجي بهذا الشكل شعرت بالحنين لابنها الآخر.

لذلك قالت:

"أوه، هل ستتركني أنت أيضًا؟".

"ماذا؟".

"بعد أن حصلت على كل شيء، سوف ترحل".

"ماذا؟".

لم يستطع فهم ما ترمي إليه:

"أنت لم تشعر بالجوع من قبل، ولا مرة واحدة طوال هذه السنوات".

قال كاذبًا:

"أعلم".

لم يكن هناك فائدة من جدالها في هذا الوقت.

نهضت أغنيس من مكانها على المقعد ببطء شديد، واتجهت ناحية الصبي الذي يحوم في الغرفة بلا هدف ودفعته:

"حسنًا، دعني أساعدك أيها اللعين".

اتجهت إلى الخارج، فاصطدمت كتفها بباب الحجرة وأصدرت صوت طرقعة عالية في الردهة، سمع صوت أظافرها تنقر فوق أرقام الهاتف، وتشكو بأنفاس متقطعة:

"نعم، أريد سيارة أجرة، من أجل باين إنه راحل".

ثم عادت إلى داخل الغرفة مرة أخرى، وفي عينها نظرة انتصار:

"حسنًا، لم أكن أعتقد أنك تفكر في الرحيل".

مد يده في اتجاهها في رجاء:

"ماذا تقولين؟".

لم يكن بداخله أي رغبة في إيذائها.

"أنا لن أرحل".

عادت إلى المقعد بجوار عبوات الشراب:

"بل سترحل، الكل يرحل في النهاية".

"إلى أين سأرحل؟ ليس لدي مكان لأذهب إليه".

بدأت أغنيس تتحدث إلى نفسها:

"لم أربِّ سوى قطيع من الخنازير ناكرة الجميل، لقد رأيتك تنظر إلى الباب، وتتأمل الساعة، لتذهب إلى الجحيم أيها النذل".

في الخارج، علا صوت بوق سيارة الأجرة لثلاث مرات، وتردد صوت محرك الديزل في الحي السكني، بصقت عليه وقالت:

"اذهب إلى أخيك الفاسق، اذهب لترى إن كان سيطعمك ويهتم بك".

"لا أنا لن أذهب، من المفترض أن أبقى هنا معك، أنا وأنت فقط كما وعدنا بعضنا بعضًا".

بدأت شفتاه ترتجفان بينما كان يعبر الحجرة محاولًا الوصول إليها، وضمها بين ذراعيه، حاول أن يسند رقبتها بأصابعه.

ارتفع صوت بوق سيارة الأجرة مرة أخرى، نفد صبر السائق، أمسكت بذراعي شوجي وغرزت أصابعها في لحمه الطري وقالت:

"أنت ووعودك السخيفة، أنا لم أقابل رجلًا يستطيع الوفاء بوعوده بعد، تأتون جميعًا لتستفيدوا مني بقدر استطاعتكم، ثم ترحلون وتجلسون معًا في حلقة كبيرة للسخرية من أغنيس باين، ها هاها أغنيس باين العاهرة، ها هاها".

كافح من أجل أن يتمسك بشعرها، برقبتها، بملابسها، بأي شيء.

"لا".

خلصت نفسها منه وقالت:

"انتظر".

شعر أن الغشاوة في تلك اللحظة أزيلت عن عينيها، وأن والدته ربما تكون استعادت وعيها وعادت من غفلتها مرة أخرى، ولكنها قالت:

"لا تقف هكذا بعد أن جعلتني أتصل بسيارة الأجرة، لا تجعلني كاذبة يا صاحب الدم الثقيل".

دق جرس الهاتف، فدفعته بعيدًا، وجذبت خيوطًا متناثرة من كنزتها الممزقة، ولكن جرس الهاتف استمر في الرنين، حتى شعر أنه يكاد يمزق جمجمته، أجاب شوجي وهو يشعر بالدوار، فاجأه صوت رجل خشن على الطرف الآخر:

"هل طلبت سيارة أجرة باسم باين؟".

مسح وجهه بأطراف كمه:

"ها".

"حسنًا سائقك في الانتظار بالأسفل، وهو لا يستطيع الانتظار طوال اليوم اللعين".

أعاد شوجي الهاتف إلى مكانه ووقف في الردهة ينظر إلى أغنيس منتظرًا أن تقول شيئًا، أي شيء حتى يمكنه أن يسامحها، حتى يجلس بجوارها ويلف ذراعه حول أرجلها، يمكنه أن يتضور جوعًا ما دام يتضور جوعًا معها.

ولكن، لا. لم تنظر أغنيس في اتجاهه، لم تنطق حتى كلمة واحدة. حمل شوجي حقيبته المدرسية وخرج من باب المنزل، وهبط السلالم ثم عبر السياج، طوى السائق جريدته ودخل الصبي سيارة الأجرة السوداء.

وقفت تنظر من النافذة الجانبية على الشارع الضيق، راقبت طفلها وهو يخرج بوجه عابس وينظر في اتجاه المنزل بحثًا عنها، أومأت برأسها في عجرفة لشعورها بأنها محقة وأنها كانت تعلم دائمًا أنه سيتركها كما يفعل الجميع، شاهدته يستقل سيارة الأجرة التي تنتظره فأدركت أنها فقدته.

سأل السائق شوجي عن المكان الذي يريد الذهاب إليه، جلس الصبي في مكانه لفترة طويلة يفكر في الإجابة، ويضيع الوقت من أجل بادرة أمل، غير متأكد مما يجب عليه أن يفعله، أغلق فمه ومسح دموعه في كم سترته المدرسية، في كل مرة كان يرفع عينيه على أمل أن يجدها واقفة أمامه.

نظر إليه السائق في المرآة، ثم نظر إليه بنظرة اهتمام وسأله بصبر ورقة:

"هل أنت بخير أيها الرجل؟".

لم يفتح الفتى فمه إلا عندما قال:

"القسم الجنوبي من فضلك".

نقلت سيارة الأجرة الصبي عبر وسط مدينة جلاسكو المزدحمة بداية من الطرف الشرقي حتى القسم الجنوبي، اجتازوا محطة القطار ذات الطراز الفيكتوري، وشاهد الأولاد في مثل عمره يتسكعون في الأروقة وحول المحلات، مرتدين بناطيل جينز ضيقة وسترات ذات قلنسوات على شكل فقاعات.

مرت سيارة الأجرة عبر شارع على جانبيه مجموعة مبانٍ مليئة بالمكاتب التجارية، الموظفون في طريقهم خارجين من مكاتبهم ومتجهين إلى محطة الحافلات، بركن الشارع تضوي أضواء المحلات، والسيدات يخرجن منها

حاملات حقائب ورقية مليئة باحتياجات عيد الميلاد والهدايا.

حاول عدة مرات أن يفتح فمه، ويطلب من سائق الأجرة أن يعود من حيث أتى مرة أخرى ولكنه لم يفعل، عبر السائق نهر كلايد العريض برافعاته الزرقاء المهجورة الكبيرة ومرسى بناء السفن.

سأله السائق:

"لأين ترغب في الذهاب بالضبط؟".

لم يكن شوجي يعرف العنوان بدقة، كل ما كان يعرفه أنه على طريق كيلمارنوك [106] وأنه فوق بنك التوفير، فلم يخبر السائق بالكثير، تنهد السائق وقاد السيارة ببطء عبر الطريق الرئيس المزدحم باحثًا عن بنك ذي لافتة زرقاء.

المنازل الفيكتورية في هذا الحي ما زالت تحافظ على رونقها، لأنها مبنية من حجر رملي أحمر غالي الثمن، على عكس المنازل المبنية من الحجر الأصفر المسامي التي تمتص الأوساخ، ورطوبة المدينة وتحتفظ بها لعقود.

الطريق مليء بطاقة تشع من الشباب والطلبة والعمال المهرة والمهاجرين، مرت سيارة الأجرة بين المطاعم التي تقدم النبيذ والأطعمة الفاخرة، كان هناك مكتبات صغيرة وحانات تضع الطاولات في الخارج، ومحلات تجارية تبيع أحدث صيحات الملابس في الحي الجنوبي، استغرق شوجي في مشاهدة شابة تضع الورود في سلة دراجتها، وكاد أن يفوت البنك، كان البنك على اليسار يبدو قديمًا ورث المنظر، وتميزه لافتة زرقاء كبيرة تمامًا كما كان يذكرها، قامت سيارة الأجرة بالانعطاف بطريقة

106- مدنية كبيرة في القسم الجنوبى لاسكتلندا وتعتبر مركزه الإداري ومنشأ ماركة الويسكي الشهيرة جوني ووكر. (المترجم)

كلاسيكية، ثم توقفت وقال السائق وهو يعبث بالعداد:

"اثنى عشر جنيهًا".

شعر شوجي بذعر وهو يمد يده ليمسك مقبض الباب.

"لا يا صديقي".

أغلق السائق الباب عن طريق زر الإغلاق التلقائي.

"اثنى عشر جنيهًا من فضلك".

حاول شوجي مع المقبض المغلق، ولكنه لم يكن يتزحزح.

"أرجوك سيدفع أخي، إنه يعيش في ذلك المبنى هناك".

"هل تظنني مولودًا بالأمس يا بني، بمجرد أن أفتح لك هذا الباب ستجري مثل مهرج قذر يرتدي حلة صفراء سخيفة".

"ليس معي نقود أيها السيد".

شعر السائق بالدهشة ولم يتخيل أن يحدث هذا، فأنزل فرامل اليد وانطلق بالسيارة قائلًا:

"سوف نذهب إلى قسم الشرطة".

شعر شوجي بحركة السيارة، وانسياب عجلاتها الأمامية وسط حركة المرور المسائية فهتف في ذعر:

"يا سيدي، سأدعك تلمس قضيبي".

نظر السائق في المرآة إلى الصبي لبعض الوقت، وتفحصت عيناه الوجه الوردي للصبي ولكن كان من الصعب قراءة شفتيه المختفية تحت شاربه

الكثيف.

"كم عمرك أيها الصبي؟".

"أربعة عشر عامًا".

لم يحرك الرجل عينيه عن وجه الصبي، تسمرت رقبته في مكانها، وشاربه الكثيف يرقص في حزن، حاول شوجي أن يبتسم، ولكنه لم يستطِع أن يبعد شفتيه الجافة عن أسنانه.

"يمكنك أن تلمس قضيبي، أو يمكنك العبث بمؤخرتي".

وأضاف بجدية:

"إن كنت تحب ذلك".

دون سابق إنذار، فتح القفل الذي يغلق الباب، وظهرت نظرة شفقة في عين الرجل العجوز كان شوجي خائفًا للغاية من أن يقوم بأي حركة.

"يا بني، أنا لن آخذ إلا أجرتي فقط".

حاول شوجي فتح الباب، فكاد أن يسقط في الشارع، النساء يعبرن الطريق متعبات وفي أيديهن أكياس سميكة، تعثر وهو يجري بين صف من المتسوقين الذين يقفون أعلى الرصيف أمام المنزل.

وعندما دلف إلى الداخل وجد لوحة مكتوبًا عليها اسم باين وسط عدد آخر من اللوحات المعلقة فوق جهاز الاستدعاء، ضغط الجرس ولكن لم يأته الرد، بدأت ساقاه ترتعشان في حالة من التوتر والذعر، وأحس بالرغبة في الهرب.

ضغط الجرس مرة أخرى ونظر لأعلى ثم إلى المارة بالخارج باحثًا عن مخرج أو طريقة للخلاص، تنهد من خلفه سائق الأجرة قائلًا:

"حسنًا يا بني، عد إلى السيارة".

عندها خرج صوت من جهاز الاستدعاء قائلًا:

"مرحبًا".

هبط ليك إلى الأسفل، مرتديًا ملابس العمل تغطيها طبقات من الجير الأبيض جعلته يبدو وكأنه خباز تحول إلى شبح، توجه إلى سائق الأجرة ودفع له الاثني عشر جينهًا الخاصة به، شاهد شوجي أخاه يدفع له آخر حصة من المبلغ على هيئة فئات نقدية صغيرة من الخمسة والعشرة بنسات، وعندما انتهى، استدار لأخيه الصغير بوجهه الأبيض وهز كتفه:

"بحق المسيح".

ثم بصق على الأرض:

"لقد بدأت أفعالها معك مبكرًا".

قاد ليك أخاه عبر سلالم المبنى إلى الأعلى حتى وصلا إلى الطابق الذي توجد به شقته وجد ممرًّا طويلًا، لا توجد به نوافذ، وفي نهاية الممر خمسة أو ستة أبواب، وخلف كل باب غرفة نوم منفردة، أدخل ليك مفتاحه في ثقب باب رفيع وفتحه، لم يأتِ شوجي إلى هنا إلا مرة واحدة في السابق، عندما جاء إلى ليك للاطمئنان عليه دون سابق إنذار.

في ذلك اليوم عاد شوجي ليجد أغنيس تشرب الخمر وعاملًا من مصنع الصلب يملأ قدحها في سعادة، ومع الوقت بدأت أغنيس والعامل يلمحان له بأن وجوده غير مرغوب به، قلت الرغبة داخله في أن يتولى رعايتها في تلك اللحظة، وانصرف بحثًا عن كير للتنزه، بين المحلات التجارية وبائعي الجرائد والحانات. كان المطر يهطل بشدة في الخارج، لفح البرد مؤخرة عنقه، فاستدار ليجد أخاه ينظر إليه واقفًا في مدخل مبنى سكني بعيد

عن المطر، لم يعرف شوجي كم من الوقت قضى ليك في مراقبته فهو لم يرَه منذ ثمانية عشر شهرًا، رفع شوجي يده في خجل ملوحًا وقطع الطريق في حذر، كان خائفًا، لمعرفته بأن ليك لا يحب أن يحاصره أحد، وأنه ربما يستغل سيقانه الطويلة في الهرب.

ولكن ليك لم يهرب بل لوح بيده، ثم أمسك شوجي من كتفه واصطحبه عبر المدينة في ذلك السبت المطير ليحظى ببعض الهدوء والسكينة، وقدم له وعاء من حبوب الفطور المحلاة وجلسا يشاهدان برنامج دكتور هو[107] معًا.

تظاهر شوجي بالنوم ثم انزلق ببطء لجوار ليك والتصق به، لم يزحزحه ليك بعيدًا ولم يقدر شوجي أن يخبره كم افتقده، ليك لا يتحدث كثيرًا، لا يذكر إن كانت تلك هي المرة الأولى التي رأى فيها شوجي، أم أنه اعتاد أن يراقبه عن بعد، ولم يطلب شوجي أن يعرف شيئًا، اكتفى بشعوره بالسعادة لوجود أخيه.

رأى شوجي هذه الغرفة من قبل مرة واحدة، كانت غرفة كبيرة وفاخرة، ولكنها تحولت من غرفة للمعيشة لغرفة تكدس بها أثاث مستعار، ارتفاع السقف أعلى من عرض الغرفة وفي مقدمة الغرفة نافذة كبيرة تسمح بدخول أضواء المساء، وضوضاء السيارات العابرة في الطريق الرئيس.

نظر شوجي حوله كان هناك شيء مختلف في الغرفة هذه المرة، ولكنه لم يستطِع أن يحدده، جلس ليك على مقعده أمام التلفاز العالي، وبدأ في تناول النودلز الساخنة. شعر ليك بأخيه يحدق في الطعام فقال:

"الماء ساخن في الغلاية".

107- مسلسل خيال علمي بريطاني شهير عن طبيب يسافر عبر الفضاء ويواجه مخلوقات غريبة. (المترجم)

فتح شوجي كيس النودلز وسكب عليه بعض الماء الساخن من الغلاية، فألهب البخار الساخن يده، كان يعلم أنه يجب عليه أن ينتظر خمس دقائق، ولكن رائحة النودلز الرخيصة ألهبت جوعه، وقرصت أمعاءه كما كانت شفتاه متشققة بسبب الجوع.

عندما رفع عينيه وجد ليك يمد شوكة الطعام الوحيدة التي يملكها في اتجاهه، أزاح الملابس من فوق طرف الفراش وقال:

"اجلس فقد بدأت تصيبني بالدوار".

جلس شوجي حيث أشار إليه، وشاهد الاثنان التلفاز الملون، حاول شوجي ألا يأكل الطعام بسرعة كبيرة، وألا يتصرف كالمتسولين، حتى يكون ضيفا جيدًا، ولا يحرج نفسه كما علمته أن يفعل، قال:

"أشكرك على وجبه العشاء".

وكأنه يتحدث عن عشاء الأحد الفاخر المكون من اللحوم المشوية، بعد فترة من الصمت سأله ليك أخيرًا:

"ما الذي دفعها لممارسة القسوة على فتاها الذهبي؟".

فأجاب:

"لا أعرف".

"منذ متى لم تتوقف عن الشراب هذه المرة؟".

هز شوجي رأسه:

"توقفت عن العد، لقد توقفت عن الشراب لفترة قصيرة في الهالوين، ولا أعرف السبب الذي دفعها لذلك، ثم عادت مرة أخرى".

أخرج ليك زفرة تحمل معاني الخذلان، وكأنه يقول إن هذا كل ما أراد أن يعرفه عنها.

"أعتقد أنك أصبحت تعلم أنها لن تتوقف أبدًا عن الشراب".

كان شوجي يحدق في طعامه الذى يشبه ماء المستنقعات، عندما قال:

"ربما تقلع عن ذلك، ولكن يجب عليّ أن أهتم بها أكثر من هذا، وأوفر لها الرعاية والدعم، لو نجحت في أن أنظم أفكاري سوف أستطيع مساعدتها".

ثم أضاف قائلًا:

"يمكنك المساعدة أيضًا، على كل حال".

مسح ليك على صدره قائلًا:

"لقد فهمت، أنت تفضل مصاحبة المزعجين، وأصحاب الألم والأنين".

لم يعلق شوجي على نبرة أخيه الساخرة، ونظر في الأشياء التي وضعها ليك في المكان ليصبح منزلًا صغيرًا.

قدح واحد، وعاء واحد، مجموعة واحدة من المناشف، وبعض الأشياء الأخرى المرصوصة بجوار بعضها، مثل مصباح كيروسين على مائدة بجوار الفراش، كرسي مطبخ يستخدم لوضع الملابس، الغرفة غير منظمة ولا علاقة بين الأشياء بداخلها لكنها ممتعة، مثل غرفة إضافية في منزل قديم حيث يخزن الجميع الأشياء الزائدة عن حاجاتهم، من بين قطع الأثاث الرخيصة توجد بعض الألعاب الإلكترونية باهظة الثمن، تليسكوب، كاميرا يابانية فوق حامل ثلاثي الأرجل من طراز لامبورجيني.

المكان يشبه عرينًا يملكه صبي، عرينًا لشخص يستطيع أن ينفق المال

على كل الأشياء الخاطئة. أدرك شوجي الشيء المختلف في الحجرة، إنها أكثر تنظيمًا من السابق، جمع ليك أغراضه في صناديق زرقاء ووضعها في الركن، كان يستعد للرحيل.

بينما كان ليك يشاهد التلفاز، نظر شوجي حول الغرفة المستأجرة وشعر بالوحدة كما لم يشعر من قبل، أدرك أن الغرفة ليست سيئة، وليست حفرة قذرة وليست عرينًا أو مخبأ سريًّا بعيدًا عن والدته، إنها غرفة رائعة، إنها الطوق الأخير للنجاة.

تأمل شوجي وجه أخيه، ما زال يملك انحناءات مميزة في ملامحه وأكتافًا معقوفة، وفمًا ضيقًا، تحولت عيناه من اللون الرمادي للون الأخضر وشعره مرفوع بثقة للأعلى بعيدًا عن جبهته.

نظرإليه شوجي وهو يشاهد التلفاز، وشعر بالحسد للسلام الذي يطل من عينيه.

"ماذا تظن سيحدث لها؟".

"سوف تفيق وتتوسل إليك أن تعود مرة أخرى، ثم ستكرر الأمر مرة أخرى، وكأن شيئًا لم يحدث".

أضاف ليك بقسوة:

"ولكن يجب عليها أن تعاني من بعدك في البداية".

"أقصد ماذا سيحدث لها في المستقبل، على المدى الطويل؟".

"أوه، سوف يتسبب الشراب في طردها إلى الشارع بسرعة وبشكل مؤكد".

"تطرد إلى الشارع؟ هذا أمر مستحيل. إنها تحافظ على أناقتها، ولا

تترك المنزل قبل أن تلمع حذاءها بشكل لافت".

"شوجي لقد كبرت على ذلك، وما هي إلا مسألة وقت وسوف تظهر عليها آثار الزمن".

كان ينظف أنفه وهو يقول:

"ماذا تظن سيحدث لها بعد أن ترحل أنت؟ ماذا تظن سيحدث لها بعد أن تتوقف رغبة الرجال في الحصول عليها؟".

قال شوجي بشكل قاطع:

"إذًا لن أرحل عنها".

ضحك ليك:

"ستتحول لأحد هؤلاء الحزانى الذين يعيشون مع أمهاتهم بعد أن يفوت نصف عمرهم، أحد الذين تظل أمهاتهم تشتري لهم ملابسهم، ويقفون في طوابير مكتب البريد لصرف مبالغ الإعانة ومعاش التقاعد".

أخرج المخاط من أنفه، وجعله على شكل كرة ثم ألقاه في الركن البعيد:

"يجب أن تعلم أنه لو كان هناك أمل في شفائها لكانت شفيت قبل الآن".

حك ليك ذقنه وعاد بعينيه لمتابعة التلفاز:

"سوف يتسبب الشراب في طردها إلى الشارع، وأنت ستعود إلى رشدك عاجلًا أم آجلًا".

شعر شوجي بالثقة بعد أن بدأ يلعب مع أخيه لعبة الصراحة.

"أنت آخر من لمسها".

لم يشرح له أحد طريقة اللعب، ولم ينبهه أحد إلى طبيعة الأسئلة، ولكن بمجرد أن سنحت له الفرصة شعر أنه يرغب في أن يسأل أخيه منذ فترة طويلة:

"لماذا لم تعد أبدًا من أجلي؟".

نظر ليك مباشرة في عين أخيه، ووضع يده حول عنقه ثم قال:

"هذا ليس عدلًا يا شوجي، كيف تطلب مني أن أقوم بتربيتك؟ ماذا أملك لأفعل ذلك؟ لا تكذب على نفسك، لا أحد يستطيع مساعدتك سواك يا شوجي، انظر إلى نفسك، فكر في الأمر جيدًا، لقد استغرقت وقتًا طويلًا حتى أستقل بحياتي، والوقت لم يكن كافيًا لأفعل المزيد".

علا صوت جهاز الاستدعاء، قادمًا من المدخل، نظر إلى أخيه نظرة جانبية خائفة:

"شوجي أخبرني أنك لم تفعل ذلك".

عاد الصوت مرة أخرى أكثر علوًا وصخبًا، خرج ليك إلى الرواق ثم سمعه شوجي يصرخ في سماعة جهاز الاستدعاء مجاهدًا ليسمع الطرف الآخر بسبب أصوات الطريق المزدحم.

"لم أقصد أن يحدث هذا".

قالها شوجي متحدثًا إلى نفسه، ومعتذرًا دون أن يوجه الاعتذار إلى أحد.

"لم أخبرها سوى أنه شارع كيلمارنوك فقط".

ثم أضاف جملة جعلت الأمر أسوأ:

"وربما أكون أخبرتها، فوق البنك".

"أيها الوغد الصغير عديم الفائدة".

رفع ليك وعاء مربى مليئًا بعملات نحاسية، وألقى محتوياته على الفراش، فملأت الهواء رائحة معدنية عفنة، بحركة سريعة من أصابعه تفحص العملات المعدنية حتى عد عشرين جنيهًا، وضع العملات في جيب معطفه، وفتح الباب ثم هبط إلى الأسفل نحو مدخل المبنى، سمع شوجي خطواته عن بعد.

عندما عاد ليك كان وجهه مرتبكًا وغاضبًا، ولونه أحمر بسبب صعود السلالم والشعور بالحنق، شعر شوجي أن النودلز الساخنة تحولت في معدته إلى ديدان، كان ليك يقف عند الباب حاملًا في يده حقيبة من البلاستيك مليئة بعلب كاسترد صفراء معدنية، مسح ليك الرطوبة عن وجهه بكف يده، فأصبح وجهه نظيفًا خاليًا من الغبار، ثم قال وهو يلتقط أنفاسه:

"هذا الكاسترد استهلك ما تبقى من راتبي الناتج عن العمل في شوارع جلاسكو".

ارتفعت ضحكة شوجي عالية كفقاعة عصبية مريضة، حاول أن يضع يده على فمه حتى يكتم الصوت ولكنه لم يفلح، بصق ليك:

"الأمر ليس مضحكًا".

لكنه ابتسم ثم بدأ في الضحك هو الآخر:

"الأخبار السيئة دائمًا ما تلاحقك يا شوجي، إنها تلاحقك دائمًا".

ارتفع صوت التلفاز في الحجرة المجاورة، وعلا صوت مذيع النشرة المسائية، رفع ليك أصابعه الرقيقة بالتحية، ثم أغلق الباب خلفه.

"اتضح أن مامي طلبت سيارة أجرة لتأتي من أجل اصطحابها،

وعندما حضر السائق خرجت إليه ووضعت حقيبة مليئة بعلب الكاسترد في المقعد الخلفي للسيارة وطلبت من السائق أن يجلبها إلى هنا".

قال لها:

"مستحيل أن أفعل ذلك".

ولكنها أخبرته أن ابنها سوف يدفع الأجرة عندما يصل إليه.

"بل إنها أخبرته أنني سأعطيه جنيهين كإكرامية".

توقف ليك عن الضحك.

"لا أعتقد أن ما تبقى معي من المال يكفي لأجرة الأتوبيس لأتجه إلى مقر عملي في الصباح".

سأله شوجي:

"ولماذا أرسلت الكاسترد، بعد كل هذا؟".

يتخيل الأشياء الرهيبة التي من الممكن أن تكون فعلتها من أجل الحصول على المال لشراء الطعام. كان ليك قد بدأ في خلع حذائه الخاص بالعمل، عندما دق جرس جهاز الاستدعاء مرة أخرى، نظر الأخان بعضهما إلى بعض غير مصدقين، خرج ليك متجهًا إلى جهاز الاستدعاء في الرواق، ثم عاد مصدومًا ومحطمًا وقد ذهبت ابتسامته.

أخرج من جيبه مطواة صغيرة، واتجه إلى عداد الغاز ثم جلس على ركبته وفتح العداد فسقطت حفنة من العملات الفضية اللامعة، ودون أن ينطق كلمة واحدة جمعها ثم اتجه إلى الأسفل، غاب ليك فترة طويلة هذه المرة.

وقف شوجي متسمرًا في الأرض وهو يقول بصوت خافت:

"ما كان يجب عليّ أن أتركك، أنا آسف، ما كان يجب عليّ أن أتركك، أنا آسف".

كررها مرارًا وتكرارًا، كأنها صلاة متواصلة.

فتح الباب وظهر ليك من الظلام ودلف إلى الداخل، كان وجهه أشد بياضًا رغم أنه مغطى بالغبار، وكان يحمل شيئًا بين ذراعيه، تحدث بصوت منخفض وخجول اعتاد أن يستخدمه في الماضي ولم يكن يبتسم كما كان يفعل في السابق.

"شوجي".

قال هامسًا:

"سائق الأجرة ينتظر في الأسفل، لاصطحابك إلى المنزل، لقد أعطيته حفنة من العملات وقد وافق على ذلك، كان متجهًا إلى الجانب الشرقي على كل حال، اجمع أغراضك واستعد للرحيل إلى المنزل".

أومأ شوجي برأسه في طاعة وبطء، أدرك أنه أصبح مرتبطًا بها إلى الأبد، ولن يمكنه التحرر مطلقًا.

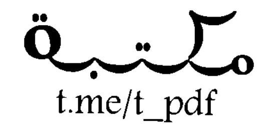
"ما الذي يوجد في هذه الحقيبة؟".

نظر ليك إلى حقيبة التسوق البلاستيكية التي يحملها بين ذراعيه، وبدأ في فتحها، شاهد شوجي كتفيه ترتفعان من الخلف، تحول غضب ليك إلى نوع من قلق، ولكنه كان يحاول أن يخفيه، ووضع يده في الداخل ثم سحبها ببطء مخرجًا صندوقًا بلاستيكيًّا أسود ذا سلك طويل ملتف.

"لا أظن أن هذه علامة جيدة".

كان الهاتف من منزل والدته، كان هذا دليلًا على انقطاعها عن العالم،

علامة على أنها تنوي أن تؤذي نفسها، ولن تطلب المساعدة من أحد، لن تتصل بليك ولا شوجي ولا حتى شوج، لم ترسل علب الكاسترد لتلعن ابنها العاق كما كان يظن في البداية، كانت تتأكد من أنه حصل على الغذاء الكافي قبل أن تودعه.



31

جاء شهر مارس، شهر ميلاد أغنيس، سرق شوجي من أجلها باقتين من أزهار النرجس البري المحتضرة من متجر باكي. منذ اليوم الذي قضاه في منزل ليك، اعتاد أن يخفي دفتر الإعانات الاجتماعية عنها، حتى يضمن الحصول على المال الكافي لشراء الطعام قبل أن تشتري مخزون شرابها الأسبوعي. ومنذ احتفالات عيد الميلاد، اعتاد أن يخفي بعض المال الذي يستخرجه من العداد عن نظرها، حتى يستطيع أن يعطيها بعض الجنيهات في ذلك اليوم المميز لتذهب للعب البنغو.

تناولت المظروف المليء بالعملات المعدنية، ورفعته إلى صدرها ثم ضمته كأنها تضم تاجًا مرصعًا بالمجوهرات، كانت سعيدة للغاية.

في الصباح الباكر من اليوم التالي أعادتها الشرطة إلى المنزل، كان هواء المنزل محملًا بالرطوبة ورائحة البنفسج، وحبوب اللقاح البرية المتحللة، وجدتها الشرطة تتجول عند نهر كلايد، بعد أن فقدت حذاءها ومعطفها الأرجواني الثمين لم تستطِع أن تصل حتى إلى حيث يلعبون البنغو.

تجنبت أغنيس النظر إلى عيني شوجي بسبب شعورها بالخزي، ولم ينظر إليها لشعوره العميق بالغباء، كان قضاء ليلة في العراء في برودة شهر مارس أمرًا صعبًا بالنسبة لها، حيث امتلأت رئتاها المعطوبتان بالرطوبة. جهز لها حمامًا دافئًا ووضع في الماء الكثير من ملح الطعام، وجهز لها أيضًا ملابس نظيفة وقام بكيها، ثم أعد لها كوبًا من الشاي بالحليب ووضعه أمام باب الحمام، وغادر المكان دون أن يتبادلا كلمة واحدة.

ارتدى زي المدرسة ثم بدأ في الركض مع الأطفال الآخرين في الطريق الرئيس. شعر بالدهشة عندما سمع صوت عملتين معدنيتين من فئة الخمسين بنسًا تصطدمان بحرية في جيب معطفه ذي القلنسوة، كان قد أخرجهما من عداد الغاز في ما سبق، توقف مكانه، وأخرجهما من جيبه، والتفت إلى أول حافلة متجهة إلى أي مكان وصعد على متنها، وسأل السائق إلى أي مدى يمكنه أن يذهب بهذه النقود.

كان النظر من الطابق السادس عشر في سايهيل يجعله يشعر بضآلته الشديدة، كانت المدينة نابضة بالحياة في الأفق، ولم يكن رأى نصف معالمها من قبل، فرد شوجي ساقيه في غرفة الغسيل التي تطل على فضاء لامتناهٍ، وظل يشاهد لعدة ساعات الحافلات البرتقالية تخترق المباني المصنعة من الحجر الرملي رمادي اللون.

شاهد الأضواء تنحصر عن دار العجزة ذات الطراز المعماري القوطي[108]، بينما تعيد أشعة الشمس القوية وبريقها الحياة إلى زجاج نوافذ الجامعة وقضبانها الحديدية، شعر بثقل في ذراعيه وقدميه وهو يجلس متدليًا ينظر إلى المدينة، مد يده في جيب سترته وأخرج مظروفًا وبدأ ينظر لمحتوياته للمرة المئة، لم يكن مكتوبًا عليه عنوان المرسل، فقط ختم بارو أنفورنيس[109] البريدي. لم يكن يعرف أين تقع بارو أنفورنيس ولكنها لا تبدو كمنطقة في اسكتلندا.

بطاقة تهنئة بعيد الميلاد، وصلت إليه متأخرة بشهرين عن ميعادها. أرسلها ليك الذي رحل إلى مكان جديد ووجد عملًا آخر. حيث يبنون المنازل الجديدة، هم في حاجة لمختلف أنواع الشباب الذين يقومون بكل

108- طراز معماري نشأ في فرنسا واشتهر في أوربا في نهاية العصور الوسطى واستخدم على نطاق واسع في الكاتدرائيات والقصور حتى نهاية القرن السادس عشر. (المترجم)

109- بلدة في الشمال الغربي لإنجلترا. (المترجم)

الأعمال مثل التبليط وأعمال الجبس وتركيب الأسقف.

قال إن الأجر جيد، وإنه لا يعلم متى يستطيع أن يعود مرة أخرى، أخبره أنه لم يلتحق بمدرسة الفنون بعد، ربما يلتحق بها في العام القادم أو العام الذي يليه، وقال إنه التقى بفتاة لطيفة تعمل في صالة لتقديم الشاي، وإنه يحب التنزه بصحبتها وقضاء الوقت معها على حافة المستنقع.

بداخل المظروف ورقة نقدية جديدة، لامعة وحادة لم تستعمل من قبل، تساءل شوجي لفترة طويلة حول هذه الورقة النقدية، وسمح لنفسه أن يحظى بأحلام صباحية يتخيل فيها ليك بانتظاره عند أحد مواقف الحافلات، ويتخيل أنه ينفق النقود في شراء لحوم طازجة، ثم يفاجئ أغنيس بمائدة حافلة للعشاء.

كان بداخل المظروف شيء آخر، ورقة صغيرة انتزعت من كراسة مدرسية تحتوي على رسم لولد صغير بالقلم الرصاص، يجلس القرفصاء فوق سرير غير مرتب، يولي الولد الصغير ظهره للرسام الذي يرسم عموده الفقري العاري من الأسفل إلى الأعلى وسروال بيجامته الذي لا يكاد يغطي جسده.

الصبي الصغير منشغل بالنظر إلى شيء ما في الأسفل والظل يغطي وجهه، ربما كان يلعب بخيول صغيرة مصنوعة من الخشب تخص الجنود، أو تشبه حصان طروادة، لكن شوجي يعرف الحقيقة عن تلك المهور الصغيرة الملونة اللامعة الجميلة، ليك يعرف عنها كل شيء أيضًا، ليك دائمًا ما يعرف كل شيء.

طافت الرياح الشمالية الباردة بزوايا غرفة الغسيل، فاحمر أنف شوجي، وعندما لم يقدر على تحمل درجة حرارة الجو وضع بطاقة عيد

الميلاد في جيبه وعاد للمنزل مرة أخرى.

كانت جميع الأنوار مضاءة عندما عاد، ورائحة البنفسج البري الذابلة تفوح من كل مكان، حتى إنه استطاع أن يشم رائحة الخميرة والتعفن في جسدها. سمع شوجي أنين مشغل الهاتف على الطرف الآخر فأعاد السماعة إلى مكانها، وأخذ الهاتف من جوارها وأعاده إلى مكانه الأصلي، وجد علامات جديدة باللون الأحمر بجوار بعض الأسماء القديمة في دفتر الهاتف.

أغنيس نائمة على مقعدها كشمعة ذائبة، تتمدد أقدامها أمامها ورأسها يتدلى على جانب جسدها، اتجه شوجي إلى الجانب الخفي من المقعد وهزه بقدمه ليعرف كم تناولت من الشراب، ثم رفع زجاجة الفودكا في الضوء ليقدر الكمية المتبقية، كانت قد شربت كل شيء.

استمع إليها وهي تخترق الصمت بالسوائل بأصوات القيء، وقطرات من سائل أصفر تسيل فوق شفتيها، مد يده في جيب سترتها وأخرج لفة من المناديل الورقية بهدوء، حتى لا يوقظها، وبأصابع تمرنت على الوصول إلى داخل فمها وتنظيف تجويف الفم والقصبة الهوائية، مسح السائل الأصفر ثم أعاد رأسها مرة أخرى بأمان ليتدلى فوق الكتف اليسرى.

شعر بألم في معدته ولكنه لم يكن جوعان، فجلس تحت قدميها وبدأ في التحدث معها في هدوء:

"أحبك يا مامي، أنا آسف أنني لم أكن هنا لمساعدتك في الليلة الماضية".

رفع شوجي قدمها برفق، وفك مشبك حذائها ذي الكعب العالي متأنيًا، ثم أخرج الحذاء بهدوء من بين أصابعها وفرك أقدامها الباردة بلطف، ووضعها على الأرض ثم أكمل الحديث معها برفق كما بدأه.

"اتجهت اليوم إلى سايهيل وشاهدت المدينة بالكامل من الأعلى".

وضع حذاءها ذا الكعب العالي بجانب مقعدها، ووقف مرة أخرى بجوارها ثم مد يده بمهارة باحثًا بين ثديها الناعم المترهل، حتى وصل إلى مشبك على هيئة فراشة تربط حمالة صدرها، حله وشاهد ثدييها الثقيلين يتدليان.

"لا بد من أنك ستحبين العيش هناك، فهناك الكثير من الأشياء لرؤيتها".

ثم همس:

"أشعر بالدوار للتفكير في كل ذلك".

ثم استمر في تحريك أصابعه حتى وجد أطر حمالة صدرها وحررها من كتفيها المثقل لحمه من ضغط الحمالات المصنوعة من النايلون، تحركت أغنيس ولكنها لم تستيقظ، سعلت بقوة مرة أخرى، كان سعالًا رطبًا، يحمل رائحة وعفن عمال المناجم ودفء البيرة وذكريات ليلة بارده بالقرب من النهر.

فرك شوجي عظامها وهو يتساءل إن كانت زنازين الشرطة شديدة البرودة، تدحرج رأسها إلى الوراء فارتطم بظهر المقعد اللين، فمد يده بسرعة وبشكل تلقائي إلى مؤخرة عنقها، ومال برأسها للأمام مرة أخرى.

وقال:

"سوف أترك المدرسة في أسرع وقت ممكن، لا داعي للجدال بهذا الشأن يجب أن أحصل على وظيفة، وأوفر المال الكافي لإخراجك من هنا".

وأضاف:

"في يوم من الأيام قد أصطحبك إلى إدنبرة، سوف يمكننا مشاهدة

فايف[110] وأبردين[111] وربما أوفر ما يكفي من المال لشراء عربة معيشة متنقلة، أعتقد أنك ستصبحين أفضل حالًا عندما ننتقل من هنا".

ابتسم شوجي وهو ينظر إلى وجهها فاقد الوعي، وقال:

"ما رأيك؟".

استمع برهة لأنفاسها ثم مد يده وشد سحاب تنورتها فانزلقت بسهولة للأسفل، وظهرت معدتها الممتلئة التي تشبه قطعة من عجينة الخبز التي تهرب من المقلاة.

همس:

"لا، أعتقد أنه لن يحدث".

مد شوجي يده إلى داخل فمها الذي يشخر بعنف، وأخرج طاقم أسنانها المستعار مصدرًا صوت امتصاص رطب، ثم قام بلفه بورق المناديل، ووضعه على ذراع المقعد، وبأصابع لينة قام بتدليك رأسها كموجات مرت عبر شعرها الأسود الناعم كان يفرك فروة رأسها بالطريقة التي تحبها، بينما يشاهد جذور شعرها التي أصبحت بيضاء تمامًا.

سعلت أغنيس مرة أخرى وسرت قعقعة جافة في حلقها، وارتعش بطنها حتى أصبح سميكًا وثقيلًا دفعة واحدة، ارتفعت العصارة الصفراء على شفاهها مرة أخرى، توقف شوجي عن تمرير يده بين شعرها وحاول الوصول لورق المناديل مرة أخرى، لكن شيئًا ما جعله يتوقف وبدأ يتأمل سعالها.

110- واحدة من أهم المدن السياحية والتاريخية في اسكتلندا كانت تعرف قديمًا بمملكة «فايف» وتعتبر شبه جزيرة مستقلة. (المترجم)

111- ثالث أكبر المدن في اسكتلندا من حيث عدد السكان وهي مدينة تاريخية ترتبط بحروب روبرت بروس ضد الإنجليز في الماضي. (المترجم)

"ربما كان ليك محقًا".

سعلت مرة أخرى وسقط رأسها البائس إلى الوراء واصطدم بحافة المقعد الناعمة. ظهرت فقاعة صفراء فوق شفتيها ولثتها العارية من الأسنان، استمع شوجي إلى أصوات تنفسها، كان ثقيلًا ومتقطعًا وكانت حواجبها معقوفة، كأنها تستمع إلى أخبار سيئة، اهتز جسدها بالكامل، لم تكن اهتزازة قوية، كانت تشبه الهزة التي يتعرض لها الراكب في المقعد الخلفي من سيارة الأجرة عندما تقع في حفرة غير مستوية.

كاد أن يفعل شيئًا، كاد أن يمد أصابعه للمساعدة، ولكن أنفاسها انقطعت ببطء حتى تلاشت واختفت، تغيرت ملامح وجهها بعد ذلك، واختفى القلق من ملامحها وظهرت عليها علامات السلام.

رحلت في هدوء متخمة بالشراب، لم يعد في وسع أحد مساعدتها بعد الآن، رغم ذلك هزها بقوة، لكنها لم تستيقظ، هزها مرة أخرى، ثم بكى على أمه لفترة طويلة.

بعد أن توقفت عن التنفس، لم تفلح كل محاولاته، فات الوقت لفعل أي شيء.

صفف شوجي شعرها بأقصى ما يستطيع، أخفى الجذور البيضاء الوقحة بالطريقة التي تحبها، قام بإخراج طقم الأسنان المطوي ووضعه في مكانه داخل فمها برفق، ثم أمسك المناديل الورقية ومسح شفتيها ووجهها، مع الحرص على أن يدفع الزائد من مستحضرات التجميل في الزوايا، وألا يتلف خطوطه الناعمة، وقف في مكانه وجفف عينيه.

تبدو كأنها نائمة، انحنى في اتجاهها ثم قبلها للمرة الأخيرة.

لم يكن هناك الكثير من الأتربة، ولكن شوجي اهتم بتنظيف قطع الخزف الخاصة بأغنيس بشكل جيد طوال فترة النهار، قام بتنظيف تمثال الغزالة الصغيرة مفقودة الأذن، وتمثال الفتاة بائعة التفاح الوردي التي فقدت ذراعيها بالكامل، ولكنها لا تزال تحمل سلة التفاح الأحمر، لسنوات طويلة كان يخشى النظر لتلك المجموعة من التماثيل، ولكنه الآن مهتم بتنظيفها ومسحها برفق، ثم ترتيبها في أماكنها مرة أخرى بشكل صحيح.

في ذلك الصباح التقط تمثال الغزالة طويل الأطراف وقلبه بحذر بين يديه، نظر إلى موضع الكسر في أذنها اليسرى ولاحظ أن الألوان تبهت عن عينيها شيئًا فشيئًا، وتخفت البقع البيضاء المنتشرة فوق جلدها، فشعر بالغضب، لأنه كان حذرًا للغاية في التعامل معها، ويبذل أقصى استطاعته للعناية بها.

ضغط شوجي على القطعة الخزفية حتى ابيضت مفاصل أصابعه، ظل ظبي الغزال الصغير يبعث نفس الابتسامة الهادئة، ثم ضغط على ساقة الأمامية الرقيقة برفق في البداية، ثم بقوة أكبر حتى انكسر الخزف مصدرًا صوتًا مدويًا، وقف في مكانه طويلًا حابسًا أنفاسه.

تحت قشرة الخزف اللامعة كانت طبقة طبشورية خشنة، مرر أصابعه فوق الحافة المكسورة الحادة، ودون أن يشعر أعاد تمريرها مرارًا وتكرارًا، حتى تكسرت كل أرجل الظبي الخزفية، وأصبحت في راحة يده، وعندها شعر أنه لا يتحمل النظر إليه مرة أخرى، فترك القطع المكسورة تنزلق في الفراغ بين الفراش والجدار ثم حمل معطفه، وجمع حقيبته

سريعًا ووضع فيها السمك المعلب الذي اشتراه من كيلفيذرز، وأغلق باب غرفة النوم ثم انطلق سريعًا إلى الخارج تحت المطر.

سار شوجي مترنحًا في الطريق السريع تحت المطر، كان هناك مجموعة من الرجال الباكستانيين منشغلين بوضع صناديق بنية تحتوي على الخضروات الطازجة أمام محلاتهم، وصيحات الموسيقى تنطلق من مسجل داخل متجر يؤجر أفلام بوليود، معلق على زجاجه الأمامي بوسترات لرجال ذوي بشرة داكنة يحملون نساء ذوات أعين واسعة في عناق طويل.

توقف للحظة لدراسة ملامحهم ثم انصرف في طريقه دون أن يلاحظه أحد، استقل حافلة برتقالية اللون تتبع شركة نقل خاص، وبصوت طقطقة قطع له السائق تذكرة بنصف القيمة للأطفال كبار الحجم.

تسلق السلم إلى الدور العلوي، وجلس على أحد المقاعد الجافة في مؤخرة الحافلة، كانت حركة المرور بطيئة ولكن شوجي لم يمانع في ذلك، مسح جزءًا من الزجاج المبتل على هيئة ثقب صغير حتى يستطيع الرؤية من خلال نافذة الحافلة، تابع المدينة وهي تغرق تحت المطر، والحافلة تتجه مبتعدة عنها، ارتجت الحافلة ثم توقفت على جانب الطريق الأيمن المهجور، المساكن نصف المهدمة مكشوفة تحت المطر على حافة المدينة، والغرف الأمامية ذات ورق الحائط الملون عارية تكشف الممرات المحطمة بشكل محرج فوق أكوام من الأنقاض.

في الخلف كان حبل غسيل نظيف معلق بفخر بين عمودين ومجموعة من الأطفال تلعب في سعادة والحي بأكمله ممزق من حولهم.

سارت الحافلة بجوار نهر كلايد، عكست مياه النهر اللون الرمادي للرافعات المعدنية وهي تلوح في الأفق وحيدة وخاملة فوق الماء، مسح شوجي الزجاج مرة أخرى وتذكر كاثرين، كان عقله يذهب إليها دائمًا عندما يرى الرافعات الصدئة، إنها لن تعود إلى المنزل حتى لحضور جنازة أغنيس، لقد أخبرت ليك الذي بدوره أخبر شوجي أنها تفضل أن تتذكر أمها عندما كانت بحالة جيدة، ولن تشعر بالسعادة إن شاهدت كيف أفسدها الشراب إلى هذا الحد.

الآن بينما شوجي ينظر إلى الرافعات أدرك أنه لا يستطيع أن يتذكر ملامح وجه كاثرين بوضوح، وتساءل ما الذي تعتقده كاثرين عند التفكير في أمهم، ربما كانت ترى فيها الأشياء الجميلة فقط.

أحرقوا جثة أغنيس في صباح هادئ ومشرق، جلس شوجي بجوار الجثة لأطول فترة ممكنة، لمدة يومين في المساء كان يضع الغطاء فوقها، ويزيله في الصباح، وكان يشعل المدفئة عندما يصبح الجو باردًا، ولكن ذلك لم يكن مفيدًا بالنسبة لها فقد أصبح جلدها باردًا، ولا شيء يمكنه أن يعيد الحرارة فيه مرة أخرى، ثم اتصل بليك حتى يحضر إلى المنزل الجنوبي كي يخبره بوفاة أمهم.

انتظر ليك فترة طويلة حتى توقف شوجي عن البكاء، ثم بدأ يخبره بما يجب فعله في هذه الحالة، خطوة بخطوة بصبر شديد، ثم كرر ذلك مرة أخرى، دون شوجي كل شيء في دفتر الهاتف الخاص بأغنيس، اعتقد شوجي أنه أبلى بلاء حسنًا لأنه لم يفقد أعصابه خلال التدوين، حضر

ليك كل المسافة من الشمال على متن الحافلة، ووقف على مسافة عشرة أقدام من جثة أغنيس.

كان من الواضح أنه غير قادر على الاقتراب منها أكثر من ذلك، ترك شوجي يبكي فوق جثة والدته، ثم تركه لاحقًا ينحني فوق السجادة الخاصة بمتعهد دفن الموتى نازعًا قطعًا رخيصة من الحجارة الملونة التي تزينها، ليضعها في أذن والدته متظاهرًا بأنها زوج من الأقراط المتماثلة.

رتب ليك مراسم إحراق الجثة، واتبعه شوجي طوال الأسبوع كان يشعر بإرهاق شديد لدرجة أنه غير قادر على البكاء مجددًا، ويشعر بذهول شديد لدرجة أنه غير قادر على المساعدة، من مكتب التحقيقات إلى متعهد الدفن، إلى الكنيسة الصغيرة وشوجي يسير خلفه صامتًا شاحبًا عديم الفائدة.

فى مرات عديدة يتوقف ليك عما يفعله وينظر إلى أخيه دون أن يقول شيئًا، يريد أن يمنحه مساحة حتى يبوح بكل ما يدور في خاطره.

حاول شوجي أن يخبر ليك بكل شيء لكن الكلمات لم تخرج منه، لم يستطع أن يقول شيئًا، كل ما استطاع أن يقوله إن ما معه من المال لا يكفي مصاريف الجنازة اللائقة وإنه كان من الواجب عليه أن يستعد لذلك اليوم، قال إن النقود سوف تكفي لحرق الجثة، ولكنها لن تغطي مصاريف دفنها بجوار ليزي وويلي.

أخفى ليك خبر موتها عن الصحف، ولكن كانت هناك امرأة تقيم بالجوار اعتادت أن تتردد على جمعية المساعدة في الإقلاع عن إدمان الكحول، نشرت الخبر بينهم سريعًا وحضر العديد من الغرباء إلى المنزل، وسرعان ما انتشر الخبر في بيتهيد، وحضر جميع الغيلان العجائز إلى مقابر دالدوي، لم يحضر شوج الكبير لمشاهدة حرق جثمان أغنيس،

سائق الأجرة الوحيد الذي حضر المراسم كان يوجين، بالرغم من أن شوج الكبير يجب أن يكون على معرفة بما حدث بواسطة كاثرين، أو راسكال ولكنه لم يظهر وجهه أبدًا.

جهز شوجي حقيبة ظهر مليئة بالملابس النظيفة في حال حضور والده حتى يمنحها له، ولكنه شعر لاحقًا بالغباء الشديد وهو يبحث خلال مراسم الخدمة عن والده بين الوجوه فلم يجده، عبس ليك في وجه شوجي وكأنه غاضب بسبب هذا الشعور بالأمل، أو محبط لأن شوجي ساذج بما يكفي ليؤمن بوالده.

قال ليك إن شوج الكبير حقيبة من الخراء والأنانية، فشعر شوجي بالحزن عند سماع ذلك، ليس فقط لأن ما قاله كان صحيحًا، ولكن لأن أسلوبه في الحديث عنه كان يشبه أسلوب والدته تمامًا.

بداخل محرقة الجثث جلس المعزون بالخلف، وعلى الجانبين، ولم يجلس في المقدمة سوى ليك وشوجي، جلس يوجين بالقرب من الباب، يحيط به كولين وبريدي، وجينتي جالسة بعين نصف مغلقة بجوار الشاب لامبي.

نظر شوجي حوله فوجد الجميع لا يبدو عليهم الحزن، بعد أن وضعوا جثة أغنيس في غرفة المراسم سمع شوجي صوت سيدة من خلفه:

"كيف سيحرقون الجثة؟ لن يستطيعوا إطفاء النار أبدًا من هذا الجسد المشبع بالخمر اللعين؟".

قبل هذا لم يفكر شوجي جديًا في عملية الإحراق، عندما وضعوا النعش على بكرات التوجيه تخيل عقله سيور السوبر ماركت، ثم اتضح لعقله ما الذي سوف يحدث، فأصبح عقله مرهقًا ينظر حوله بأعين مشتتة في وحشية، لا يعرف ما الذي سيحدث بعد ذلك، نظر إلى ليك فأومأ إليه

برأسه قائلًا:

"نعم، إنها سوف ترحل".

كانت هي نفس العبارة التي اعتاد ليك أن يرددها عندما تركب على متن سيارات الأجرة المختلفة.

"نعم، إنها سوف ترحل".

وهو يتبعها من خلف الستائر، ثم ينظر إلى أخيه الأصغر مبتسمًا، ويجلس بجواره معزيًا لمشاهدة نشرة الأخبار المسائية.

"نعم، إنها سوف ترحل".

هذا ما قاله وجثمانها متجه إلى داخل محرقة الجثث وكأنه يتخلص منها. خارج المحرقة، كان هناك براعم بيضاء صغيرة فوق الأشجار العارية والحديقة مشبعة برائحة ذوبان الثلج عن الأعشاب الخضراء.

عبر بعض المعزين الشجعان فوق العشب لتقديم تعازيهم للأولاد، خصوصًا أن الآخرين مثل كولين أرسلوا من ينوب عنهم كبريدي على سبيل المثال، واجهت جينتي صعوبة في السير فوق العشب المبتل، وبدا عليها الارتباك عندما أخبرها ليك أنهم لن يقيموا مراسم استقبال ولن يقدموا الطعام ولا المشروبات، فسألته:

"ماذا؟ ولا قطرة شراب واحدة؟".

بصق، فظهرت أسنانه الاصطناعية الأمامية شديدة الاتساق:

"هل تسخرين مني؟".

أمسكها يوجين من ذراعها وجذبها بعيدًا في تلك اللحظة، ثم نظر لأبناء أغنيس حتى يعتذر لهم، ولكن ليك استدار مبتعدًا في بساطة.

استند شوجي برأسه إلى نافذة الحافلة، وحاول ألا يفكر في الجنازة مرة أخرى، استخرج بأصابعه بعض العملات وفصلها بعيدًا عن البقية، وفكر في الاتصال بليك لاحقًا من هاتف عمومي خارج منزل السيدة بوخش.

يعلم شوجي كيف يدار مثل هذا الحوار، سوف يسأله شوجي عن حال المولود الجديد، ولن يسأل عن مدرسة الفنون، وعندما يحين دور ليك في السؤال عن أحوال شوجي سوف يخبره بأن كل شيء على ما يرام، فهذا ما يحب أخوه أن يسمعه، وسيتظاهر كلاهما أنه بخير، ويتحدثان لبعض الوقت عن تذاكر القطارات والرحلة إلى الجنوب كشيء صغير ومشترك يتطلع كلاهما لفعله، ثم يهدأ ليك عن الكلام فهو كما يعلم شوجي لا يحب الكلام كثيرًا، وهو شيء جيد لأن سعر المكالمات للمسافات البعيدة باهظ للغاية من خلال الهاتف العمومي، والسيدة بوخش رفضت أن يكون هناك هاتف قادر على إجراء المكالمات البعيدة في منزلها.

تصدر الحافلة صوتًا عاليًا أثناء سيرها بين ساحة بناء السفن في نهر كلايد، في هذا الوقت يكون النهر العريض هادئًا وخاليًا إلا من بحار وحيد في قارب صغير، الخطوط اللامعة فوق معطف المطر الذي يرتديه تضوي مثل قطع من الماس بين زخات المطر الثقيلة.

يعرف الجميع هذا الرجل الذي يظهر دائمًا في صحفية جلاسكو المجانية، تمامًا كما كان يظهر والده من قبله، كان يجوب النهر في دوريات لإنقاذ الرجال العجائز الذين يسقطون في الأيام المطرة داخل النهر، وفي بعض الأحيان يلتقط جثث الرجال والنساء الذين لم يرغبوا في أن يتم إنقاذهم، الذين يقفزون متعمدين في صمت من فوق الجسور الحجرية لقلب الماء قليل الملوحة.

نزل شوجي من الحافلة في الساحة الخلفية للمحطة المركزية المغمورة بالأوساخ وبراز الحمام، الجدران الزجاجية محكمة الغلق للمحطة فاخرة

وبراقة كالعادة، وتلقي بظلال سوداء فوق الساحة المقابلة والشوارع الجانبية التي تنتشر فيها محلات تبيع السراويل الجينز بنصف سعرها، وتبيع السمك والبطاطا المقلية بجوار الحانة التي تفتح في الصباح، مبكرًا قدر استطاعتها، وتصبح مليئة بالدخان والغبار بحلول وقت الغداء.

توقف شوجي أمام مخبز تفوح منه في الهواء رائحة كريمة التزيين الرخيصة والخبز الأبيض، وتبعث من الفرن حرارة تجعله يتوهج دفئًا.

فى بعض الأحيان كان يقف أمام المخبز ثابتا لمدة ساعة، وهو يتظاهر بانتظار الحافلة للحصول فقط على بعض الدفء المحمل برائحة السكر المنبعثة من شفاط الهواء.

في إحدى المرات وجد نفسه يحدق في طابور سيارات الأجرة وهو يحني ركبته للأسفل حتى يتمكن من فحص وجوه السائقين، ولكنه أدرك ما الذي يفعله وما الذي يأمل في حدوثه، شعر بالخجل وفرد ركبته سريعًا، ثم هرع مبتعدًا ودلف إلى داخل محل الخباز، كان هناك طابور طويل من الفتيات العاملات يتجولن داخل المحل الدافئ، انتظر شوجي في صبر حتى بدأت جفونه في الارتخاء بفعل الحرارة اللذيذة، سأل فتاة وردية الخدين تعمل في المتجر، وهي تداعب شعرها أن تجلب له فطيرتين محشوتين بالفراولة.

وضعت الشطائر في حقيبة ورقية، فبدأ اللون الأحمر اللامع يتسرب من داخلها ويلتصق بالحقيبة الورقية فقال:

"إذا سمحت يا آنسة، هل يمكنك وضعهم في صندوق؟".

قالت بملل وهي تمضغ العلكة الساخنة بأسنانها:

"إن عددهم قليل جدًا حتى أضعهم في صندوق يا بني".

أخرج شوجي ورقة نقدية من فئة الخمسة جنيهات ولفها حول أصابعه:

"حسنًا سوف آخذ أربعًا، إنهم هدية".

لم يكن سيحصل على راتبه قبل أسبوع من الآن، ولكنه اشتراهم على كل حال، قالت المرأة معترضة دون قسوة:

"كان عليك أن تخبرني بذلك منذ البداية أيها العاشق، لم أكن أعرف أنك واحد من الأثرياء المبذرين".

"الأمر ليس كذلك".

تمتم شوجي وذقنه مائل نحو صدره.

بحركة سريعة من معصمها، التقطت المرأة صندوقًا مربعًا من الكارتون الأحمر وضمت حوافه معًا، بدت الشطائر الأربع معًا كأربعة قلوب صغيرة من الياقوت الأحمر.

دفع النقود للسيدة، ورفع مقدمة رأسه للأعلى مرة أخرى، عاد للطريق مجددًا.

تخدعه النقود كالعادة مثلما تفعل في كل مرة، بمجرد أن أنفق جزءًا من الجنيهات الخمسة، وجد نفسه في متجر صغير يشتري زجاجة كبيرة من شراب الزنجبيل الغازي ببعض الفكة. وسار بطول الشارع الطويل حاملًا زجاجة الشراب والشطائر التي على شكل الياقوت الأحمر والسمك المعلب في حقيبته، تجول في وسط القلب التجاري للمدينة وعبر شارع ترونجيت القديم، ثم شارع سالتماركت حتى وصل إلى النهر العريض، ثم سار بطول ضفة النهر وصولًا إلى المصب حيث رصيف رسو السفن.

تحت الكوبري المعلق القديم لمحطة قطار سانت إينوك تجمع عدد

من الرجال بقمصان رياضية ذات أكمام طويلة وفوقها سترات رسمية خفيفة، كانوا يرتجفون وهم يشاهدون فيلم فيديو مسروقًا، ويجلسون فوق قطعة مسطحة من الكارتون، مرت بجوارهم مجموعة من النساء متجاهلات وجودهم، وهن يحملن حقائب تحتوي على ملابس مستعملة اشترينها من السوق في الأعلى.

كانت تجلس هناك في نفس المكان الذي أخبرته أنها ستجلس فيه، في الزاوية المقابلة للسوق على السياج، وتبدو كأنها صدئة مثله، كان شعرها طويلًا ومفرودًا بسبب المطر وأقراطها الكبيرة تمنحها مظهرًا طفوليًّا أكثر مما كانت عليه في السابق، شعر شوجي بالحزن لرؤيتها مبتلة ومنهكة، التقى بها لأول مرة في العام السابق لوفاة أغنيس، كان بصحبة كير وير، كانت تحمل بداخلها حكمة وشجاعة، وكانت وقحة، ولكنه يدرك الآن أنها مجرد واجهة طفولية، مجرد قناع لإخفاء الألم في داخلها، تغيرت الآن ملامحها الجميلة ووجهها المليء بالنمش بطريقة مختلفة كما كانت ترغب دائمًا، كانت شفتاها مغلقة في حزم وعيناها تتجولان في الزحام بحثًا عن المتاعب، لقد ارتدت كل الدروع لتحمي نفسها، ولكنها نسيت أن تخلعها بعد ذلك وأصبحت تتجول بها في كل مكان.

قالت ليان كيلي:

"لقد تأخرت، أنا مبتلة تمامًا".

تضع ليان كومة صغيرة من حقائب التسوق بين ساقيها لتحافظ عليها.

رد شوجي:

"أعتذر".

صعد بجانبها على السياج، ثم عدل جلسته عدة مرات حتى أصبح

في نفس وضعها، أصبح يماثلها طولًا، وربما صار أطول منها، مد يده وأمسك معصمها الذي لم تكن سترتها تغطيه في الماضي.

"ماذا تريدين أن تفعلي؟ هل نتجول لبعض الوقت؟".

ضحكت في سخرية:

"من الجيد أننا لسنا مرتبطين".

وألقت علكتها الرمادية في ماء النهر:

"أنت متوقع للغاية".

"أعتذر".

مدت يدها ولمست جانب وجهه ثم دفعته ضاحكة:

"أنا أعبث معك، بالطبع سوف نتجول قليلًا، ماذا سنفعل غير ذلك؟".

ثم نظرت إلى الحقائب تحت قدمها بملل وقالت:

"دعني أولًا أسوي أمرًا واحدًا".

يعلم الأمر الذي تريد تسويته، لو كانت أغنيس على قيد الحياة، لو كان لديه الفرصة ربما فعل نفس الشيء من أجلها، ولكنه رغم ذلك، عندما وجد ليان تعض شفتيها من القلق لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يقول لها:

"ليان، إن فعلت هذا الهراء، كنت ستضربينني؟... آسف ولكن عليّ أن أخبرك أن الأمر الذي تنوين فعله هو محض هراء".

قاطعته قائلة:

"لا تبدأ هذا الحديث الملعون".

عبست ليان تحت المطر، كانت تشعر بالانزعاج:

"أنا لست متأكدة، أني سوف أراها".

حتى في هذا اليوم المطير كان السوق مزدحمًا بسلع تهم كل القادمين من رحلات القطار، ملابس الأطفال ذات الألوان المتنوعة معلقة في أكشاك البيع، كراسي للاستلقاء تحت أشعة الشمس، مصابيح منزلية وأباجورات بألوان كرة القدم المبهرجة.

يستغل السوق كل المساحات المتوفرة لعرض السلع، تعلق الملابس تحت أسطح المحلات، وعلى الطاولات القابلة للطي توجد أغراض غريبة ومستعملة، وساعات قديمة والباعة مندسون في الأزقة الضيقة وقد غطا المطر مفروشاتهم وخربها.

نظر شوجي إلى الفتاة الشقراء ذات المنابت السوداء التي تجلس بحذر فوق الحقائب التي وضعتها بعناية فوق قطعة أرض موحلة، وكأنها كل ما تملك.

يظن أن أغنيس سوف تحبها وتكرهها في نفس اللحظة، مدت له ليان يدها بكوب من البلاستيك مليء بالشاي، وعندما أمسكه في يده، وجده باردًا ومغطى بطبقة رقيقة لا يعرف مصدرها، نظر إلى الطبقة الممزوجة باللون البني، وشعر بالضيق لأنه جعلها تنتظر لفترة طويلة، ثم قال:

"اليوم كانت أغنيس ستبلغ من العمر الثانية والخمسين".

ثم أضاف بسرعة:

"ولكنها كانت ستنكر ذلك بكل حزم، بعد أن يتحول وجهها للون الأزرق".

مال شوجي بزجاجة الزنجبيل الغازي في اتجاه ليان تمامًا، كالساقي المتأنق الذي رآه في التلفاز.

"فكرت أن نقوم بحفلة عيد ميلاد صغيرة حتى نشعر بالبهجة".

ابتسم وهو يناولها شطائر الفراولة، فتحت ليان الصندوق بأصابع متهدلة، ثم نظرت في الداخل وشعرت بخيبة أمل لتحطم الشطائر الحمراء وفوضى المربى التي غطت كل الجوانب.

"سحقًا، لقد حملتهم بأقصى عناية ممكنة".

هزت ليان أكتفاها:

"لا تقل ذلك، إنها رائعة على كل حال".

الشطائر التي كانت جميلة منذ ساعة، جالسة بينهم الآن محطمة وطرية، مد شوجي يده وخطف واحدة، حتى يتخلص منها، رفعها إلى فمه، بيد تشبه الجرافة وتناولها في قطمة واحدة، ملأت المربى اللزجة والكريمة الدافئة حلقه إلى حد الاختناق، امتص المسحوق حتى أصبح في معدته، شعر بالارتياح ثم مد يده إلى الصندوق مرة أخرى، صرخت ليان:

"ابتعد، هذه ملكي أيها المتسول الجشع".

ضحك شوجي وهو يشعر بالارتياح، لأنها أصبحت أقل توترًا، طحن آخر قطعة من المربى تبقت في فمه، ملأت شفتيه كأحمر الشفاه بشكل فوضوي، فأصبح وجهه رائعًا من وجهة نظرها.

دفعته ليان بعيدًا وتناولت قطعتين من الشطائر ببطء وأناقة مع

فصل المربى عن الكريمة، أعطت حواف العجين التي لا تحبها إلى شوجي ليتناولها، ثم أغلقت الصندوق على القطعة الأخيرة.

جلسا معًا في نفس الوضع، بينما انهمر المطر ثم توقف ثم انهمر، ثم توقف، وهما يشربان الشاي البارد ومشروب الزنجبيل، وينتظران حدوث شيء ربما لن يحدث على الإطلاق.

قالت ليان:

"هل تعلم أن أخي كالوم، ارتبط بفتاة من سبرينغ بيرن[112] وجعلها تحمل".

مد شوجي يده إلى شعرها الناعم، وتناول خصلة بين أصابعه ومررها بين السبابة والإبهام واعتصرها، كأنه يمسك بملابس قديمة ويفحصها.

"هل هو الأخ الأكبر منك مباشرة".

"لا، إنه أكبر مني، ولكنه ليس الأكبر بشكل مباشر، فهناك ستيفي ومالكي، إنه وسيم الملامح، ولكنه ليس ذكيًّا بما فيه الكفاية، لذلك يجب التعامل معه بحذر لأنه سيحاول أن يرشق قضيبه في أي شيء يتحرك.

"يا له من أمر ساحر".

"نعم، في عيد الفصح الماضي، التقى بهذه الفتاة ليلة السبت في الحفل الراقص، وفقًا لحساباتي، لا بد من أنها حملت منه قبل أن تفتح الكنيسة أبوابها يوم الأحد".

هزت ليان رأسها ساخرة من غباء أخيها.

"جاء والداها إلى منزلنا في الليلة الماضية، لقد وجد اسم العائلة في

112- مدينة داخلية صغيرة في اسكتلندا شمال جلاسكو. (المترجم)

دليل الهاتف الخاص بها، شعرنا جميعًا بالغضب بسبب ما فعله كالوم، بالطبع ليس لأنه جعل الفتاة حاملًا، ولكن لأنه أخبرها باسم عائلته الحقيقي".

أمسكت ليان خصلة من شعرها وبدأت في النظر إلى أطرافه المتقصفة:

"لم يكن بإمكان أخي كالوم أن يتذكر اسم الفتاة الأول، ولا حتى شكلها، كان يجب عليك أن ترى وجهه عندما رأى تلك الفتاة، لم يكن ليتعرف عليها إن مر بجوارها في الشارع ولكنها جعلته أبًا في النهاية، هذا المغفل الغبي".

سمع شوجي صوت المرأة قبل أن تراها ليان، لها ضحكة طفولية لا تتناسب مع امرأة كبيرة في السن، صوتها مجوف ومضطرب، وكأنه مستعار من شخص آخر.

فكر شوجي أن يتجاهلها في البداية، فكر أن يوجه أنظار ليان إلى أسفل النهر بعيدًا عن المرأة الضاحكة، ولكنه عندما أدار نظره في اتجاه صديقته وجدها تقرض جلد إبهامها في قلق بسبب محتويات الحقائب البلاستيكية، لدرجة أنه لم يتبقَّ أي جلد حول أحد أصابعها، فلم يستطع أن يخفي الأمر عليها وتنهد مشيرًا في اتجاه المرأة، فتنهدت ليان هي الأخرى.

لم تكن المرأة قد رأتهما بعد، كانت مشغولة بمد يدها الشاحبة تحت ذراع أحد الرجال ذوي الأكمام القصيرة في الركن المظلم، للرجل فم صغير مغلق بإحكام ولكنه خالٍ من الأسنان، استطاع شوجي أن يعرف ذلك من الضوء المتسرب من السوق المزدحم في الجانب الآخر من الممر، كما استطاع أن يسمعها وهي تحاول إغواءه للحصول على بعض المشروبات،

ولكنه رفض في حسم وبكلمة واحدة: "لا".

ثم شاهده شوجي يستخدم أصابعه الحادة لتحرير نفسه من قبضتها، ثم قفز بعيدًا عنها وتركها تقف وحيدة، راقب شوجي وليان المرأة لفترة، بدت محاصرة في وسط الزقاق لا تعرف إلى أين تذهب.

كانت أكثر تعثرًا من المرة الأخيرة التي رآها فيها شوجي، أصبح شعرها البني المجعد الذي يشبه شعر الفئران مجموعة من الخصل المتشابكة، وتحول لون جلدها إلى خليط من الأحمر والأزرق مع مجموعة من العروق الكبيرة البارزة، وتبقى القليل من آثار الكحل فوق رموشها، ومسحة من طلاء شفاه ذي لون وردي مبهج فوق شفاهها.

شعر شوجي بالراحة لأنها ترتدي جوارب نسائية ضيقة رغم أن أحد الجوارب ممزق، كانت تقف بثبات إلى حد ما، وتضم ركبتيها وكاحليها معًا قدر ما تستطيع، نظرت إليها ليان في الوقت نفسه، استطاع شوجي أن يدرك أنها تستخدم كل قوتها في النزول من فوق السياج والتقدم باتجاهها، مدت ليان يدها وسحبت حقائب التسوق البلاستيكية من الأسفل.

كانت إحدى الحقائب ثقيلة ومملوءة بملابس مطوية، وملابس داخلية نظيفة فقدت بياضها منذ فترة طويلة، واحتوت الحقيبة الأخرى على أطعمة حلوة وطرية مثل الزبادي، ومربى التفاح المهروس.

تذكر شوجي المساهمة الخاصة التي أحضرها، فأخرج من جيبه حقيبة صغيرة تحتوي على علب منبعجة من السمك المحفوظ.

"لقد قلتِ إنها تفضل هذا النوع".

فتحت ليان الحقيبة البلاستيكية فرأت معلبات السمك المحفوظ الصفيحية.

"أشكرك كثيرًا، يا شوجي".

أدارت علب السلمون في يدها متفحصة وهي تقول:

"ولكنها مشردة في الشوارع، من أين تجد الفتاحة لفتح تلك المعلبات؟".

ثم نظرت إليه قائلة:

"آسفة، كان هذا قولًا عديم التهذيب، والامتنان".

أمسكت الحقيبة الصغيرة وأدارتها على هيئة نصف قوس كأنها تضرب الهواء بهراوة، وهي تزفر قائلة:

"اسمع ستجد مويرا العجوز طريقة للتصرف، دائمًا ما تجد طريقة هذه الملعونة".

عبرت ليان الطريق في اتجاه أمها، رأى شوجي المرأة تقترب من الفتاة، وتنظر إليها بأعينها البنية، فلم يستطِع أن يمنع نفسه من الابتسام لرؤية هذا التشابه العائلي، استقبلا بعضهما بعضًا دون عاطفة، توقف المطر لبعض الوقت بينما كانت السيدة كيلي تتبع ليان ومرا جوار محل بادٍ على ضفة نهر كلايد.

قام شوجي بفرش صندوق من الورق المقوى القديم ووضعه على الحافة الحجرية في جانب النهر حتى يجلسا معًا، ثم شاهد البحار يمشط بقاربه الماء بحثًا عن شيء ما.

قالت مويرا كيلي: "أوه، كنت أعرف بعض الفتيات المسكينات اللاتي اصطاد أجسادهن من هناك".

ثم أضافت:

"إنه لم يأخذ منهن شيئًا، ترك لهن كل شيء، سجائرهن الرطبة، خواتم كلاداغ، حتى نقودهن لم يمسسها، أليس هذا عملًا طيبًا؟".

فتحت ليان صندوق الشطائر وقدمت لأمها الشطيرة الأخيرة، أدار شوجي وجهه وكأنه يهرب من أصابع الاتهام، تناولت المرأة الشطيرة الحمراء اللزجة ودستها في فمها المليء بالتجاعيد، ظهرت تجاويف عميقة حول عينيها، كأنها تأكل للمرة الأولى، بدأت بقايا الفراولة والسكر تتلألأ داخل فمها كالزجاج، كان الأمر مقززًا، ثم سألت:

"هل سنجلس هنا طوال اليوم؟".

لم تتفوه بعبارة شكر واحدة.

قالت ليان:

"لم لا نجلس هنا لبعض الوقت؟".

ووضعت صندوق الشطائر في حجر أمها لتسقط فيه البقايا المتناثرة من فمها كما يتم وضع وعاء اللحم تحت فم كلب، تتمايل المرأة من أثر الشراب، ولكنها رفعت آخر قطعة من الشطيرة وغرست لسانها بداخلها لتكشف طبقة الكريمة في الداخل، استطاع أن يرى أن هناك أسنانًا جديدة فقدت في زاوية فمها، أسنانًا كانت موجودة في فصل الخريف، هناك بقايا من الكريمة على أصابعها فلعقتها بطريقة موحية.

بدت ليان سعيدة لرؤيتها تحاول تناول الطعام، ولكن الأمر كان مبتذلًا للغاية بالنسبة إلى شوجي، وبينما كان ينظر إلى جوارب السيدة كيلي الممزقة وسيقانها التي تشبه أرجل الإوز، شعر فجأة أنه يرغب في رؤية أمه مرة أخرى.

جلس شوجي يتأمل نهر كلايد، بينما كانت ليان تقص على أمها المغامرات اليومية التي تقوم بها مع أشقائها الخمسة، ضحكت السيدة كيلي عدة مرات على تصرفات أبنائها العشوائية وقالت:

"أشكر الرب أنني لست موجودة لتنظيف الفوضى التي تخلفونها وراءكم".

كلما قالت هذه العبارات، يحرص شوجي على أن يثبت وجهه في اتجاه النهر، شعر أن السياج الذي يجلس عليه يتمايل عندما أخبرت ليان أمها أنها ستصبح جدة، فهزت كتفها بلامبالاة.

عندما نفدت الحكايات التي تقصها ليان طلبت من أمها الوقوف ثم طلبت من شوجي أن يحمل معطفها القديم، ويرفعه عاليًا في الهواء، وبينما كانت السيدة تتأرجح ناقلة ثقلها من ساق إلى الأخرى، كانت ليان تخلع جواربها المقطوعة ثم سحبت سروالها الداخلي المتسخ من أسفل تنورتها.

لم ترحب المرأة بما يحدث معها، لذلك وجهت نظرها إلى شوجي، ولكن شوجي أبقى نظره مثبتًا على الرصيف المبتل للنهر.

"لا أستطيع أن أفهمك يا بني، يجب عليك أن تعبث في هذا الوقت في أجساد الفتيات وتتناول الشراب حتى تسكر، لا أن تمضي الوقت بصحبة السيدة مويرا العجوز".

تمتم شوجي:

"أنا لست هنا من أجلك، سيدة كيلي".

ثم رفع المعطف إلى الأعلى محاولًا تحويل نظراتها المرتابة عنه.

قالت المرأة وهي لا تشعر بالانزعاج من فعلته:

"حسنًا، يبدو أنك تفعل هذا من أجلها هي، لقد أدركت الآن أيها الماكر الصغير".

لا تزال ليان جالسة على ركبتيها تربط حذاء أمها مرة أخرى.

"شوجي أحضر لك سمك السلمون لا داعي لأن تكوني بهذه الوقاحة".

همهمت السيدة كيلي:

"هيا، أسرعي، إنه يوم صرف الإعانات، سوف ينفق الرجال كل نقودهم، قبل أن أستطيع جعل أحدهم يبتاع لي مشروبًا".

ثم تحركت للخلف مثل طفل غير قادر على الصبر، لم يكن لدى شوجي الكثير ليقوله للسيدة كيلي، ولكنه أراد أن يبقيها لأطول فترة من الوقت لأجل خاطر ليان.

"حسنًا، لم تخبريني ماذا فعلت منذ رأيتك آخر مرة؟".

سخرت منه السيدة كيلي قائلة:

"أوه، لقد كان فصل الربيع رائعًا ببساطة بالنسبة إليّ، أليس كذلك؟".

ثم مطت شفتيها بصبر نافد، وقالت:

"هل أنت فضولي؟ أيها الفتى الصغير؟".

ظن للحظة قصيرة أن هذا كل ما لديها لقوله، ولكنها مطت شفتيها وفتحت فمها مرة أخرى وبدا عليها الشعور بالسعادة، لأنها وجدت من تقص عليه هذه الحكاية.

"حسنًا، لقد اجتمعت لفترة قصيرة مع تومي مرة أخرى" ثم فركت فكها بشكل غريزي تحسست مكان الأسنان المفقودة عندما ذكرت ذلك الرجل المجهول:

"آه، لم يكن سيئًا على كل حال، اصطحبني للساحة الخلفية من محطة السكك الحديدية، ثم أمسك بعصا من الخشب، وتظاهر بأنه أعمى على سبيل المزاح، يتظاهر كذلك بالعمى داخل البار، حتى يبتاع له الرجال الآخرون الشراب".

ضحكت السيدة كيلي:

"اكتشفوا بعد ذلك أنه يخدعهم".

كانت السيدة كيلي تضحك بقوة، استطاع شوجي أن يرى السعادة على وجه ليان وهي ترى أمها تضحك، كان ذلك واضحًا من الطريقة التي تنظر بها إليها ولكن ليان سرعان ما تمالكت نفسها، واستطاعت أن تستعيد دفاعاتها مرة أخرى.

الأمر يشبه محاولتها التعامل مع طفل شقي وعنيد، ولكن الطفل يستطيع خداعها بسحره الطفولي، ولكنها في النهاية تستمع لصوت العقل.

قالت السيدة كيلي، بعد أن لاحظت ما يحدث:

"انظر، إنني صحبة جيدة أليس كذلك؟ ألا تحب قضاء الوقت مع مويرا العجوز؟".

ووضعت يدها على كتف ابنتها.

"أستطيع دائمًا، أن أجعلك تشعر بالسعادة".

لم تقل ليان شيئًا حتى لا تشجع أمها على الاستمرار، أخفض شوجي المعطف وعاد للنظر إلى البحار مجددًا.

تحسست السيدة كيلي فمها المتألم مرة أخرى، وسألت:

"حسنًا، هل يمكنك أن تعطيني بعض المال لشراء زجاجة صغيرة من الدواء".

هز شوجي رأسه:

"لا".

وضعت يدها على أسنانها المفقودة وقالت:

"حسنًا، كان لا بد أن أسأل على كل حال، أليس كذلك؟".

أمسك شوجي ما تبقى من شراب الزنجبيل الغازي وقدمه إليها فنظرت إلى زجاجة المشروب البريء وكأنه يسيئ إليها، ولكنها أخذته على كل حال، يشربان في العادة ذلك المشروب ببطء مقارنة بالسيدة كيلي التي تجرعته كأنها تشعر بالجفاف.

نظر شوجي إلى الخط الملون الذي تركه مسحوق تجميل شفتيها فوق عنق الزجاجة ولم يستطِع أن يتمالك نفسه:

"لما تتركين نفسك على هذه الحالة؟".

توقفت ليان عن دفع الملابس المتسخة داخل الحقيبة البلاستيكية ومالت بظهرها إلى الخلف ونظرت في اتجاه أمها، وكأنها لا ترغب في أن يفوتها ذلك المشهد.

"من قال إن حالي سيئة؟ أنت الذي لا تحب تناول الشراب".

وانتزعت السيدة كيلي المعطف من يد شوجي في عبوس:

"أنت تشعر بالغيرة لأنني أقضي وقتًا ممتعًا، وأساعد اليوم على أن ينقضي بسرعة دون أن أشعر بأجزائه المملة".

أخرجت أنبوب ملمع الشفاه من جيبها.

كان الأنبوب متآكلًا وشبه فارغ، ضغطت عليه بشدة، فصنعت خطوطًا متعرجة فوق شفتيها، حاول شوجي أن يتجاهل الخطوط الوردية المموجة فوق شفتيها وقال:

"إنها تحبك".

صرخت ليان:

"شوجي".

ضحكت السيدة مويرا وهي تصدر صوت زقزقة العصافير:

"أوه، قبلاتي، قبلاتي".

ثم ضربت على صدرها، فأخرجت بعض الغازات الممزوجة برائحة السكر:

"حسنًا، هل تعرف ماذا أعتقد؟ أعتقد، أنه كلما شعرت بالحب تجاه شخص ما، اعتصرك من أجل المزيد، كلما تحركت مشاعرك تجاهه قل اهتمامه بما تريد ولم يفعل إلا ما يريده هو".

ضربت صدرها مرة أخرى ولكنها تجشأت هذه المرة.

انتهت ليان من جمع كل الملابس المتسخة، فوقفت واضعة نفسها كحائل

بين الصبي وأمها، وهي تتنهد من التعب والحزن، استطاع شوجي أن يرى وجنتيها تتوهجان باللون الأحمر وعينيها مملوءتين بالدموع قبل أن تزم شفتيها مرة أخرى، فاستدار ببصره وعاد لمراقبة البحار.

قالت السيدة كيلي:

"سوف تزدحم الحانات سريعًا".

ثم أغلقت معطفها.

"يجب أن تحسنوا استغلال أموالكم".

تراجعت ليان لتنظر إلى ما فعلت بأمها، وقالت:

"أوه، تبدين ساحرة".

تتعامل معها كطفل صغير يرغب في العودة لمنزله واللعب قبل أن ينتهي النهار، ولكنها تدرك أنها لا تستطيع حمل هذه الطفلة طوال الطريق.

"حسنًا مويرا، اذهبي في طريقك، وحاولي أن تعتني بنفسك وسوف أبحث عنك مرة أخرى".

"لو كانت هذه رغبتك".

وجد شوجي نفسه يفرد قبضته ويتقدم في اتجاه السيدة كيلي، ويفتش في معطفها حتى وصل إلى ملابسها الداخلية الرخوة ثم قام بجذبها للداخل لتستقر في موضعها بشكل صحيح.

فتحت السيدة كيلي فمها من الدهشة، ولكنها تركت نفسها بين يديه ليعدل من ثيابها وكأنها لا تمانع من وجود يد غريبة في الجزء الأوسط من جسدها، ثم لعقت أصابعها ونظرت إلى ليان في غمزة وقحة.

"يجب عليك أن تنتبهي لنفسك يا عزيزتي، فهذا الفتى فاسق".

ترك الصبي وسطها، ومد يده ليمسك ذراعها من الأعلى ورج جسدها بقوة، رمشت السيدة كيلي بعينها كدمية صغيرة، ولم تستطِع أن تركز مرة أخرى على معالم وجهه إلا بعد مرور بعض الوقت.

"توقف يا هذا".

انتزعت نفسها من قبضته ودارت حوله في عبوس:

"يا لك من طفل فاسق ومخادع".

تحركت مباشرة بعد هذه العبارة في اتجاه السوق، في اتجاه الحانات المظلمة المنتشرة بطول خط السكك الحديدية.

راقباها وهي تنصرف عبر الزقاق الضيق الطويل تحمل في يدها حقائب التسوق البلاستيكية، وفجأة استدارت عندما وصلت إلى الزاوية وألقت معلبات السلمون في وهن تجاه الفتاة صاحبة الشعر الأحمر ذي المنابت السوداء، ثم رفعت يدها وكأنها تحتفل بإحراز هدف ثم أكملت المسير في طريقها حتى اختفت.

قالت ليان محذرة:

"اسكت، لا تقل شيئًا".

أغلقت سحاب معطفها ذي القلنسوة إلى نهايته، حتى غطى الطرف السفلي من وجهها.

"لن أفعل".

وأبقى نظره موجهًا تجاه الرصيف الرطب حتى يستعيد هدوءه.

"هل تشعرين بتحسن؟".

سخرت ليان منه ثم هزت كتفيها وهي تزيح خصلات شعرها المبتل بعيدًا عن وجهها وربطته بالرباط المطاطي الذي كانت تلفه حول معصمها، شعر بالحزن لرؤية وجهها الجميل يتحول للصلابة والقسوة مرة أخرى.

مسح شوجي الطمي المتراكم على حذائه في أرجل سرواله الخلفية، ثم مد يده وسحب خيطًا يتدلى من كم ليان، كان ملمس يديها باردًا بالنسبة له.

"لقد قضت أمي سنوات رائعة في الماضي، كان الأمر جميلًا".

لم تعلق ليان وأعادت وضع أصبعها الذي يحمل علامات المضغ إلى فمها مرة أخرى، وأبقت نفسها مع الصمت والأفكار، فتركها شوجي لأفكارها.

المطر توقف، شاهد شوجي البحار يربط قاربه في المرفأ ويحاول تقويم ظهره المنحني، ما زال أمامهما ما تبقى من اليوم، شجعه الطقس الرطب على أن يبدأ في الكلام:

"حسنًا، ماذا ترغبين في أن نفعل اليوم؟".

حاول أن يبدو صوته براقًا ومشرقًا، مسحت ليان عينها المبتلة، وقلبت جيوب سروالها الجينز الفارغة إلى الخارج مثل أعلام ترفرف، وهي تنظر إليه قائلة:

"ما رأيك أن نتجول قليلًا بالجوار، هل هذا يناسبك؟".

"أيتها المتنمرة، كنت أتوقع أن تقولي هذا".

ضحكت وكأنها تضحك للمرة الأولى منذ فترة طويلة:

"أنا؟".

ثم أضافت:

"حسنًا، أنا أعلم أنك تريد أن نذهب إلى فيرجينا أركاد[113] حتى تلقي نظرة على الرجال الوسيمين".

هز رأسه في محاولة للإنكار وهو يشعر بالعار، ولكن شيئًا ما في نظراتها دفعه للتوقف، سحب نفسًا عميقًا من بين أسنانه الأمامية.

اقتربت منه ليان ولكمته في ضلوعه بحدة:

"توقف عن هذا، بالإضافة لأني أعتقد أن الفتى الأصهب صاحب الأذن المثقوبة يطيل النظر إليك".

"هل هذا حقيقي؟".

ضحكت وهي تقول:

"أوه، من يعلم؟ يجب أن تضع في اعتبارك أنه زائغ العينين، ولا يمكن تحديد نواياه الحقيقية".

أرجحت ليان الحقيبة التي تحمل ملابس أمها الداخلية المتسخة في الهواء وتظاهرت بإلقائها في أعماق نهر كلايد، ثم أحاطته بذراعها الخالية، وهزت جسده حتى يتوقف عن القلق.

ألقى برأسه على كتفها كمسافر يميل على حافة القارب الذي يستقله، وسارا معًا حتى ابتعدا عن حافة النهر، ألقى شوجي النفايات في صندوق

113- أحد مباني جلاسكو ذات الطابع التراثي والذي تم تحويله لمجموعة من المحلات التجارية وصالات العرض الفني. (المترجم)

القمامة ثم قال:

"هل تعرفين؟ جعلتني قصة أخيك كالوم أرغب في الرقص معك مرة أخرى".

لا تزال ليان تؤرجح حقيبة الملابس الداخلية القذرة في يدها قبل أن تعوي ضاحكة، كانت ضحكتها عالية ونابضة بالحياة، فقفز الرجال الذين يشاهدون شريط الفيديو في رعب.

"أيها الفاسق، هل ترغب في الرقص مرتديًا ذلك الحذاء المدرسي الصغير".

ثم صرخت في مرح:

"لا يمكنك الرقص، يا شوجي بين".

تسمر شوجي في مكانه ثم نزع نفسه من بين أحضانها وسبقها بعدة خطوات، أومأ برأسه إليها ومد يده، ثم قام بدورة كاملة حول حذائه اللامع ذي الكعب العالي.



القائمة القصيرة لجائزة بن/هيمنجواي للرواية الأولى

حققت هذه الرواية الممتعة والقاسية نجاحًا كبيرًا فور صدورها وتصدرت قوائم الجوائز المختلفة وفازت بأكبر جائزة للرواية المكتوبة بالإنجليزية (بوكر) عام 2020.

تقدم رواية "شوجي بين" لنا العالم بأعين طفل، لكنه ليس عالم "أليس" المليء بالعجائب والمغامرات؛ إنها اسكتلندا ثمانينيات القرن العشرين، حيث ينتشر الإحباط والبطالة ومعهما الجريمة والإدمان، يحاول الطفل "شوجي" أن يرعى أمه "أغنيس" التي تركها هجران زوجها في أزمة تقودها إلى نزوات متكررة.

يبدو لافتًا للانتباه التشابه بين اسم عائلة البطل وكلمة "ألم" بالإنجليزية، ويعطينا منظورًا لحياة "شوجي" الذي يتركه إخوته الأكبر سنًا واحد تلو الآخر ليجد نفسه وحيدًا في مواجهة العالم؛ لكنه لا يفقد رغبته في إنقاذ أمه، وكأنها محاولة منه لإنقاذ عالمه المتداعي.

رواية عن الحب والأمل والألم؛ لن تغادرك بسهولة بعد أن تنتهي من قراءتها..

دوجلاس ستيوارت

روائي ومصمم أزياء مولود في مدينة جلاسكو باسكتلندا 1976، يعيش ويعمل حاليًا في نيويورك.

تعثرت محاولاته لنشر روايته الأولى "شوجي بين" حتى نجح أخيرًا في نشرها عام 2020 لتحقق على الفور نجاحًا باهرًا ويستقبلها النقاد والجمهور باهتمام، وتفوز بجائزة "بوكر"، وكذلك بجائزة المكتبات المرموقة "ووترستون"، وتصل للقوائم القصيرة لجوائز "بن/هيمنجواي للرواية الأولى" و"جائزة كيركوس" و"جائزة مركز الأدب الخيالي للعمل الأول" والقائمة القصيرة لجائزة الكتاب الوطني الأمريكية الهامة.

يتم ترجمة الرواية حاليًا إلى 36 لغة، وتتلقى كل يوم مزيدًا من الإشادات حيث قال عنها الأديب النرويجي العالمي "كارل أوفه كناوسجارد": "إنها واحدة من أفضل الروايات التي قرأتها خلال سنوات".




ISBN 978-977-821-192-4